

٢٤٤
١٠٤
١

مكتبة

٦١٧
٢١٢
١

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

المرأة في الحياة العربية عند أعلام الشعر الأموي

عميد كلية الدراسات العليا

أ.م.ع.م.

أمل طاهر محمد نصير

إشراف

الأستاذ الدكتور هاشم ياغي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الدكتوراه
في تخصص اللغة العربية وآدابها من كلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية.

حزيران - ١٩٩٥

قرار لجنة المناقشة:

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٩٩٥/٦/٢٤ وأجيزت

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع

الأستاذ الدكتور هاشم ياغبي

الأستاذ الدكتور محمود السمرة

الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم

الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي

الأستاذ الدكتور فواز طوقان

رئيساً

عضواً

عضواً

عضواً

عضواً

إلى هــدء

إلى ولـدي أحمـد

حباً، وأملأ في مستقبل مشرق

شكر وتقدير

أتقدم بعميق الشكر والتقدير من الأستاذ الدكتور هاشم ياغي على كل ما قدمه لي من نصح وإرشاد في إخراج هذه الرسالة. حفظه الله وأمد في عمره.

ب	قرار لجنة المناقشة
ح	الإهداء
د	شكر وتقدير
هـ	المحتويات
م	الملخص باللغة العربية
٣ - ١	المقدمة
٣٥ - ٤	التمهيد
١٤١ - ٣٧	الفصل الأول المرأة في إطار النوع
	أولاً - المرأة الصفة
	- الصفات الجسدية
	- الصفات المعنوية
	ثانياً - الزينة والتجمل
	- الملابس
	- التحلي
	- الطيب
	- الكحل والخضاب
١٧٨ - ١٤٢	الفصل الثاني المرأة في الإطار الإنساني
	- المرأة الإنسانية في الحجاز
	- المرأة الإنسانية في بوادي الحجاز
	- المرأة الإنسانية في بوادي نجد
	- المرأة الإنسانية في العراق والجزيرة الفراتية
	- المرأة الإنسانية في خراسان
	- المرأة الإنسانية في الشام
٢٣٩ - ١٧٩	الفصل الثالث المرأة في الإطار الأسري
	- المرأة الزوجة
	- المرأة الأم
	- المرأة الأخت
	- المرأة الابنة
٢٨٥ - ٢٤٠	الفصل الرابع المرأة في الإطار الثقافي
	- الجوازي والقبان
	- المرأة الناقدة
	- المرأة الشاعرة

٣١٠ - ٢٨٧	 الفصل الخامس المرأة في الإطار السياسي
	- الغزل السياسي
	- المرأة ذات موقف سياسي
	- المرأة الخارجية
٣١٣ - ٣١٢	 خاتمة
٣٢٨ - ٣١٤	 المصادر والمراجع
٣٢٩	 الملخص بالانجليزية

الملخص

المرأة في الحياة العربية عند أعلام الشعر الأموي

أمل طاهر محمد نصير

إشراف

الأستاذ الدكتور هاشم ياغي

عنوان هذه الدراسة هو: "المرأة في الحياة العربية عند أعلام الشعر الأموي" وقد تنبعت فيها صورة المرأة عند الشعراء البارزين في هذا العصر من خلال دواوينهم الشعرية. وكتب الأدب والأخبار والتاريخ وغيرها. وقد حاولت رسم صورة لها في صفاتها الجمالية وأحوالها، ونشاطاتها الإنسانية، والأسرية والثقافية والسياسية. وقد جاءت الدراسة في تمهيد وخمسة فصول وخاتمة.

أما في التمهيد: فقد عرضت لبيئات الشعر في العصر الأموي من حيث جغرافيتها، ومواردها الاقتصادية، وعناصرها السكانية، والتفاوت بينها في عدد الشعراء وطبيعة الشعر.

وأما في الفصل الأول: الذي كان حول المرأة في الإطار النوعي. فقد عرضت لصفات المرأة الجسدية، ثم المعنوية، ثم عرضت لوسائل الزينة والتجميل التي اتخذتها المرأة الأموية لإبراز جمالها.

وفي الفصل الثاني: الذي كان حول المرأة في الإطار الإنساني؛ درست صورة المرأة الإنسانية في بيئات الشعر الأموي المختلفة؛ مظهرة الفرق بين بيئة وأخرى من حيث الاهتمام بالمرأة بصفاتها الإنسانية.

وفي الفصل الثالث: وهو حول المرأة في الإطار الأسري؛ فقد تنبعت صورة المرأة زوجة، وأماً وأختاً وابنة. مركزة على مظاهر الحب والوثام بينها، وبين أفراد أسرتها، وكذلك مظاهر الجفاء بينها وبينهم.

وفي الفصل الرابع: وهو حول المرأة في الإطار الثقافي. فقد عرضت فيه للجواري والقيان ودورهن في إشاعة جو الانفتاح والصراحة في العلاقات الاجتماعية. ثم دور المرأة الغنية في تطوير فن الغناء. ثم أبرزت جهود المرأة النافذة والشاعرة.

وفي الفصل الخامس: المرأة في الإطار السياسي؛ عرضت فيه للفعل السياسي حيث اتخذ بعض الشعراء من المرأة وسيلة لهجاء خصومهم السياسيين وتجريحهم. وبعدها عرضت لفكر المرأة الأموية السياسي ودفاعها عنه خصوصاً المرأة الخارجية التي شاركت في الحروب جنباً إلى جنب مع الرجل.

وقد انتهيت من هذا كله إلى خاتمة؛ عرضت فيها لأهم نتائج الدراسة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

المرأة في الحياة العربية عند أعلام الشعر الأموي

بدأ اهتمامي بفضايا الأسرة والمرأة منذ مرحلة الماجستير. حيث درست الأسرة في الشعر أثناء فترة من العصر العباسي تنتهي بالقرن الثالث الهجري، وأحببت أن أتابع في مرحلة الدكتوراه ما كنت بدأت في السابق فأثرت أن أدرس موضوعاً قريباً، وأن أبقى في المجال نفسه، ورأيت أن موضوع المرأة عند أعلام الشعر في العصر الأموي من الموضوعات القريبة إلى نفسي لقربه الطبيعي من نفس المرأة. حيث تدرس صورة لبنات جنسها في عصر سابق، ونشاطهن في حقول الحياة المختلفة. وكذلك لقربه من حقل اهتمامي في مجال الدراسات الأدبية الاجتماعية. ولعل العصر الأموي كان مشجعاً لي لأن المرأة سجلت فيه حضوراً بدياً تجلى في شعره على مستويات بيئية مكانية وسلوكيات إنسانية مختلفة كما سيبدو أثناء المعالجة.

أما اختياري أعلام الشعر الأموي (أي الشعراء البارزين في هذا العصر) ليكونوا مجال الدراسة، فقد اعتمدته منهجاً محورياً لكي أتجنب السلبية الكبيرة لدى الشعراء الأمويين جميعاً. إذ قد يكون من الصعب الالتزام بكل الشعر الأموي الذي عالج نواحي المرأة المتعددة في هذا العصر لكثرت وكثرة شعرائه.

إن اهتمامي بأعلام الشعر -على أية حال- لم يحل دون استشارة مجموعة من الشعراء الآخرين الذين لم يكن حظهم من البروز كحظ الأعلام، حين وجدت لديهم ما يفيدني في تصوير المرأة وأحوالها. وعلى هذا يمكن القول: إن ما أظهرته هذه الدراسة من صورة للمرأة يمكن أن يكون صادق التمثيل على الصورة الكلية لها في هذا العصر. وإن أي شعر آخر غاب عن الحضور فيها، قد لا يغير من تلك الصورة فيما لو حضر.

كان لا بد من الوقوف عند شعراء الخوارج سواء أكانوا بارزين أم غير بارزين، وذلك لإظهار صورة المرأة عندهم بشكل خاص، إذ لا بد أن تنعكس أفكارهم الدينية والسياسية على نظرهم للمرأة ومعاملتهم لها من جهة، وأيضاً على سلوك المرأة الملتزمة بهذه الأفكار من جهة أخرى.

ولتحقيق ذلك عمدت إلى دواوين الشعر في هذا العصر وإلى المجموعات الشعرية، وإلى بعض كتب الأدب، والأخبار، والتاريخ، التي توافرت لديّ، فأخذت منها ما يخدم

موضوعي، ثم قمت بتجميع المادة وترتيبها وتبويبها وتوزيعها إلى فصول. ومن هنا جاءت هذه الدراسة في تمهيد وخمسة فصول:

أما التمهيد فقد عرضت فيه لبيئات الشعر الأموي من حيث جغرافيتها واقتصادها وعناصر سكانها، وأشارت إلى تفاوت حركة الشعر وعدد الشعراء في هذه البيئات المختلفة.

ثم كان الفصل الأول بعنوان المرأة في إطار النوع، عرضت فيه لصفات جمال المرأة الجسدية والمعنوية. ثم لوسائل الزينة والتجميل عندها. وقد جاء هذا الفصل أكبر من غيره، وذلك لأنه يعكس واقع الشعر الخاص بالمرأة، فقد كان اهتمام الشعراء بوصف المرأة جسداً وروحاً ووسائل زينة اهتماماً كبيراً.

أما الفصل الثاني، فكان دراسة للمرأة في الإطار الإنساني حيث عرضت فيه لصورة المرأة الإنسانية، وكيف اختلفت من بيئة إلى أخرى معاملة وتعاملاً.

وقد جاء الفصل الثالث عن المرأة في إطار الأسرة حيث حاولت فيه تقديم صورة للمرأة زوجة وأماً وأختاً وبناتاً، موضحة مظاهر الحب والوثام بينها وبين أفراد أسرتها ولم أهمل مظاهر الجفاء بينها وبينهم أيضاً وما عمد إليه بعض الشعراء من مواقف في هذا الإطار.

أما الفصل الرابع، فقد تناول المرأة في الإطار الثقافي فقد عرضت للجواري والقيان لأنهن عنصر جديد بدأ يظهر ويتكاثر ويؤثر في المجتمع. وأوضحت مشاركتهن في تطوير فن الغناء واكتماله، وأثرهن في الشعر وأسلوبه. ثم واكبت فيه المرأة ناقدة ثم شاعرة، وكان لليلى الأخيلية النصيب الأكبر في الفصل، لأنها كانت شاعرة بارزة في هذا العصر.

وأما الفصل الخامس، فقد جاء عن المرأة في الإطار السياسي، فقد عرضت فيه للغزل السياسي حيث اتخذ بعض الشعراء المرأة وسيلة لهجاء خصومهم السياسيين والتعريض بهم. ثم درست فكر المرأة، ومشاركتها في الحياة السياسية والحروب، وخصصت المرأة الخارجية بجزء منه لدورها البارز في هذا المجال.

وقد انتهيت من ذلك كله إلى خاتمة عرضت فيها لأهم نتائج الدراسة.

وأما مصادر الدراسة، فقد كانت دواوين الشعراء البارزين إذ عمدت إلى جميع

الدواوين التي استطعت الحصول عليها سواء أكانت مطبوعة طباعة مستقلة، أم موجودة في الدوريات والمجلات العلمية. فتنبعت صورة المرأة فيها، ثم عمدت بعد ذلك إلى المجموعات الشعرية كشعر الخوارج، وأشعار النساء... وغيرها، وانتقلت أنقب في كتب الأدب والأخبار، وعلى رأسها الأغاني، الذي أفادني إفادة كبيرة، فقد وجدت فيه كثيراً من الشعر وكثيراً من الأخبار التي ألقت ضوءاً مفيداً في موضوعي، وأيضاً كتاب العقد لابن عبد ربه، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والكامل للمبرد، وخزانة الأدب للبغدادي، وكتب التاريخ وعلى رأسها تاريخ الطبري، وتاريخ مدينة دمشق، وخاصة الجزء الذي حوى تراجم النساء، ثم الكتب الخاصة بالنساء وعلى رأسها بلاغات النساء، وأعلام النساء، والدر المنثور، إلى جانب مراجع حديثة مثل المرأة في العصر الجاهلي، والمرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، والفيان والغناء وغيرها.

وقد استشرت كثيراً المعاجم، وعلى رأسها معجم لسان العرب، والمخصص، ومعجم البلدان وبعض الكتب الجغرافية، وبعض الكتب التي تبحث في المجال الاقتصادي والسكاني والاجتماعي وغير ذلك مما برز في هوامش الرسالة وقائمة المصادر والمراجع.

وأخيراً أقدم شكري وتقديري إلى الأستاذ الدكتور هاشم ياغي على كل ما قدمه لي من نصح وإرشاد، جزاه الله خيراً، ومنعه بالصحة والعافية، وكذلك إلى أعضاء لجنة المناقشة الأجلاء، الأستاذ الدكتور محمود السمرة، والأستاذ الدكتور محمود إبراهيم، والأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، والأستاذ الدكتور فواز طوقان على تفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة، وعلى تكبدهم عناء قراءتها، وبيان ملاحظاتهم القيمة عليها، متمنهم الله جميعاً بالصحة والعافية وأمد في أعمارهم.

التمهيد

بيئات الشعر في العصر الأموي

العراق

سميت بذلك من عراق القرية، وهو الخَرْزُ المثنى الذي في أسفلها، أي أنها أسفل أرض العرب. وقال أبو القاسم الزجاجي: قال ابن الأعرابي سميت عراقاً لأنه أسفل عن نجد، ودنا من البحر، وقيل إنما سمي العراق عراقاً لأنه على شاطئ دجلة والفرات مداً حتى يتصل بالبحر على طوله. وقد ذكر ياقوت الحموي أسباباً أخرى وراء هذا الاسم في معجم البلدان^(١) والعراقان الكوفة والبصرة.

كان العراق منذ فجر التاريخ مهداً للحضارات فقد تعاقبت عليه حضارات مختلفة كالبابليين والآشوريين والكلدانين وغيرهم. ولعل وجود نهري دجلة والفرات كان سبباً مهماً وراء قيام هذه الحضارات، وكان كذلك سبباً مهماً وراء مطاعم آخرين كثيرين فيه، فكثرت الهجرات إليه، ومنها هجرة القبائل العربية التي كانت تغد من الجزيرة العربية موطن العرب الأول.

وعلى إثر النزاع الذي كان بين الروم والفرس، ومطامع كل إمبراطورية في ممتلكات الإمبراطورية الأخرى، أقامت كل واحدة منهما إمارة عربية على حدودها لتكون مصداً تصد أي عدوان أو غزو تتعرض له أراضيها، فأقام الروم إمارة الفساسنة على حدود الشام، وأقام الفرس في المقابل إمارة المناذرة في مدينة الحيرة العراقية.

كانت الحيرة تقع على مسافة تبعد نحو ثلاثة أميال من الكوفة^(٢) وكان يسكنها العرب، وجماعة من النبط، وأخرى من اليهود، بالإضافة إلى طائفة من الفرس سادة البلاد الأصليين، وقد حكمها عدد من الأمراء والملوك العرب من قبيلة لخم: منهم، المنذر ابن امرئ القيس المعروف بابن ماء السماء الذي تنصرت الحيرة في زمنه^(٣) ومنهم عمرو ابن المنذر المعروف بعمرو بن هند.

(١) الحموي / ياقوت الحموي / معجم البلدان / دار صادر / بيروت - لبنان / ١٩٥٧ / (العراق).

(٢) المصدر السابق / (الحيرة).

(٣) السيد عبد العزيز سالم / تاريخ العرب قبل الإسلام / مؤسسة شباب الجامعة - الاسكندرية / د.ت / ٢٢٦

- ٥ -

وقد كانت الحياة في الحيرة مزدهرة ازدهاراً كبيراً. وفي مجالات مختلفة منها: العلمية إذ كانت تزخر بمعاهد العلم ومدارسه، والعمرانية إذ كثرت فيها القصور والكنائس. وقد ساعد موقعها الجغرافي بين العراق والشام على اتصال أهلها بغيرهم من الشعوب المجاورة. بسبب قربها من بلاد فارس ومعرفة بعض أبنائها باللغة الفارسية الأمر الذي جعلهم يطلعون على الثقافة الفارسية من علوم وآداب ونظم سياسية وحربية وإدارية. وكان لتتصر ملوك الحيرة، واتباعهم الكنيسة النسطورية التي سيطر عليها السريان دور كبير في معرفة أهلها وإطلاعهم على الثقافة الإغريقية. وذلك بواسطة طرق متعددة: على رأسها الترجمة وكتب الطب والرياضيات والفلسفة الأفلاطونية ومنطق أرسطو.

وقد كانت العلاقة بين الكنيسة النسطورية والثقافة الإغريقية وثيقة: (١) إذ كانت الكنيسة النسطورية تحاول التوفيق بين اللاهوت المسيحي والفلسفة اليونانية. كما كان للحروب بين اللخمين والروم، ووقوع عدد من الأسرى الروم في أيدي أهل الحيرة أثر في الاتصال بالحضارة البيزنطية والإطلاع على ما كان لديهم من علوم وثقافة وفنون. وسبل عيش.

فلما جاء الإسلام، وشرع المسلمون في بناء الكوفة بدأت أحوال الحيرة تتغير: فتراجعت أهميتها، وتناقص عمرانها، بل نقض هذا العمران واستخدمت حجارة قصورها وكنائسها في العمارة الإسلامية، خاصة المساجد فقد ذكر البلاذري عن شيخ من أهل الحيرة: "وجد في فراطيس هدم قصور الحيرة التي كانت لآل المنذر أن المسجد الجامع بالكوفة بني ببعض نقض تلك القصور. وحسبت لأهل الحيرة قيمة ذلك من جزيئهم" (٢) ولكن هذا التراجع في المكانة السياسية والعمرانية ومظاهر الحضارة الأخرى لم يقلل من قيمة الثقافة اللخمية التي انتقلت بعناصرها الفارسية والإغريقية إلى العرب المسلمين. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل فتح المجال للتوسع في الإطلاع على هاتين الحضارتين عن طريق دخول أعداد كبيرة من الفرس في الإسلام، وتعلمهم العربية ونقل كنوز فارس الثقافية إلى اللغة العربية، وكذلك عن طريق دخول بعض النصارى خاصة العرب منهم إلى الإسلام، فنقلوا ما يحفظون من ثقافة الإغريق إلى العربية، فحلت الكوفة والبصرة محل الحيرة، وأخذنا عنها وعن جيرانها حضارات الأمم السابقة فهضمتها واستفادنا منها استفادة كبيرة كان لها دور في نمو الحياة الثقافية والعقلية عند المسلمين فيما بعد.

(١) دي لاسي أولبري / جزيرة العرب قبل البعثة / ترجمة وتعليق موسى علي الغول / ط١ / الأردن - عمان / ١٩٩٠ / ١٤٨ وما بعدها.

(٢) أبو الحسن البلاذري / فتوح البلدان / مراجعة رضوان محمد رضوان / بيروت - لبنان / ١٩٨٣ / ٢٨٤.

وببدء الخلافة الأموية كان دور الحيرة قد انتهى، وبدأ دور الكوفة والبصرة وأصبح العراق بهاتين المدينتين من أكبر بيئات الشعر في العصر الأموي وأكثرها إنتاجاً للشعر والشعراء.

الكوفة: تأسست زمن عمر بن الخطاب لتكون معسكراً للجيوش الإسلامية التي خرجت من الجزيرة العربية لفتح بلاد فارس بعد أن أمر عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص "أن يتخذ للمسلمين دار هجرة وفيروانا".^(١)

اختطت الكوفة في السنة السابعة للهجرة في بيئة تشبه بيئة العرب الأولى التي خرجوا منها على بعد أميال من شمال الحيرة عاصمة اللخمين في ظل الدولة الفارسية في محطة للقوافل التجارية. ومركز لتبادل البضائع بين عمال الإيرانيين ومأموريهم من جهة وكبار أصحاب الإبل -البدو- من الجهة الأخرى بصورة مستمرة^(٢) وقد قام سعد بحشد القبائل حسب أنسابها فوزعها توزيعاً سباعياً قبلياً، واستمرت الكوفة على هذا التوزيع حتى زمن زياد بن أبيه الذي قام حينما تولى إمارة الكوفة بتغيير التقسيم السباعي السابق^(٣) إلى تقسيم رباعي أراد منه -على ما يبدو- تغيير الطبيعة القبلية للكوفة، وذلك للتخفيف من هذه العصبية القبلية التي كانت نشعل في المدينة، والتي كانت تؤدي إلى الثورات المتتالية ضد الحكم الأموي.^(٤)

ولكن هذا المزج الذي قام به زياد لم يخفف من نار القبيلة في المدينة وتسيير حياتها. بل غلبت هذه الروح على نواحي الحياة المختلفة، واشتدت في زمن مروان بن محمد بين اليمن وربيعه.

ومن الأسباب الأخرى التي ساعدت على هذا الوضع أن الكوفة كانت موئلاً للشيعة فكانت منذ البداية تعارض الحكم الأموي. وقد حاربت إلى جانب علي بن أبي طالب في صفين. وكذلك فإن التشكيلة الطبيعية لمجتمع الكوفة وسيطرة العرب خاصة

(١) فتوح البلدان/٢٧٤.

(٢) المسيو لويس ماسينيون/ خطط الكوفة وشرح خريطتها/ ترجمة تقي محمد المصدي/ تحقيق كامل سلمان الجبوري/ ط١ / مطبعة الفري الحديثة/ النجف الأشرف / ١٩٧٩ / ٤٩.

(٣) قام علي بن أبي طالب بإجراء تعديل داخلي على هذه الأسباع قبل زياد فأبقى التقسيم السباعي كما كان، ولكنه غير في توزيع القبائل على هذه الأسباع انظر أبو محمد بن جرير الطبري تاريخ الأمم والملوك/ ط١ / دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان / ١٩٨٨ / أحداث سنة ٣٦هـ. وكذلك خطط الكوفة / ٤٩.

(٤) خطط الكوفة / ٦١-٦٢.

- ٧ -

ولاية بني أمية وأتباعهم على مقدرات المصر الاقتصادية. ومعاملتهم لغيرهم من أفراد الرعية والموالي معاملة قاسية كانت كلها أسباباً مهمة في احتدام العصبية، لذا نجد أهل الكوفة يشاركون في كل الثورات التي قامت ضد بني أمية، فقد كان أهل الكوفة وسادتها يمتعضون من ظلم ولاية بني أمية وخاصة الحجاج ويرون أن الأمويين يستأثرون بالفيء دونهم مع أنهم هم أصحابه الشرعيون.^(١)

البصرة: اختلفت الروايات في تسميتها، وفي سنة نصيرها، والأرجح أنها مصرت في السنة الرابعة عشرة للهجرة عقب معركة القادسية على يد عتبة بن غزوان بأمر من عمر ابن الخطاب الذي كان خليفة المسلمين آنذاك. ويرى ياقوت أنها كانت قبل قدوم المسلمين إليها مسلحة للأعاجم.^(٢)

ويبدو أن المنطقة كانت معروفة للعرب قبل ذلك بحكم علاقاتهم التجارية إذ اشتهر ميناء "الأبلّة" هناك فعرفوا نوعاً من العلاقة التجارية بينهم وبين هذه المنطقة التي كانت تسمى بأرض الهند.^(٣)

خططت البصرة على مقربة من مصب نهر دجلة بين إقليم البطائح وشاطئ خليج العرب، وكان هدف عمر بن الخطاب أن تكون معسكراً للجيش، وقد خططت تخطيطاً قديماً، كما كان الوضع في الكوفة، فقد كان لكل قبيلة خطتها وقد كان لهذا التخطيط دور في احتدام العصبية القبلية هناك مما أثر في نواحي الحياة المختلفة خاصة الأدبية منها، فقد ظلت المدينة تعيش معيشة "قبلية"، ومن هنا نجد أن الشعر فيها شعر قبلي أيضاً يهتم بأغراض الفخر والمدح والهجاء، ويقدمها على غيرها من الأغراض الشعرية الأخرى. فقد أصبح الشاعر يفتخر بقبيلته، ويعدد أمجادها، ويهجو من عاداها من القبائل الأخرى، وتوقف هؤلاء الشعراء عند الأخلاف المختلفة، كحلف تميم وقيس، وحلف الأزدي وربيع، ولم يكتفوا بذلك بل فاخروا بأبائهم القديمة في الجاهلية وأثاروا ما كان بين القبائل من أحقاد دفين، تمثل ذلك بشكل واضح في شعر النخائص.^(٤)

(١) شوقي ضيف/ تاريخ الأدب العرب/ العصر الإسلامي/ ط ٤/ دار المعارف - مصر / ١٩٦٣ / ١٥٦.

(٢) معجم البلدان (بصرة).

(٣) د. أحمد كمال زكي، الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة/ دار المعارف - مصر /

١٩٧١ / إذ شرح بإسهاب معنى كلمة البصرة/ وسبب التسمية / ١٧ وما بعدها.

(٤) العصر الإسلامي / ١٦١.

بعد العراق بمدينتيه الكوفة والبصرة أغنى مراكز الدولة الأموية وذلك بحكم ما كان يدخل بيت ماله من مدخولات، بالإضافة إلى طبيعته الزراعية ومركزه التجاري وعلى رأس هذه المدخولات:

الفيء: وهو ما أفاءه الله على الفاتحين وكان يقسم هذا الفيء، وفق أحكام القرآن الكريم إلى خمسة أقسام: خمس لبيت المال، وأربعة أخماس توزع على المقاتلين "واعلموا أنما غنمتم من شيء، فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل".^(١) ولا شك أن أموالاً ضخمة قد حازها بعض العراقيين من جراء الفتوحات في المنطقة الشرفية للدولة الإسلامية، وقضائهم على الدولة الفارسية التي كانت تعد بحق من أغنى بقاء الأرض في ذلك الوقت. وقد استمر تدفق هذه الأموال زمن الخلفاء الأمويين بحكم استمرار مشاركة العراقيين في فتوحات جديدة خاصة في منطقة الشرق.

الخراج: وهو مقدار من المال يدفعه أصحاب الأراضي المفتوحة لبيت المال. والأصل في الأرض المفتوحة عبثة أن توزع على الفاتحين، وخمسها يذهب لبيت المال باعتبارها من الفيء. ومنها أغلب أرض السواد. ولكن عمر بن الخطاب ارتأى أن يبقياها بأيدي أصحابها، واكتفى بالخراج. "فتكون فينا للمسلمين للمقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم".^(٢) ولا شك أن مبالغ طائلة كانت تجبي من خراج العراق. فقد بلغت مئة مليون درهم زمن عمر بن الخطاب ثم ارتفعت إلى أن وصلت في بعض الأحيان مئة وعشرين مليوناً.^(٣) هذا بالإضافة إلى خراج الصوافي وهي كل أرض لكسرى أو لأهله. ولمن قرّ عن أرضه أو قتل في المعركة، وكل دير وبيوت النيران أو السكك، وكانت أراضي واسعة كثيرة الإنتاج، وذكر الصولي أن واردات الصوافي، وهدايا النيروز، والمهرجان كانت تبلغ زمن معاوية خمسين ألف ألف درهم وفي زمن ابن الزبير عشرين ألف ألف.^(٤)

وقد قام معاوية فيما بعد بحيازة هذه الأموال لنفسه، وآل بيته، مما أوقع خسارة كبيرة لبيت المال، وأثار بغض رعيته لما رأوه من أخذ أموالهم والاستئثار بها دونهم.^(٥)

(١) سورة الأنفال / آية / ٤١.

(٢) القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم / الخراج / ط٤ / المطبعة السلفية - القاهرة / ١٣٩٢هـ / ٤٥-٤٦.

(٣) د. صالح أحمد العلي / التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري / مطبعة المعارف - بغداد / ١٩٥٣ / ١١٥.

(٤) الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى الصولي / أدب الكاتب / دار الكتب العلمية / بيروت - لبنان / ١٣٤١هـ / ٢١٩.

(٥) المصدر السابق / ٢١٩.

الجزية: وهي مقدار من المال يدفعه الذمي الذي يرغب بالبقاء على دينه لببت المال، وهي تختلف من شخص إلى آخر، فقد وضع عمر على الرأس ثمانية وأربعين أو أربعة وعشرين أو اثني عشر درهماً حسب قدرتهم المادية. قال: "لا يوضع عليهم أكثر من ذلك، ومن عجز خفف عنه"^(١) واستمر تحصيل هذه الأموال من الذميين في العصر الأموي وكانت تشكل جزءاً كبيراً من إيرادات بيت المال لهذا العصر.

عشور المزروعات: وهي ضريبة كانت تجبى من مزروعات المسلمين، وهي غير محددة تحديداً قطعياً لكنها كانت تزداد مع ازدياد امتلاك العرب للأراضي الزراعية وزراعتها. ومن المعروف أن هذه الزيادة كانت مطردة إلى نهايات العصر الأموي.

عشور التجارة: وهي ضريبة يؤديها التاجر إذا سافر من بلد إلى آخر بفصد التجارة، وهي ضريبة معروفة منذ الجاهلية. وأقرها الإسلام فيما بعد، ومقدارها مختلف في قيمته، وذكرت المصادر أن على المسلمين ربع العشر، وعلى أهل الذمة نصف العشر، وعلى أهل الحرب العشر، وكانت تدفع على المتاع والرقيق والأموال، وكل شيء يبقى في أيدي الناس.^(٢) هذا بالإضافة إلى ضرائب كثيرة كهدايا النيروز والمهرجان وأثمان الصحف، وأجور الفيوج، وأجور البيوت ودراهم النكاح.^(٣)

كان جزء كبير من هذا المال ينفق على تجهيز الحملات، وعلى الجنود، وعلى حفر الأنهار وإنشاء السدود والطرق. وقسم يدفع منه العطاء للمهاجرين والأنصار والمسلمين الأول الذين كانوا عماد الإسلام، وما يفيض عن حاجات المصر كان يرسل في بداية الأمر في زمن الخلفاء الراشدين إلى الحجاز، الذي كان أغلب مدخولاته تأتي من العراق. وفيما بعد أي في زمن الأمويين، أصبح يحمل إلى معاوية. ومن جاء بعده في الشام، بالإضافة إلى استئثار الولاة والحكام الأمويين والأشراف العرب بنصيب كبير من هذه الأموال والإقطاعات، مما ترك أثراً سيئاً على أهل العراق أدت بهم إلى كره الأمويين والثورة عليهم.

(١) يحيى بن آدم القرشي/ الخراج/ صححه وشرحه ووضع فهارسه القاضي الشيخ أحمد محمد شاكر/

ط٢ / ١٣٨٤ / ٢٣.

(٢) انظر في ذلك بحثاً للدكتور محمد خريسات "عشور التجارة في الجاهلية وصدر الإسلام حتى نهاية

القرن الأول الهجري". مجلة دراسات/ مجلد ١٥ / عدد ٧. سنة ١٩٨٨ / ١٩.

(٣) انظر كتاب عمر بن العزيز إلى والي الكوفة/ الطبري، أحداث سنة ١٠١ / الفيوج؛ الفيح؛ رسول

السلطان على رحله، فارسي معرب، وقيل هو الذي يسعى بالكتب، والجمع فيوج، لسان العرب "فيح".

هذا هو الوضع العام لبית المال في العراق ولكن لم تكن الأمور تسير على وتيرة واحدة دائماً، فقد تحدث أمور تخالف هذا الوضع من ذلك استثنائاً بعض ولاه بني أمية بخراج العراق وحيازته لأنفسهم. ومن ذلك إعادة فرض الجزية على من أسلم من أهل الذمة، كما حدث في زمن الحجاج إلى غير ذلك من الأمور التي كانت تثير العراقيين ضد حكامهم وولايتهم، فيثورون ضدهم وينتهزون الفرص التي يمكن أن تخلصهم من الحكم الأموي. (١)

عند النظر في عناصر سكان العراق وفئاته الاجتماعية، نرى أن هذه العناصر تتكون في الدرجة الأولى من العرب المسلمين الذين قاموا بالفتوحات، أو الذين جاءوا إليه بعد ذلك، وهم من قبائل مختلفة: منها متحضرة كقبائل الحجاز، وعلى رأسها فريش، ومنها شديدة البداوة من نميم وطيء، وقسم ثالث نصف متحضرة من أسد وربيعه وبكر وعبد القيس. ومنهم نصاري كان بعضهم من تغلب والنمر وإباد، وبعضهم الآخر كان من نجران. وهؤلاء كانوا قد توطنوا العراق في وقت مبكر منذ تمصير البصرة والكوفة. (٢)

العنصر الثاني هو الفرس وأكثرهم استسلموا للعرب، ودخلوا الإسلام، وعلى رأس هؤلاء "الأساورة" في البصرة و"حمراء ديلم" في الكوفة، فأما الأساورة، فقد كانوا قوة ساسانية، تحارب في الأهواز عقدوا اتفاقية مع أبي موسى الأشعري وافقوا بموجبها على المحاربة إلى جانب المسلمين وقد شاركوا فيما بعد في فتح خراسان. (٣) وأما حمراء ديلم فقد سمو بذلك نسبة إلى قائدهم ديلم فهم عنصر وافد إلى الكوفة، وكان بعضهم من بقايا الجيوش الساسانية التي انضمت إلى العرب، وقد ساهموا في فتح المدائن مع سعد بن أبي وقاص وغيرها. (٤) وبعضهم الآخر كان من أسرى الحروب، وسبأها الذين كانوا غنائم للفاتحين توزع بينهم. فكان أن أصبحت هذه العناصر تغزو البيت العربي، وأدى إلى ظهور جيل جديد من المولدين.

(١) انظر الطبري ثورة ابن الأشعث أحداث سنة ٨٢.

(٢) انظر تفاصيل ذلك في خطط الكوفة / ٥٣.

(٣) فتوح البلدان / ٣٦٦.

(٤) المصدر السابق / ٢٧٩.

والعنصر الثالث هم النبط: وكان هؤلاء من العنصر الوطني في العراق وبعرفهم المسعودي بأنهم السريان الذين كانوا يسكنون العراق والجزيرة والشام^(١) في حين يرى د. جواد علي أنهم بقايا الشعوب القديمة التي سكنت بلاد الشام والعراق مترسبات الإرميين (الآراميين) في هاتين المنطقتين^(٢) وكانوا يعملون في الزراعة، ويدفعون الجزية، مقابل المنعة، وحراسة أراضيهم، حتى يتمكنوا من زراعتها ورعايتها.

ومن العناصر الأخرى السريان: الذين كانوا يسكنون في حوض دجلة الأعلى وفي الجنوب حول الحيرة، وفي الحيرة نفسها^(٣) بالإضافة إلى مجموعات من الهنود، والأتراك، والاصفهان، والأحباش، والزنج، والزط الذين وصلوا العراق عن طريق الأسر أو التجارة.

٤٥٧٩٠٠

وقد أثر هذا التوزيع السكاني في تشكيل الفئات الاجتماعية حيث نستطيع تقسيم المجتمع إلى فئتين رئيسيتين: الأولى العرب الأرستقراطيون، والثانية عامة الناس. فأنما الأولى فهي تتكون من الحكام المعيّنين من قبل الخليفة وقادة الفئوح وذوي الإقطاعيات والتجار الذين يملكون رؤوس الأموال الكبيرة ومنهم صحابة وتابعون. وكانت هذه الفئة متميزة دينياً واقتصادياً واجتماعياً. فمن شدة غنى هذه الفئة قيل فيهم: إنهم أصبحوا يهبلون الذهب والفضة، ومن شدة تفردهم تناسوا مبدأ المساواة الذي جاء به الإسلام. ساعدهم على هذا الغنى: العطاء المنتظم الذي كان يأتيهم من بيت المال، وما حصلوا عليه من غنائم الغنوحات، فقد حاز هؤلاء كنوز الدولة الفارسية أغنى دولة في العالم القديم.

وزاد في ثراء هذه الطبقة احتجان الأمراء لمبالغ من المال من بيت المال أثناء إمارتهم لجهة من جهات الدولة فقد ذكر أن عبد الرحمن بن زياد احتجن إبان إمارته على خراسان مبلغاً من المال كان يكفي على حد ادعائه أن يعيش مئة سنة وينفق كل

(١) المسعودي / علي بن الحسين / التنبيه والإشراف / صححه وراجعته / إسماعيل الصاوي / المكتبة التاريخية / ١٥ / ١٩٣٨.

(٢) جواد علي / المصطلح في تاريخ العرب / ط ٢ / دار العلم للملايين - بيروت / مكتبة النهضة - بغداد / ١٣ - ٣٩ / ١٩٧٨.

(٣) انظر تفاصيل ذلك في كتاب د. يوسف خليل / حياة الشعر في الكوفة / دار الكتاب العربي / القاهرة / ١٥٥ / ١٩٦٨.

يوم ألف درهم.^(١) بل إن بعض هؤلاء الأمراء كان يقدر على ما يستكثره الخليفة فقد انبثقت البثوق أيام الحجاج فكتب إلى الوليد بن عبد الملك يعلمه: أنه قدر لسدها ثلاثة آلاف ألف درهم، فاستكثرها الوليد، فقال له مسلمة بن عبد الملك: أنا أنفق عليها على أن تقطعني الأرض المنخفضة، التي يبقى فيها الماء^(٢) وساهم في غنى هذه الطبقة أيضاً الاقطاعات الكبيرة التي اقتطعت لهم في زمن الخلفاء الراشدين خاصة عثمان بن عفان الذي توسع فيها كثيراً هو ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية، فقد أقطع عمر بن الخطاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكوفة خططاً مستقلة بنوا فيها دوراً كبيرة^(٣) وفي الجنوب من نهر الأبله يمتد شط عثمان، وهو أرض واسعة باعها عثمان بن عفان لعثمان بن أبي العاص الثقفي^(٤) وبين شط عثمان والأبله نزع كثيرة تقوم عليها إقطاعات طينية شديدة الاتساع لعدد من الزعماء العرب.^(٥)

كما أننا نجد إقطاعات خاصة بنساء هذه الطبقة مما بصور مكانة المرأة في هذه الطبقة التي أهلتها لنوع من الاستقلال الاقتصادي.^(٦) هذا بالإضافة إلى القطائع التي اشتراها أصحابها بمالهم الخاص، وذلك عندما سمح عثمان بن عفان لمن يرغب بشراء ما أفاءه الله على الفاتحين في العراق حتى يأتي من شهد من أهل العراق الفتوح فيقيم معه في بلاده^(٧) وبالتالي فقد قام أغنياء الحجاز بشراء القطائع الكبيرة في العراق منهم طلحة بن عبيد الله، ومروان بن الحكم، والأشعث بن قيس فظهرت فئة تمتاز بالغنى والمكانة الاجتماعية معاً. وقد شعر هؤلاء العرب بالتفرد والتميز عن الشعوب الأخرى، نتيجة لانحصاراتهم الكبيرة، وقضائهم على إمبراطورني الفرس والروم وإخضاعهم الشعوب الأخرى لسيطرتهم.

(١) اليعقوبي/ أحمد بن أبي يعقوب/ تاريخ اليعقوبي/ تحقيق صادق آل بحر العلوم/ ط٤/ منشورات الحيدرية/ النجف/ ١٩٧٤م/ ج٢/ ٢٢٤.

(٢) فتوح البلدان/ ٢٩٢.

(٣) انظر في ذلك بحثاً للدكتور محمد خريسات بعنوان "القطائع في صدر الاسلام"/ دراسات تاريخية/ ٢٧-٢٨/ أيلول كانون أول/ ١٩٨٧/ ٧٦ وما بعدها. وكذلك بحثاً آخر له بعنوان/ القطائع في العصر الأموي/ مجلة دراسات/ المجلد السادس عشر/ العدد ٢/ ١٩٨٩/ ٢٠.

(٤) فتوح البلدان/ ٣٥٦.

(٥) المصدر السابق/ ٣٥٦.

(٦) نفسه/ ٣٥٤-٣٥٧-٣٦٢.

(٧) حياة الشعر في الكوفة/ ١٦٢.

-١٣-

وأما الطبقة الثانية: فعامة الناس وتتألف من الطبقة الشعبية من العرب ومن أفراد القبائل وعناصر الجيوش الفاتحة والعرب النصاري وأهل الذمة والموالي. وهؤلاء جميعاً لم يكن حظهم من الغنى والتميز ما كان للطبقة الأولى. بل كان غناهم يتراوح من شخص إلى آخر. فأما العرب. فقد كانوا يشكلون جيوش الفتح. وكانوا يصلون إلى درجة لا بأس بها من الغنى. وذلك لما يحصلون عليه من أموال الغنيء أو أموال العطاء الذي كانت الدولة تفرضه لهم لقاء محاربتهم تحت لوائها متى طلب إليهم ذلك. وأما العرب النصاري. وأهل الذمة. فلم يكونوا يشاركون في الفتح والجهاد وإنما كانوا مواطنين عاديين يقومون ببعض المهن كالزراعة والتجارة والصناعة. وأما الموالى. وهم المسلمون من غير العرب. فكانت تعاليم الإسلام تقضي بأن يساوى بين المولى ومولاه. لا فرق بينهما إلا بالتقوى. وقد ظهرت معالم هذه المساواة منذ بدايات الإسلام. إذ ساوى الرسول عليه السلام بين الموالى والعرب مساواة تامة. ولعمر بن الخطاب موافق عظمى في هذا المجال^(١)

وقد كان هؤلاء الموالى يشكلون نسبة كبيرة من السكان.^(٢) وكانوا يعملون في مجالات الحياة المختلفة في الزراعة والتجارة والصناعة. وفي خدمة البيوت العربية. وحفظ الأمن. وحراسة السجون. وجمع أموال الصدقة. كما عملوا في الحياة الثقافية وبمجالاتها المختلفة. ووصلوا إلى مراتب متقدمة. ونافسوا العرب في ذلك حتى بدأ العرب يخشون من كثرتهم وتسلطهم على نواحي الحياة المختلفة.^(٣)

ورغم ما ذكرت آنفاً من حث الإسلام على المساواة بين العرب والموالى إلا أن الملاحظ على موالى العراق بشكل خاص أنهم عوملوا معاملة بعيدة عن روح الإسلام في كثير من الأحيان. فقد حرم بعضهم من العطاء. وأما الذين أشرکوا فيه. فقد كان عطاؤهم غير مساو لعطاء العربي.^(٤) فقد كان العربي يرى نفسه أحق بالعطاء لأنه هو الذي يقوم بالفنوحات. وأن هؤلاء الموالى ما هم إلا فيء أفاءه الله على العرب

(١) انظر فتوح البلدان/١٢١/٤٤٣.

(٢) جمال جودة/الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالى في صدر الاسلام/ دار البشير للنشر/ عمان-

الأردن/١٩٨٩م/١٦٢.

(٣) ابن عبد ربه الأندلسي/ العقد/ تحقيق محمد سعيد العريان/ دار الفكر/ بيروت/ج٣/٢٢٦.

(٤) فتوح البلدان/ ٤٤١-٤٤٣/ وانظر كذلك التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية/٦٦.

المسلمين. فقد قال أشراف الكوفة للمختار الثقفي عندما ضم إليه الموالي والعبيد في حركته وأشركهم في العطاء: "عمدت إلى موالينا، وهم فيء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعاً فلم نرضَ لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا". (١)

وهذا الكلام باطل من أساسه، وذلك لأن هؤلاء الموالي قد دخلوا في الإسلام، وساووا العرب في جوهر الأمر. وثانياً لأن بعضهم، بل كثيراً منهم شارك في الفتوحات، وفي أعمال الجندية الأخرى جنباً إلى جنب مع العرب، لأنهم هم مسلمون أيضاً. زد على ذلك فرض الجزية على بعض الموالي بعدما أسلموا وذلك بسبب نقص موارد بيت المال، وربما كان ذلك نوعاً من العقاب لهم لاشتراكهم في الثورات التي حدثت ضد نظام الحكم آنذاك، ومن الناحية الاجتماعية فقد عومل بعضهم معاملة فيها ازدراء، وكبر من قبل بعض العرب، إذ نظر إليهم على أنهم جنس لا يمتاز كثيراً عن العبيد، ولم يكن هؤلاء بملكون أمر أنفسهم حتى إن الرجل منهم لم يكن يملك تزويج ابنته أو أخته دون مشورة مولاه، بل إن الخاطب كان يخطب المرأة من مولاها العربي، فإن رضي تم الزواج، وإلا رد، وقد يقوم السيد العربي بفسخ النكاح إن لم يكن راضياً عنه. (٢) كما حرم عليهم الزواج من النساء العربيات، وإن هم فعلوا ذلك فإنهم قد يضطرون إلى الطلاق مع المهانة والاذلال. (٣) ومع أن العرب قد رفضوا تزويج بناتهم للموالي خوفاً على نقاء الجنس العربي، إلا أن رجالهم نافضوا هذا الأمر عندما سمحوا لأنفسهم بالزواج من الأجنبية، والتسري بهن، مما أدى إلى ظهور جيل من العرب يسمى بالهجناء وهؤلاء كان مركزهم الاجتماعي أقل من أولاد الحراثر. قال الفرزدق يمدح عباد بن عباد بن علقمة ويهجو ابن أبي حاضرة:

صَلَّتِ الْجَبِينِ كَرِيمَ الْعُودِ مُنْتَجِبٌ لَمْ يَدْرِ مَا طَعَمَ نُدْبِيٍّ أُمٌّ أَوْلَادِ (٤)

(١) الطبري أحداث سنة "٦٦" / ج ٣ / ٤٥٤.

(٢) العقد / ج ٣ / ٣٢٦.

(٣) انظر خير محمد بن بشير الخارجي في طلبه إلى والي المدينة التفريق بين مولى وزوجته العربية، وضربه مثلي سوط، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه، وما قاله الخارجي من شعر في هذه المناسبة / أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني / دار الكتب - القاهرة / ١٩٦٣ / ج ١٦ / ١٠ و ٧٤ - ٧٦. وانظر ابن قتيبة / عيون الأخبار / دار الكتب، القاهرة / ١٩٦٣ / مج ٤ / ١٦.

(٤) الفرزدق / ديوانه / شرح وضبط وتقديم علي فاعور / دار الكتب العلمية / بيروت / ١٩٨٧ / ١٥٣.

بل إن هؤلاء لم يكونوا مساوين لأبناء الحرائر في أمور الوراثة والعقل ولم يسمح لهم بتولي منصب الخلافة في الدولة الأموية. (١)

وانطلاقاً من هذا لم ينظر المجتمع إلى أمهات الأولاد (الإماء) نظره إلى أمهات البنين (الحرائر). كان للغرزدق بنت من جارية زنجية يقال لها مكبة وكان يكنى بها زماناً، فوفد إلى سليمان بن عبد الملك فكتبوا بشكون شراسة خلقها فقال:

فَلَا تَعْدُوا أُمَّهَا مِنْ نَسَائِكُمْ فَإِنْ ابْنُ لَيْلَى وَالِدُ لَنْ بِشِبْنِهَا (٢)

كما أن العرب استأثروا بالمناصب السياسية والدينية الهامة، ولم يسمحوا للموالي اعتلاءها، خاصة تلك المناصب التي تكسب شاغلها بعض النفوذ والسلطة كمنصب القاضي. (٣) فكانت العرب ترى أنه لا يصلح للقضاء إلا عربي. ومثل ذلك قيادة الجيوش، وغيرها من المناصب الهامة، وبالتالي اقتصر عملهم على الزراعة والصناعة والحرف اليدوية، وهي مهن كان العربي بأنف من العمل بها. ومن المعلوم أن هذا الوضع بالنسبة للموالي كان ظاهراً في العراق دون غيره من مراكز الحكم الأموي، ويعود ذلك إلى إبقاء القبائل العرفاقية على النظرة القبلية إلى نظام الولاء الذي كان سائداً في العصر الجاهلي. وكذلك إلى بروز العصبية العربية التي كانت تنظر نظرة استعلاء للأجناس غير العربية. ساعد على هذا كله موقف الدولة من موالي العراق ممثلة بولاتها وعلى رأسهم الحجاج الذي عاملهم بقسوة بسبب اشتراكهم في الثورات التي كانت ضد الحكم الأموي، مثل ثورة ابن الأشعث التي قامت على أكتاف الموالي بشكل خاص. ولكن علينا أن لا نبالغ في تصوير ازدراء العرب للموالي، فإن هناك حالات كثيرة تصور العلاقة الطيبة بين هؤلاء الموالي وأسيادهم العرب لأن الموالي لم يكونوا فئة واحدة. وعلى هذا فإن النظرة إليهم لم تكن واحدة أيضاً، بل كانت تتأثر بأصولهم ومهنتهم. فكان منهم الأشراف وكتاب الدواوين والفقهاء، وهؤلاء كانت لهم منزلة اجتماعية. ومنهم أصحاب رؤوس الأموال، وهم قوة اقتصادية كالدهاقين والتجار. بينما نرى أن عامة أهل الحرف في الصنائع والمهن وعامة الفلاحين في القرى من الموالي وأهل الذمة. وبالتالي فإن النظرة الاستعلائية كانت موجهة إلى الفلاحين والحرفيين أما بالنسبة للأشراف والكتاب والفقهاء والتجار فكانت تختلف.

(١) الأغاني / ج ٧ / ٧١ / والمقد / ج ٧ / ١٢٣.

(٢) ديوانه / ٦٣٨.

(٣) الميرد / أبو العباس، محمد بن زيد / الكامل / عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته / دار النهضة / مصر / د.ت / ج ٩٦ / ٢.

أما العبيد وهم أسرى الحروب التي خاضها العرب المسلمون فكان يجوز للمسلمين قتلهم أو استرقاقهم أو مغادرتهم أو الثمن عليهم بإطلاقهم أحراراً.^(١) ويبدو أن العرب لم يسترقوا إلا حاميات المدن التي قاومت العرب مقاومة شديدة أو التي ثارت بعد استسلامها أو التي فتحت بحدّ السيف.^(٢) وكان خمس هؤلاء من حق الدولة. أما الأخماس الأربعة الأخرى فإنها توزع بالتساوي على المقاتلين.

وقد استخدم هؤلاء في بعض الأعمال العسكرية والمدنية، إذ شاركوا في القتال إلى جانب الجيوش الإسلامية، وبعضهم كان يعمل في الزراعة أو التجارة أو الصناعة أو خدمة البيوت. وقد كانت الهوة بينهم وبين أسبادهم من العرب واسعة في بداية الأمر، ولكن ما لبثت أن خفت مع الأيام باعتناق كثير منهم الإسلام، وتعلمهم العربية. بالإضافة إلى العلاقة الطيبة التي كانت تربط كثيراً منهم بأسبادهم.

الجزيرة الفراتية

تقع الجزيرة الفراتية بين نهري دجلة والفرات مجاورة للشام، واختلفت في تبعيتها منذ القديم فمنهم من يضمها إلى العراق. ومنهم من يضمها إلى الشام وما زال هذا الاختلاف إلى وقتنا الحاضر.^(٣) وكانت تسمى في القديم جزيرة أفرور.^(٤) وهي تمتد من منابع نهري دجلة والفرات حتى جنوب الموصل، وقسمها بعضهم إلى ثلاث مقاطعات. هي: ديار بكر، وديار مضر، وديار ربيعة، نسبة إلى ثلاث قبائل عربية كبيرة، أو إلى ثلاث مجموعات من قبائل عرفت بهذه الأسماء كانت قد هاجرت إليها في زمن الدولة الساسانية التي امتد حكمها من (٢٢٦م-٦٢٨م). والجزيرة ذات مناخ معتدل، كثيرة الأمطار، صحيفة الهواء جيدة الربيع والنبوء واسعة الخيرات، لتوافر مصادر المياه من أنهار وأمطار.^(٥)

(١) ابن سلام/ أبو عبد القاسم/ الأموال/ ط١/ مؤسسة ناصر للثقافة/ بيروت- لبنان/ ١٩٨١م/ ٦٠-٦١.

(٢) مثل الأهواز وفارس وكرمان سجستان وخراسان وكابل/ انظر فتوح البلدان الصفحات ٣٢٧، ٣٧٨، ٣٨٥، ٣٩٤.

(٣) انظر تفاصيل ذلك في كتاب د. عبد الرحمن عطية/ تطور الشعر في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث الهجريين/ دار الأوزاعي/ ١٩٨٧/ ص ١٧ وما بعدها.

(٤) معجم البلدان/ (أفرور)

(٥) سامي إسكندر داود/ الجزيرة الفراتية بين الماضي والحاضر/ ط١/ دمشق/ ١٩٩٥/ ٢٧.

وقد تميزت الجزيرة إضافة إلى ذلك بموقع جغرافي هام، إذ يمر فيها طريق التجارة القديم بين الشرق والغرب، مما جعلها تلعب دوراً تجارياً مهماً في عمليات التبادل التجاري، حيث كان يجري نقل مختلف البضائع عبر المنطقة. (١)

أما عن الواردات التي كانت ترد بيت المال فهي مشابهة لتلك التي كانت في العراق والشام. منها الخراج وقد بلغ في بعض أوقاته خمسة وخمسين ألف ألف درهم. (٢) والجزية التي كانت تؤخذ من أهل الذمة من غير العرب. أما العرب النصارى من قبيلة تغلب وغيرها، فقد عوملوا معاملة خاصة، إذ أعفوا من الجزية، واكتفي منهم بدفع مثل ضعف صدقة المسلم (٣)، وذلك تمييزاً لهم عن غيرهم كونهم عرباً. ولأنهم رفضوا دفع الجزية كغيرهم من أهل الذمة، فأراد المسلمون بذلك تألفهم، والحفاظ عليهم من الانحياز إلى الروم أعداء المسلمين، وعوملوا المعاملة ذاتها في عشور الزراعة. ذكر البلاذري أن أراضي بلد وديار ربيعة، والبرية هي أعشار، وأن حكمها حكم ما أسلمت عليه العرب، أو عمرته من الموات الذي ليس في يد أحد، أو رفضه النصارى، وغلب عليه الدغل فأقطعه العرب. (٤)

ومن واردات بيت المال أيضاً عشور التجارة التي كانت تأتي بأموال كثيرة نظراً لموقع الجزيرة المتميز من الناحية التجارية.

وكانت هذه الأموال تصرف في تغطية نفقات الحملات الخارجية التي تجهز لحماية الثغور الإسلامية من عدوان الروم كونها تقع على مقربة من حدود الدولة البيزنطية، وكذلك الحملات الخارجية التي كانت تجهز لقمع الفتن وإخماد الثورات التي كانت تقوم ضد نظام الحكم، مثل ثورات الخوارج. وكان بعض المال ينفق في أعمال الإصلاح والتعمير وشق الطرق وحفر الأنهار. فقد ذكرت المصادر أن الحرّ بن يوسف أنفق على حفر نهر الموصل من الأموال التي كان يجبيها من المنطقة، ولم يحمل للخليفة هشام بن عبد الملك شيئاً. (٥) وعند النظر في سكان الجزيرة الفراتية نرى أن جلّهم من العرب، وبعضهم من الآراميين والجرامقة. وأما الأديان السائدة فكانت الإسلام دين الدولة الرسمي، ودين الغالبية العظمى من السكان ثم النصرانية واليهودية والصابئة.

(١) محمد جاسم حمادي / الجزيرة الفراتية والموصل / دار الرسالة للطباعة / بغداد / ١٩٧٧ / ٢٢٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي / ج ٢ / ٢٢١.

(٣) فتوح البلدان / ١٨٧.

(٤) المصدر السابق / ١٨٤.

(٥) الأزدي / أبو زكريا يزيد بن محمد الأزدي / تاريخ الموصل / تحقيق د. علي حبيبة / القاهرة / ١٩٦٧ / ٣٠-٢٩.

ويرجع وجود العرب في الجزيرة الفراتية إلى عصور قديمة قبل الفتح حيث قامت بعض القبائل العربية مثل تغلب وبكر وربيعه بالهجرة من مواطنهم في الجزيرة العربية إلى هذه المنطقة، ومناطق أخرى في العراق واستقرت فيها، وقد كانت هناك أسباب كثيرة استوجبت هذه الهجرة، منها العداء التغلبي الذي كان بين العرب القحطانيين والعرب العدنانيين الذي أدى إلى سلسلة من الحروب تكاد لا تنتهي ومنها الحروب التي وقعت بين شيبان وتغلب، وربيعه ومضر، وبين قبائل مضر ذاتها، مثل داحس والغبراء والبسوس وغيرهما كثير. إذ دفعت هذه الحروب بعض القبائل إلى الهجرة إلى منطقة الجزيرة الفراتية، وكانت الموارد الاقتصادية الجيدة فيها تشجع هؤلاء على الهجرة لقلّة موارد بلادهم من الكلاً والماء اللذين كانا عماد حياتهم في ذلك الوقت، كما ساهم خراب سد مأرب في مزيد من هجرة القبائل اليمنية إلى هناك.

وبعد الإسلام استمرت هذه الهجرة ممثلة في القبائل التي شاركت في الفتح، والقبائل الأخرى التي هاجرت إليها بعد الفتح، فكون العرب الغالبة العظمى لسكان هذه المنطقة وكان للهجرة القبائل المضربة ومزاحمتها للقبائل الكلبيّة أثر كبير في اشتعال الحرب بينهما كما أشرنا من قبل وقد زاد من أوار هذه الحرب سياسة الدولة الأموية التي كانت تقوم في بعض الأحيان على ضرب القبائل العربية بعضها ببعض وكانت القبائل الكلبيّة تدعم الخلافة الأموية، مما اضطر القبائل المضربة إلى أن تقف في الجانب المضاد، وقد أدى ذلك إلى وقوع سلسلة من الحروب بينهما كذلك التي وقعت بين تغلب وقيس بعد وفاة مرج راهط^(١) وصاحب ذلك كله اشتعال شعر الفخر والهجاء، فكان الشعراء يسارعون إلى الفخر بقبائلهم ومآثر هذه القبائل القديمة والجديدة معاً، وكذلك إلى هجاء خصومهم وتذكيرهم بالحروب التي دارت بينهم منذ الجاهلية، وعلى رأس هؤلاء الشعراء الأخطل التغلبي أحد أعلام شعر النقائص في العصر الأموي.

ويمكننا أن نضم كذلك إلى العراق، إقليم خراسان فقد كان العراق يضم المنطقة الشرقية للدولة العربية الإسلامية بما في ذلك خراسان، إذ كان في الواقع يتبع العراق في جميع نواحيه السياسية والعسكرية، وكان والي العراق هو الذي يديره، ويولي عليه من يشاء من موظفيه، بل لقد كان جنده وخصوصاً جند البصرة هم الذين قاموا بفتحه في زمن عمر بن الخطاب.^(٢)

(١) انظر تفاصيل ذلك في تاريخ الطبري أحداث سنة ٦٤.

(٢) شوقي صيف/ والتطور والتجديد في العصر الأموي/ ط٦/ دار المعارف القاهرة/ ١٩٧٧/ ٣٨.

ويشمل هذا الإقليم بلاداً واسعة وأرضي ممتدة، واختلفت حدوده من وقت إلى آخر باختلاف حالة العرب وقدرتهم على السيطرة على الأوضاع فيه، وقوتهم في المحافظة على الأراضي المفتوحة منه، إذ لم تكن له حدود ثابتة طوال العصر الأموي^(١) فقد كان منطقة شغب، وكان العرب يغزون المنطقة الواحدة ويفتحونها غير مرة.

وقد امتاز هذا الإقليم بكثرة مياهه وخصوبة أرضه، مما شجع على قيام حياة زراعية واسعة كانت قوام حياة سكانه وكذلك قام كثير من الصناعات التي اعتمد بعضها على الإنتاج الزراعي خاصة صناعة المنسوجات.

وقد قسم الجغرافيون العرب خراسان إلى أربعة أرباع. هي نيسابور ومرو وهراة وبلخ. وتشكل هذه الأربعة فيما بينها رفاهاً اقتصادياً للمنطقة ولسكانها بما تميز به كل منها، فقد اشتهرت نيسابور بالزراعة، وصناعة المنسوجات، إضافة إلى احتراف بعض سكانها حرفة التجارة التي كانت رائجة في مدينة نيسابور رواجاً كبيراً، كما اشتغل أهل مرو بالزراعة مثل زراعة الفواكه والكروم والبطيخ والحبوب، وكذلك عملوا بصناعة المنسوجات القطنية والحربية. فراجت عندهم صناعة الثياب وكانوا يصدرون إلى البلدان المجاورة. وكذلك كان القسم الجنوبي منها وعاصمته مدينة هراة فقد كان يشتهر بكثرة مياهه وبساتينه الكثيرة. ولم يكن القسم الرابع أقل حظاً من غيره فقد كان هو الآخر من أجل مدن خراسان وأكثرها خيراً وأوسعها غلة. تحمل غلتها إلى جميع خراسان.^(٢)

وأما عناصر خراسان السكانية، فكانت تتكون من السكان الأصليين، ومن العرب الفاتحين، وهم أقلية مقارنة مع عدد السكان الأصليين، لذا كان يعزز هذا العدد بالعدد الذي كان يرسل إليهم من أنحاء الدولة خاصة الكوفة والبصرة. فقد انتقلت مجموعات من الجند مع عائلاتهم، وأقاموا فيها مع السكان وصاهروهم، وكان لهم مع بعضهم علاقات حسنة، وانقسم هؤلاء العرب إلى كتلتين كبيرتين هما كتلة الأزدي وبكر وعبد القيس وكتلة تميم وقيس، مما أدى إلى احتدام العصبية القبلية والمنافسة السياسية لذا، جاء شعر شعرائهم بصور هذه العصبية وتأثيرها في الأحوال السياسية والعسكرية، وقد استنفذ هذا الموضوع معظم قدراتهم الشعرية، وما عدا ذلك فقد قال الشعراء في موضوعات

(١) د. حسين عطوان/ الشعر في خراسان في العصر الأموي/ ط١ / مكتبة المحاسب / عمان / ودار الجيل

بيروت / ١٩٧٤ / ١٣.

(٢) معجم البلدان (بلخ).

الغزل، ومنه ما كان في نساء الأعاجم من سكان البلاد الأصليين. من ذلك شعر ليزيد بن مفرغ الحميري وغيره. وقد تحولت المقدمة الغزلية عندهم إلى ما يشبه مقدمة الفروسية والبطولة. وبالمقدمة الطلبية إلى ما يشبه مقدمة الحنين إلى الوطن والأهل^(١) ومن شعرهم الغزلي ما كان حنيناً لحبيباتهم اللواتي تركوهن في بلادهم الأصلية أو لأسرهم فيها. من ذلك شعر لدريد بن الصمة الفشيري. ومالك بن الرئب. ولطرنماح بن حكيم وغيرهم.

الحجاز :

يمتد الحجاز في غربي الجزيرة العربية محاذياً للبحر الأحمر من العقبة في الشمال إلى اليمن في الجنوب، وهو حاجز طبيعي يفصل بين نجد في الشرق وتهامة في الغرب وأهم مدنه مكة والمدينة.

مكة: أهم مدن الحجاز في العصر الجاهلي. وثاني أهم مدنه بعد المدينة بعد بعثة الرسول محمد عليه السلام. تقع في منتصف الطريق بين الشام واليمن في بطن واد يعرف ببطن مكة، وتشرف عليه الجبال من جميع النواحي محيطة حول الكعبة^(٢) مناخها قاري شديد الحرارة في الصيف، والبرودة في الشتاء، ومياهها قليلة، إلا أنها تمتاز بموقع جغرافي متميز جعلها طريقاً للتجارة بين اليمن وبلاد الشام. فأصبحت أهم المدن التجارية في بلاد العرب القديمة، وكانت هذه التجارة حقاً لجميع أفراد المجتمع رجالاً ونساء وقصة تجارة الرسول عليه السلام في أموال السيدة خديجة قبل زواجه منها أمر معروف. وقد جعلت هذه التجارة أهل مكة يتمتعون بثراء، كبير وما دفعه أهل مكة من قديات لأسراهم في بدر يؤكد ذلك فقد جعل الرسول عليه السلام الفداء يوم بدر من أربعة آلاف لكل رجل من أسرة ثرية إلى ثلاثة آلاف إلى ألفين إلى ألف، وأعفى من لا مال لهم^(٣) ومن مظاهر هذا الثراء أيضاً: أن قافلة قريش إلى الشام يوم بدر كانت تتكون من ألف بعير منها أموال عظام بلغت نحو خمسين ألف دينار^(٤) وعندما بُعث عليه السلام وقف أشراف مكة موقف الرفض التام من دعوته وقاومته قريش مقاومة شديدة. ومن أهم أسباب ذلك السيادة القبلية والتنافس عليها إذ خشي أشراف مكة أن التسليم بالدين

(١) الشعر في خراسان / ١٦.

(٢) معجم البلدان / (مكة).

(٣) الواقدي / محمد بن عمر بن واقد / مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم / تحقيق د. مارسدن جونس / منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات / بيروت-لبنان / ١٩٦٦ / ج ١ / ١٢٩.

(٤) المصدر السابق / ج ١ / ٢٧.

- ٢١ -

معناه تسليم الملك والسيادة إلى محمد عليه السلام، ولآل عبد المطلب، وهذا يعني أن البطون الأخرى ستفقد مكانتها وسيادتها وهي تخشى من مناداة الإسلام بالمساواة بين السادة والعبيد، هذا المبدأ الذي كان من مبادئ الإسلام المهمة رأى فيه زعماء قريش هدماً لتقاليدهم وأسس الحياة التي يعيشون، ومنها أيضاً سبب آخر مادي، وهو بيع الأصنام، فقد كان بينهم من يحترق نحت الأصنام وبيعها للحجاج، فلما جاء الإسلام حرم عبادتها ونحتها والانجار بها، ويتصل بهذا السبب المادي أيضاً خوف سدنة الكعبة من فقدان ثروتهم ونفوذهم بسبب خدمتهم للأصنام ورعايتهم لزاثيرها.^(١) لأجل هذا الموقف المتشدد من الرسول محمد عليه السلام ودعوته، وبسبب ملاحقة أتباعه، وتعذيب بعضهم، هجر المسلمون مكة، وانتقلوا إلى المدينة المنورة، وقد كان فيهم أصحاب رؤوس المال والتجار مثل عثمان بن عفان وغيره، وقد ساهمت الحروب التي دارت بين أهل مكة والمسلمين في خراب مكانة مكة المادية والاجتماعية والدينية، وبالتالي انتقلت مكانتها إلى المدينة وأتم ذلك كله فتح العراق والشام في زمن الخلفاء الراشدين ورجوع الطريق التجاري القديم من خليج فارس إلى الموصل فالشام.

وهكذا ضعفت مكة بعد الفتح وانتقلت أهميتها في كثير من الأمور إلى المدينة التي سبقتها وتوقفت عليها. وفي العصر الأموي انتهى دور آخر للحجاز بما في ذلك مكة بانتقال الخلافة إلى الشام فنقم أهل مكة على الأمويين وثاروا الفتن والحروب فيها، وعلى رأس هذه الفتن فتنة ابن الزبير، مما جعلها في صفوف المعارضة لبني أمية.

المدينة: أصبحت مدينة الحجاز الأولى بعد هجرة الرسول عليه السلام إليها وقد كانت من قبل المدينة الثانية بعد مكة فيه، تقع على بعد خمسمئة كيلومتر إلى الشمال من مكة في بسيط من الأرض مكشوف من سائر الجهات في حرة سبخة الأرض كثيرة المياه والشجر والدوحات.^(٢) فأرضها خصبة تتوافر فيها مياه الأودية والآبار والعيون، والنخيل من أهم مزرعاتها، ويعتمد عليه أهلها، ومن مزرعاتها أيضاً القمح والشعير والكرمة والرمان وحب الهال الذي كان يصدر إلى البلدان الأخرى، وتعتمد المدينة في دخلها على الزراعة والتجارة الداخلية؛ فقد كان فيها عدد من الأسواق، وعلى التجارة الخارجية مع الشام

(١) د. أحمد شلبي / التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية / مكتبة النهضة المصرية / ط٤ / ١٩٦٦ / ١١٨.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام / ٣٣٤.

والبن، وكذلك على الصناعة البسيطة مثل صناعة المكابيل والقفف من سعف النخيل، والتحف المصنوعة من المعادن، والحلي وأدوات الزينة والأسلحة والدروع. اتخذها الرسول الكريم داراً لدعوته بعد هجرته من مكة فجعل لها مكانة دينية وسياسية تميزت بها على جارتها مكة، إذ أصبحت عاصمة الدولة الإسلامية تتبعها الولايات الأخرى، ونصرف هي شؤونها كما أصبحت لها مكانة اقتصادية أيضاً إذ انتقل إليها كثير من رؤوس الأموال المكبة مع رجالاتها فأصبحت تتمتع بقيمة تجارية مع قيمتها الزراعية. أما في العصر الأموي فقد فقدت جزءاً كبيراً من هذه المكانة خاصة السياسية فأصبحت تابعة لدمشق وكانت المدينة تنفخ هي الأخرى موقف المعارضة من بني أمية فعانت أثناء فترة خلافتهم من سوء ولايتهم وقسوتهم، أو من الجيوش التي كانت ترسل لمحاربتهم وعلى رأس هذه الحروب وقعة الحرة المشهورة^(١).

كان المجتمع الحجازي ومنذ العصر الجاهلي ينقسم بالنقاء العرقي إلى حد كبير فالعنصر الأول الذي يشكل معظم السكان هو العنصر العربي، وكان اليهود في المدينة، وكذلك الرقيق الذي كان من جنسيات مختلفة، وأما من الناحية الاجتماعية، فيمكن تقسيم المجتمع الحجازي إلى طبقتين رئيسيتين: الأولى طبقة الأشراف أو السادة، وتتألف من زعماء القبائل والولاة والحكام، وبعض الصحابة، والأثرياء من أصحاب رؤوس الأموال في الحجاز، والثانية عامة الناس وتتألف من سواد العرب والموالي ثم الرقيق، ولا يخفى أن هؤلاء السادة كانوا منذ العصر الجاهلي يتمتعون بميزات دينية واقتصادية واجتماعية، ويتفردون بأغلب المناصب الدينية والدنيوية، ولعل أهم ما يميزهم ذلك الثراء الكبير الذي كانوا يتمتعون به حتى إن المرء ليحار في كثرته. ومن أهم مصادر هذا الثراء ما ورثه كثير منهم عن آبائهم من أموال الجاهلية، والتي جاءتهم عن طريق التجارة بالدرجة الأولى، ثم غنائم الفتح، التي بدأت تنهال عليهم انهبالاً إذ صبت في بلاد الحجاز كنوز أغنى إمبراطوريتين في ذلك العهد: البيزنطية والفارسية^(٢)، وكان نصيب الحجازيين خاصة القرشيين منهم هو الأكبر بحكم قربانهم من الرسول عليه السلام، وسابقة كثير منهم في الدخول إلى الإسلام ولقيادتهم الجيوش وحملات الفتح، وكذلك تخصيصهم بالمناصب الإدارية داخل الحجاز وفي البلاد المفتوحة، ومما بصور كثرة المال الذي وصل إلى الحجاز أن عمر بن الخطاب خطب مرة في الناس قائلاً "لقد قدم علينا مال كثير إن

(١) انظر تفاصيل تلك الواقعة في الطبري أحداث سنة (٦٣).

(٢) اليعقوبي/ج/٢/ ١٥٤، وانظر كذلك كتاب د. شوقي حنيف/ الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية/ ط٢/ دار الثقافة/ بيروت-لبنان/ ١٩٦٧/ ٣٣ وما بعدها.

شئتم أن نعهده عدا وإن شئتم أن نكبته لكم كيلاً" (١) ومن مصادر هذا المال أيضاً ما كان يصل لبیت المال في المدينة من خراج وجزية وعشور أرض وعشور التجارة في العصر الراشدي من البلاد المفتوحة، وعلى رأسها العراق والشام. ثم استمرار الحجازيين في التجارة مما كان يورد عليهم دخولا كبيرة، فلقد اشترى عبيد الله بن عمر بن الخطاب من غنائم البصرة ما باعه بالحجاز بربح يعادل عشرة أضعاف ثمن الشراء. وذكر أيضاً أن عبيد الله هذا اشترى من مغنم جلواء بأربعين ألفاً وباعها في الحجاز بأربعمئة ألف. (٢) واستمرت حمول الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة من الأقطار المفتوحة في العصر الأموي، وخاصة من إفريقيا وبلاد الأندلس. ورغم انتقال الخلافة إلى الشام. وتحول كثير من الأموال إلى دمشق فقد بقيت الحجاز تنعم بالثراء وذلك بسبب توافر مصادر الثراء وتنوعها، وبسبب ما كان فيها من مال، ولا يخفى أن هذا الغنى لم يكن لعامة أهل الحجاز بل لفئة منهم هي الطبقة العليا في المجتمع ومن هم حولهم. وقد تفنن هؤلاء الحجازيون في الاستفادة من المال، والغرق في الترف، فاتخذوا البيوت والقصور وبنوها بالآجر والجص، واتخذوا أبوابها من الساج والعاج، وبدلوا كثيراً من نواحي معاشهم وبدأوا يزدادون ترفاً في مطعمهم، ومشربهم، وفنون الزينة المختلفة، فكانوا يلبسون الحلل والوشى، ويركبون النجايب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج. (٣) فقد حج عمر بن أبي ربيعة على نجيب له مخضوب بالحناء مشهر الرجل بقراب مذهب، ومعه عبيد بن سريج على بغلة له شفاء؛ ومعه غلامه جناد يقود فرساً له أدهم أغر محجلاً في عنقه طوق من ذهب. (٤)

وتفننت النساء في اللباس والزينة ولمعت أسماء منها: عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، والثريا بنت علي، وكن من الفتيات المترفات في لباسهن ومعيشتهن وممتلكاتهن... إلى غير ذلك من مظاهر الترف. (٥)

وساهم في هذا الترف كثرة الرقيق والجواري، وكان هذا الرقيق في معظمه من غنائم الفتوح أيضاً. وقد بدأ بنهال على الحجاز منذ العصر الراشدي، فقد أرسل معاوية لعمر بن الخطاب أربعة آلاف من سبي قيسارية وقد وظف قسم كبير منه في خدمة

(١) فتوح البلدان / ٤٤٠.

(٢) انظر التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة / ٢٣٣ وما بعدها.

(٣) الأغاني / ج ١ / ٢٢١.

(٤) المصدر السابق / ج ١ / ٢٥٩.

(٥) انظر الأغاني / ج ١ / ٢١١ و ج ٨ / ١٧٦ - ١٩٤ / ج ١٦ / ١٤٣ وما بعدها.

البيوت العربية^(١) وكان هذا الرفيق، خاصة الجوّاري منه، قد غر في طبيعة الحياة الاجتماعية عند العرب بما جلبه من خبرات وعادات كانت معروفة في مجتمعاتهم. ومن ذلك ما يتعلق بالغناء وفنون اللهو المختلفة، فقد أصبحت البيئة الحجازية بيئة الغناء الأولى. وبدأ الحجازيون يزدادون ميلاً إلى اللهو والسماع حتى الفقهاء منهم والشعراء^(٢). وبدأ للمرأة حظ وافر من الترف والحربة مقارنة بغيرها من نساء البيئات الأخرى مما جعلها تخرج لملاقاة الرجال والتحدث إليهم، والاجتماع بهم في نواديها، أو في مجالس الغناء. وأصبحت حياتها رفيقة هينة، بل حياة الحجازيين جميعاً. وتأثر الشعر بذلك كله فقد ظهر عدد كبير من الشعراء، اهتموا بشعر الغزل خاصة وبدأ في شعرهم الطابع الحضري، وآثار الغنى والترف، فجاء شعرهم مصوراً لبيئتهم خير تصوير في ذلك وفي مواكبة لغن الغناء وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة، والعرجي، والأحوص... وغيرهم.

كل هذا لم تكن نسمعه أو نشاهده في مراكز الشعر الأموي الأخرى عدا ما انتقل إلى بيئة الشام من هذه الأمور في النصف الثاني من العصر الأموي.

نجد وبوادي الحجاز

أوسع أقاليم الجزيرة العربية. وتشمل الأراضي الممتدة من صحراء النفود في الشمال إلى الربع الخالي في الجنوب، ومن حدود الإحساء شرقاً إلى حدود الحجاز وعسير غرباً، فهي تشكل قلب الجزيرة العربية. وامتدادها الواسع، هذا جعلها تختلف بعض الشيء من مكان إلى آخر من حيث المناخ والأمطار، والنباتات والتشكيل الجغرافي، ولكنها على العموم ذات مناخ جاف، حار في بعض المناطق شديد البرودة في مناطق أخرى، أمطارها قليلة بصفة عامة، وهي مجال اهتمام لأن المطر هو مصدر الحياة بالنسبة لهم، تحب به زروعهم وحيواناتهم وبالتالي نفوسهم. وليست نجد على حال واحدة من الخصب، ففيها بعض المناطق الجرداء حيث التربة فيها قليلة العمق لا تصلح للزراعة، قليلة النباتات لقلة الأمطار المتساقطة عليها. وهذا ما يزيد قسوة فقرها فتصعب الحياة فيها، إلا على شكل قبائل متنقلة وراء الماء والعشب. وهي صحراوية في جهات ثمانية تتمثل في صحراء النفود شمالاً، والدهناء شرقاً، والربع الخالي جنوباً، هذا كله جعل المنطقة قليلة الموارد بشكل عام. وأهل نجد يعيشون حياة بسيطة فهم يتنقلون من مكان

(١) فتوح البلدان / ١٤٧.

(٢) انظر الأغاني / ج ١ / ٢١١ / ج ٨ / ٢٧٧ و ٢٣٤ / ج ١٦ / ٣٢-٣٣. والعقد / ج ٦ / ١١.

إلى آخر طلباً للكلأ والماء. وعندما تضيق بهم الحياة يضطرون للسلب والنهب؛ ومن ثم كثر الغزو وكثرت الحروب بينهم كثرة شديدة.^(١) فهاجر بعضهم إلى الشرق كقبيلة تغلب التي استقرت في الجزيرة الفراتية منذ حرب البسوس.^(٢)

دخل أهل نجد الإسلام وبدأت وفود القبائل تصل إلى المدينة المنورة تعلن إسلامها بعد فتح مكة. ففي السنة الثامنة للهجرة جاءت وفود بني تميم إلى المدينة، وكذلك وفود بني أسد وبني عامر، وبني حنيفة، فعم الإسلام سائر نجد، ولكن إسلام كثير منهم كان إسلاماً سطحياً لم تبلغ القلوب مداركه، لذا ما لبثوا أن ارتدوا عن الإسلام بعد علمهم بوفاة الرسول عليه السلام، وظهر بينهم من ادعى النبوة؛ فقاتلهم أبو بكر حتى عادوا إلى رشدهم ودفعوا الزكاة بعد حروب عرفت "بحروب الردة".

وفي خلافة عثمان بن عفان كانت نجد تتبع البصرة ويظهر أن ذلك كان لمد الجيوش بالسرايا، وكانت البصرة قاعدة ذلك فقد انطلق أهل نجد إلى الفتوحات، وانضموا إلى الجيوش الإسلامية، وقد اتجه أكثرهم إلى الجهة الشرقية في العراق وفارس، وكان لبعضهم بلاء حسن.^(٣)

وكانت هذه الهجرة شرفاً وغرباً لحاجة الثغور قد أحدثت شقاً جديداً بين قبائل نجد خاصة في أطراف الجزيرة الشمالية على حدود الشام والجزيرة، وذلك لأن القبائل القيسية المضربة حين هاجرت إلى الشام والجزيرة زاحمت القبائل اليمنية وعلى رأسها كلب في الشام. كما زاحمت تغلب في الجزيرة، لذا شبت الحرب بينها وبين القبائل التي زاحمتها، وسرعان ما رأينا الجماعتين تتحولان إلى ما يشبه حزبين سياسيين، فكانت تغلب العدنانية وكنب وغيرهما من القبائل اليمنية حزب الدولة الرسمي، وكانت قيس تغف بحكم منازعتها في الصفوف المعارضة،^(٤) وقد حدثت في العصر الأموي حروب كبيرة وقبيلت أشعار كثيرة نظمها كل قبيلة في الفخر بنفسها، وهجاء غيرها من القبائل، والدفاع عن حقها، والانتصار لنفسها، مما أشرى شعر الفخر والهجاء بشكل خاص لهذا العصر.

(١) شيلغر/ دائرة المعارف الإسلامية/ ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وآخرون/ دار الشعب/ القاهرة/

١٩٦٩ / (بكر).

(٢) المصدر السابق/ مادة (بكر).

(٣) محمود شاكر/ شبه جزيرة العرب - (نجد)/ المكتب الإسلامي - دمشق/ ١٩٧٦ / ١٣٥.

(٤) النطور والتجديد/ ٣٣.

أما القبائل التي استقرت داخل نجد، فقد ضعف نشاط الشعر عندها بشكل عام بسبب هجرة كثير منهم إلى الخارج، وبسبب توقف بعض الحروب عندهم، وإمالة الإسلام لفكرة الثأر. إلا أنه ظهرت لديهم موضوعات جديدة لم تكن مألوفة من قبل منها: الشعر السياسي الذي يصف علاقتهم بالدولة، وموقفهم من الخلافة الأموية، ومنها ما يمس الجانب الاقتصادي، وهو الذي يصور فقر البادية، وحاجة سكانها إلى العطاء، ومعونة الخلفاء الأمويين، وعدم قدرة السكان على دفع أموال الصدقات. وكان الفائمون على هذه الأموال يسيئون معاملة الرعية كثيراً. كما ظهر في قصيدة الراعي النميري التي ضمنها شكوى مرة منهم فقال مخاطباً عبد الملك بن مروان:

أبلغ أمير المؤمنين رسالته	شكوى إليك مظلة وعويلا
أولي أمر الله إنا معشر	حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله في أموالنا	حق الزكاة منزلا تنزلا
إن السعاة عصوك حين بعثتهم	وأنوا دواعي لو علمت وعولا
إن الذبن أمرتهم أن يعدلوا	لم يفعلوا مما أمرت فتيلا (١)

إلى نهاية القصيدة التي يستغيث فيها بالخليفة من عمال الصدقات ويشكو من القحط الكبير الذي أصاب قومه. وقد ظهر نوع آخر مهم من الشعر اشتهر باسم "الغزل العذري" فشاع هذا النوع من الغزل بشكل خاص عند شعراء بوادي الحجاز وفي بعض مناطق نجد وقد كان غزلاً عفيفاً سامياً فيه نبل وطهارة، وبعد غير قليل عن الحس والمادة، وعلل شيوع هذا النوع من الغزل بسبب حياة الشظف والحرمان التي كان يعيشها أبناء البادية، والبعد عن الحياة المادية المترفة؛ فكانت الحياة الفقيرة الصعبة المليئة بالحرمان كان يقابلها شعور الحب البعيد عن المادية المليء بالحرمان أيضاً فهو حب طاهر محروم.

الشام

ذكر بافوت الحموي في معجمه (الشَّام) بفتح أوله وسكون همزته (والشَّام) بفتح همزته، وقال: فيها لغة ثالثة وهي الشام بغير همز، وقال أبو بكر الأنباري: في اشتقاقه وجهان يجوز أن يكون مأخوذاً من اليد الشؤمي وهي اليسرى، وقيل يجوز أن لا بهمز فيقال الشام فيكون جمع شامة، سميت كذلك لكثرة قراها، وتداني بعضها من بعض

(١) الراعي النميري / شعره / دراسة وتحقيق: نوري حمودي القيسي وجمال ناجي / مطبعة المجمع العلمي

فشبهت بالشامات. وقد ذكر باقوت أسباباً أخرى يعتقد نسبة الاسم إليها. (١) أما ابن منظور فيرى أن شام تعني الشؤم خلاف اليمن. (٢)

وتمتد حدود الشام من بلاد الروم شمالاً إلى البحر المتوسط غرباً إلى مصر والجزيرة العربية جنوباً. أما من جهة الشرق فقد اختلف في تحديدها فمن الجغرافيين من يجعل الكوفة حدها الشرقي "حدود الشام من الكوفة إلى الرملة ومن بالس إلى أيلة" (٣) ومنهم من يجعلها تنتهي عند نهر الفرات "وأما حدها فمن الفرات إلى العريش المتاخم للحدود المصرية". (٤)

وفي هذا التحديد يكون باقوت قد أخرج جزيرة "أقور" والمسماة اليوم بالجزيرة الفراتية من حدود الشام إذ يعتبر هذا الإقليم إقليماً قائماً بحد ذاته.

ومن التحديد السابق للشام نلاحظ أن هذا الإقليم كان يضم الرقعة التي تشغلها سوريا ولبنان والأردن وفلسطين اليوم. فقد كانت هذه البلدان تسمى بلاد الشام على مدى تاريخ طويل وقد نمت تجزئتها سياسياً إلى هذه الدويلات حديثاً على يد الاستعمار الأوروبي.

يمتاز هذا الإقليم بلطف مناخه، وجودة هوائه، وكثرة مياهه، وخصوبة تربته، وتكوين تكوينه الجغرافي. (٥) وبسبب موقع الشام الجغرافي المتميز تعاقبت عليه حضارات مختلفة كالفنيقيين والكنعانيين والآراميين وغيرهم، كما استعمرته أمم عدة كالمصريين واليونان والرومان، مما جعله متصلاً بالأمم القديمة مطلقاً على ما عندها. (٦)

قبل الفتح الإسلامي كانت بلاد الشام تحت سيطرة الدولة البيزنطية التي كانت تستعين ببعض القبائل العربية لردّ الأطماع الساسانية، فكانت إمارة الغساسنة تقوم بذلك وهم من أزد اليمن وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان وغيرها من غوطة دمشق

(١) معجم البلدان / (شام).

(٢) لسان العرب / (شام).

(٣) ابن الفقيه الهمداني / أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه / مختصر كتاب البلدان / مطبعة بريل / ليدن / ١٣٠٢هـ / ٩٢.

(٤) معجم البلدان / (شام).

(٥) المصدر السابق / (شام).

(٦) التطور والتجديد / ٤٣.

وأعمالها ومنهم من بسكن الأردن^(١) وكان مركز آل جفنة الأهم الجولان وكانت سلطة الأمير الجعني لا تقف عند حدود ولاية ما، بل كانت تتجاوزها وتمتد على كل القبائل الرحل أو شبه الرحل المنتشرة هناك.

من خلال هذه العلاقة تأثر العرب بالحضارة البيزنطية ذلك أن العرب الشاميين كانوا يعتنقون النصرانية، وقد كانت الشام غارقة في تأثيرات رومانية بيزنطية، فلما فتحها العرب واستقروا فيها تحولت إليهم هذه الثروات العقلية، لذا نجد أنهم يتأثرون كثيراً بما كان شائعاً آنذاك من تشريعات بيزنطية ومن نظم إدارية وأخرى حربية.

لم يكن اطلاع العرب واتصالهم بالحضارات السابقة، وخاصة الرومانية، الفائدة الوحيدة التي جنوها من فتح الشام، فبالإضافة إلى نشر الإسلام في هذه المنطقة، وضم هذه الأملاك إلى الدولة الإسلامية، شكل هذا الفتح مورداً اقتصادياً كبيراً لبيت المال وذلك من خلال الضريبة التي ألقاه الله على الفاتحين من المال والأسرى والجزية والخراج والعشور والصفايا.

فأما الجزية والخراج، فإننا نلاحظ أن المعاهدات التي عقدت مع مدن الشام دلت على وجود جزية وخراج^(٢)، وإن كان التركيز في المرحلة الأولى على الجزية إذ كانت جريباً^(٣) وديناراً على كل جمجمة^(٤) وذكر بعض الرواة أن خالد بن الوليد صالح أهل دمشق فيما صالحهم بأن ألزم كل رجل من الجزية ديناراً وجريب حنطة وخلا وزيتاً لقوت المسلمين. وكذلك صالح أهل بيسان وبصرى وحلب^(٥) ولكن ما لبثت هذه الجزية أن عدلت إذ جعلها عمر بن الخطاب أربعة دنائير على أهل الذهب، وأربعين درهماً على أهل الورق، وجعلها طبقات حسب غنى الغني، وتوسط المتوسط، وإقلال المقل، أما فيما يختص بأرض الشام وما فيها من ثمر وزرع فقد رفض عمر بن الخطاب توزيعها على

(١) انظر بحثاً للدكتورة نجدة خماس/ عناصر السكان في الشام وتوزيعهم/ مجلة دراسات/ مج ١٤/

عدد ١٠ / ١٩٨٧ / ٧٨.

(٢) فتوح البلدان/ ١٢٢، ١٢٨، ١٢٧، ١٦٢.

(٣) الجريب: مقدار معلوم الزراعة والمساحة، كل قنيز منها عشرة أعشاء، فالعشير جزء من مئة جزء من الجريب، وهو الوحدة التي تقاس بها الفطائع التي كان يقطعها الولاة والأمراء ويعادل على وجه التقريب

٣٦٠٠ م، لسان العرب (جرب).

(٤) المصدر السابق/ ١٣٠-١٣١.

(٥) نفسه/ ١٣١.

المقاتلين العرب، وكان من رأيه تركها لأصحابها مقابل وضع الخراج عليها فتكون قبلاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم^(١)

بالإضافة إلى أرض الخراج وجدت في الشام أرض كان يدفع أصحابها العشر وهي ما أسلمت عليه العرب أو عمرته من الموات^(٢) وكذلك كل أرض أسلم عليها أهلها من العجم أو العرب فهي لهم وهي أرض عشر^(٣) وكذلك كل أرض قسمت بين الذين غنموها^(٤). أما بالنسبة للصوافي الشام وهي الأراضي التي كانت تابعة لفبصر وآله ولرجال الدين أو الأشراف فقد تضاربت الروايات حولها^(٥) ويبدو أن عمر بن الخطاب قد أوقف هذه الصوافي على الفاتحين وإن سمح لهم بتوزيعها على من أفاءه الله عليهم؛ أربعة أخماس للجنود وخمسة للدولة، وعندما تولى الخلافة عثمان منح بعض الإقطاعيات من الصوافي لبعض المسلمين. ويبدو أن ضم الصوافي إلى بيت المال حدث في زمن معاوية بن أبي سفيان إذ إن معاوية استصفى ما كان للملوكة من الضياع بالشام والجزيرة والعراق وصيرها خالصة لنفسه وأقطعها أهل بيته وهذا ينطبق على صوافي الشام والعراق وغيرها من أرض الجزيرة^(٥)

نبرز أيلة في عهد عمر بن عبد العزيز مركزاً من مراكز جباية العصور، وكان عليها وعلى مكوس مصر في زمنه زريق بن حبان^(٦) ولا شك أن هذه الضريبة تعد مورداً اقتصادياً مهماً لبيت المال في هذا العصر. وقد كانت هذه الخيرات في بداية الأمر تندفق على الحجاز باعتباره مركز الخلافة الراشدية، ثم تحولت إلى دمشق مركز الخلافة الأموية مما كان له الأثر الكبير في تشكيل البيئة الحجازية، ثم البيئة الشامية فيما بعد.

وعند النظر في عناصر السكان في الشام؛ نرى أن العرب كانوا يشكلون العنصر الأكبر من هذه العناصر، إذ إن عدداً من القبائل العربية وجدت في بلاد الشام قبل الفتح.

(١) الخراج / أبو يوسف / ٣٠.

(٢) المصدر السابق / ٧٥-٧٦.

(٣) الخراج / أبو يوسف / ص ٨٢.

(٤) انظر تفاصيل ذلك في كتاب د. نجدة خماس، الشام في صدر الإسلام / ط ١ / دار طلاس للدراسات - دمشق / ١٩٨٧ / ص ١٣١. وانظر كذلك بحثي الدكتور محمد خريسات اللذين سبق ذكرهما.

(٥) تاريخ اليعقوبي / ج ٢ / ٢٢١.

(٦) انظر في هذا بحثاً للدكتور محمد خريسات بعنوان عشور التجارة في الجاهلية وصدر الإسلام حتى

- ٣٠ -

فقد كانوا يشكلون نسبة سكانية كبيرة. وكانت الروم تعتمد عليهم في صد هجمات الفرس، كما مر معنا من قبل في حديثنا عن الغساسنة. فلما كانت الفتوح انتشر العرب في جميع أرجاء بلاد الشام، فكانت جيوش المسلمين التي فتحت بلاد الشام نواة العنصر العربي الذي سكن الشام، وحكمها فيما بعد. وكان انتشار هؤلاء العرب في المدن والبادية وفي الريف.

والعنصر الثاني من عناصر السكان هم أهل الذمة. وعلى رأس هؤلاء النبط، وهم قوم من النصارى مر تعريفهم من قبل غير أنهم كانوا إلى المسلمين أميل، وكان العرب يستخدمونهم كجواسيس.

أما الروم، فأكثرهم تركوا الشام. وبعضهم آثر البقاء والدخول في الإسلام ومن الذين أسلموا حاكم قلعة حلب ومن كان بخدمته، وجماعة دخلت مع عمرو بن العاص. وقد نزلوا الحمراء التي بالقنطرة^(١) وإلى جانب هؤلاء وجد في الشام قبل الفتح الفرس في بعلبك وحمص وأنطاكية ومدن أخرى. وقد قام معاوية في خلافته، بنقلهم من المدن الداخلية في الشام، ونقل مجموعة من أساورة البصرة والكوفة إلى مدن الساحل؛ أنطاكية وبيروت وطرابلس وصور وعكا وغيرها، وكذلك فعل عبد الملك بن مروان إذ أسكن بعضاً من الفرس الساحل من مدينة طرابلس^(٢).

ومن عناصر السكان في الشام أيضاً اليهود والجراجمة؛ فأما اليهود فقد وجدوا قبل الفتح في حمص وقيسارية، والسامرة في الأردن وفلسطين، وبقوا فيها بعد الفتح، وقد أسكنهم معاوية في أحد حصون طرابلس، وأما الجراجمة، فكانوا في جبل اللكام^(٣).

ويمكن تقسيم الشام من حيث فئاته الاجتماعية إلى فئتين رئيسيتين : الطبقة العليا، وعامة الناس. فأما الفئة الأولى، فقد كانت تتكون من الخليفة وآله وأقربائه من الأمويين ومن حكام الدولة وولايتها. وقادة الحروب. وزعماء القبائل والصحابة الذين هاجروا إلى الشام مع الفتح أو بعده، وقد كان العنصر العربي في دولة بني أمية هو العنصر المقرب والمقدم في جميع الأمور ومن بدء دولتهم زمن معاوية إلى أواخر أيامها زمن مروان بن محمد. فقد كان معاوية يقدمهم ويأخذ برأيهم قبل أن يقدم على أمر خطير سواء أكانوا من أهل بيته، أم من زعماء القبائل الأخرى. وسار يزيد ابنه على

(١) انظر تفاصيل ذلك في بحث عناصر السكان في بلاد الشام / ٨٨.

(٢) عبد القادر بدرا / تهذيب تاريخ دمشق الكبير / ط٢ / ١٩٧٩ / ج٦ / ١٨٧.

(٣) انظر بحث عناصر السكان في الشام / ٩١-٩٢.

منهجه. كان للقبائل العربية الشامية دور كبير في تثبيت حكم معاوية وتوطيد حكم الأمويين خاصة بعدما شاركت في الحروب التي بين علي ومعاوية وانتهت، بانتصار معاوية بواسطة جيوش الشام وعلى رأسها القبائل اليمنية، فازداد نفوذها. وليس أدل على ذلك من قول أحد زعمائهم لمعاوية "نحن نصرناك ومنعناك يوم صفين. ونصرناك على الأنصار والمهاجرين. وآثرناك على الإمام النقي. فبنا علوت المنابر".^(١) ومن هنا اعتمد معاوية على هذه القبائل في توطيد أركان حكمه فاختار ولاته وقادة جنده من زعماء القبائل الأكثر عدداً وقوة، وقام بتوزيع المناصب القيادية والعسكرية والإدارية والقضائية بينهم مستفيداً من كل أصحاب الكفاءات من القبائل المختلفة. كما أنه خصهم بشرف العطاء إذ أصبح عامل الدعم لمعاوية وللحكم الأموي عاملاً أساسياً في منحه. كما أن معاوية لجأ إلى ما كان معروفاً عند العرب من كسب دعم القبائل بواسطة الإصهار إليها فتزوج ميسون بنت بحدل الكلبي أم ولده يزيد فجنى بذلك فائدة سياسية كبيرة إذ ضمن مؤازرة قبيلة كلب أقوى القبائل الفضاعية بالشام وأكثرها عدداً. وسار على هذا النهج من جاء بعده فأصهروا إلى القبائل لكسب تأييدها وكانوا يؤثرون الإصهار إما إلى قبيلة كلب الفضاعية وإما إلى قبيلة قيس المضربة. أما في العهد المرواني فإننا نلاحظ شيئاً من الاختلاف فمع أنه بقي لسادات القبائل وأشرفهم مكانة كبيرة ومهمة إلا أن إخراج الأمويين وشيعتهم من المدينة ومكة وتوجههم إلى الشام وكذلك معركة مرج راهط وما نجم عن ذلك من احتدام للعصبيات، دفع عبد الملك بن مروان لأن يولي إمارة الأجناد إلى أبنائه وإخوانه أو أفراد الفرع المرواني وتابعه في نهجه هذا من جاء بعده ما عدا عمر بن عبد العزيز الذي اتبع أسلوب معاوية في تعيين عماله وفق الأكثرية القبلية في المنطقة.^(٢)

وكان لنهج المروانيين فيما بعد نتائج مهمة في التركيب الاجتماعي للدولة الأموية فنظراً لاعتماد الخلفاء على أمراء البيت الأموي في شؤون الإدارة والحكم والقيادة العسكرية، أصبح هؤلاء يتمتعون بامتيازات متعددة، فكانت لهم جوائز، وأرزاق لحراسهم وقطائع^(٣). وكثر عدد من سكن دمشق وأصبحت منازلهم وفصورهم أكثر منازلها^(٤). كما

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير / ج ٧ / ٣٠.

(٢) الشام في صدر الإسلام / ١٠٥ وما بعدها.

(٣) ابن عبد الحكم / أبو محمد عبيد الله بن عبد الحكم / سيرة عمر بن عبد العزيز / تصحيح وتعليق

أحمد عبيد / ط ٢ / مكتبة وهبة - مصر / ١٩٥٤ / ١٢٥.

(٤) اليعقوبي / أحمد بن أبي يعقوب / كتاب البلدان / نشر الكتاب مذيلاً بكتاب الأملق النفيسة لابن رسته /

لبن / ١٨٩١م / ٣٢٦.

- ٣٢ -

انتشرت الفصور الأموية في بلاد الشام انتشاراً واسعاً. كما أن احتلال الأمويين لكثير من الضياع والإقطاعات الممنوحة لهم أدى إلى ظهور طبقة جديدة من الملاكين العرب الكبار في الشام. إذ تحول الأشراف إلى ارستقراطية ملاكة^(١) مما أدى بهم إلى طور الاهتمام بالزراعة ومزاولةها، وشمل هذا أنحاء كثيرة من بلاد الشام.^(٢)

والفئة الثانية من فئات المجتمع هي فئة عامة الناس من العرب النصاري الذين دخلوا الإسلام، أو من بقايا جيوش الفتح الذين استقروا هناك، أو أفراد القبائل، وكذلك أهل الذمة والموالي والرفيق.

فأما العرب فقد كانت أوضاعهم الاجتماعية تختلف من شخص إلى آخر. وكان أغلبهم يأخذون العطاء بالإضافة إلى ما حصلوا عليه من غنائم الحروب. وقد عمل بعضهم بالتجارة وحقق أرباحاً جيدة، ولكن الواحد منهم قلما كان يصل إلى ما وصلت إليه الطبقة الأولى من الغنى أو المكانة الاجتماعية.

وأما أهل الذمة من أنباط وغيرهم فقد كان منهم الملاكون والفلاحون والكتاب والتجار والعطارون، ويبدو أنهم كانوا ماهرين في جباية الخراج وعمارة الأرض. وقد استعان بهم الخلفاء. فقد أدرك معاوية أنه لا يمكنه الاستغناء عن هؤلاء إذا أراد تحسين إدارة الدولة، فقد عهد بالإدارة المالية إلى أسرة مسيحية ظلت تتوارث فيما بينها تلك الإدارة، وهي أسرة سرجون. وقلما خلا ديوان من دواوين الدولة من النصاري. وكذلك كان أكثر الأطباء والكتبة في الشام ومصر نصاري وأكثر الجهابذة والصباغين والدباغين من اليهود^(٣).

ومن عناصر السكان أيضاً موالي العنافة والرفيق الموالي هم المسلمون من غير العرب، فبعد أن أوقف عمر بن الخطاب سبي العرب، افترن الولاء بالمسلمين من غير العرب وقد اختلفت أشكال الولاء من مصر إلى آخر وقد ساد في الشام نوعان من أنواع الولاء، ولواء الإسلام، وولاء العنافة.

(١) د. عبد العزيز الدوري، العرب والأرض في الشام / مؤتمر بلاد الشام / ١٩٧٤ / ٣٠.

(٢) المصدر السابق / ٣١.

(٣) الشام في صدر الإسلام / ١٤٤. وانظر كذلك بحث عناصر السكان في الشام / ٨٧.

- ٣٣ -

وموالي العنافة هم الذين كانوا يحملون اسم عشيرة سيدهم مرفقة بكلمة مولى إشارة إلى أن رابطتهم هي رابطة اجتماعية لا رابطة دم، وأغلب الظن أن نسبة كبيرة من الموالي كانوا موالي عتاقة أي من الرقيق الذي كان موجوداً قبل الفتح أو من الرقيق الذي كان يؤلف الخمس من الأسرى أو السبي، وهؤلاء كانوا من أصول مختلفة. (١)

وقد كان لهؤلاء الموالي مكانة كبيرة عند خلفاء بني أمية وأمرائهم سواء أكان ذلك من حيث العطاء أم من حيث المناصب التي كانوا يستلمونها في مجال الفقه أو إدارة الشؤون الإدارية ولا سيما الدواوين، أو إدارة الولايات خاصة أفريقيا. (٢) ومن هؤلاء رجاء بن حيوة مولى بني كندة وغيره. (٣) وقد جمع الوليد بن عبد الملك لجناح مولاه الرسائل والخاتم. (٤) ومن نوابغ الكتاب الموالي عبد الحميد الكاتب تلميذ سالم مولى هشام بن عبد الملك. (٥) ومن ولاية أفريقيا من الموالي محمد بن يزيد مولى فريش، وإسماعيل بن المهاجر مولى بني مخزوم. ومع كل هذا فإنه من الصعب القول إن الموالي حققوا ما كان للعرب من مكانة، ولا يعقل هذا في ظل نظام الدولة العربية الأموية التي كانت دولة قبلية بالدرجة الأولى، إلا أن الذي لا شك فيه أن موالي الشام كانوا يتمتعون بدرجة من الإنصاف الاجتماعي أكثر مما كان لزملائهم في العراق، وربما كان ذلك راجعاً إلى أن القبائل العربية المنتصرة كانت تشكل نسبة كبيرة من عدد السكان، وبدخول هؤلاء الإسلام بأعدادهم الكبيرة كانوا يساوون بالمسلمين. أما الروم الذين دخلوا الإسلام فقد كان عددهم قليلاً جداً مقارنة بفرس العراق، لذلك قلما نجد إشارات تتعلق بحياتهم وتنظيماتهم الاجتماعية وتعامل الدولة معهم. هذا بالإضافة إلى كثرة الموالي في العراق، إذ بدأوا يزاحمون العرب في مجالات الحياة الكثيرة، حتى إن العرب كانوا يخشونهم، فقد كانوا يتحكمون بعصب الحياة بما يقومون به من تجارة وزراعة وحرف بدوية، إلى جانب سيطرتهم على ناحية مهمة من نواحي الحياة وهي الناحية الثقافية فقد بدأوا يتعلمون العربية، ويدرسون الفقه، ويطمعون في الوصول إلى مراتب كان العرب يعتقدون أنها خاصة

(١) الشام في صدر الإسلام / ١١٧.

(٢) المصدر السابق / ١١٧ وما بعدها.

(٣) العقد ج ٥ / ١٣٩.

(٤) ابن خياط / أبو عمرو خليفة بن خياط / تاريخ خليفة بن خياط / تحقيق د. أكرم ضياء العمري / ط ٢ /

دار القلم - دمشق / مؤسسة الرسالة بيروت / ٣١٢.

(٥) شمس الدين الذهبي / سير أعلام النبلاء / تحقيق شعيب الأرنؤوط / ط ٢ / مؤسسة الرسالة - بيروت

- ٣٤ -

بهم كما أسلفت من قبل. أضف إلى هذا كله أن بيئة العراق بيئة قبلية لا نحترم الحرف البدوية، والغلاحة، ونعزى بالفروسية وبالقتال، وطبيعي أن تكون نظرة هؤلاء إلى الموالي من فلاحين وصناع نظرة لا تتسم بالاحترام.^(١)

أما لماذا كانت الدولة ممثلة بولائها تقف منهم موقفاً متشدداً؟! فلعل السبب راجع إلى اشتراك الموالي في الثورات ضد الدولة كثورة ابن الأشعث وغيرها. مما جعل بعض هؤلاء الولاة وخاصة الحجاج يعاملهم بعض الأحيان معاملة فيها كثير من التشدد.^(٢)

أما الرقيق، فهم أسرى الحروب، ونظام الرق موجود عند الأمم القديمة، وكان يشكل ركناً مهماً في النظام الاقتصادي والاجتماعي لهذه الأمم، ومنهم العرب، فلما جاء الإسلام أبغى على جانب منه وهو رق الأسر إذ لم يتمكن من القضاء عليه، خشية إحداث خلل في النظام الاجتماعي والاقتصادي.

وقد قام الخلفاء الراشدون وعلى رأسهم عمر بن الخطاب بترك شعوب الدول التي فتحت عنوة أحراراً مقابل دفع الجزية كما حدث في سواد العراق وبعض أجزاء الشام ومصر.^(٣) ومن المعروف أن الأرقاء يقسمون إلى خمسة أخماس، أربعة أخماس للفتاحين وخمس للدولة. وكان هؤلاء يستخدمون في مجالات عدة بدءاً من الأعمال المنزلية وانتهاء بزراعة الأرض وفلاحتها وقد استخدم خالد بن يزيد عندما كان والياً على حمص أربعئة عبد في بناء مسجد لها وأقام عبد الملك منهم خدماً لمسجد قبة الصخرة.^(٤) ومنهم من كان يستخدم في خدمة المقعدين والزمنيين والعميان.^(٥) كما عملوا في الأرض، وكانت المزرعة إذا وهبت، وهبت مع آلائها ورقيقها.^(٦) وكان للرقيق بعض الحقوق المتواضعة، من ذلك الزواج، ولكن شريطة أن يكون بإذن سيدهم وينبع أولاده الأم في حالة رفقها أو ولائها، وبمقدورهم أن يمتلكوا الأموال ويتمتعوا بها في حياتهم ولكن هذه الأموال ترجع إلى سيدهم عند بيعهم أو موتهم. وقد أصبح بعضهم تلامذة أو رواة لأهل العلم وبعضهم أصبح وكلاء عن سيده في أعماله التجارية وحصل بعضهم على إذن بممارسة مهنة أو عمل خاص في الصناعة والتجارة.

(١) د. عبد العزيز الدوري / مقدمة في التاريخ الاقتصادي / ط٢ / دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت / ١٩٧٨ / ٤٢.

(٢) انظر تاريخ الطبري حوادث سنة ١٩٨٢.

(٣) انظر فتوح البلدان / ٢١٥-٢١٦.

(٤) المقدسي: شمس الدين / أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم / تعليق غازي طليمان دمشق / ١٩٨٠ / ١٧١.

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٤٨.

(٦) المسعودي / مروج الذهب معادن الجواهر / ط١ / دار الأندلس / ١٩٦٥م / ج٣ / ١١٩.

الفصل الأول

المرأة في إطار النوع

الفصل الأول

المرأة في إطار النوع (المرأة النموذج)

شكلت المرأة في شعر العصر الأموي جلّ حياة الشاعر، فكان لها حضور كبير ومتميز، كما تبدو من خلال شعر شعرائه؛ ليس فقط فيما يخصّ هذا الكم الهائل من الشعر الذي اختص بالحديث عن المرأة من حيث الوقوف على أطلالها، ووصف ظعننها، وذكر صفاتها الجسدية والمعنوية، ولكن من حيث إنها كانت المحرك العاطفي والنفسي للرجل في حياته المدنية والعسكرية والقبلية، فلاحلها وأجل عيالها كان يخرج للقاء الممدوح ومدحه، ولحفظها من السبي والذل كان يقاتل أعداءه بعنف وشجاعة، وأمامها كان يفخر برجولته وشجاعته وأسفاره، ولنيل إعجابها كان يتجمل ويتعطر، ومن خلالها أيضاً كان ينفذ لهجاء خصومه.

ولعل المقدار الأكبر من شعر هذا العصر الذي صرفه الشاعر الأموي في المرأة؛ كان لذكر صفاتها جسداً ونفساً، ووصف زينتها ووسائل التجميل عندها، فقد تفتن هذا الشاعر في رسم صورة "المرأة النموذج" سواء من حيث الشكل الخارجي، أم من حيث الصفات المعنوية التي يرغب أن تتحلّى بها هذه المرأة. وسواء أكانت امرأة حبيبة أم زوجة، وسواء أكانت موجودة في الواقع أم في خياله، وسأتناول بداية صفات المرأة المادية ثم المعنوية وبعدها أعرض لوسائل الزينة والتجميل التي اعتمدتها لإبراز جمالها، كما جاءت عند الشاعر الأموي. وقد كانت المرأة في كل ذلك تقدم في إطار النوع الأنثوي أو "المرأة النموذج" كما يمكن أن نسمي.

أولاً: الصفات المادية

تبارى الشعراء في رسم صورة المرأة الجمالبة من حيث تفاصيل أجزاء هذه الصورة حتى الصغيرة منها، كما شبهوها بتشبيهات مختلفة؛ كانت في الغالب من واقع بينتهم الطبيعية، فكانت كأنها تمثال تنافس الشعراء في نحته وتجميله.

لقد نثر بعض الشعراء أجزاء من صورة المرأة في ثنابا فصائده كأن يشبه عينيها المكحولتين الواسعتين بعيني الجؤذر، وجيدها بجيد الغزال، وأسنانها بالأقحوان، وجاء بعضهم الآخر على كثير من صفات المرأة في القصيدة الواحدة، فرسم لها لوحة تكاد تكون متكاملة، ومن هؤلاء ذو الرمة، ونابغة بني شيبان، وعمر بن أبي ربيعة، وغيرهم.

كان الواحد منهم يَفْصَلُ في جسد محبوبته تفصيلاً يكاد يكون كاملاً. بدءاً من الشعر والعيون وانتهاءً بالكعب.

كانت المرأة عندهم طويلة طولا معتدلاً كعود النقا، وكان شعرها أسود طويلاً كثيفاً منسدلاً على كتفيها، أو مسرحاً على شكل ضفائر أو عقائص. وهي تهتم اهتماماً كبيراً بتطبيبه بأنواع الطيب المختلفة وبطريقة متقنة. أمّا عيونها، فهي سوداء واسعة مكحولة، كعيون المهابة المدعورة، أو كعيون الغزالة التي تحنو على وليدها. أمّا لونها فأبيض ناصع مصقول، وقد بُشَاب بصفرة من أثر التضمخ بالطيب، وهي مشرفة تشبه الشمس أو النبر في ذلك، بل تتفوق عليهما بما حباها الله من صفات خاصة بها. وأما خدّها فتناعم أسيل خال من كل عيب. تزين وجهها الشفاه الحوّة واللثة الحمشة، والأسنان الأشرة؛ التي تشبه الأفجوان، أو البرد في لونها الأبيض المصقول؛ وبذا فهي تتناسب مع لون الشفاه الحوّة كما تناسب لون العيون والشعر الأسودين مع لون الوجه الأبيض. أمّا عنقها، فهو عنق طيبة لطوله وامتلأته ونعومته. وآثروا أن تكون هذه الطيبة مشرّبة النظر، أو نمدّ عنقها إلى ابنها. أو إلى القطيع الذي ابتعد عنها، وفي ذلك إظهار لطول العنق وجماله. ثم ينتقل إلى وصف نحرها الأبيض الناصع الذي تزينه الحليّ. وهي امرأة كعاب، غرثى الوشاح لضمور خصرها، وبطنها كغمد السيف، وأردافها ثقيلة ككتيب الرمل. عجاء، تنوء بها عجيزتها مما يجعلها تترجرج في مشيتها. وهي لقاء الفخذين خدلة السافين والمعصمين؛ يكاد كل من خلخالها ودملجها يتكسران من امتلائهما، ربّاً المعاصم. وأناملها المخضوبة كالعنم، وغير المخضوبة كالدّبي في رفتها وملاسنها ونعومتها. أمّا كعبها فلا يبدو لعظمه حجم، وهي بشكل عام تامة الخلق، ممثلة العظام ربّاً، مكورة، ليست برهلة، خود، رقيقة البشرة، راثقة البدن، شابة، تشبه الدمى الموضوعة في دور العبادة في جمالها وإشراقها ونعومتها.

وسأعرض فيما يلي للصفات التي ذكرتها سابقاً بتفاصيلها المختلفة على النحو التالي:

الشعر: أكثر شعراء العصر الأموي من وصف جمال شعر المرأة، فهذا الراعي النميري يقول في مقدمة قصيدة له:

والدّل والنظر المُستأنِس الساجي	ألا أسلمي اليوم ذات الطّوّف والعاج
والفاجِم الرّجُلِ المستورِد الداجي	والواضح الغرّ مصقول عوارضه

وَحُفِّ أَثْبَثٍ عَلَى الْمَتْنَيْنِ مُنْسَدِلٍ مَسْتَفْرَعٍ بدهانِ السَّوَرِ مَجَّاجٍ^(١)

فشعرها الفاحم مسرح، طويل، وكثيف في آن واحد، وكذلك مدهون بدهان الورد ممسوح به مسحاً جيداً حتى وصل إلى جلدة الرأس.

وقال في قصيدة أخرى:

سَبْنُكَ بَعِينِي جُودِرِ حَقَلْتُهُمَا رِعَاتٌ وَبَرَّاقٌ مِنَ اللَّوْنِ وَاضِحٌ
وَأَسْوَدَ مِبَّالٍ عَلَى جَبَدٍ مُغْزَلٍ دَعَاها طَلَى أَحْسَى بِرَمَّانٍ رَاشِحٍ^(٢)

فجمال هذه الصورة يبدو في هذا الشعر الأسود الذي يميل على عنقها الذي يشبه عنق الغزالة المغزل التي ترنو إلى ولدها، وتحنو عليه، مما يظهر جمال الشعر المنسدل فوق عنقها الطويلة الممدودة.

وشبهه العرجي بركام العنب المدمج: أي المتراكم المتداخل بعضه ببعض مع استقامته. قال:

تَرِيكَ وَحُفّاً فَوْقَ جَبَدٍ لَهَا مِثْلُ رُكْسَامِ الْعَنْبِ الْمَذْمُوجِ^(٣)
ومن خلال هذا الشعر يمكن للإنسان أن يرى مظاهر النعيم ممثلاً ليس في عملية تطيب الشعر فقط، وإنما في كثرة هذا الطيب أيضاً:

وَتَرَى النِّعِيمَ عَلَى مَفَارِقِ فَاخِمٍ رَجُلٍ نَعْلٌ أَصُولُ سَهْ الْأَدَهَانِ سَا^(٤)
ومثله قول المتوكل الليثي:

وَأَسْحَمَ مَجَّاجِ الدَّهَانِ كَأَنَّهُ بِأَيْدِي النِّسَاءِ الْمَاشِطَاتِ مِثَانِي^(٥)

(١) ديوانه / ١١٨-١١٩ / الرجل: المرجل وهو الشعر المسرح، الشعر الوارد: المسترسل الطويل، الوحف: الشعر الأسود أو الكثير الحسن، الأثيث: الغزير الطويل.

(٢) ديوانه / ١٥٧ / الرعات: من حلي الأذن، حفل الشيء: زينته وحلاه، مغزل: ذات غزال، ورمّان: جبال لطبي.

(٣) العرجي / ديوانه / شرح وتحقيق خضر الطائي ورشيد العبيدي / ط١ / الشركة الإسلامية للطباعة والنشر - بغداد / ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م / ١٨.

(٤) القطامي / ديوانه / تحقيق إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب / ط١ / دار الثقافة - بيروت / ١٩٦٠ / ٥٧.

(٥) المتوكل الليثي / شعره / تحقيق د. يحيى الجبوري / مكتبة الأندلس - بغداد / ١٩٧٢ / ١٩٢.

وفضبة الطيب في الشعر الأموي شائعة، فقد ردد الشعراء استخدام المرأة للطيب بأنواعه المختلفة ما كان منها للشعر أو للبدن، ولعلّ قيمة الطيب هنا تبدو في رائحته الطيبة المنبعثة منه، وليس هذا، حسب، بل أكثر الشعراء من إظهار كثرة الطيب، وإتقان المرأة لعملية التطيب نفسها بحيث إنها تعلّ متون الشعر، إلى أن تصل بها إلى جلدة الرأس.

ويشير البيت السابق كذلك إلى فضبة تسريح الشعر أو تمشيطه بطرق مختلفة، وسأعرض لهذا الأمر لاحقاً حينما أتحدث عن زينة المرأة وتجميلها.

ويبدو أن العربي الذي عشق اللون الأسود للشعر قد كره اللون الأشقر، كما كره الشعر القصير، أو القليل، قال ذو الرمة:

هَجَانٌ تَنْتَ الْمِسْكَ فِي مَتْنَعِمٍ سُخَامُ الْقُرُونِ غَيْرُ صَهْبٍ وَلَا زَعَرٍ^(١)
وقال شبيب بن البرصاء:

وَوَارِدٍ كَعَذْوَقِ النَّخْلِ زَبْنَهُ مَنَّ الْجَدَاوِلِ لَا زَعَرٍ وَلَا كَسَادِي^(٢)
وقال يزيد بن الطثيرة:

وَأَسْوَدَ مَبَادٍ عَلَى حَبْدٍ عَوْهَجٍ جَعَادَ النَّوَاحِي غَيْرُ زَعَرٍ ذَوَائِبُهُ^(٣)

وهذا يُعَدُّ من الفروق في النظرة الجمالية للشعر في عصر الدراسة، وعصرنا الحاضر؛ إذ أصبح الشعر القصير واللون الأشقر خاصة من ركائز الجمال عند المرأة المعاصرة أحياناً، ولعلّ اللون الأسود أو القريب منه، كان يمثل صفة المرأة العربية، ونقاء هذه الصفة هو مما كان يعتز به العرب ويلحّون عليه.

وهكذا استطاعت المرأة العربية أن تشغل بال الرجل بشعرها الأسود الطويل الكثيف، المسترسل على عنق أبيض جميل أيضاً، الذي غالباً ما يكون مدهوناً بأنواع الطيب المختلفة.

(١) ذو الرمة / ديوانه / تحقيق د. عبد القدوس أبو صالح / ط ٣ / مؤسسة الرسالة - بيروت / ١٩٩٣ / ج ٢ /

ص: ٩٥٦ / هجان؛ بيض، سخام؛ لين.

(٢) نوري حمودي القيسي / شعراء أمويون / بغداد / ١٩٧٦ / ج ٢ / ٢٢٦.

(٣) يزيد بن الطثيرة / شعره / د. ناصر الرشيد / دار الوثيقة - دمشق / د.ت / ٤٧. الموهج؛ الطويلة.

- ٤٠ -

الوجه: يبقى الوجه هو العنصر البارز في الإنسان، وغالباً ما يكون مستقبلاً ظاهراً لا يستره شيء بل هو أول ما يلحظه الناظر من قبيله. وكان كذلك بالنسبة للشعراء الأمويين الذين أداموا النظر في وجه محبوباتهم: فتناولوا شكله ولونه ونعومته وما فيه من تفاصيل فأما اللون، فقد استحبوا اللون الأبيض. قال عروة بن أذينة:

حَسَنُ السَّوَالِفِ بِيضُ الْوَجْهِ مِنْهَا الْخَطَى قَنْدَرُ أَشْبَارِهَا (١)

ولا يخفى تناسب هذا اللون الأبيض مع لون الشعر الأسود الذي سبق الحديث عنه. وقد أضاف شعراء هذا العصر صفة الإشراق، وكذلك صفة النعومة والملاسة لهذا اللون، واشترطوا نقاء اللون.

قال الخطيم المحرزي في وصف وجه محبوبته وصفاء لونه:

لَعَمْرُكَ مَا أَحْبَبْتُ عَرَّةً عَنْ صَبَا صِبْنُهُ وَلَا نَسْبِي فَوَادِي تَعَمُّدَا
ولكنني أَبْصُرْتُ مِنْهَا مَلَا حَكَةً وَوَجْهًا نَفِيًّا لَوْنُهُ غَيْرُ أَنْكَدَا (٢)

وقال ذو الرمة يصف لون وجهها المشرق وملاسته وخلوه من الخالات والندوب:

تُرْبِكَ سَنَّةٌ وَجَسَدٌ غَيْرُ مَقْرَفَةٍ مَلَسَاءَ لَبَسَ بِهَا خَالٌ وَلَا نَسَدَبٌ (٣)

وأحبوا الوجه المشرق فشبهوه بالشمس، قال ذو الرمة:

بُوجِهِ كَقَرْنِ الشَّمْسِ حَرٌّ كَأَنَّمَا تَهِيضُ بِهِذَا الْقَلْبِ لِمَحْتَتُهُ كَسْرًا (٤)

وشبهوه بالدينار، قال النابغة الشيباني:

لَهَا سَوَالِفٌ غَزْلَانٍ وَأَوْجَاهُهَا مِثْلُ الثَّنَائِيرِ حَرَّاتِ الْأَشَانِيْبِ (٥)

وأحبوا استدارة الوجه وفخامته، وهي صفة تدل على النبيل والامتلاء مع الجمال

والمهابة. قال النابغة الشيباني:

(١) عروة بن أذينة / ديوانه / تحقيق د. يحيى الجبوري / ط٢ / دار القلم- الكويت / ١٩٨١ / ص ٢١٧

وانظر ص ١٤٣ / وانظر كذلك ديوان الراعي النميري / ١٢٠.

(٢) شعراء أمويون / ج١ / ص ٢٦٢.

(٣) ديوانه / ج١ / ص ٢٩ / غير مقرفة: غير هجينة.

(٤) المصدر السابق / ج٢ / ص ١٤١٦ / الحر: العتيق، قرن الشمس: حرفها وجانبها.

(٥) النابغة الشيباني / ديوانه / تحقيق د. عبد الكريم يعقوب / وزارة الثقافة - سوريا - دمشق / ١٩٨٧ / ص

١٦٥ / الأشانيب: الأنثاب.

لها وجه كصحن البدر فخم^١ وَمُنْسَجِرٌ عَلَى الْمُتَنِينَ سُودٌ^(١)

ونظروا إلى خد المرأة. فأحبوه أسبلا ناعما كالمرآة بسحر الألباب. قال عمر بن أبي ربيعة:

وَحَدَّ أَسْبِلَ كَالْوَذِيلِ نَاعِمٍ مَنَى بَرَّةً رَأَى بِهَيْلٍ وَبُسْحَرٍ^(٢)

وأحبوه كذلك ممثلاً مشدوداً. قال الأحوص في صاحبه:

مِنِ الْمَدْمَجَاتِ اللَّحْمِ خَدًا كَأَنَّهَا عَنَانٌ صَنَاعٌ مَدْمَجُ الْقَتْلِ عَضْدًا^(٣)

وأحبوا كذلك لونه الوردى. قال مجنون بني عامر:

مُبْتَلَّةٌ هَيَّاءٌ مَهْضُومَةٌ الْحَشَا مُورَدَةٌ الْخَدَّيْنِ وَاضِحَةُ النَّثْرِ^(٤)

والمرأة المحبوبة عندهم وضاحة الجبين. قال المتوكل:

وَبِوَاضِحِ الذَّفَرَى أَسْبِلَ خَدَّهُ صَلَّتِ الْجَبِينَ وَفَاحِشِ مَيْتَالٍ^(٥)

وهي وضاعة منيرة، شعاع وجهها يغني عن الشمس والبدر. قال مجنون بني عامر:

أَلَمْ تَعْرِفُوا وَجْهَهَا لِلْبَلَى شَعَاعَهُ إِذَا بَرَزَتْ يَغْنِي عَنِ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ^(٦)

وعلى هذا يكون وجه الفتاة متكامل الجمال، فهو ذو لون أبيض مشرق، وضأة كالشمس أو البدر، خال من كل غيب أو أثر، جبينها واضح، وخدها ناعم أسبل، كل ذلك في إطار من الضخامة والامتلاء والنعومة. وقد قام الشاعر الأموي بوصف بقية تفاصيل وجهها: عيونها، أنفها، فمها... فجعل كل هذه الأجزاء متناسقة فيما بينها، ومتناسقة مع عناصر الجمال الأخرى التي ذكرها في وجهها، كما سيأتي.

(١) البابنة الشيباني / ٩٦ / المنسجر: الشعر المرسل.

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة / ديوانه / تحقيق محيي الدين الدين عبد الحميد / دار الأندلس - بيروت -

لبنان / ١٠٤. وانظر كذلك ديوان العرجي / ٧٢.

(٣) الأحوص الأنصاري / شعره / جمع وتحقيق د. إبراهيم السامرائي / مطبعة النعمان / النجف الأشرف /

١٩٦٩ / ٥٩. العضد: الساعد وهو ما بين المرفق إلى الكتف.

(٤) مجنون لبلى / ديوانه / شرح يوسف فرحات / ط ١ / نشر دار الكتاب العربي / ١٩٩٢ / ١٠١.

(٥) ديوانه / ١٧٣. الذفرى: الرائحة الذكية. الصلت: الواضح. وانظر كذلك ديوان عمر بن أبي ربيعة / ١٢٥.

(٦) ديوانه / ١٠١.

- ٤٢ -

العين: لقد رأى شعراء هذا العصر في العيون مصدراً من مصادر السحر. بشدهم نحو محبوبانهم. فأكثرُوا الحديث عنها. وعن مفعولها في قلوبهم. وتغننوا في وصف نظرات المحبوبة إليهم؛ تلك النظرة التي أدت بهم إلى الوقوع في حبائلها، كما يقولون.

وقد أحبَّ الشعراء من العيون ذوات اللون الأسود؛ لبتناسب ذلك مع لون الشعر الأسود والوجه الأبيض المشرق. قال ذو الرمة:

تَكَلَّلْنَ أَبْوَابَ الْخُدُورِ بِأَعْيُنٍ غَرَابِيبَ وَالْأَلْوَانِ بِيَضِ نَوَاصِعِ^(١)
وأحبوها كذلك برجاء كحلاء،
قال ذو الرمة:

كحلاءَ فِي بَرَجٍ، صَفراءَ فِي نَعَجٍ كأنها فضةٌ قد مسَّها ذهبُ^(٢)
وقال في مكان آخر في الأعين الكحل:

من المُشْرِقاتِ البَيضِ فِي غيرِ مَرَهَةٍ ذَوَاتِ الشِّفَاكِ الحَوِّ والأَعْيُنِ الكَحْلِ^(٣)

ولكن هذا الاتساع وهذا اللون الأسود مشروطان بأن تكون العين سليمة من العمش.

قال النابغة الشيباني:

أَجَادَ بِهَا بِحُورٌ مِنْ بَحُورٍ وَعَيْنٌ مِنْ نَسَاءٍ غَيْرِ عُمُشٍ^(٤)

وقد شبه الشعراء عين المرأة بعين الغزال، والمها، أو الطيبة فرآها المتوكل اللبثي تشبه عين أحور شادن:

تُصَيِّبِي الحَلِيمَ بِعَيْنِ أَحُورٍ شَادِنٍ تَقْرُو دَوَافِعَ رَوْضَةٍ مُحَلَّلٍ^(٥)

لقد استغل الشاعر المكان الذي فيه الشادن ليركز على حدّة نظره. ففي هذه الحدّة قوة تأثير على مطلقها، وهذا واضح من شدة تأثيرها في قلب الرجل الحليم المعتز وقدرتها على إغوائه. وشبهه بهذا قول الأخطل الذي زاد عليه صفة الكحل قال:

(١) ديوانه / ج ٢ / ١٢٩٠. غرابيب: سود

(٢) المصدر السابق / ج ١ / ٢٣. والبَرَج: سمة العين في شدة بياض صاحبها. النعج: البياض.

(٣) نفسه / ج ١ / ١٤٣.

(٤) ديوانه / ٧١. العين: جمع عينا، وهي التي عظم سواد عيناها في سعة العمش؛ ضعف رؤية العين مع سيلان دميها.

(٥) ديوانه / ١٧٢. تقرو: تخرج من أرض إلى أرض. الدوافع: مدافع المياه التي تجري فيها. محلل: يحل بها الناس كثيراً.

غَرَاءَ فَرَعَاءَ مَصْفُولٍ عَوَارِضَهَا كَانَتْهَا أَحْوَرُ الْعَيْنَيْنِ مَكْحُولٍ^(١)

أما العَرَجِي، فقد شبه عيني محبوبته بعيني شادن أدعج بأوي إلى أمه الرؤوم قال:

فَمَا اسْتَطَاعَتْ غَيْرُ أَنْ أُوْمَأَتْ نَحْوِي بِعَيْنَيَّ شَادِنٍ أَدْعَجِ
بِأُويٍ إِلَى أَدْمَاءَ مِنْ حَبَّتْهُ نَحْنُو عَلَيْهِ رَائِمٌ، عَوْهَاجِ^(٢)

وشبه عروة بن أذينة المرأة بالطيبة البكر فقال:

لِلطَّيْبَةِ الْبِكْرِ عَيْنَاهَا وَتَلَعَّتْهَا فِي حُسْنٍ مُبْتَسَمٍ مِنْهَا وَعِزْنِ^(٣)

وقد أكد الشعراء صفة البكارة هذه في المرأة، ورأوا فيها ميزة لا تتوافر للثيب.

أما مجنون لبلى فاختر لها عين الخازل، وقد ركز على طبيعة النظر أكثر من جمال العين المجرد، واختار لتلك التشبيه الدائري^(٤)

فَمَا أَمَّ خُشْفٍ بِالْعَقِبَيْنِ تَرَعَوِي إِلَى رَشَأٍ طَقَلٍ مَفَاصِلُهُ خَذَرُ
بِمَخْضَلَةٍ جَادَ الرِّبْعَ زَهَاءَهَا رَهَائِمٍ وَسَوِيٍّ سَحَائِبُهُ غَزَرُ
وَقَفْنَا عَلَى أَطْلَالٍ لَيْلَى عَشْبَةٍ بِأَجْرَعِ حَزَوِيٍّ وَهِيَ طَامِسَةٌ دُثْرُ
بَجَادَ بِهَا مُزْنَانِ: أَسْحَمَ بَاكِرُ وَآخِرُ مَعْهَادِ الرَّوَّاحِ لَهُ زَجَرُ
وَأَوْفَى عَلَى رَوْضِ الْخُزَامَى نَسِيمُهَا وَأَنَوَارُهَا وَاحْضُوضَلُ السُّورِقُ النَّضْرُ
رَوَاحًا وَقَدْ حَنَّتْ أَوَائِلَ لَبْلُهَا رَوَائِحَ لِلْإِظْلَامِ أَلَوَائِهَا كَذَرُ
تَقَلَّبَ عَيْنَيَّ خَازِلٍ بَيْنَ مُرَعَوٍ وَأَنَارِ آيَاتٍ وَقَدْ رَاحَتِ الْعُزْرُ
بِأَحْسَنَ مِنْ لَيْلَى مَعْبَدَةٍ نَظَرُ إِلَيَّ التِّفَانُ حِينَ وَلَّى بِهَا السَّفَرُ^(٥)

فالشاعر قد أثارته نظرة المحبوبة إليه حينما ارتحلت مع قومها، فشبها بنظرة أم الطيبي التي تهرع إلى ابنها الصغير الضعيف في أرض بللها الندى. وبدت نصارتها بغضل ما جاءت عليها السحب من أمطار خفيفة، تقلب هذه الأم عيني خازل عاد تاركاً

(١) ديوان الأخطل/ شعره/ تحقيق فخر الدين قباوة/ ط٢/ دار الأفاق الجديدة- بيروت ١٩٧٩/ ج١/ ٥٦.

(٢) ديوانه/ ١٨.

(٣) ديوانه/ ١١٤.

(٤) التشبيه الدائري مصطلح أطلقه الدكتور عبد القادر الرباعي على هذا النوع من التشبيه، انظر بحثه

"التشبيه الدائري في الشعر الجاهلي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية/ جامعة الكويت/ الكويت/

١٩٨٥، المجلد الخامس/ العدد ١٧ / ١٢٥-١٥٢.

(٥) ديوانه/ ٨١-٨٢.

-٤٤-

آثاره، وقد رحلت سائر الطباء؛ هذه النظرة بما فيها من إشفاق على ابنها وحزن وتحسر على حالها؛ لبست بأحسن من نظرة ليلي إليه حينما حان وقت رحيلها مع المسافرين.

وشبهه معن بن أوس عين محبوبته بعين الجؤذر بقوله:

سَبَتْنِي بَعِينِي جُؤْذَرٌ بِخَمِيلَةٍ وَجِدِرُ كَجِدِرِ الرُّثْمِ زَيْنَهُ النَّظْمُ (١)

وإذا كان معن قد شبه عيني محبوبته بعيني ولد البقر بخميلة؛ وهذا أجود في رسم الصورة، فإن عمر بن أبي ربيعة زاد عليها، فشبهها بعين المهابة التي تبغي جؤذرها.

وَعَيْنِي مَهَابٌ فِي الْخَمِيلَةِ مَطْمَلٌ مَكْحَلَةٌ تَبْغِي مَرَاداً لَجُؤْذَرٍ (٢)

إن جعل الطيبة أو المهابة ترعى في خميلة، أو ما شابه ذلك زاد في جمال الصورة التي يبغونها، ذلك بأنهم أضافوا إليها عناصر جمالية أخرى مأخوذة من بيئتهم الطبيعية، أما عمر، فقد زاد عليها بعداً إنسانياً مهماً بإضافته صفة الأمومة على هذه المهابة التي ترعى في الخميلة، مما أعطى الصورة بعداً نفسياً مؤثراً بالإضافة إلى البعد الجمالي.

وبلاحظ كثرة الحديث عن سحر العيون إذ إن الشعراء رأوا في عيون محبوباتهم ملاحظة تشدهم وتفعّل فعل السحر، بل هي أدهى من السحر التباساً في القلوب وتعلقاً في النفوس. قال ذو الرمة:

وَعَيْنٌ كَعَيْنِ الرُّثْمِ فِيهَا مَلَا حَةٌ هِيَ السَّحَرُ أَوْ أَدهَى التَّبَاسُ وَأَعْلَقُ (٣)

وقال في مكان آخر:

وَعَيْنٌ كَسَأَنُ الْبَابِلِيِّينَ لَبَّسًا بِقَلْبِكَ مِنْهَا يَوْمَ مَعْقَلَةٍ سِحْرًا (٤)

أي كعيني هاروت وماروت خلطاً بقلبك سحراً.

(١) معن بن أوس/ ديوانه/ د. نوري حمودي القيسي وحاتم الضامن بغداد، ط١/ ١٩٧٧/ ٣٧. وانظر

كذلك الفرزدق/ ديوانه/ شرح علي فاعور/ ط١/ دار الكتب العلمية- بيروت/ ١٩٨٧/ ٥٥٠.

(٢) ديوانه/ ١٠٤.

(٣) ديوانه/ ج١/ ٤٦٥.

(٤) المصدر السابق/ ج٣/ ١٤١٦. البابليين: هارون وماروت، معقلة: موضح بالبادية.

وقد جعل لها ذو الرمة كذلك فعلا كفعل الخمر:

وعينان قال الله: كونا فكانتا فعولان بالألّباب ما تفعل الخمر (١)

فقد سحرنا الألّباب وذهبتا بالعقول كما تفعل الخمر.

الأنف: أما الأنف فقد أحبه الشعراء معتدل الطول، تاماً، ليس بأقطس، مستوي الأرنبة، وقد شبهوه بأنف الطيبة، وبحث السيف. قال الفرزدق بصف أنف صاحبه بأنه صغير مستوي الأرنبة:

وبواضح ركل تشيف غروبّه. عذب، وأدلف طيب المتشم (٢)

وقال النابغة الشيباني:

عيناء حوراء في أشغارها هدب وليس في أنفها طول ولا دلف (٣)

وقال أيضاً:

مرضى العيون ولم يعلق بها مرض شم الأنوف فلا غلظ ولا قطس (٤)

وقال العرجي مشبهاً أنف محبوبته بحسد السيف:

سبّنتي غداة النحر منها بفاجم وذئ أشير أطرافه لم تثلم
وأنف كحدّ السيف دقّ وحاجب وصدر كفاثور اللجين ومغصم (٥)

ومثله قول معن بن أوس:

وأقنى كحدّ السيف يشرب قبلها وأسنّب رقاف الثايبا له ظلم (٦)

فهو طويل نام ليس بأنرم.

(١) ديوانه / ج ١ / ٥٧٨.

(٢) ديوان الفرزدق / ص ٥٥١.

(٣) ديوانه / ٢٥٦. العيناء: ذات العين الواسعة الحسنه. وأشغارها: جمع شمر وهو أصل منبت الشعر في

حرفي الجفن، الذلف: صفر الأنف واستواء طرفه.

(٤) المصدر السابق / ٧٩.

(٥) ديوانه / ٨٩. الفاثور: الإناء من الفضة.

(٦) ديوانه / ٣٨.

وقال عروة بن أذينة بصف مقدمة أنف محبوبته:

للطبيبة البكر عيناها وتلعتها
في حُسن مَبْنَسَمٍ وعِرنين^(١)

وقد نعتها ذو الرمة بطيبة العرنين. فقال:

سافَتُ بطيِّبة العرنين، مارنُها
بالمِسْكِ والعنبرِ الهنديِّ مختَضِبُ^(٢)

الثغر:

الأسنان والشفة واللثة : لقد اهتم الشعراء اهتماماً كبيراً بالثغر فوصفوا الأسنان، وشبهوها بالأفحوان وبالإغريض والثلج والبرد وجمعها اللون الأبيض. وأحبوا الشفاه الحوّة. واللثة الحمسة. واهتموا كثيراً بريق المحبوبة ووصفوه بالعسل والخمر والمِسْك والكافور إلى غير ذلك.

أما الأسنان، فرغبوا بها مغلّجة في أطرافها أشر.

قال عروة بن أذينة:

ومغلّجٍ خَصِيسٍ الغروبِ ومُضَمَّرٍ
خَلَى لأثناء الوشاحِ مجالها^(٣)

وقال محمد بن بشير الخارجي:

تجلو بفادمني ورفساء عن بردٍ
حُمِرِ المفاغِرِ في أطرافها أشر^(٤)

وقال مجنون لبلى:

خَدَلَجَةَ الساقين بضّ بضضة
مغلّجة الأنبيابِ مصقولة العُمُرِ^(٥)

وقال عمر بن أبي ربيعة:

وتَبَسِمَ عن غرٍّ شَتِيتِ نَبَاتَه
له أشر كالأفحوان المنوّرِ^(٦)

(١) ديوانه / ١١٤. تلعتها: عنقها الطويل. العرنين: عرنين الأنف وهو أوله حيث يكون الشمم.

(٢) ديوانه / ج ١ / ٣١.

(٣) ديوانه / ١٤٣.

(٤) شعراء أمويون / ج ٣ / ١٨٢ جمع مفتر: مشق الفم، يريد الشفتين. الأشر: حدّة ورقة في أطراف الأسنان.

(٥) ديوانه / ١٠٢.

(٦) ديوانه / ١٠٤. وانظر كذلك / ١٤٣.

والأسنان المغلجة هي تباعد ما بين الثنايا والرباعيات. أما الأشر فهو تحزيز في أطراف الأسنان وهو دليل الحداثة والرفقة.

ووصفوها بالانساق والضفل كذلك. قال عمر:

تَنَكَّلُ عَنْ وَاضِحِ الْأَنْيَابِ مُتَسَقٍ عَذْبِ الْمَقْبَلِ، مَصْقُولٍ، لَهُ أَشْرُ (١)

وقال المتوكل في لمعان وتلألؤ أسنان محبوبته الناتج عن نضاعة لونها، أو مما يكون عليها من ريقها:

خَدَلَجَةٌ تَرِفُ غُرُوبَ فِيهَا وَتَكْسُو الْمُتَنِّنَ ذَا خُصَلٍ سَخَامَا (٢)

وأكثر ما شبهوا هذه الأسنان بالأفحوان وتباروا في وصف الظروف الملائمة لعبثه ونموه. قال ذو الرمة:

وَتَبَسَّمَ عَنْ نَوْرِ الْأَفْحَاسِيِّ أَفْطَرَتْ بِوَعَسَاءِ مَعْرُوفٍ تَغَامُ وَتُنْطَلِقُ (٣)

وقال المتوكل اللبثي:

تَذَكَّرْنِي ثَنَابَهَا وَرَارَا أَفْحَاسِي الرَّمْلِ بِأَشْرَتِ الطَّلَلَا (٤)

وشبهها ذو الرمة بأفحاسي الوسمي:

تَعَاظِيهِ بَرَّاقُ الثَّنَابَا كَأَنَّهُ أَفْحَاسِيَّ وَسْمِيَّ بِسَائِفَةٍ فَقَرِ
كَانَ النَّدَى الشَّتْوِيَّ يَرْفُضُ مَاؤُهُ عَلَى أَشْنَبِ الْأَنْيَابِ مُتَسِقِ الثَغْرِ (٥)

فهذه الأفحاسي قد سقطت عليها أمطار الوسمي. كما أنها نبتت في رملة. مما جعلها أكثر نضارة وعضارة وبالتالي أكثر جمالا.

أما في بيت ذي الرمة الأول. فقد جعل هذا النبت الحسن ينمو في رملة يصيبها الغيم ثم تنفث. وفي ذلك محافظة على نضارتها. أما في بيته الثالث فجعل هذا النبات قد أصيب بغبرة ثم جاء المطر فجلاه. فزاد هذا الوضع من وضوحه ونضارته وجماله. أما المتوكل اللبثي. فقد جعل هذا الأفحوان من أفحوان الرمل الذي أصابه الندى.

(١) ديوانه / ١١٢ / وانظر كذلك ديوان الفرزدق / ٥١١.

(٢) ديوانه / ١١٢.

(٣) ديوانه / ج ١ / ٤٦٦. وانظر كذلك / ج ١ / ٥٨٠. المعروف: اسم موضع بالدهناء.

(٤) ديوانه / ١٤٠.

(٥) ديوانه / ج ٢ / ٩٥٥.

فهم يجمعون على أن هذا الأفحوان بنبت في الرمل وهو أفضل له. وقد أصابه
مطر خفيف زاد من جماله ونضارته.

وقد اختار نابغة بني شيبان الإغريض ليشبه به أسنان محبوبته:

كَأَنَّ أَفْوَاهَهَا الْإِغْرِیضَ إِذْ بَسَمَتْ أَوْ أَفْحَوَانَ رَبِیْعٍ ذِي أَهَاضِیْبٍ^(١)

والإغريض: ما هو أبيض في داخل الطلع. وهو أول ما يبدو من ثمرة النخيل، أو
أفحوان الربيع المروي بالمطر، وهو بذلك يكون أنصع لونا، وأطيب رائحة، وبالتالي أكثر
جمالا.

وقد شبه جرير أسنان محبوبته بالثلج لبياضها:

تَرَكْتُ بِنَا لَوْحًا وَلَوْ شِئْتُ جَادِنَا بَعِيدَ الْكُرَى تَلَجَّ يَكْرِمَانُ نَاصِح^(٢)
وشبهه الفطامي بالبرد:

لَبِستُ نَرَى عَجْبًا إِلَّا بَدَأَ بَرْدٌ غَرَّ الْمَضَاحِيكَ ذُو نَوْرٍ إِذَا ابْتَسَمَا^(٣)

فرغم أن ما يجمع هذه الأبيات هو اللون الأبيض إلا أن هناك فوارق بينها. فقد
جعل جرير في البيت الأول أسنان محبوبته في بياضها ونصاعتها كالثلج. وحدد ذلك
بزمن "بعيد الكرى" أي الوقت الذي يكون بعد النوم مباشرة. وهو وقت قد يتغير فيه
لون الأسنان، وبالتالي فيه إشارة إلى عذوبة ريقها. أما الفطامي فقد شبه أسنان
محبوبته بالبرد، وهو ذو لون أبيض، إلا أنه وصفه في صورة مركبة جميلة بقوله "لبست
نرى عجباً إلا بدا برد" أي أنه يصف لنا فعل محبوبته حينما تستغرب أمراً فتبدو منها
حركة معينة "تكشف عن أسنانها البيضاء بياض البرد. وأما عمر، فقد أشار أيضاً إلى أن
طعم ريقها كالعسل، ولونه كالبرد تشكل من مزنة متحركة.

إلا أن بعض الشعراء آثر أن يصف أسنان محبوبته مباشرة بالبياض.
قال ذو الرمة:

غَرَّ الثَّنَائِيَا بِسُتْبِينَ الْأُمْرَدَا وَالْأَشْمَطَ الرَّأْسِ وَإِنْ نَجَلَّ دَا^(٤)

(١) ديوانه / ١٦٦.

(٢) جرير / ديوانه / تحقيق نعمان محمد طه / دار المعارف - مصر ١٩٦٩ / مج ١ / ٢٦٦. اللوح: العطش.

(٣) ديوانه / ٩٨. وانظر كذلك ديوان عمر بن أبي ربيعة / ١٢٠.

(٤) ديوانه / ج ١ / ٢٩٢.

وأشار الشعراء كثيراً إلى استعمال المرأة السواك، وكن يتخذنه من شجر الآراك أو البشام، أو غير ذلك، ومنه قول الراعي:

عَذَابُ الْكَرَى يَشْفِي الصَّدَى بَعْدَ رَقْدَةٍ لَهُ مِنْ عُرُوفِ الْمَسْتَظَلَةِ مَائِحٍ (١)

وقول جرير:

تَشْفِي امْتِباحاً نَدَى الْمَسَوَاكِ رِيْقَتَهَا كَمَا تَضُمَّنُ مَاءَ الْمَرْزَفِ الرَّصْفُ (٢)

ولا تخفى الإشارة إلى استخدام المرأة السواك، إذ فيه إشارة إلى اهتمامها بنظافة فيها أولاً، وإلى طيب رائحته ثانياً، إذ إن بعض أنواع السواك كان يؤخذ من شجر ذي رائحة طيبة كالـبشام، وهذا يفيد بالتالي في عذوبة طعم فيها كما سيأتي.

وقالوا في شفتيها إنها لمياء، سمراء اللون، حواء، وذلك ليظهر لون الأسنان ولعانها، إذ باجتماع الضدين يظهر جمال الجميل منهما، قال ذو الرمة:

لَمِيسَاءَ فِي شَفَتَيْهَا حَوَّةٌ لَعَسَ وَفِي اللِّثَاتِ وَفِي أَنْبَابِهَا شَنْبُ (٣)

وقال الفرزدق:

نَجَلُوا بِقَادِمَتَيْ لَمِيسَاءَ عَنْ بَرَدِ حَوِّ اللِّثَاتِ وَجَبِدٍ غَيْرِ مِعْطَالِ (٤)

أما اللثة، فأثروها حُمُشَةً أي دفيقة، قال عروة:

وَتَضَحَّكَ عَنْ حَمَشِ اللِّثَاتِ كَأَنَّمَا نَشَا الْمِسْكُ فِي دُوبِ النَّسِيلِ رَضَابُهَا (٥)

وقال جرير:

مَكْسُوَّةُ الْبَدَنِ فِي لَبِّ بَزِينِهَا وَفِي الْمَنَاصِبِ مِنْ أَنْبَابِهَا عَجْفُ (٦)

الريـق: كثيراً ما جمع الشعراء بين وصف الأسنان وعذوبة الريق وهي من الصفات المكررة منذ العصر الجاهلي؛ إلا أن الشعراء تفاوتوا في التعامل مع هذه الصورة، وفي

(١) ديوانه / ١٥٨.

(٢) ديوانه / مج ١ / ١٧١.

(٣) ديوانه / ج ١ / ٣٢.

(٤) ديوانه / ٤٢١، القادمتان: الشفتان.

(٥) ديوانه / ٢٦١، النسيل: العسل إذا ذاب وفارق الشمع.

(٦) ديوانه / مج ١ / ١٧٠، البدن: الضخم.

ذكر تفصيلاتها، وفي تعقيدها وإسباغ ثقافتهم وثقافة عصرهم عليها، وقد أبدعوا في وصف الريق، وكثيراً ما كانوا يستخدمون التشبيه الدائري في ذلك، قال جرير:

وما ثَغَبَ بانتَ تَصَعَّقَهُ الصَّبَا بسرَّاءُ نَهَى أُنَافِئَهُ الرَوَاشِحُ
بأطيبَ من فيها ولا طَعْمَ قَرْقَفٍ برَمَّانَ لَمْ يَنْظُرْ بِهَا الشَّرْقُ صَابِحُ^(١)

لقد بدأ الشاعر تشبيهه بحرف النفي "ما" الذي أدخله على الثغب، ثم مضى يصف أحوال هذا الثغب، وهو الماء الناقع بعد انحسار السيل وانقطاعه نصفه رياح الصبا بسرَّاء (وهنا تحديد للمكان) ملأته أمطار السحب (وهذا أفضل للماء من حيث النظافة والنقاء). ثم ختمه بالخاتمة المعهودة بأطيب من فيها، فلا هذا الماء ولا هذه الخمر المركزة الموجودة بمكان محدد (رمان) باكرها صاحبها فشربها أطيب من ريق محبوبته.

وقال كثير عزة يصف ريق محبوبته:

وذِي أَسْرٍ عَذِبِ الرَّضَابِ كَانَهُ -إِذَا غَارَ أُرْدَاقُ الثَّرِيسَا السَّوَابِحِ-
مَجَاجَةً نَحْلٍ فِي أَبَارِيقٍ صَفَقَتْ بِصَفَقِ الْغَوَادِي شَعَشَعْتُهُ الْمَجَادِحُ^(٢)

فعدوبة ريقها تشبه عسل النحل الممزوج بالماء المأخوذ من ماء السحب الصافي، وقد زاد في صفائه وتلألؤه إبريق مزج الشراب، كما أكد الشاعر زمان هذه العدوبة، وقت السحر، وهو وقت تتغير فيه طعم الأقواء بعد النوم.

وقال في مكان آخر:

وتَسِيمٌ عَنْ أَغْرٍ لَهُ غُرُوبٌ فَرَاتِ الرِّيقِ لَيْسَ بِهِ قُلُولُ
كَأَنَّ صَبِيبَ غَادِيَةٍ بِلِصْبٍ تُشَجُّ بِهِ شَامِيَةَ شَمُولُ
عَلَى فِيهَا إِذَا الْجُوزَاءُ كَانَتْ مَحَلَّةً وَأُرْدَقُهَا رَعِيلُ^(٣)

فعدوبة ريقها تشبه هنا ماء اللصاب، شديد الصفاء، الممزوج بخمر شامية ذات الرائحة الشديدة التي تشمل برائحتها الناس، ومن هنا فقد أضاف إلى عدوبة الريق ذي الطعم الطيب، الرائحة الطيبة أيضاً التي تكون إلى وقت متأخر من الليل.

(١) ديوانه / مج ١ / ٢٦٧.

(٢) كثير عزة / ديوانه / جمع وشرح د. احسان عباس / دار الثقافة - بيروت / ١٩٧١ / ١٨٦.

(٣) ديوانه / ١١٩ - ١٢٠.

أما النابغة الشيباني، فقد زاد في تركيب الصورة وتعتيدها حيث قال:

تَجَلَوْا بِأَفْنَانٍ أَغْرَّ مَقْلَجَا	بَجَرِي عَلَيْهِ أَرَاكُهَا وَبِشَامُهَا
رَيْفًا بَرَفًا كَالْأَفْحَوَانِ أَصَابَهُ	مِنْ صَوْبِ غَادِيَةِ الرَّبِيعِ رَهَامُهَا
وَكَاَنَّ مِسْكَاً أَوْ شَمُولاً قَرَفْنَا	عَنَقَتْ وَأَخْلَقَ بِالسِّنِّينِ خَنَامُهَا
يَشْفَى بِنَفْحَتِهَا وَرَبِيعِ سِبَاعِهَا	عِنْدَ الشَّرُوبِ مِنَ الرُّؤُوسِ زَكَامُهَا
شَيْتَ بِكَافُورٍ وَمَاءٍ قَرْنَفَلٍ	وَبِمَاءٍ مَوْهَبَةٍ بِسِحِّ قِدَامُهَا
بَجَرِي عَلَى أَنْبَابِهَا وَلِثَانِهَا	لَمَّا تَكْشُورَ وَانْجَلَى إِعْنَامُهَا (١)

فحببته لم تكنف بالآراك لتسوك به أسنانها وإنما استخدمت أيضاً قضبان البشام ذي الرائحة الطيبة، لذلك جاء ريفها برف كالأفحوان، أصابه مطر خفيف دائم مما جعله أذكى وأنضر وأجمل، ثم أضاف إلى جمال هذا الفم المقلج النظيف العطر طيب ريفها حيث شبهه بالمسك أو الخمرة ذات الرائحة الشديدة أيضاً (الفرفف الشمول)، وليس هذا فحسب، بل جعلها خمرة معتقة مضى عليها زمان طويل - وهذا أجود في صفة الخمر - يشفى بنفحتها الزكوم؛ خلطت بالكافور والقرنفل وماء نفرة، وهو أشهى ماء يكون على خمر، خالصة من كل شائبة فكان هذا المشروب بتركيبته السابقة هو ما سال على أنيابها ولثانها.

كما شبه شعراء هذا العصر الريق بنشبهات أخرى كثيرة منها قول عروة بشبهه بالمسك المذاب بالعسل:

وتضحك عن حمش اللثان كأنما	نشأ المسك في دؤب النسيل رضابها
علي قرقف شجت بماء سحابة	لشرب كرام حين فست قطابها (٢)

وزاد عروة على ما سبق بأن جعل هذا الشراب بعد "لشرب كرام" وبالتالي يكون قد أعتني بتجهيزه حتى جاء على أكمل وجه. وشبه الوليد بن يزيد ريق سلمى بالمسك المعل بالزنجبيل أو العسل المخلوط باللبان اللقاح :

فما مسك يعل بزنجبيل	ولا عسل باللبان الفلاح
بأشهى من مجاجة ريق سلمى	ولا ما فسي الزقاق من القراح (٣)

(١) ديوانه / ٢٢٧-٢٢٨. السباع؛ شجر البان، الموهبة؛ نفرة في الجبل يستنقع فيها الماء. القدم؛ المصفاة.

(٢) ديوانه / ٢٦١-٢٦٢.

(٣) الوليد بن يزيد / شعره / جمع وتحقيق د. حسين عطوان / ط١ / مكتبة الأقصى-عمان / ١٩٧٠ / ٣٨.

أما عمر بن أبي ربيعة، فقد جعله كالمسك المزوج بالعسل، والمخلوط بالثلج والخمر المعتقة، قال:

تَنَكَّلَ عَنْ وَاضِحِ الْأَنْيَابِ مُتَسَقِّيًا عَذِبِ الْمَقْبَلِ، مَصْفُولٍ لَهُ أَشْرُ
كَالْمَسكِ شَيْبَ بَذُوبِ النَحْلِ يَخْلِطُهُ ثُلُجَ بَصْهَاءٍ، مِمَّا عَنَقَتْ جَدْرُ (١)

أما ذو الرمة، فقد تخيل ريفها -الذي لم يذقه- كأنه زجاجة خمر طيبة المذاق:
كَأَنَّ عَلَى فِيهَا -وَمَا ذُقْتَ طَعْمَهُ- زَجَاجَةً خَمْرٍ طَسَابَ فِيهَا مَدَامُهَا (٢)

العنق والترائب: كان للعنق والترائب نصيب كبير من اهتمام الشاعر الأموي، فأجاد في وصفهما، متكئاً على أوصاف ونشبهات تعارفت عليها العرب، كما كنى عن بعض هذه الصفات بما هو شائع معروف كقوله: "بعيدة مهوى القرط؛ كناية عن طول عنقها، وأكثر من تشبيه عنق المحبوبة بعنق الطيبة؛ مختاراً له أوضاعاً وظروفاً خاصة. وقد ركز في شعره على طول العنق ولونه الأبيض الناصع وامتلأته وعلى كونه حالياً لا عاطلاً. وقد استطاع الشاعر أن ينفذ من خلال صورته إلى أمور ميزت شخصيته وشخصية عصره في تشبيهاته التقليدية وصوره إلا أنه كان -بلاشك- امتداداً لأسلافه من الشعراء الجاهليين والإسلاميين. لأنه اعتمد على مقاييس للجمال كانت شائعة ومعروفة في مجتمعه، وربما لا يزال بعضها إلى عصرنا الحاضر، وبالتالي لم يبق أمامه سوى التحرك في تشكيل صورته وإضافة ما يمكن إضافته من أمور جديدة.

أكد الشعراء على صفتي الطول واللون في جسد المحبوبة فأكثرُوا من تشبيهها بالطيبة، فمنهم من جعل الطيبة مفروعة، لذا أشرفت بعنقها، وهي أحسن ما تكون إذا أشربت: إذ يظهر جمال طول عنقها ونصاعة لونه. قال ذو الرمة:

لَهَا جَيْدٌ أَمْ الْخِشْفِ رِبْعَتْ فَأَتْلَعَتْ وَوَجْهٌ كَقَرْنِ الشَّمْسِ رِيَّانٌ مُشْرِقٌ (٣)

وفي مكان آخر جعلها ظبية شاردة بكراً:

مِنَ الْوَاضِحَاتِ الْبَيْضِ تَجْرِي عَقُودُهَا عَلَى ظَبْيَةٍ بِالرَّمْلِ فَارِدَةٍ بِكْرِ (٤)

(١) ديوانه / ١١٢.

(٢) ديوانه / ج ٢ / ص ١٣٣٠.

(٣) ديوانه / ج ١ / ٤٦٥/ أتلتعت: أشرفت بعنقها، قرن الشمس: ناحية من الشمس.

(٤) المصدر السابق / ج ٢ / ٩٥١.

ولا يخفى أهمية كون هذه الظبية فاردة فهذا أدعى لبروز عنقها في تمامه ووضوحه، وكذلك الصورة الحركية "تجري عقودها" إذ جعل العقود تجري على عنقها مع جريانها وهذه صورة حركية سمعية في آن واحد.

ومنه قول الراعي النميري:

بَسْبَسْنَ قَلْبِي بِأَطْرَافٍ مَخْضَبَةٍ وَبِالْعَبَّوْنَ وَمَا وَارَبْنَ بِالْخُمْرِ
عَلَى تَرَائِبِ غَزْلَانٍ مَفَاجَأَةٍ رِبَعَتْ فَأَقْبَلْنَ بِالْأَعْنَاقِ وَالْعَذْرِ (١)

ففي قوله أقبلن بالأعناق والعذر زيادة في جمال الصورة عن سابقتها عند ذي الرمة، ففي هذه الحركة إظهار آخر لامتداد العنق وتساقط خصل الشعر عليه مما يزيد في بداعة الصورة وجمالها.

أما الأخطل، فقد اختار الظباء الأدم لتشبيهه جيد محبوبته بها، وهي أطول أنواع الظباء أعناقاً وأضخمها أبداناً، ولها جُدة في متنها:

بَرَوِي الْعِطَاشَ، لَهَا، عَذَبٌ مُقْبَلُهُ فِي جِدْرِ آدَمَ، زَانَتْهُ التَّهَاقِيلُ
حَلْيٌ، بِشَبِّ بَيَاضِ النَّحْرِ وَاقْدُهُ كَمَا نَصَوَّرُ فِي الدَّيْرِ التَّمَاثِيلُ
أَوْ كَالْعَسِيبِ، نَمَاهُ جَدُولٌ غَدِقٌ وَكَنَّهُ وَهَجَ الْقَبْطِ الْأُظْطَالِيلُ (٢)

فهذا الجبد متوقفاً، بلع من الحلْي التي تزيّنه. ويزيد من جماله أيضاً جمال نحرها الناصع البياض تماماً كالتماثيل-التي تكون-في الأديرة، أو هو كالعسيب. وقد اختار له الشاعر ظروفاً بيئية ملائمة ليخرج في أفضل صورة وأنصع لون، فقد نما على جدول كثير الماء، سترته الظلال من وهج الشمس، فجاء في صورته البديعة من حيث الغذاء والنمو ممثلاً لدنأ، ومن جراء حمايته من حرّ الشمس كان أبيض ناصعاً.

ووصفه جميل أيضاً بجيد الأدم، لكنه اختار لها صورة الأم التي تحنو على ولدها بقوله:

وَجَبَدِ أَدْمَاءَ تَحْنُوهُ إِلَى رَشْبٍ أَغْنَى لَمْ يَنْفَعَهَا مِثْلُهُ وَلَدُ (٣)

(١) ديوانه / ١٠٢.

(٢) ديوانه / ج ١ / ٥٥-٥٦.

(٣) جميل بثينة / ديوانه / جمع تحقيق وشرح: د. أميل بديع أيوب / ط ١ / دار الكتاب العربي /

بيروت-لبنان / ١٩٩٢ / ٥٨.

وقد أكثر الشعراء من تأكيد مثل هذه الصورة -صورة الغزالة الأم التي تحنو على ولدها- مما يظهر جمال عنقها أكثر؛ وذلك بامتداده عند حنوها على ولدها، قال شبيب ابن البرصاء يصف ثرائب محبوبته سعدى وعنقها:

قامت تراءى لنا سَعدى فقلتُ لها ماذا تَريدين من فتلي وإقصاري
أُشدتُ ثرائبَ عبلاتٍ وسالفةً وجيّدَ مُغزلةٍ من خير أجيادِ
حالي الثرائبِ والذَفَرى عُفِدُنْ به من لؤلؤٍ وجُمانٍ غيرِ أَفرادِ
تبدو وساوسٌ منها كلما ارتفعتُ هزَّ الجنوبِ استخفَّتْ عَشْرَقَ الوادي (١)

فهذه الجيد جيد مغزلة، وثرائبها ممثلة تزينها الحلبي، وقد أكد الشعراء هذه الصفة (الحالي). قال المتوكل الليثي يؤكد صفة العنق والثرائب الحالية:

سَبَتَنِي بِجَيِّدٍ لَمْ يَعْطَلْ وَلَبَّيْ عليها رِداً لَؤلؤٍ وجُمانِ (٢)
وقال المتوكل في مكان آخر:

ونحُرَّ زانِكُهُ دُرَّ حَلِيٍّ وباقِصوتٍ يَضْمُنُهُ النَظَامُ (٣)

وفي تأكيد صفة الجيد الحالي أُمّان: الأول إظهار مدى جمال العنق إذ إن الحلبي تزيد في أغلب الأحيان من جماله ولمعانه، والثاني إشارة إلى أن هذه المحبوبة مترفة غنية مما يوفر لها هذا الكم الكبير من اللؤلؤ والمرجان وغيرهما من أسماء الحلبي لتتزين به.

وأشار بعض الشعراء إلى أن صفة "العاطل" لا تنقل من جمال محبوبته في شيء . قال النابغة:

شَمْسُ النَّهَارِ وَبَدْرُ اللَّيْلِ سَنَّتْهَا زَيْنُ الْحَلِيِّ وَلَا يَزُرِي بِهَا الْعَطْلُ (٤)

ومن الصفات التي أُلح عليها الشعراء في الجيد واللبات، اللون الأبيض الناصع مما جعلها برافة كالسيف في طوله ولمعانه، قال كثير:

(١) شعراء أمويون / ج ٣ / ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) ديوانه / ١٩٢.

(٣) ديوانه / ١١٦.

(٤) ديوانه / ٢٠٠.

وَأَتْلَعَ بِرَاقٍ كَأَنَّهُ اهْتَزَّازُهُ إِذَا انْتَصَفْتُ لِلرَّوْعِ هِزَّةً مُنْصَلِّ^(١)

وقال ذو الرمة:

بِرَافِئَةِ الْجَبَدِ وَاللَّبَّاتِ وَاضْحَةً كَأَنَّهَا ظَبِيَّةٌ أَفْضَى بِهَا لَبَّ^(٢)

وقد نشوبها صفرة ننتيجة للتطبيب بالزعفران أو بغيره مما يجعل لون الجيد واللَّبَّاتِ يميل إلى الصفرة. قال ذو الرمة:

وَجَبَدٌ وَلَبَّاتٌ نَوَاصِغٌ وَضَّحٌ إِذَا لَمْ تَكُنْ مِنْ نَضَجٍ جَادِبِّهِ صَفَرًا^(٣)

كما أكدوا صفني العنق والكرم فيها كما في قول ذي الرمة أيضاً:

إِلَى مَلْعَبٍ بَيْنَ الْحَوَائِثِ مَنَصَفٍ قَرِيبِ الْمَزَارِ طَيِّبِ التَّرَبِّ مَسْهَلٍ

تَلَاقَى بِهِ حَوْرُ الْعَيُونِ كَأَنَّهَا مَهَا عَقِيدٍ مَحْرُنْجَمٍ غَيْرِ مَجْفَلٍ

ضَرْجُنَ الْبَرُودِ عَنْ تَرَائِبِ حَرَّةٍ وَعَنْ أُعَيْنٍ قَتَلْنَا كُلَّ مَقْنَلٍ^(٤)

أي ما كان لهن أن يكشفن عن هذه الترائب الحرة العتيقة إلا في هذا المجتمع النسائي أمام بعضهن بعضاً.

وانتقل الشعراء من وصف العنق والترائب إلى وصف الصدر. وأكثروا من نعت محبوباتهم بأنهن كواعب. قال النابغة الشيباني:

كَوَاعِبَ أَتْرَابٍ كَأَنَّ حَمُولَهَا مِنْ النَخْلِ عَمْرِي النَخِيلِ الْمَوَافِرِ^(٥)

وشبهه جميل بكافور الرخام في لونه وإشرافه في قوله:

سَبْتَنِي بَعَيْنِي جُودِرٍ وَشَطَّ رَثْرَبٍ وَصَدَّرِ كِفَاشُورِ الرِّخَامِ وَجَبَدِ^(٦)

أما مجنون بني عامر فقد شبهه بحقاق الطيب العاجية:

بِضٍّ تَشَبَّهَ بِالْحِقَاقِ ثُدْبَهَا مِنْ عَاجَةٍ حَكَتِ النَّدَى حَقِاقَهَا^(٧)

(١) ديوانه / ٢٩٠.

(٢) ديوانه / ج ١ / ٢٦.

(٣) المصدر السابق / ج ٣ / ١٤١٧.

(٤) نفسه / ج ٣ / ١٤٦٦-١٤٦٧. محرنجم: مجتمع.

(٥) ديوانه / ٥٩. العمري: القديم. المواقر: من الوقر، وهو الحمل.

(٦) ديوانه / ٦٧.

(٧) ديوانه / ١٤٧.

وأعجبهم في الصدر إضافة إلى اللون الأبيض الناصع والإشراق -صفة الاستدارة
قال ذو الرمة:

بعيدات مهوى كل قرط عقدته^(١) لطاف الحشا تحت الثدي العواليك^(٢)

وهكذا جاء وصفهم للصدر امتداداً لحديثهم عن العنق والترائب، وقد يذكرون معه
صفات جمالية أخرى كجمال العيون وغيرها مما يعطي هذه المرأة الشمولية في الجمال.

الخصر والبطن والعجز: أهتم الشعراء بمنطقة الوسط عند المرأة فتحدثوا عن الصفات
المثلى التي يجب أن تكون عليها، أو الصفات التي يرغبون في أن تكون عليها المحبوبة:
خصرها وبطنها وعجزها وفخذها فاتفقوا على لطافة الكشحين ودقة الخصر. وتعدن
البطن. فلقد أرادها هؤلاء رداً نتهز في مشيتها لثقل عجزتها. حمصانة البطن، هيفاء
الخصر، غرشي الوشاح، لقاء الفخذين، تامة الخلق، مكورة...
قال ذو الرمة:

عجزاء، مكورة، حمصانة، قلق عنها الوشاح وتم الجسم والقصب^(٣)

وقد أثر الشعراء دقة الخصر بل عبروا عن محبتهم لذلك مباشرة، قال المجنون:

زانت روادقها، دقاق خصورها^(٤) إني أحب من الخصور دقاقها^(٥)

ووصفوها مقبلة، مديرة: فضلوها هيفاء في إقبالها، عجزاء في إدارها، حيث
قال عمر بن أبي ربيعة:

هيفاء مقبلة، عجزاء مذبرة تخالها في ثياب العصب ديناراً^(٦)

واستحبوا مع دقة الخصر أن تكون عظيمة العجيزة. قال ذو الرمة:

أنساء تلوث المرط عنها بدعصة^(٧) ركام وتجناب الوشاح قبيلق^(٨)
وتكسو المجن الرخو خصرأ كأنه إهان ذوى عن صفرة فهو أخلق^(٩)

(١) ديوانه / ج ٣ / ١٧٢٠. قلق: استدار

(٢) ديوانه / ج ١ / ٢٨.

(٣) ديوانه / ١٤٧.

(٤) ديوانه / ١٢٠.

(٥) ديوانه / ج ١ / ٤٦٢. إهان: أي دقيق كأنه عود الكيابة. أو العرجون الذي عليه المدوق.

فمن ضخامة عجيزتها أصبحت بطيئة القيام. وقد أكثر الشعراء من تشبيه العجيزة بكئيب الرمل. أما خصرها الدقيق، فهو كالعرجون. وإذا ما مشت فإن أوصالها ترنج لنقل عجيزتها. قال النابغة الشيباني:

ترنج أوصالها لما مشت فضلاً عجزاء عبهرة في كشحها هبت^(١)
وبشبهه قول الفرزدق:

غرنى الوشاح ولكن النطاق بها ثلاث حول رمال ذات أكفال^(٢)
وقريب منه قول المتنوكل الليثي:

خدلجة لها كفّل وبوص بنوء بها إذا قامت فباما
محصرة نرى في الكشح منها على تنقيل أسفلها انهضاما^(٣)

ونقل العجيزة لا يؤثر على لطافة الكشحين عندهم؛ لأنهم اشترطوا معه دقة الخصر. واستحبوا مع دقة الخصر، اللين والسهولة. قال المتنوكل أيضاً:

شموس وشاحها إذا ابتز ثوبها على متن خمسانبسة سلسان^(٤)

كما استحبوا معه أيضاً اللون الأبيض. والنعومة. إضافة إلى الشباب. قال إسماعيل ابن يسار:

نأتك وهام القلب ناباً بذكرها ولج كما لج الخليع المقامر
بواضحة الأقرب، خفاقة الحشى برهرة لا بجنوبها المعاشر^(٥)
وقول النابغة:

عجزاء، عبهرة، غراء مكملة في مقلتيها وإن لم تكتحل كحل^(٦)

(١) ديوانه / ٢٥٧ / العبدة: الرقيقة البشرة الناصعة البيضاء.

(٢) ديوانه / ٤٢١

(٣) ديوانه / ١١٥-١١٦.

(٤) المصدر السابق / ١٨٩.

(٥) إسماعيل بن يسار / شعره / تحقيق د. يوسف بكار / دار الأندلس / لبنان / ١٩٨٤ / ٣٦. برهرة: المرأة البيضاء الشابة الناعمة.

(٦) ديوانه / ٢٠٠.

ورغبوا مع دقة الخصر وعظم العجيزة أن يكون ظهرها طويلاً. قال ذو الرمة:

وبين ملاتِ المرطِ والطوقِ نَعْنَفُ هُضِيمَ الحشا رأدَ الوشاحين أَصْفَرُ
نرى خَلْقَهَا نِصْفًا قَنَاءً قَوِيمَةً وَنِصْفًا نَفْسًا يَرْتَجُّ أَوْ يَنْمَرَمَرُ (١)

ومع ضخامة العجيزة رغبوا في عظم الفخذين أن يكون كالعود الرِّبَّانِ ملفوفاً لينا ومعتدلاً. قال ذو الرمة:

رَبِّسَا العظامِ وَعَثَسَا التَّوَالِي لَفَاءً فِي لَبْنٍ وَفِي اعْتِدَالِ (٢)
وقال العرجي يصف امتلاء موضع الإزار، أي أردافها ودقة خصرها:

مِنَ البَبْضِ إِمَّا مَا يُوَارِي إِزَارَهَا فَنَقَمٌ. وَإِمَّا مَا عِلَاهُ فَمَرْهَفُ
كَفَصِنَ الْغُضَا فَوْقَ النِّقَا نَفَحَتْ لَهُ جَنُوبٌ تَكْفِي فَرْعَهُ وَهُوَ مُشْرِفُ (٣)
وقال عمر:

هَبِئَاءَ لَفَاءً، مَصْفُولٌ عَوَارِضُهَا تَكْسَادٌ مِّنْ ثِقَلِ الْأَرْدَافِ تَنْبِيرُ (٤)
أَمَّا الْبَطْنُ فَوْصَفُوهُ بِالتَّعَكَّنِ، أَي أَنْ يَكُونَ مَطْوِيًا طَيًّا بَسِيرًا. قال شبيب بن البرصاء:
فِي ضَامِرِ الْكَشْحِ وَالْأَحْشَاءِ تَحْسِبُهُ مِمَّا تَخْضُدُ مِنْهُ طَيِّئُ أَسْنَادِ (٥)
وقال النابغة الشيباني:

وَأَعْظَمُهَا مَبْتَلَاءٌ رَّوَاءٌ وَذُو عَكْسِنٍ وَإِنْ طَعِمَتْ خَضِيدُ (٦)
وشبهوه بغمد السيف. قال معن بن أوس:

وَنَحْرًا كَفَاشُورِ اللَّجَيْنِ وَنَاهِدًا وَبِطْنًا كَغِمْدِ السِّيفِ لَمْ يَذَرِ مَا الْحَمَلَا (٧)
أي هي مهفهفه ليست بعظيمة البطن.

(١) ديوانه / ج ٢ / ٦٢٠-٦٢٢.

(٢) ديوانه / ج ١ / ٢٧٥.

(٣) ديوانه / ١٥٧ / الغنم: الممطيء. تكفي فرعه: ثيله بمينا وشمالا. المشرف: العالي المرتفع.

(٤) ديوانه / ١١٢.

(٥) شعراء أمويون / ج ٢ / ٢٢٦.

(٦) ديوانه / ٩٦ / وانظر كذلك ١٤٧ / وكذلك ديوان العرجي / ١٥٧.

(٧) ديوانه / ٥٨.

الذراعان والساقان: نعتوهما بالامتلاء والبياض والنعومة، مع لين عظامهما، وقد وصفوا المرأة بالخدلجة: أي الرِّبَا العظام الممثلة الذراعين والساقين، وبالعبلة أي السمينة. وممكورة الذراعين والساقين أي مجدولتهما.

قال القطامي:

ونرى لها بشرًا يعودُ خلوقهٗ بعسد الحميمِ خدلجاً رباناً (١)

قال مجنون ليلى مضيقاً صفة البياض لهما:

خدلجة الساقين بضّ بضيفةً مغلجة الأنياب مصفولة العمر (٢)

وقال الحسارث المخزومي:

لفناء مملوءٍ ماخللها عجزاء لبس لعظمها حنم (٣)

أي عظامها دقيقة، وهو ما يستحب في المرأة أن تكون دقيقة العظام مكنزة. وقد عبر عنها ابن أبي ربيعة بقوله:

ممكورة الساق، مفصومٌ خلاخلها قمشبع نشب منها ومنكسر (٤)

ورغبوا في المرأة أن تكون سوفاء: أي طويلة الساقين في حسن وجمال. قال المتوكل:

إذا ما الشوق ذكرني الفواني وأسوقها المملأة الخدالا (٥)

وعن كثير منهم عن امتلاء الساقين والذراعين وانجدالهما بصعوبة وضع الخلخال أو الدملاج فيهما وقد ينكسران بسبب ذلك. قال القطامي:

خود منعمة نضج العبير بها إذا نميل عسن خلخالها انفصما (٦)

وقال عروة:

وعجيزة نفج وساق خدلة ببيضاء تقصم كظّة خلخالها (٧)

(١) ديوانه / ٥٨.

(٢) ديوانه / ١٠٢ / خدلجة الساقين: ممثلتهما، المغلجة: المفرجة، العمر: اللثة.

(٣) الحارث بن خالد المخزومي / شعره / د. يحيى الجبوري / ط ١ / مطبعة النعمان / العراق ١٩٧٢ / ٩٠.

(٤) ديوانه / ١١٢.

(٥) ديوانه / ١٤٨، الخدال: ممثلة الساقين والذراعين

(٦) ديوانه / ٩٨.

(٧) ديوانه / ١٤٤.

وقد شبهوا عظامها الممتلئة بمسوق البردي أي الذي أصبح له ساق، قال ذو الرمة:

لَهَا قَصَبٌ قَعَمَ خِدَالٌ كَأَنَّهُ مَسَوِّقٌ بَرْدِيٌّ عَلَى حَائِرٍ غَمَرٍ (١)

وقال النابغة في ساقبها:

تَخْطُو عَلَى بَرْدِيَّتَيْنِ بَغَابَةً مَكُورَتَيْنِ فَمَا يَزُولُ خِدَامُهَا (٢)

وما قيل في الساق والخلخال يقال أيضاً في الذراع والدملوج. قال عمر بن لجا:

تَرَى الْخُلْخَالَ وَالدَمْلُوجَ مِنْهَا إِذَا مَا أَكْرَهَا نَشَبَا وَهَابَا (٣)

فعدم قدرة السوارين على الحركة بحرية في معصمها دليل على امتلائهما.

وبالإضافة إلى الامتلاء في الذراعين والساقين الذي كاد أن يقسم الخلل والدملوج فقد وصفوهما بالنعومة. قال عروة بن أذينة:

قَبِيتُ قَرِيرَ الْعَيْنِ أَلْهُو بَفْسَادِهِ طَوِيلُهُ غُصْنُ الْجِدْرِ رَبِّمَا الْمَعَاصِمِ (٤)

كما شبه ذو الرمة عظام يدي محبوبته ورجليها بالعشر، وهو شجر لين ناعم قال:

مِنْ كُلِّ عَجْزَاءٍ فِي أَحْشَائِهَا هَضْمٌ كَأَنَّ حَلْيِي سَوَاهَا أَلْبِسَ الْعَشْرَا (٥)

ومن العيوب التي يمكن أن تكون في عظام الساقين والذراعين: أن تكونا دفاقاً أو عوجاً، فقد مدح ذو الرمة صاحبه بأن عظامها لبست كذلك.

وَحَلْيِي السَّوَى مِنْهَا إِذَا حُلِّيْتُ عَلَى قَصَبَاتٍ لَا شِخَاتٍ وَلَا عَصَلٍ (٦)

وانتقلوا بعد ذلك للحديث عن الأكف والأنامل، وعن القدمين والكعب فأما الأكف والأنامل، فقد أحتووا طرية ناعمة ملساء مخضوبة بالحناء، وشبهوها بأمر كثيرة. منها فصول جريس:

مِنْ الْبَيْضِ أَطْرَافاً كَأَنَّ بَنَانَهَا مَنَابِتَ شَدَاوٍ مِنَ الْأَجْرَعِ الْمُنْشَرِي (٧)

(١) ديوانه / ج ٢ / ٩٥٤ / الغصب: كل عظم فيه مخ. قدم: ممطي.

(٢) ديوانه / ٢٢٦.

(٣) عمر بن لجا / شعره / د. يحيى الجيوري / بغداد / ١٩٧٦ / ٤٨ / وانظر كذلك ديوان كثير عزة / ١٣٤.

(٤) ديوانه / ٢٣١.

(٥) ديوانه / ج ٢ / ١١٥٢.

(٦) ديوانه / ج ١ / ١٤٣. شخات: دفاق. والعصل: المعوجة.

(٧) ديوانه / مج ١ / ٤٢٠.

والثَّدَاءُ: هو من ذكور البقل ينبت في الرمل، وقد اختار له الشاعر أن ينبت في مكان رابٍ سهل، فيه ندى؛ ليكون هذا أغذى للنبات، وبالتالي يكون أكثر نعومة وجمالاً. وقال المتنوكل:

نُضِيبِي الحَلِيمَ بعَيْنِ أَحْوَرٍ شَادِنٍ تَقَرُّو دَوَافِعَ رَوْضَةٍ مُحَلَّلِ
وبِوَضَحِ الذُّفْرَى أَسِيلِ خَدَّهِ صَلَّتِ الجَبِينِ وفَاحِمِ مِبَّالِ
وبِمَعْصَمِ عَبَلٍ وَكَفٍّ طُغْلَفِ وروادِفِ تحسَّ النطَاقِ نِقَالِ (١)

وجعلها ابن قيس الرقيات مخضوبة ملساء:

تَكْنَانِ أبشاراً رِفَاقاً وأَوْجَهَا حِسَاناً وأَطْرَافاً مَخْضَبَةً مُلْسَا (٢)

وفي هذه النعومة إشارة إلى أنها امرأة مخدومة لا نحتاج أن تعمل ببديها.

وقال ابن الدمينه يصف الأصابع المخضوبة:

صَافِحَتْنِي بنِوَاعِمٍ مَخْضُوبَةٍ شَبَّهَ النَّبَاتِ مِنَ النِّقَا المَتَهَابِلِ (٣)

وشبهت كذلك بدويبة تسكن الرمل. وقال الراعي النميري:

وفي العَاجِ والحَنَاءِ كَفٌّ بَنَانِهَا كَشَحَمِ النِّقَا لَمْ يُعْطِهَا الرُّنْدَ قَادِحِ (٤)

ومن الصور المكررة تشبيه عمر لها بالعنم: وهو شمر تشبه به الأناملُ المخضوبة بالحَنَاءِ:

ومَخْضَبٌ رَخِصَ البَنَانِ كَأَنَّهُ عَنَمٌ. وَمُنْتَفِجُ النطَاقِ وَثِيرُ (٥)

أما الكعب فقد آثروه دقيفاً لا حجم لعظامه لكن لحمه كثير. قال عمر:

لا يَزَالُ الخُلُخَالُ فَوْقَ الحَشَايَا مَثَلُ أَتْنَاءِ حَبَسَةٍ مَقْتُولِ
زَانَ مَا تَحَسَّتْ كَعْبُهَا قَدَمَاهَا حِينَ تَمْشِي والكَعْبُ غَيْرُ نَبِيلِ (٦)

أي ليس جسيماً، ضخماً.

(١) ديوانه / ١٧٢-١٧٣.

(٢) قيس بن الرقيات / ديوانه / تحقيق وشرح د. محمد يوسف نجم / دار صادر / بيروت / ١٩٧٠ / ٣٥٠.

(٣) ابن الدمينه / ديوانه / تحقيق أحمد راتب النفاخ / مطبعة المدني - مصر ١٩٥٩ / ص ٧٣.

(٤) ديوانه / ١٥٨. شحمة النقا: دويبة تسكن الرمل كأنها سمكة ماساء فيها بياض وحمرة.

(٥) ديوانه / ١٢٦.

(٦) ديوانه / ٣٣٩. أتناء: جمع ثني وهو ما تنوع منها.

وَدُعِصاً رَابِياً فِي الْمِرْطِ مِنْهَا وَحَسَنَ السِّدْلِ وَالْكَعْبِ الدَّفِينَا (١)

وقال ذو الرمة:

يَسْهَادِينَ جَمَاءَ الْمِرَافِقِ وَعُنَّةً كَلِيلَةً حَجَّيْمِ الْكَعْبِ رِيَّاسِ الْمَخْلُخِلِ (٢)

أي أنه دقيق لا حجم لما نذا من عظامه، ولحمه كثير. وقد شبهه جَحْدَرُ بن معاوية المحرزِيّ بأصل أذن الجؤذر:

عَلَى قَدَمٍ مَكْنُونَةِ اللَّوْنِ رُخْصَةً وَكَعْبٍ كَذْفَرِيٍّ جُؤْذَرِ الرَّمْلِ أَدْرَمَا (٣)

اللون: مر بنا أن الشعراء كانوا يفضلون في نساتهم أو محبوباتهم بياض الأسنان والثرائب، وها هم يفضلون هذا اللون في كامل البشرة، فقد أكدوا جمال اللون الأبيض في المرأة وذلك ليتناسب مع معطيات الجمال الأخرى التي آثروها كالعيون الكحل والشعر الأسود والشفاه الحوَّ والأسنان البيضاء... قال ابن الدمينة يصف لون محبوبته:

لَسْمُ يُنْسِيهِ ذِكْرُهَا بَيَضاءَ أَنْسَةٍ وَلَا نَسْنَاءُ نَأْنُسُهُ دَارَهَا حِفْسَا
بَيَضاءَ تُسَيِّرُ عَنْ صَلْتِ مَدَامِعَةٍ لَا تَسْتَبِينُ بِهِ خَالاً وَلَا نَدْبَا
ثُمَّ ابْتِسَامَتِهَا كَالْبَرْقِ عَنْ أَشْرٍ حَمَشِ اللَّثَاثِ تَرَى فِي ثَغْرِهَا شَنْبَا
بَيَضاءَ مِثْلَ مِهَاقِ الرَّمْلِ أَخَذَلَهَا عَنْ الْمَهَا جُؤْذَرٍ قَدْ رَادَ أَوْ كَرَبَا
تَرَعَى رَبَّوَلَا مِنَ الْوَسْمِيِّ عَازِبَةً جَرَّتْ بِهَا الْمَرْزَنُ سَحَّ الْمَاءِ فَاَنْسَكَبَا (٤)

فتكرار الشاعر هنا لصفة "بيضاء" ليس تأكيداً للون فحسب، بل هو تأكيد لرغبة الشاعر الدفينة التي تفضل هذا اللون في المرأة التي يحب. هذا بالإضافة إلى أن الشاعر أعطى هذه الفتاة صفات أخرى تصور مدى جمالها، فالبياض بحد ذاته لا يشكل جمالا إذا لم ترافقه أشياء أخرى؛ لذا صور لنا الشاعر جمال وجهها الناعم الأملس الخالي من كل عيب، والابتسامة التي تكشف عن أسنانها المحرزة الرفيقة تأكيداً لصفة الشباب. ثم يعود مرة أخرى لتأكيد صفة اللون الأبيض فيشبهها بمهارة الرمل المنفصلة عن قطيعها

(١) ديوانه / ١٥٠.

(٢) ديوانه. ج ٣ / ١٤٦٨.

(٣) شعراء أمويون / ج ١ / ١٨١.

(٤) ديوانه / ١٢٢-١٢٣.

- ٦٣ -

ترعى ولدها النافر؛ إن صفة الانفراد هذه والحنوّ على الولد ومحاولة رده إبراز لجمال هذه المهارة من دون صاحباتها. وقد أشار الشاعر إلى نوع الغذاء الذي تتناوله هذه المهارة وهو الذئب المروي بالمطر، مما يجعله غصاً ذا فائدة غذائية كبيرة في بناء جسد نضر جميل إنه يشير إلى أن هذه الفتاة مترفة، تطعم الطعام الطيب المفيد مما يزيد في جمالها، وصفاء لونها. وقد استثنى الشاعر أن تكون فتاته تشبه المهارة في سافها. ذلك لأن ساق المهارة دقيقة فيها خشونة وقد أحببت العرب الساق العيلة الناعمة كما مرّ من قبل.

ولم ينظر الشعراء إلى اللون الأبيض من حيث هو لون فقط. وإنما رأوا فيه الإشراف لذا، نراهم يشبهون محبوباتهم بالشمس والبدر.

قال مجنون لبلى:

أنيري مكانَ البدرِ إن أَفْلَلَ البدرُ	وقومي مقامَ الشمسِ ما استأخَرَ الفجرُ
فغنيك من الشمسِ المنيرةِ ضوءها	وليس لها منكِ التبرُّمُ والنفرُ
بلى لك نورُ الشمسِ والبدرُ كلهُ	ولا حملتُ عينيكَ شمسٌ ولا بدرُ
لك الشرفَةُ اللائِءُ والبدرُ طالعُ	وليس لها منكِ الترائبُ والنحرُ
ومن أين للشمسِ المنيرةِ بالضحي	بمكحولةِ العَبَّينِ فسي طرفِها فنرُ
وأنتى لها من دَلِّ لبلى إذا انثنتُ	بعيني مهارةِ الرملِ فد مَسَّها الذُعرُ (١)

فالشاعر يجعل لمحبوبته جمال الشمس والبدر واشراقهما وضياءهما، إلا أنها تتفوق عليهما بما حباها الله من صفات جميلة كثيرة كجمال الثغر والعيون والترايب والنحر، وكذلك الابتسامة الجميلة. والنظرة الغائرة، وحسن الدل، وبالتالي فإنها بما أعطاه الله من صفات مادية، وأخرى معنوية، جعلها تتفوق على كل ما يمكن أن يكون جميلاً كالشمس أو البدر وهما مضرب المثل للجمال عند العرب، وهذا يؤكد أن الشعراء لم ينظروا إلى الجمال الخارجي فقط وإنما تعمقوا في صور محبوباتهم فرأوا فيهن كثيراً من الصفات الأخرى التي تزيدهن جمالا، إذ تعلقوا بالنظرة والابتسامة وحسن الدل مما زادهن إشراقاً وبهاءً. وهذه أبيات تليق بكل محبوبة فكل محبوبة عندهم مثل لبلى هذه.

ولقد تحدث الشعراء عن اللون الأبيض المشوب بصفرة على غير علة. وفضلوه لأن هذا اللون يتشكل من آثار الطيب الذي تنطيب به المرأة. قال ابن قيس الرقيات:

شَبَّ البِياضَ أَمَامَ صَفَرِهَا فِي رِفْقَةِ الدِّيَاجِ وَالْعَنَقِ^(١)
وقال المتوكل:

صفراء رادعة تصافي ذا الحِجَى وَتَعَافَ كَسْلَ مَمْرَحٍ بَطَّالِ^(٢)
وشبهها الفطامي بالببيضة الصفراء: حفر لها في السهل من الأرض بين أنواع
مختلفة من النباتات:

كَأَنَّهَا بَيْضَةٌ صَفراءُ خُدَّ لَهَا فِي عَنَقِ يَنْبِتِ الحَوْدَانِ والعَدَمِ^(٣)
وفد أكثروا من تشبيهها بببيضة في الأدحي، قال ابن فليس الرقيات:

صفراء كالسَّيراءِ لَمْ تَشْمِطْ عَذوبَتَهَا بِحُورِهِ
مَنْ نَسُوهُ كَالْبَيْضِ فِي الدَّ أَحْيَى بِالْأَدْمَشِ الْمُطْبَرَةِ^(٤)
فهي وإن كانت كالسَّيراء (ضرب من البرود) نتيجة لأثر الطيب، فهي عذبة،
أخذت منه اللون والرائحة الطيبة، ولم تأخذ الطعم. وزاد على ذلك بأن جعلها كببيضة
النعام في الخميلة، ملساء لا عيب فيها، وفي كل هذا عذوبة وليونة وجمال أخاذ.

ولعل هذا اللون الأبيض المشوب بصفرة ناتج عن كون المرأة تقضي وقتاً طويلاً
في الكن "كأنهن بيض مكنون"^(٥) لذا فإن هذا اللون يبدأ بميل إلى الحمرة مع ارتفاع
ساعات النهار. قال النابغة الشيباني:

صفراء تَصْبِحَ كالعَرَارِ زَادَهَا حُسْنًا - إِذَا ارْتَفَعَ الضَّحَاءُ - مَنَامُهَا^(٦)
مما يزيد جمالاً وحسناً على جمالها وحسنها أنها نووم الصُّحَى كناية عن ترفها
وغناها وأنها مخدومة لا نحتاج لأن نصحو مبكرة للعمل.

ومع اللون المشوب بالصفرة نعوها برائحة البدن، رقيقة البشرة (عبرة) كأن على
أبشارها الذهب الزلال كما في قول ذي الرمة:

(١) ديوانه / ٣٢.

(٢) ديوانه / ١٦٤.

(٣) ديوانه / ٩٨، خد لها: حفر لها، العنق من الأرض: السهل، الحودان: نبت وكذلك العدم.

(٤) ديوانه / ٤٤.

(٥) سورة الصافات / آية رقم ٤٩.

(٦) ديوانه / ٢٢٧.

على أَيْشَارِهَا ذَهَبَا زَلَا^(١)

كَأَنَّ جُلُودَهُنَّ مَمَّوْهَاتٍ

وقال ذو الرمة:

هَيْفَ الْأَعَالِي رُجَّحَ الْأَكْفَالِ^(٢)

فِي رَبِّرٍ رَوَائِقِ الْأَعْطَالِ

وقد استحبوا رقة البشرة التي قد تكون سبباً من أسباب الترف والنعيم الذي تعيشه الفتاة إذ لا تخرج من بيتها للعمل تحت حرّ الشمس أو لفح السموم.

الطول: لقد أحبّ الشعراء المرأة طويلة ولا يعنون بالطويلة التي تضرع الرجال، وإنما الطول المعتدل، وقد عبروا عنه بقولهم بين الطويلة والقصيرة، أو ربعة. وأكثروا من التعبير الأول. قال ابن فيس الرقيات:

بَيْنَ الطَّوِيلَةِ وَالْقَصِيرَةِ^(٣)

رَبِّمَا السَّرَادِفِ غَادَةٌ

وقال المنوكل:

لَبَسْتُ بِفَاحِشَةٍ وَلَا مِتُّ^(٤)

بَيْنَ الْقَصِيرَةِ وَالطَّوِيلَةِ بِرُزَةٍ

وقال عمر بن أبي ربيعة:

وَنَوُومَ الضُّحَى. وَحَقُّ كَسُولِ^(٥)

رَبْعَةٍ أَوْ فَوْيَقَ ذَلِكَ قَلْبِلَا

وقد وصفها ذو الرمة بالطول دونما تحديد بقوله:

بَنَاتُ النَّفَا تَخْفَى مِرَاراً وَتُظْهِرُ^(٦)

خَرَاعِيبُ أَمْلُودَ كَأَنَّ بَنَانَهَا

وشبهوا قوامها بعود القنا في اعتدال قال النابغة الشيباني:

وَقَوَاماً مِثْلَ الْقَنَا فِي اعْتِدَالِ^(٧)

جَارِئَاتٍ جَمَعْنَ حُسْنًا وَطَيِّبًا

وبعد هذا كله أرادوها شابة، غريبة، خُوداً، طَقْلَةً.

(١) ديوانه / ج ٣ / ١٥١٦.

(٢) ديوانه / ج ١ / ٢٧٦. ربر: جماعة بقر، أراد النساء.

(٣) ديوانه / ٤٣.

(٤) ديوانه / ١٧٤.

(٥) ديوانه / ٣٣٨.

(٦) ديوانه / ج ٢ / ٦٢٢.

(٧) ديوانه / ١٤٦.

فقال كئيباً:

أَخَاضْتُ إِلَيَّ اللَّيْلَ خَوْذَ غَرِيرَةٍ جَبَانُ السَّرَى لَمْ تَنْتَظِقْ عَنْ تَفَضُّلِ (١)
 وقال محمد بن بشير الخارجي:
 خَوْذَ مَبْتَلَةٍ رَبًّا مَعَاصِمَهَا فَذَرِ الثَّيَابَ فَلَا طَوْلَ وَلَا فِصْرَ (٢)
 وهي طِفْلَةٌ نَاعِمَةٌ. قال عمر:
 بَكْلٌ كَعَابِ طِفْلَةٍ غَيْرِ حُمَشِيَةٍ وَنَمَشِيِ الْهُوَيْنَا مَا تَجَاوَزَهُ فِتْنَا (٣)
 وقال ذو الرمة:

أُسْبَلَةٌ مَجْرَى الدَّمْعِ هَيْفَاءُ طِفْلَةٍ رَدَاحٌ كَأَيْمَاضِ الْغَمَامِ ابْتِسَامُهَا (٤)
 وهي في هذا كله تشبه الدمى الموضوعة في دور العبادة. قال النابغة الشيباني:
 وَفِي الْهُوَادِجِ أَبْكَارٌ مَنَاعِمَةٌ مِثْلُ الدَّمَى هِجْنٌ شَوْقًا فِي الْمَحَارِبِ (٥)
 وجعلها الشيباني أحسنَ منها. في قوله:

مَا دُمِيَّةٌ ظَلَّتْ الرَّهْبَانُ نَعْفَهَا يَوْمًا بِأَحْسَنَ مِنْهَا حِينَ تَفْتَسِلُ (٦)
 ولم تكن صفاتهم للنساء باللفاظ مجردة فقط. ولكنها كانت تقترن بصور ذات تأثير خاص مثل (الطفلة) الناعمة. أو بصور من المجتمع الذي كانوا فيه مثل الدمى في دور العبادة التي تكررت غير مرة.

ولا أدري بعد هذا كله إن كانت المرأة الأموية تتسم بكل هذه الصفات الجمالية فعلاً، أم أن هذا كله من صنع خيال الشاعر، لأن هذه الصفات الجمالية مثالية اجتمعت عليها العرب شعراء، وغير شعراء، رجالاً ونساء. فقد قالت عرّة المبلّاء في وصف عائشة بنت طلحة وقد أرسلها مصعب لترى جمالها "والله ما رأيت مثلها مقبلة ومدبرة، محطوطة المتنين، عظيمة العجيزة، ممثلة التراث، نقية النحر وصفحة الوجه، فرعاء

(١) ديوانه / ٢٩١.

(٢) شعراء أمويون / ج ٣ / ١٨٣.

(٣) ديوانه / ١٢٦.

(٤) ديوانه / ج ٢ / ١٣٢٩.

(٥) ديوانه / ١٦٥.

(٦) ديوانه / ٢٠٠.

الشعر، لقاء الفخذين، ممتلئة الصدر، خميصة البطن، ذات عَكن، ضخمة السرة، مسرولة الساق، يرتج ما بين أعلاها إلى قدميها، وفيها عيبان. أمّا أحدهما فيؤاريه الخمار، وأمّا الآخر فيؤاريه الخَف: عظم القدم والأذن...^(١) فهل يكون الشاعر تمنى أن تكون محبوبته على مثل تلك الصفات المثالية، أم أن مشاعر الحب هي التي صورت له محبوبته بهذه الصفات المثالية بحيث أصبحت المرأة مثل تمثال تبارى الشعراء في نحته وإضفاء أجمل الصور عليه آخذين بالاعتبار مقاييس الجمال لذلك العصر،^(٢) والحق أنني أميل لهذا الرأي، وما يعززه عندي هذا الاتفاق الكبير بين شعراء هذا العصر مع أسلافهم من الشعراء الجاهليين من أمثال امرئ القيس والأعشى وغيرهما، على كثير من هذه الصفات، واستمرار هذه المقاييس عند الشعراء العباسيين وغيرهم، بل استمرار الاتفاق على بعض هذه الصفات إلى يومنا الحاضر، وأمر آخر هو أن بعض الشعراء كان يكتفي بالصور الجزئية للمحبوبة، فتعلّ وجود هذه الصفات في امرأة معينة تهمّ الشاعر كأن تكون زوجة أو حبيبة، هو الذي أدى به إلى إظهارها دون غيرها ومن الروايات ما يشير إلى أن بعض النساء اللواتي قضى الشعراء حياتهم في وصف جمالهن وذكر مشاعر الحب والشوق لهن لم يكن بالجميلات قال مجنون لبلى:

بفولّ لي الواشون لبلى قصيرة	فليت ذراعاً عرض لبلى وطولها
وإنّ بعينها - لعمرك - شهلة	فقلت كرام الطير شهل عيونها
وجاحظة فوهاء لا بأس إنـها	منى كبدي بل كلّ نفسي وسؤلها
فدقّ صلاب الصخر رأسك سرمداً	فلاني إلى حسين الممات خلبها ^(٣)

صحيح أن هذا الوصف جاء على لسان الواشين، لكنّ موقف الشاعر من كل ما يمكن أن يقال بشأن صفاتها يوحي بإمكانية عدم تطابق ما جاء في شعره على ما هي عليه من صفات في الواقع.

(١) الأغاني / ج ١١ / ١٧٩. ولا يخفى التناقض في قول أبي الفرج: خميصة البطن، ذات عكن ضخمة السرة.

(٢) يقول رامبو دوارنج Rimbaud d'Orange "أنا لا أغني للمطر ولا للزهر ولا الجليد ولا الثلج ولا الحر ولا أغني ولم أغن أبداً لأي فرح مماثل ولكني أغني للسيدة التي نحوها أفكاري وهي أجمل نساء العالم طراً". انظر اثنين جلسون مدرسة الآلهات تعريب د. عادل العوا / الشركة العربية للطباعة والصحافة والنشر / دمشق / ١٩٦٥ / ٢٣١-٢٣٢.

(٣) ديوانه / ٢٠١.

ومثل هذا قيل في عزة صاحبة كثير، وفي مية صاحبة ذي الرمة، وفي لبلى

الأخيلية صاحبة توبة. (١)

قال كثيّر:

لعزة إذ حبّل المودة دائم وإذ أنت متبول بعزة مُعجَب
وإذ لا ترى في الناس شيئاً يفوقها وفيهن حسن -لو تأملت- مجنب (٢)

وقد سأل عبد الملك بن مروان لبلى الأخيلية حينما دخلت عليه: ما رأى توبة فيك حين هويك؟ قالت: ما رآه الناس فيك حين ولوك (٣) ولعل في طريقة جوابها إيحاء بأنها استهجنّت سؤاله، وكأنها تريد أن تقول إن الرجل حينما يحب امرأة لا ينظر إليها من منظار الآخرين وإنما من منظاره هو، وهو منظار خاص تحركه مشاعر لا تتوافر عند غيره من الناس.

وقد رأى بعض النقاد أن ذكر صفات المرأة إنما هو من باب التقليد ليس غير، وأقول قد يكون ذكر المرأة وذكر ما يخصّها من صفات وطفائف وأطلال من باب التقليد في بعض القصائد، كذلك الفصائد المدحبة التي كانت تنهج نهج الشعر الجاهلي، وترسم نماذجها لترضي الممدوح، لكن هذا لا يقاس عليه جميع شعر المرأة، ولا يمكن أن يقاس إلا على جزء ضئيل.

هذا أمر، والأمر الآخر: إذا كان ذكر صفات المرأة وأشبائها الأخرى جاء من باب تقليد الشعراء لغيرهم فكيف نفسّر الفصائد الأخرى التي جاءت لغير غاية المدح وهي كثيرة جداً؟! وكيف نفسّر وجود شعراء قصروا حياتهم وشعرهم على المرأة ووصفها كعمر ابن أبي ربيعة، وجميل بنينة وقيس لبنى، ومجنون لبلى وغيرهم؟! إذا لا بد أن يكون لهذا الكم الهائل من الشعر ولهذا الحضور الكبير للمرأة في الشعر الأموي من تفسير أكثر واقعية ومنطقية. فهو يصور بصورة أو بأخرى طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة من جهة

(١) وصفت لبلى الأخيلية صاحبها توبة بن الحمير بصنات لم تعرفها العرب فيه. انظر الوصف وأخبارها معه في الأغاني ج/١١/٢٣٧ وما بعدها.

(٢) ديوانه ١٥٧.

(٣) الأغاني ج/١١/٢٤٠ وانظر كذلك ما قاله صاحب تزيين الأسواق من أن مية صاحبة ذي الرمة، كانت جارية إلى القصر ما هي سمراء، بدينة، في كلامها عذوبة، وفي طرفها تفزل ج/١/٩٣ وكذلك ما قالته عائشة بنت طلحة لكثير بشأن عزة في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ج/١/٥٨-٥٩.

ومدى حاجة هذا الرجل إلى المرأة سواء كانت حاجة نفسية أو أسرية أو اجتماعية. مما يظهر صورة المرأة في هذا العصر. وقد استطاعت أن تجذب الرجل إليها بوسائل مختلفة، بدءاً من إفتاعه بحاجته إليها في الأمور السابقة. أو بالمكانة التي أصبحت لها في مجال الحياة السياسية والاجتماعية، كهذا التسارع الذي نجده عند علية القوم، وغيرهم للزواج من ذوات الحسب والنسب. كجمع مصعب بن الزبير بين سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في عصمته. أو الإصهار إلى فبائل بعينها كقبيلة كلب اليمانية التي أصهر إليها عدد من الخلفاء والأمراء الأمويين، وعلى رأسهم معاوية وابنه يزيد لكسب تأييدها. ومن ثم نرى شيوع تعدد الزوجات للمرأة الواحدة خاصة للشهيرات منهن كسكينه وعائشة - وانتهاء بلجوء الشاعر إلى المرأة يقضي حياته كلها بينها الحب الشديد ولواعج الشوق والحرقه. حتى أصبح شعر الحب هذا بمثابة الإدمان لا يستطيع الشاعر الفكاك منه. بل نراه في بعض الأحيان يقصر حياته كلها على امرأة واحدة. ولعل هذا اللجوء إلى المرأة والالتصاق بها وبأشائها كان بالإضافة إلى الميل الغريزي من نتائج ظروف هذا العصر؛ فشعور الغضب والضيق الشديد والإحباط مما أصبحت عليه الأمة بسبب التنازع على الحكم. وكثرة الحروب والقتل بين المسلمين واستئثار الأمويين بالحكم وأموال الأمة، ووقوف كثير من الناس، ومنهم الشعراء مكتوفي الأيدي إزاء ما يحدث جعل بعض الشعراء يؤثرون العاقبة ويجالسون الخلفاء ويمدحونهم ويتقربون منهم. ومنهم من آثر الخروج مع الخوارج ومقاتلة الأمويين. ومنهم من انصرف إلى المرأة لقد، اختار كل منهم طريقه حسب طبيعته الشخصية والنفسية وقدراته وظروف بيئته. لذا نجد في بيئة مثل العراق قيمة المرأة متدنية جداً مقارنة مع بيئات أخرى كالحجاز مثلاً. فهي في العراق تتخذ غرضاً يرمى. وفلما نجد في هذه البيئة شعراء غزلين يعطون المرأة قيمة معنوية أو مادية، وإن هم فعلوا ذلك نجدهم يقتصرون في أغلب الأحيان على مقدمات القصائد، بل على العكس من ذلك نجدهم يرمونها أمأً وزوجة وأختاً وابنةً بأبشع أنواع التهم. ويهجونها أفدع أنواع الهجاء. وأوضح مثل على ذلك ما جاء من تهم متبادلة في شعر النقائض. ولا يستغرب هذا بيئة اشتد فيها التنافس الحزبي. والنزاع القبلي. والتمايز الطبقي. وكثرة الحروب.

وفي مقابل ذلك نجد المرأة الحجازية في مكة والمدينة وفي بوادي الحجاز القريبة تتمتع بفسط من الحرية. وقد أعطاهم الشعراء كذلك كما كبيراً من الحب والاهتمام والتقدير، يتمثل ذلك في مجال الشعر بهذا الكم الكبير من شعراء الغزل المحقق

-٧٠-

كالذي نجده عند عمر بن أبي ربيعة والعرجي والأحوص وغيرهم، أو عند العذريين كجميل يثني، وكثير عزة، وعروة بن أذينة... وفي كلا النوعين اهتمام كبير بالمرأة وبأشائها، وهو مليء بمشاعر الاهتمام بها، وتتبعها من مكان إلى آخر لرؤيتها أو كسب رضاها، والتغزل بها ذكر صاحب الأغاني أن الحارث بن خالد المخزومي قد أصر الصلاة لتنتهي عائشة بنت طلحة حبيبته وابنة عمه من الطواف، وهو أمير على مكة، وحينما عزله عبد الملك بن مروان وكتب إليه يؤنبه قال قوله المشهور: "ما أهون والله علي غضبه إذا رضيت؛ والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الليل لأخرت الصلاة إلى الليل". (١)

ثانياً: الصفات المعنوية

لم يكتف الشعراء الأمويون برسم صورة جميلة للمرأة "النموذج" أو "المثال" التي أحب كل واحد منهم أن تكون عليه زوجته أو حبيبته التي يهوى ولكنهم أتبعوا هذا النموذج بجمال آخر أضفوه عليه، فكانت الصفات الخلقية، والقيم المعنوية، والمظاهر السلوكية متكاملة الجمال مع الصفات الجسدية التي استعرضناها سابقاً.

لقد جعل الشاعر الأموي صاحبه مثالية في كل شيء ومع كل أمر كان. وهو بضفي عليها ألواناً من الجمال الشكلي والمعنوي، يبعد عنها كل سلوك يمكن أن يشين الصورة المثلى التي ارتضاها لها.

حديثسها: من أهم المظاهر السلوكية التي فطن لها الشعراء في هذا العصر حديث المرأة؛ فتناولوه من حيث صفته ونوعه، وكذلك صوتها؛ ففضلوا الصوت المنخفض الرقيق، وقد أعجبهم الحديث الحسن الجميل، قال عروة بن أذينة يصف حديث محبوبته:

حوراء واضحة نزال صابرة
وحديثها الحسن الجميل وعقلها
مأعشت تذكر حسناتها وجمالها
ذاك الأصيل إذا أردت محالها (٢)

وقال نوبة بن الحمير:

فلن تمنعوا ليلى وحسن حديثها
فلن تمنعوا مني البكا والفوايا (٣)

(١) الأغاني / ج ٣ / ٣١٧-٣١٨. قد يكون في هذه القصة مبالغة من مبالغات أبي الفرج. إذ لا يعقل أن يقوم حاكم في مكان مرموق مثل مكة المكرمة بعمل شيء من هذا، ولكنه أراد من هذه القصة توضيح مبلغ حب الحارث بن خالد لابنة عمه

(٢) ديوانه / ١٤١-١٤٢.

(٣) نوبة بن الحمير الخفاجي / ديوانه / تحقيق خليل إبراهيم العطية / مطبعة الإرشاد / بغداد / ١٩٦٨ / ٥٢.

كما أعجبهم الحديث الواضح، قال عمر بن لجأ في ذلك:

ولقد عهدتُ كلامها مثبِّناً والدُّلَّ معنيدُ الدلالِ خريداً^(١)

وقد شبهوا حديث محبوباتهم بتشبيهات شتى، منها: تشبيه الأخطل له بنساقط الحُلِيِّ لعذوبته وجماله ورنينه:

وقد تكونَ بها سلمى، تحدَّثتني نساقطُ الحُلِيِّ، حاجاني وأسراري^(٢)

وشبهه جميل بن معمر بالدر تحدر نظمه:

غَرَاءُ مِبْسَامٍ كَأَن حَدِيثَهَا دُرٌّ تَحْدَرُ نَظْمُهُ مِنْهُورٌ^(٣)

ومن تشبيهاتهم الأخرى تشبيههم له بالعسل المذاب بماء الوفائع، وهو الماء الذي يكون في مكان صلب يمسك فيه كالنفرة وهو ألد ماء يشرب في البوادي، قال ذو الرمة:

ونلنا سِقَاطاً مِنْ حَدِيثٍ كَأَنَّهُ جَنَى النَّحْلِ مَمْرُوجاً بِمَاءِ الْوَفَائِعِ^(٤)

أو هو بقية شهد ذاب من العسل الأبيض، قال جميل:

مِنَ الْبَيْضِ مِغْطَارٌ كَأَنَّ حَدِيثَهَا صَبَابَةٌ شَهْدٌ ذَابَ مِنْ ضَرْبِ النَّحْلِ^(٥)

وقال ذو الرمة في وصف محبوبته:

بِقَارِبِنَ حَتَّى بَطَمَعَ النَّابِغُ الصَّبَا وَتَهَنَّرَ أَحْشَاءُ الْقُلُوبِ الْحَوَائِمِ
حديثاً كَطَعْمِ الشَّهْدِ حَلَّوْا صَدُورَهُ وَأَعْجَازَهُ الْخُطْبَانُ دُونَ الْمَحَارِمِ
وَهَنَّ إِذَا مَا فَارَفَ الْقَوْلَ رَبِيبَهُ ضَرَحْنَ الْخَنَا ضَرْحَ الْجِبَادِ الْعَوَازِمِ^(٦)

فهن شهد إذا أمن الحرام، وخطبان إذا خشبته، ومن هنا فإنه لا بطمع فيهن؛ لأنهن يدفعن الحديث الذي فيه ربيبة، كما تفعل الخبل العوازم.

وهو عند مجنون ليلي أشهى إلى النفس من شعور الظمآن بالشراب البارد:

(١) ديوانه / ٦٩.

(٢) ديوانه / ج ١ / ١٦١.

(٣) ديوانه / ٩٣.

(٤) ديوانه / ج ٢ / ٧٨٦، الواقية: مكان صلب يمسك الماء كالنفرة.

(٥) ديوانه / ١٧٣.

(٦) ديوانه / ج ٢ / ٧٥٨-٧٥٩، الخطبان: خضر الحنظل. ضرحن الخنا: أبعدن الفساد في المنطق عنهن. العوازم: المواضع تدفع عن أولادها بـ "عزم" بعض.

كلامك أشهى فاعلمي لو أناله^(١) إلى النفس من بردِ الشرابِ على الظما^(٢) - ٧٢ -

ولعل هذه الصورة متناسبة جداً مع الحرمان الذي أشار إليه بقوله: "لو أناله" فالتقابل واضح بين الحرمان الذي يعانيه هو، وحرمان الظمآن من الماء البارد.

وأعجبهم الصوت الرخيم الرقيق، والمنطق النسهل، قال عروة بن أذينة:

رخيمة أعلى الصوتِ خَوْدٌ كأنها غزالٌ يراعي واشجاً بالصرايم^(٣)
وقال قيس صاحب لبنى:

كيف السلو ولا أزال أرى لها ربعا كحاشية اليماني المخلق
ربعا لواضحة الجبين غريرة^(٤) كالشمس إذ طلعت رخيماً المنطق^(٥)
وبشبهه قول الأصوص:

حبّبَ الذلفاءُ عندي منطقاً منها رخيماً^(٦)

كما أعجبهم المرأة نزره الحديث، غير مبتذلة فيه، قال ابن الدمينه في ذلك:

والمفَنَّراتِ من الكلامِ ولم يكن^(٧) بتَجَارِمٍ جِدّاً ولا بتبازل^(٨)
وقال نابغة بني شيبان أيضاً:

إذا لا بَنَتْهَا مَطَلَتْ ولانَتْ وفيها حين تنزرها صُودُ
تُشِيرُ إلى الحديثِ بحسنِ دلّ عن الفحشاءِ مَعْرِضَةً حَيُّودُ^(٩)

وهذا كله دليل عفة؛ إذ لا يكون لهن في علافتهن مع الرجال سوى هذا الحديث الطيب اللذيذ، كما في قول العدّيل بن الفرخ العجلي في هذه الصورة الجميلة، إذ جعل حديثهن في إطار من غصّ البصر وفتور النظر:

سَجَدْنَ لنا بلذيقِ الحديثِ وهنّ لنا غيرَ ذاكم حُرُمُ^(١٠)

(١) ديوانه / ١٧٩.

(٢) ديوانه / ٢٣١.

(٣) د. حسين نصار / قيس ولبنى / شعر ودراسة / دار مصر للطباعة / بدون تاريخ / ص ١٢٢.

(٤) ديوانه / ١٨٩.

(٥) ديوانه / ٧٢. النجارم: التقاطع من جرم الشيء بمعنى قطعه.

(٦) ديوانه / ٩٥.

(٧) شعراء أمويون / ج ١ / ٣١٣.

أما كثير، فقد أرادهن كواظم، لكن ذلك ليس لرغبته في هذه الصفة فيهن، وإنما لإظهار هيبته فقال:

كواظم لا ينطقن إلا محورة^(١) رجيعة قول بعد أن بتضهما^(٢)

فهن لا يبدأن الحديث، وإنما يكتفين بالرد على ما يسألن عنه.

والمرأة المحببة إليهم صادقة الحديث، كما في قول الشاعر المتوكل اللبثي الذي نعت حديث محبوبته بالصدق، مما يجعل زوجها وجيرانها يعيشون معها حياة هادئة لا هم فيها ولا وسواس صدر.

ليست بأفكة بطل عشيرها منها وجار الحي في بلبال^(٣)

وأشاروا إلى الصفات السلبية الأخرى التي لا يحبونها في حديث المرأة، أو ما يتعلق به، فنقوا عنها أن تنطق الخنا، أو نتكلم بكلام فاحش أو بذيء، وهي ليست صخابة تكثر من نداء جيرانها، كما في قول جميل:

مَنَعْمَةً لَبِستُ بسوداءَ سَلَمَيعٍ طوبيل لجيران البيوت نداؤها
فَدَدْتُكَ مِنَ النِّسْوانِ كُلِّ شَرِيرَةٍ صُخُوبٍ كَثِيرٍ فَحْشُها وبذاؤها^(٤)

بل هي لا تذكر من الحديث إلا أحسنه. قال عدي بن الرقاع:

إذا ذكَّرتُ حديثاً فَلَئِنْ أَحسنَهُ وَهَنَّ عَنْ كُلِّ سَوْءٍ بَتَّقَى صَدَفٌ^(٥)

وهم أخيراً بصفون أثر هذا الحديث الحسن في نفوسهم أو نفوس غيرهم، كما في قول كثير:

يهاب الذي لم يؤت حِلْماً كلامها وإن كان ذا حلم لديها حلماً
نروك لِسِقْطِ القول لا يَهْتدى به ولا هي تُسنوِصِي الحديثَ المَكْتَمَا^(٥)

(١) ديوانه / ١٣٧.

(٢) ديوانه / ١٦٥.

(٣) ديوانه / ٢٦.

(٤) ديوان عدي بن الرقاع العاملي / ديوانه / تحقيق نوري حمودي القيسي ود. حاتم الضامن / مطبعة

المجمع العلمي العراقي - العراق / ١٩٨٧ / ص ٢٣٦.

(٥) ديوانه / ١٣٤.

-٧٤-

فهذا الحديث الوفور منها بهابه غير الحلماء، وأما الحلماء، فإنهم يزدادون تحلماً؛ فهي لا تتعاطى إلا الكلام الرزين المفيد، وهي كذلك لا تحاول استخلاص الأسرار أو الكشف عنها.

كما وصف حديثها في مكان آخر بأنه يبرئ الفرعى المراض، أما القلوب الصريحة فتسمو بأسمائها:

وإذ يبرئ الفرعى المراض حديثها وتسمو بأسماء القلوب الصائح^(١)

أما عدي بن الرقاع، فبرئ أن حديث محبوبته بصطاد حتى يقيظ من الرجال:

بصطاد بقطان الرجال حديثها وتطير لذنّها بروح النائم^(٢)

ويبرئ كثير لو أن الرهبان سمعوا حديث محبوبته لخروا لها ركعاً وسجوداً:

رهبان مدين والذين عهدتهم يكون من حذر العذاب قعوداً

لو يسمعون كما سمعت كلامها خروا لعزة ركعاً وسجوداً^(٣)

فحتى هؤلاء الرهبان الذين يكون إيماناً وحذراً من عذاب الآخرة، ويقضون أعمارهم على هذه الحال، لو سمعوا حديث عزة لركعوا وسجدوا لها، وعلى ما في هذه الصورة من مبالغة شديدة إلا أنها تصوّر إحساس الشاعر بجمال حديث محبوبته وشدة وقعته.

وقد ضربوا المثل في حسن الحديث وبلاغته وسحره فقالوا إنه "يستنزل العصم".

قال كثير:

ولو بذلت أم الوليد حديثها لعصم برضوى أصبحت تنقرب

تهبطن من أكتاف ضأس وأبلغ إليها ولو أغرى بهن المكب^(٤)

وذلك من شدة خلايته وتأثيره في النفوس.

(١) ديوانه / ١٨٢.

(٢) ديوانه / ١٢٣.

(٣) ديوانه / ٤٤١-٤٤٢.

(٤) ديوانه / ١٦٠ والعصم جمع أعصم، وهو الوعل الذي في رجله بياض، يضرب به المثل في التأيد والمكث في الجبال، وعدم النزول إلى السهول. وقد كانت العرب إذا ضربت المثل في الحديث أو بلاغة القول، قالوا: إنه يستنزل العصم.

مشيتها؛ والأمر الثاني الذي لفت نظر الشعراء في هذا العصر طريقة المشي. فأحبوا المشية الهادئة، المتقاربة الخطى، وشبهوها بمشية المهابة التي تظل نهدي في مشيتها. أو بالسيل المتعطف، وهي تتبختر في مشيتها تبخر الهجان الأدم، وتتأود مثل الغصن، ونهتز كاهتزاز الرمح.

قال عمر بن أبي ربيعة في وصف محبوبته:

فَطُوفٌ، أَلُوفٌ لِلْحِجَالِ، غَرِيسَةٌ وَثِيرَةٌ مَا تَحْتَ اعْتِقَادِ الْمَوْزَرِ^(١)

وقال ذو الرمة:

فَطُوفٌ الْخَطَا عَجْزَاءٌ لَا تَنْطِقُ الْخَنَا خَلُوبٌ بِأَسْبَابِ الْعِدَاتِ مَطُولُهَا^(٢)

أما محبوبه المتوكل، فإنها تتمايل وتتعطف إذا مشت بكاد خصرها ينخزل:

إِذَا تَمَشَّى نَأْوَدَ جَانِبَاهَا وَكَادَ الْخَصْرُ يَنْخَزِلُ انْخِزَالًا^(٣)

وبشبهه جميل محبوبته في مشيتها المنمهلة والمناودة بالغناة في لينها واستوائها:

إِذَا انْدَفَعَتْ تَمَشَّى الْهُوَيْنَى كَأَنَّهَا فَنَاءٌ تَعَلَّسَتْ لِينُهَا وَاسْتَوَّاهَا^(٤)

وأما الأخوص، فقد رأى في مشية صاحبه خرقاً.

فَطُوفٌ الْمَشِيِّ إِذْ تَمَشَّى نَرَى فِي مَشْيِهَا خَرْقًا^(٥)

ولعل الذي يجمع مشية المرأة في الأبيات السابقة هو النمل والتؤدة في المشي.

وهذا النمل يشير إلى هدوئها ورزانتها، وإلى كونها مترفة منعمة، لا نحتاج إلى سرعة

المشي لإنجاز عمل ما نلزم بالقيام به. وقد تغنن الشعراء في تشبيه مشية المرأة، فجاءوا

بتشبيهات عديدة. فقد شبهها العرجي بمشية مهابة الرمل، قال:

وَمَجْلِسُ النَّسْوَفِ بَعْدَ الْكَرَى فِي رَوْضَافِرِ ذَاتِ أَفْجَاحِ نَدَى
خَرُجْنَ يَمْشِينَ مَعَا مُؤَهِّنَا مَشْيَ مَهَا الرَّمْلِ إِلَى مَوْعِدِ^(٦)

(١) ديوانه / ١٠٤.

(٢) ديوانه / ج ١ / ١٦١.

(٣) ديوانه / ١٤٠.

(٤) ديوانه / ٢٥.

(٥) ديوانه / ١٤٩. من معاني الخرق: الحياء وقد يكون هذا ما قصده.

(٦) ديوانه / ١١.

وقال في مكان آخر:

خَرَجْتُ نَاطِرٌ فِي أَوَانِسَ كَالدَّمَى وَالْمَزْنِ يَبْثُرُ بِالْعَشِيِّ رَبَابَهُ
بِمَشِينٍ مَشَى الْعَيْنَ فِي مَنَاقِبِ مَنْ نَبْنِيهِ غَرْدِ الصَّخَاءِ ذَبَابَهُ
فِي زَاهِرٍ مِثْلِ النُّجُومِ أَمَالِكُهُ ظَلَمَ فَتَمَّ وَلَمْ يَهْجِ إِعْشَابُهُ^(١)

ففي هذا الوصف لمتنزه الفتيات في هذا الروض الأنيق، النضر بأزهاره، الغني بمائه، ظهرت المرأة ناطرة هي ورفيقاتها، تمشي مثل مشي العين في نهديها وأنانها. وثقلها. وأنى لها أن تمشي على غير ذلك في ظل هذه الصورة المترفة الناعمة التي رسمها الشاعر للمكان والزمان، والظروف المرافقة الأخرى. أما الكميت فقد شبه مشية النساء بمشية قطا البطاح في تأودها ولينها قال:

بِمَشِينٍ مَشَى قَطَا الْبَطَاحِ تَأَوَّدَا قَبَّ الْبَطُونِ رَوَاجِحَ الْأَكْفَالِ
يَوْمَيْنِ بِالْحَدَقَةِ الْقُلُوبَ فَمَا نَرَى أَلَا صَرِيحَ هَوًى بَغِيرِ نِيَالِ^(٢)

وشبه المتوكل اللبني مشية محبوبته بدبيب سيل يتعطف حيناً ويستقيم حيناً آخر:

إِذَا تَمَشَى تَقُولُ دَبِيبَ سَيْلٍ تَعَرَّجَ سَاعَةً ثُمَّ اسْتَقَامَا^(٣)
وَقَالَ كَثِيرَ عَزَّةٍ فِي ذَلِكَ:

وَنَمَشَى الْهُوَيْنَا إِذَا أَقْبَلْتُ كَمَا يَهَرُ الْجَزْعُ سَيْلًا ثَقِيلًا
فَطُورًا بِسَيْلٍ عَلَى قَصْدِهِ وَطُورًا يَرَاغِبُ كِي لَا بِسَيْلَا
كَمَا مَالِ أْبَيْضَ ذُو نَشُوفٍ بَصْرَخَسَدَ بَاكِرَ كَأْسَا شَمُولَا^(٤)

فالشاعر يشبه مشية هذه المرأة الثقال بتدافع السيل إذا تلقاه منعطف الوادي. وهنا يكون السيل غاية في البطء فطوراً يسيل على قصده. وطوراً يراجع. وهذا السيل في تعرجه يشبه رجلاً كريماً قد شرب كثيراً فسكر. وهذه الصورة جاءت نتيجة لتمثيلها وتعطفها. ومنه قول كثير أيضاً:

(١) ديوانه / ٢٧.

(٢) الكميت بن زيد الأسدي / شعره / جمع وتقديم د. داود سلوم / مكتبة الأندلس-بغداد / ١٩٦٩ / ج ٢ /

٥٣. قب البطون: ضامرات البطون.

(٣) ديوانه / ١١٨.

(٤) ديوانه / ٣٩١-٣٩٢.

إذا ما مشيت بين البيوت نخزلت ومالت كما مال الزيف المرنج^(١)
ومن التشبيهات الأخرى التي شبهوا بها مشية المرأة تشبيههم إياها بمن يمشي في
الوحل. قال ابن الدمينة:

ونمشي حين تأتي جارتها نأود مشية الوحل الوهبض^(٢)
أما مجنون ليلى، فقد رآها تمشي مثل مشية الخيل نجتاز الوحل
نتيجة لنقلها وخيلائها:

منعم الأطراف هيّف بطونها كواعب تمشي مشية الخيل في الوحل^(٣)
ومثله قول العرجي:

فجئن ما يكدن إذا ارجحت بها الأعجاز من نفل ينونا
على خرس خلاخلها خدال كمشي الخيل بالمعززا وجينا^(٤)
وقد ركز الشعراء على صفات التمايل والخيلاء والتأطر في المشي. مؤكدين أن
المرأة تتبختر في مشيتها تبخراً.

قال كثير:

هضيم الحشا رود المطا بخربة جميل عليها الأتحمي المنشب^(٥)
بل هن يمشين مثل الهجان الأدم متبخترات بسبب هدر الفحل عليهن. ومن
المعروف أنه إذا هدر الفحل على النوق تبخترت قال الأخطول:
يمشين مشي الهجان الأدم. روحها عند الأصيل هدير المصعب القطم^(٦)

(١) ديوانه / ٤٦٣. الزيف: السكران.

(٢) ديوانه / ٦٥.

(٣) ديوانه / ١٥٨.

(٤) ديوانه / ٩٤ / ارجحت: اهتزت واضطربت. والمعززا: الأرض الصلبة ذات الحجارة والحصا.

(٥) ديوانه / ١٥٨. بخربة: متبخرة في مشيتها. الأتحمي: ضرب من البرود. المنشب: الموشى على صورة
النشاب. المصعب: الفحل، الصعب الانقياد. والقطم: الهائج.

(٦) ديوانه / ج ١ / ٢٢٢.

وأكثر الشعراء من وصف المرأة بالتعب والفتور عندما تمشي فقال جميل بن معمر:

من الخفريات البيض خَوْدٌ كأنها إذا ما مَسَّتْ شَبْرًا من الأرضِ تُنَزَّحُ (١)

وفال عمر بن أبي ربيعة:

وظَلَّتْ نهادي ثم تَمَشِّي نَاوِدًا وتشكو مراراً من فوائمها فَتْرًا (٢)

فهي إذا ما مشت مسافة قصيرة أصابها التعب والإعياء، وهذا ليس لمرض ألمَّ بها، وإنما يقصد أنها مرفهة، منعمة، لم تعد السير الطويل.

الحياء والعفة: وقد أكثر الشاعر الأموي من الحديث عن عفة صاحبتة وتنعها وحيائها، فهي حبيبة، خفزة، عفيفة لا بطمع فيها، بخيلة، مماثلة، لا تضي بوعودها... وهي كذلك شמוש، نافرة، صعبة.

قال كثيّر عَزَّة:

من الخفريات البيض ودَّ جليسها إذا ما انقَضَتْ أهدوشةٌ لو تُعْبِدها (٣)

وهي تحتمي بحمي الحياء إذا كثر الكلام حولها، قال مجنون ليلى:

خَوْدٌ إذا كَثُرَ الكلامُ نَعَوَّذَتْ بحمي الحياء وإن تكَلَّمَ تَقْصِدُ (٤)

وهذا الحياء يزيد لها حسناً ودلاً فوق حسننها ودلالها، قال جميل:

قطوف ألوفٍ للحجالِ يَزِينُها مع الدلّ منها جسمها وحباؤها (٥)

وهي صاحبة عفافٍ وكرمٍ، قال مجنون ليلى عند وقوفه على قبرها:

وبا قبرٍ ليلى ما تَضَمَّنَتْ قبلها شَبَّيها لليلَى ذا عفافٍ وذا كَرَمٍ (٦)

وهي مرفوعة عن عيون الناس لا يطمع فيها، قال الأخطل:

(١) ديوانه / ٤٤.

(٢) ديوانه / ١٢٦.

(٣) ديوانه / ٢٠٠.

(٤) ديوانه / ٧٢.

(٥) ديوانه ٢٥.

(٦) ديوانه / ١٧٦.

مرفوعةً عن عبونِ الناسِ في عُرفٍ لا يَطْمَعُ الشُّمَطُ فيها، والتَّنَابُلُ^(١)

ووصفوها بالبخل. وأكثروا من ذلك، فقد جرت أخلاقها عليه لأنها عفيفة. قال
ذو الرمة:

وإنَّا لنَرْضَى حينَ نشكو بَخْلَوَهُ
وما الفَقْرُ أَرَى عندهنَّ بوصلينا
إلَّهِنَّ حاجاتِ النُّفوسِ بلا بَذَلٍ
ولكن جرت أخلاقهنَّ على البخلِ^(٢)

وقد استغنى جميل عن اسمها بصفتها؛ البخيلة دليلة على ملازمة هذه الصفة لها:

رَحَلَ الخَلِيطَ جِمالَهُمْ بسوادٍ وَحَدَا على أثرِ البخيلةِ حادي^(٣)
أما عزة فإنها إن أعطت يكن عطاؤها نزراً قليلاً في إطار من الخوف والجزع
وهي في ذلك كالخائف المذعور الذي يهاب صوت الحبة حينما يسمعه:

تَنِيلَ نَزْراً فلبلا وهي مُشْفِقَةٌ كما يهابُ نَشِيشَ الحَيَّةِ الفَرَقِ^(٤)

ويبدو الشاعر راضياً إلى حد كبير عن تمنع محبوبته وبخلها لعلمه، وتأكده بأن
ذلك نتيجة لعفتها وحيائها وأخلاقها، وليس لزهدها فيه، وقلة حبها له. فهذا عروة بن
أذينة بدعو لها بالسقيا حتى وإن بخلت عليه. قال:

بَخِلْتُ رَقَاشَ بَوْدَها ونوالِها سَقِيَا - وإن بَخِلْتُ - لبخلِ رَقَاشا^(٥)

ورضاه هذا واقتناعه بموقفها وتفهمه له بمنعه من اغتصاب أي شيء منها. قال
ابن ميادة:

ليست نَجَوْدَ بنبُلٍ حينَ أسألُها ولستُ عندَ خلاءِ اللهوِ أغتصبُ^(٦)

وقد صور بعض الشعراء بخل محبوبتهم بصورة مغايرة بعض الشيء. فذكروا أنها
تقترب حتى يعتقد أنها ستنبيله، ثم لا تلبث أن تصبح أكثر بخلا وتشدداً. قال
المنوكل:

(١) ديوانه / ج ١ / ٥٤. الشُّمَطُ: جمع شَط وهو الذي خالط سواد شعره بياض.

(٢) ديوانه / ج ١ / ١٤٦.

(٣) ديوانه / ٧١.

(٤) ديوانه / ٤٦٧.

(٥) ديوانه / ١٧٤.

(٦) ابن ميادة / شعره / جمع وتحقيق د. حنا جميل حداد / مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق /

أَمْسَتْ يَوْمَ دَارِ الْقَسْرِ ضَنْتٌ عَلَيْنَا أَنْ تَتَوَلَّنَا نَوَالَا
دَنْتُ حَتَّى إِذَا مَا قُلْتُ جَادَتْ أَجْسَدْتُ بَعْدَ بَخْلَا وَاعْتِلَالَا (١)

ولا أدري إن كان هذا فعلا من أساليب المرأة، أم أنه فقط من إحساس الشاعر الذي يوقعه في مثل هذا الظن. ومع ذلك فقد يكون في هذا البخل أمور تعجب الرجل. فقد قال كثير في وصف عزة:

وَأَعْجَبَنِي بَا عَزَّ مِنْكَ خَلَائِقُ كِرَامٌ إِذَا عَدَّ الْخَلَائِقُ أَرْبَعَ
دَنُوكُ حَتَّى بِذَكَرِ الْجَاهِلِ الصَّبَا وَدَفَعْتُكَ أَسْبَابَ الْمَنَى حِينَ بَطْمَعَ
فَوَاللَّهِ مَا بَدَّرِي كَرِيمٌ مَطْلَبِهِ أَيْشَدُّ أَنْ لَافَاكَ أَمْ يَتَضَرَّعُ (٢)

ولعل هذا الإحساس عند الشاعر يتشكل نتيجة رقة عند المرأة ويكون مبعثها العاطفة القوية نحو صاحبها، وهي في ظل هذه العاطفة تقترب من الشاعر أكثر بحيث بطمع في وصالها كما يقول كثير، ولكن سرعان ما يدرك أن هذا لم يكن منها لأجل ما اعتقد هو، وأنها في إطار خضرها وحياتها وعفتها لا تعطي أكثر من هذا الحب الكبير الذي تعبر عنه بلسانها، وبوسائل عذرية ليس غير.

ومن علامات البخل المماثلة والنسوبيف وعدم تحقيق الوعود، قال كثير:

وَإِنِّي لَأَكْمِي النَّاسَ مَا نَعْدَنِي مِنْ الْبَخْلِ أَنْ يَذَرِي بِذَلِكَ كَاشِحُ (٣)
وَقَالَ الْمَتَوَكِّلُ:

إِذَا وَعَدَنكَ مَعْرُوفًا لَوْنَهُ وَعَجَلْتَ التَّجَرُّمَ وَالْمِطَالَ (٤)
وَقَالَ الْأَخْطَلُ:

وَإِذَا وَعَدَنَكَ نَائِلًا أَخْلَفَنَهُ وَوَجَدْتَ عِنْدَ عِدَاتِهِنَّ مِطَالَ (٥)

(١) ديوانه / ١٣٨.

(٢) ديوانه / ٤٠٥.

(٣) ديوانه / ١٨٧.

(٤) ديوانه / ١٣٩.

(٥) ديوانه / ج ١ / ١٠٧.

وقد أكثر الشعراء من اتهام المرأة بالمماطلة، وعدم الوفاء بالوعد، حتى بات الشعراء وغير الشعراء يجعلون هذه الصفة من خصائص المرأة التي لا تفارقها، وأصبحت مضرب مثل في التلون وإخلاف المواعيد. والأمر يحتاج إلى تفسير؛ فهل هذه الصفة هي من الصفات الفطرية في المرأة التي لا تنفك تلازمها في كل زمان ومكان؛ حيث ذكر الشعراء الجاهليون ما ذكره الأمويون وغيرهم، أم هي تهمة ألصقها بعض الرجال من حادثة فردية خاصة بهم، ثم تنافلتها غيرهم، وأصبحت كالمثل بذكر ويقال في الشعر وغير الشعر، أم أن هذه التهمة جاءت من سوء فهم الرجل لأمر تكون في نفسه؟ لا شك أن كل علاقة بين الرجل والمرأة لها ظروفها، ولكل امرأة ظروفها أيضاً، وبالتالي يصعب التعميم عند الأخذ بأي رأي من الآراء السابقة، ولكن يبدو لي أن صفة المماطلة والتسويف وإخلاف المواعيد من الأمور التي ضخمت بحيث أخذت أكثر من حجمها الواقعي في نفوس الشعراء، وأرى أنها في الغالب من صنع الشاعر نفسه بمعنى أنها جاءت نتيجة لفهمه الخاص لكثير من الأمور التي تبدر عن المرأة، فيعتقد هو وبحكم ما يسيطر على ذهنه من حب اللقاء والمواصلة أنها وعدته بذلك، ولكن سرعان ما لا يتحقق هذا الوعد، فيظن أنه الإخلاف والتلون والتغيير. هذا أمر، أما الأمر الآخر فإن ما فطرت عليه المرأة من حياء وعفة يلعبان دوراً مهماً، فحياء المرأة يزيد من عفتها وتمنعها، كما أن حرصها وخوفها يمنعانها من اللجوء إلى ما يمكن أن يؤدي بها وبصاحبها إلى غير ما نحب، خاصة وأن الوقت المَعطى لها بين الموعد وتحقيقه يكون كافياً للتفكير بنتائج أي مغامرة فيدعوها هذا إلى التريث والتفكير، بل إلى غير ما يحب الرجل منها مما يظنه إخلاقاً للمواعيد.

لهذا كله اعتقد المؤمل بن أميل المحاربي أنهن غوادر:

والغائباتَ كذلك هُنَّ غوادرٌ أبداً حبال وصالهنَّ تجَازمُ
يخلَبُنَّ بالنظرِ الفنى وبيَعُنَّه نَبِلاً ودونِ عدائهنَّ الأنجَمُ^(١)

واعتقد جرير أنها مثل البرق الخلب تحسبه ممطراً وقريباً، وتفاجأ بأنه ليس كذلك:

رأيتك مثل البرق تحسب أنه قريبٌ وأدنى صوبه منك نازح^(٢)

(١) المؤمل بن أميل المحاربي، حياته وما تبقى من شعره / جمع وتحقيق د. حنا حداد، مجلة المورد /

المجلد السابع عشر / العدد الأول / ربيع ١٩٨٨ / ٢٠٢.

(٢) ديوانه / مج ١ / ٢٦٦.

وقال جميل:

على ذلك أني لا بخبل عليهم ولا فاحش فيما أطالب ملحف^(١)

ولا يمكن لهذه الوعود أن تتحقق إلا في الحلم كما في قول جميل أيضاً:

وكم وعدتنا من مواعد - لو وقت
وكم لي عليها من ديون كثير
تجود به في النوم غير مُعَرِّد
إذا قلت قد جادت لنا بنوالها
يسوأي - فلم تنجز قليل غناؤها
طوبل تفاضها بطي قضاؤها
ويحزن أيقاظاً عليها عطاؤها
أبت ثم قالت: خطئة لا أشاؤها^(٢)

وهي كذلك لا تفي بوعودها مع أنه معها كربم. ولا يطلب منها ما فحش من الأمور. وإن هي فعلت فلا يكون منها هذا إلا في الأحلام. أما في اليقظة فلا. ويبدو موقفها واضحاً صلباً في قولها "خطئة لا أشاؤها".

وقد صور وضعه معها بالفقير الذي ينظر إلى الغني وهو بعد ديونه ولكن لا ينجز هذه الديون مع أنه يملك الكثير. فلا رحمة لديه بهذا الفقير أبداً:

إنني إليك بما وعدت لناظراً
نظر الفقير إلى الغني المكثر
بعد الديون وليس ينجز موعداً
هذا الغريم لنا وليس بمعسر^(٣)

وهي بعد نافرة كأنها وحشيه. لا يمكن صيدها. قال عروة بن أذينة:

ظفرت بؤدك إذ سبتك كأنها
وحيدة لا تستطيع حواشها^(٤)

ووصفها المتوكل بأنها شمس:

شمس وشاحها إذا ابتز ثوبها
على متن خمصانية سلسان^(٥)

وقال المجنون:

إذا سمنتها التغبيل صدت وأعرضت
صدود شمس الخيل صل لجامها
وعضت على إبهامها ثم أومات:
أخاف عبونا أن تهب نيامها^(٦)

(١) ديوانه / ١٢٨.

(٢) ديوانه / ٢٤.

(٣) نفسه / ١٠٣.

(٤) ديوانه / ١٧٤.

(٥) ديوانه / ١٨٩.

(٦) ديوانه / ١٧١.

فهو كالفرس الجموح الذي يسمع صليل لجامها، وهو يعلل ذلك بخوفها من عيون الكاشحين لا لكونها لا تحبه أو لأي سبب آخر.

ورغم هذه الشكوى الكبيرة من بخل الحبيبة والمماطلة والتسويف في الوعود إلا أنها في أغلبها شكوى ظاهرية غير حقيقية لأن الشاعر أحب المرأة البخيلة المتمتعة الصعبة التي لا يستطيع أحد النبل منها، فهذا أولا وأخيراً دليل على عفة حبيبته التي كانت عند العربي منذ القديم موطن اعتزاز وفخر وتقدير. وقد كرهت العرب المرأة المبذلة الرخيصة حتى وإن تغنوا ببعضهن بالشعر ووصفوا جمالهن، إلا أنهم آثروا المرأة العربية الحرّة العفيفة، لأن هذا يعني لهم أنها من بيئة محافظة، تمنع الفتاة وتحميها وتصورها بكل الوسائل، بما في ذلك حدّ السيف، وبالتالي أكثرها من التغني بعفة محبوباتهم، وتمنعهن، وفوتهن في الحفاظ على أخلاقهن، وأخلاق قبيلتهن. إنهن لذلك كله، يستحقن هذا الولع بهن، وهذا الحب الكبير الذي قد يدفع الشاعر إلى أن يفضي حياته بتغني بمن أحبّ، وقد يموت في إثر ذلك، كما حدث لمجنون ليلى ولغيره:

رزانتها وعقلها: وأعجبهم من سلوكها أن تكون ثقيلة، رزينة، تلزم بيتها، صاحبة عقل راجح، وفهم طيب.

فقد قال الراعي في وصف محبوبته بأنها امرأة ثقيلة لا تكثر الخروج من بيتها، ماهرة في صنعها:

نَقَالَ إِذَا رَأَى النِّسَاءَ خَرِيدَةً . صَنَاعٌ فَقَدْ سَادَتْ إِلَيَّ الْغَوَانِيَا (١)

وهي كذلك عند ذي الرمة تلزم بيتها ليست مبذلة

لِبَالِي لَا مَيَّ خَرُوجَ بِذِبَّةٍ وَلَكِنْ رَدَاجٌ لَمْ يَشْرِئْهَا قَوَامُهَا (٢)

وهي حليلة رزينة، كما في قول جرير:

أَنَاءٌ لَا النَّوْمَ لَهَا خَدِينٌ وَلَا تُهْدِي لَجَارَتِهَا السَّبَابَا (٣)

(١) ديوانه / ١١١.

(٢) ديوانه / ج ٢ / ١٣٢٩.

(٣) ديوانه / ج ١ / ٢٤٣.

-٨٤-

فهي تعرف كيف تختار صديقاتها. خلوة في تعاملها مع جارتها. وهي كذلك حصان، عفيفة لا تفتش الأسرار ولا تمشي بين الناس بالفتن ونقل الحديث، ولا تذهب وتجيء بين البيوت. قال جرير أيضاً:

حصان لا المريب لها خدين ولا تفتشي الحديث ولا ترود^(١)
وهي تجمع الحسن والدلال والوفار في شخصيتها. قال جميل:

لا حسنها حسن ولا كدالها دل ولا كوفارها توفير^(٢)
أما عقلها فهو راجح أصيل، قال عروة:

وحديثها الحسن الجميل وعقلها ذاك الأصيل إذا أردت محالها^(٣)
أما محبوبة المتوكل فتتصف بالجهرارة والعقل:

بين الفصير والطويل برزة ليست بفاحشة ولا متفأل^(٤)
فهي جليلة لا تخشى أن تبرز للناس وتجلس معهم.

دلالها: وصف الشعراء محبوباتهم، بالرفقة والملاحة؛ لما هن فيه من ترف وحياء رغيدة؛ فهي نؤوم الضحى، مكسأل ذات حسن ودل لما يوفره لها أهلها من حسن خدمة ورعاية وغنى. قال المتوكل الليثي في ذلك:

نواعيم ساجيات الطرف عين كعين الإرخ تتبع الرمالا
أوانيس لم تلوحهن شمس ولم يشددن في سفر رحالا
نواعيم بتخيدن لكل ممسى مروط الخز والنقب النعالا
بصن محاسنا وبرين أخرى إذا ذو الجلم أبصرهن مالا^(٥)

فهن ساكنات العيون لما هن فيه من نعيم وترف، وبما يقوم به ذووهن من توفير أسباب الحياة الرغدة لهن. وتظهر مظاهر الترف ليس على سكونهن ونعومتهم فحسب، ولكن أيضاً على لباسهن وزينتهن.

(١) ديوانه / ج ١ / ٢١٨.

(٢) ديوانه / ٩٣.

(٣) ديوانه / ١٤٢.

(٤) ديوانه / ١٧٤.

(٥) ديوانه / ١٥٤. الإرخ: البقر الوحشي.

قال كثير:

منعمة لم تلقَ بؤسَ معيشةٍ هي الخلدُ في الدنيا لمن يستفيدُها (١)
وقد أكثروا من الإشارة إلى أنها تتحسس من أي شيء مهما كان صغيراً كالذر.
قال المجنون:

منعمة لو باشرَ الذرَّ جلدَها لأنثرَ منها في مدارجِها الذرَّ (٢)
وقال جميل:

منعمة لو بدرجَ الذرَّ بينها وبينَ حواشي نوبها ظلَّ يجرحُ (٣)
وقال مجنون ليلي:

بيضاء باكرها النعيمَ فصاغها بلبافةٍ فأدفعها وأجلَّها (٤)
وقال معن بن أوس بأنها لم تغدَ غداءً ضيقاً، ولكنها في خفض من العيش:

منعمة لم تغدَ في رسلٍ نلَّ ولم تتجاوبَ حولَ كلتَهما البَهمُ (٥)
أما العديل بن الفرخ العجلي، فيرى نعمة محبوبته من كونها امرأة مخدومة لا
تضطر للعمل خارج بيتها وبالتالي لم تلحها السموم.

منعمة لم تلحها السموم مَ يضيء سنا وجهها في الظلم (٦)
وقال عمر بن أبي ربيعة:

معاصم لم تضرب على البَهمِ بالضحي عصاها. ووجه لم تلحه السمائم (٧)
وقال كثير:

منعمة لم تلقَ بؤسَ معيشةٍ هي الخلدُ في الدنيا لمن يستفيدُها (٨)

(١) ديوانه / ٢٠٠

(٢) ديوانه / ٨١.

(٣) ديوانه / ٤٤.

(٤) ديوانه / ١٦٢.

(٥) ديوانه / ٣٧.

(٦) شعراء أمويون، ج ١/ ٣١٤.

(٧) ديوانه / ٢٠٨.

(٨) ديوانه / ٢٠٠.

وحق هذه الغتاة المنعمة أن تكون ذات دلال وغنج، وهو دلال بعجب الشاعر وبسر

به. قال عروة بن أذينة:

إذا بدت لم تنزل له عَجَباً يونقَه دَلْها وميسمُها (١)

وبه نصبت عقول الرجال وتقتلهم. قال معن بن أوس:

تصبتُ البابَ الرجالِ بأنسها ويقتلهم منها الدلُّ والنم (٢)

وفال الأخطل:

يجري ذكيُّ المسك في أردانها ونصبتُ. بعد تقنل ودلال
قلبُ الفوي، إذا تنبه بعدما تغنل كلُّ مذالمةٍ متفان (٣)

أما الأحوص فبرى أن دلال صاحبه حسن عنده وجميل. قال:

لا تصرفني عني دلالك إنه حسنٌ لديّ وإن بخلتِ جميل (٤)

ووصفوها بأنها مكسال، وهو مدح لها لأن هذه الصفة كناية عن الذرف وأنها

مخدومة لا تحتاج للقيام من نومها للعمل. قال المتوكل اللبشي:

إذا خلوت بها خلوت بحرةٍ ربّا العظام دميثةٍ مكسال (٥)
وفال السمهري العكسي:

وبيضاء مكسال لعوبٍ خريدةٍ لذيدٌ لدى الليلِ النمامِ شمامها (٦)
وقال عمر بن أبي ربيعة:

من البيضِ مكسالُ الضحى، بخريةٍ فقال. متى تنهضُ إلى الشيء تفتُر (٧)

فهي تنعب عن القيام بأي عمل لأنها غير معنادة على ذلك.

(١) ديوانه / ٨٠.

(٢) ديوانه / ٣٨.

(٣) ديوانه / ج ١ / ١٣٨-١٣٩.

(٤) ديوانه / ١٦٤.

(٥) ديوانه / ١٧٢.

(٦) شعراء أمويون / ج ١ / ١٤٦.

(٧) ديوانه / ١٠٥. وانظر كذلك / ٣٣٨.

وهي كذلك نظيفة ذات رائحة طيبة كما في قول الأخطل:

فَكَذَاكَ نَكْهَتْهُمَا إِذَا نَبَّهَتْهُمَا وَالْجِلْسَدَ غَيْرَ مُدَّرِّنٍ مِتْضَالٍ^(١)

وقال عمر:

مَحْطُوطَةٌ الْمَتْنَيْنِ أَكْمَلَ خَلْفَهَا مِثْلَ السَّبِيكِةِ بَضَّةً مِعْطَارًا^(٢)

نظرتها وابتسامتها: لقد تحدثت عن شيء من هذا أثناء حديثي عن جمال العيون، والغم والأسنان، للعلاقة التي تربط هذه الأمور بعضها مع بعض، ولكني سأخصص الحديث هنا عن النظرة والابتسامة بشكل خاص. فقد تحدث الشعراء عن النظرة الفاترة الناعسة وشبههوها بالعين المريضة ولكن دون أن يكون بها مرض، وقصدوا بها تلك النظرة المخصوصة التي تشبه في تذللها وفتورها، وغض الطرف، نظرة المريض. قال النابغة الشيباني:

مَرَضَى الْعَيُونَ وَلَمْ يَلْقُ بِهَا مَرَضٌ شَمَّ الْأَنْفُوفِ فَلَا غِلْظٌ وَلَا قَطَسٌ^(٣)

وقال كثيرون:

أَغْرَكَ مِنَّا أَنْ دَلَّكَ عِنْدَنَا وَإِسْجَادَ عَيْنِيكَ الصَّيُودَيْنِ رَابِحٌ^(٤)

وأبسدع جربير حيث قال:

إِنَّ الْعَيُونََ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرَضٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يَحْيَيْنِ قَتْلَانَا^(٥)

وقيل فيه هو أغزل بيت قالته العرب. وقد أحسن كثير في وصف العين الساجبة والباكية معاً بقوله:

قَامَتْ تَرَاوِي لَنَا وَالْعَيْنُ سَاجِبَةٌ كَأَنَّ إِنْسَانَهَا فِي لَجَّةِ غَرَقٍ
ثُمَّ اسْتَدَارَ عَلَى أَرْجَاءِ مَقْلَتِهَا مَبَادِرًا خَلْسَاتِ الطَّرْفِ يَسْتَبِقُ
كَأَنَّهُ حِينَ مَارَ الْمَأْفِيانِ بِهِ دَرَّ نَحْلَلٍ مِنْ أَسْلَافِهِ نَسَقُ^(٦)

(١) ديوانه / ج ٢ / ٦٩٤.

(٢) ديوانه / ١٢٨.

(٣) ديوانه / ٧٩.

(٤) ديوانه / ١٨٤.

(٥) ديوانه / مج ١ / ١٦٣ وفي رواية أخرى حور بدل مرض.

(٦) ديوانه / ٤٦٦-٤٦٧.

فهذه العين الفاترة للحظ حياء ودلالا قد استرقت النظر إليه على عجل والدمع قد أخذها؛ تفعل ذلك مخافة الرقباء، ومن غلبة المسرة عليها، وقد شبه هذه الدموع المتساقطة على خدّها بالدر المنتظم في عقده يتحدر متتابعاً.

وقد شبه الشعراء نظرات المحبوبة بالسهام الفاتلة كما في قول المتنوكل:

فَصَدْنَ العَاشِقِينَ بِنَبْلٍ جِنِّ فَوَاصِدَ بَقْتَلْنَهُمْ أَفْتِيَالاً (١)

وهي سهام غير مرثبة تصيد القلوب بها، بينما لا تحسن الرمي بالنبل، قال المجنون:

ونرمي فتصطاد القلوب عيونها وأطرافها ما تحسن الرمي بالنبل (٢)

ولعل في هذا التشبيه إشارة إلى القوة الكبيرة التي تكون للمرأة، والتي لا يشترط فيها قوة الجسد أو ما شابه ذلك بل قوة التأثير على هؤلاء الشعراء.

أمّا الابتسام، فقد شبهوها بإبماض الغمامة الممطرة، قال المجنون:

وبيسمٍ إبماض الغمامة إذ سمّت إليها عيون الناس حتى استهلّت (٣)

وبشبهه قول عروة:

بوم نراءت كأنها - أصلاً - مزنّة بحرٍ يخفى تبسمها (٤)

فتنبجة لمعان أسنانها حينما تنفجر شفاتها؛ تصبح مثل السحابة البيضاء عند الأصيل. وكذلك قول ذي الرمة:

تبسم إبماض الغمامة جنّها رواق من الظلماء في منطقي نزر (٥)

وبشبهها السمهري العكلي بوميض البرق:

كأن وميض البرق بيني وبينها إذا حان من بين الحديث ابتسامها (٦)

(١) ديوانه / ١٥٢.

(٢) ديوانه / ١٥٨.

(٣) ديوانه / ٤٨.

(٤) ديوانه / ٧٧.

(٥) ديوانه / ج ٢ / ٩٥٢.

(٦) شعراء أمويون / ج ١ / ١٤٧.

وهي تؤثر حتى في الحلماء من الرجال فتأسر قلوبهم وعقولهم. قال المجنون:

وفي الظعن بيضاء العوارض طفلة منعمة بسبي الحليم ابتسامها^(١)

وكرهوا أن تغرط المرأة في ضحكها. بل رغبوا أن يكون ابتسامها لمع برق في غمامة وذلك لصفاء نغرها ونقائه. قال كنيسر:

إذا ضحكت لم تنتهز وتبسمت ثابيا لها كالمُرِّنِ غَرَّ ظُومها^(٢)
والبرق في شدة السواد يكون أحسن وأضوأ.

ومثله قول الأخطل:

إذا ضحكت لم تنتهز. وتبسمت بأبيض. لم تقدم مَنُونِ عِظام^(٣)

وعلى هذا تكون الابتسامة صفة جمالية، وكذلك سلوكاً خلقياً أراد الشعراء من المرأة أن تلتزمه. فهي تظهر جمال نغرها وأسنانها بما فيها من لون ولمعان واتساق. وهي توضح أترانها وهدوءها حينما تبتعد عن الضحك الكثير أو القهقهة بصوت مرتفع وتكتفي بالابتسامة.

حسبها ونسبها افتخرت العرب بأحسابها وأنسابها منذ أيام الجاهلية الأولى. واستمر ذلك بعد مجيء الإسلام رغم محاربته للتفاخر بالأحساب والأنساب. وامتداداً لهذا الاهتمام بالحسب والنسب عند العرب. اهتموا بنسب المرأة وقبيلتها ومنعة أهلها ومكانتهم إلى غير ذلك من الأمور التي تؤثر في مكانة المرأة القبلية أو نسبها الاجتماعي.

من ذلك ما مدح به معن بن أوس محبوبته بقوله:

نوالدها بيض حرائر كالدَّمَى	نواعم لا بيض قصار ولا خنم
وأجداد صدق لا يعاب فعالهم	هم النضد السر الغطارفة الشم
مطاعم في البؤسى لمن يعزيرهم	إذا يشتكى في العام ذي السنة الأزم
مصاليب أبطال إذا الحرب شممت	هم النضد السر الغطارفة الشم
إذا انتسبت مدت بديها إلى العلى	وصدقها الإسلام والحسب الضخم ^(٤)

(١) ديوانه / ١٧١.

(٢) ديوانه / ١٤٤.

(٣) ديوانه / ج ٢ / ٤٩٢.

(٤) ديوانه / ٣٨-٤٠. الخنم: الواحدة خنماء وهي التي في طرف أنفها عرض وتطامن. النضد: الأشراف.

السر: الخيار. وبلاحظ تكرار الشطر الثاني للبيتين الثاني والرابع. هكذا جاء في الديوان.

أي جداتها من خيرة النساء نقيات من العيوب، كالدمى في جمالهن، وكذلك أجدادها أشراف خبار، كرام، مصاليت، أبطال، وبالتالي هو يمدحها بكل هذا ويزيد عليه مدحها بالإسلام والحسب الضخم.

ومدحها العرجي بأنها ابنة ملوك بقوله:

ض قُغْضَ المَلَامَ فيها، مُناها	إنها حيث ما تكون من الأر
ملك نال من قَصِي ذُراها	إنها بنت كل أبيض قَرَم
عَبْدَ شَمْسٍ وهاشم أبواها	وبنى المجد صاعداً، فعلته
أبداً، حين يفخرون مداها	فهي لا تُدرك النساء بسقي
إن في الناس فاعلموا، أشباها	لستن حوراً عفاً هَن منها
كل ما بعجز الأكف يداها	أمها البدر: أم أروى، فنالت
دارها بالبضاع إذ ولداها	إن عثمان والزبير أحلا
بهما إذ نسبتهَا خالاهَا (١)	ونبي الهدى وحمزة إبدأ

وافتخر المنوكل بقبيلتها بقوله:

أسدية يسمو بها أبواها	ففي كل يوم تفاخر ونضال (٢)

وذكر في مكان آخر بأن أهلها صعب يحمونها ويمنعونها في قصر مشيد:

من دونها صعب المراقى مشيد	نِيفَ وصَرَّاران مؤتلفان (٣)

ومن الأمور التي أظهر الشاعر فيها منعة محبوبته، ومكانة أهلها المادية، كثرة خدامها وتباعها كما في قول عمر:

بعيدة مهوى القُرطِ إما لتوفل	أبوها، وإما عبد شمس وهاشم
ومدّ عليها السجف يوم لفيثها	على عجل رباعها والخوادم
فلم أَسْتَطِعْها غير أن قد بدا لنا	عشية راحت كَفَّها والمعاصم (٤)

وهكذا رسم الشاعر الأموي صورة المرأة النموذج في أخلاقها وسلوكها فجاءت مثالا في صفاتها المعنوية، كما كانت من قبل مثالا في صفاتها المادية.

(١) ديوانه / ٥١-٥٢.

(٢) ديوان / ١٧٤.

(٣) ديوان / ١٩١.

(٤) ديوان / ٢٠٨.

(الزينة والتجميل)

يتناول هذا الجزء: من الفصل القضايا التي تخص المرأة من منظار حضاري. فقد اهتم شعراء هذا العصر بصناعة الجمال عند المرأة. مثلما اهتموا بعناصر جمالها المطبوع. فعرضوا للأمور التي كانت المرأة تقوم بها لتظهر جمالها أو لتزيده أو لتصحح ما أفسد الدهر منه. فعرضوا لملابسها المختلفة: ملابس الرأس. وملابس البدن الخارجي. وكذلك ملابس البدن الداخلي. موضحين أهم المواد التي تصنع منها هذه الملابس. وأبرز ما فيها من ألوان وزخرفة.

وعرضوا كذلك لأنواع الحلي المختلفة التي تزين بها المرأة مما كان يوضع على الرأس أو العنق وعلى سائر أعضاء الجسد الأخرى. موضحين كذلك المواد التي عملت منها هذه المصوغات.

ومن عناصر التجميل والتزين المهمة عند المرأة الأموية الطيب بأنواعه المختلفة. وقد عرض شعراء هذا العصر لأنواع متعددة من الطيب كانت المرأة الأموية تتطيب بها.

ولم تهمل المرأة الأموية جمال عينيها فقد أظهرته بالكحل. وتشكيل الحاجب بصورة مخصوصة. كما قامت بخضب أطرافها بالحناء. وكذلك شعرها، خضبته بالحناء والكتم. فزادت من جمال لونه ونعمومته. وإذا بدت بعض مظاهر الشيب. فإنها لا تلبث أن تعيد الأمور إلى ما تحب وترغب. بإعادة اللون الطبيعي إليه.

والحق أن المرأة الأموية ليست بدعاً في ذلك كله. بل قد عرفت المرأة العربية هذه الأمور منذ العصر الجاهلي. فظهر في شعر شعرائه. وكتب الأخبار. وعندما جاء الإسلام شجع بعضاً من وسائل الزينة هذه. وألغى بعضها. وهذب بعضها الآخر. أما في العصر الأموي فقد زاد اهتمام المرأة بوسائل الزينة المختلفة وساعد على ذلك غنى فئة من المجتمع ونرفها مما أدى إلى مقدرة هذه الفئة للحصول على ما ترغب من منع الحياة لرجالها ونسائها ومن ذلك وسائل الزينة المختلفة. وكذلك انخراط عدد كبير من الشعوب الأخرى تحت سيادة الدولة العربية. مما ساهم في اطلاع المرأة على ما كان عند نساء هذه الأمم من وسائل الزينة المختلفة فأخذتها عنها. وقد ساهمت الجواري في كثير من ذلك.

وسأعرض فيما يلي لملابس المرأة الأموية وأهم وسائل الزينة عندها.

أولاً: الملابس

١ - ملابس الرأس:

البرقع: قطعة من القماش تثقب في موضع العينين تبصر المرأة منهما، ويلحق به خيطان تشدهما المرأة في فقا الرأس بسميان "البشامين" (١). ومن أسمائه البخنق. وقد وصفه ابن سيده: بالبرقع الصغير. وقال فيه: هو خرقه تفتح بها المرأة وتخييط طرفها تحت حنكها، وتخييط معها خرقه على موضع الجبهة (٢).

والبرقع معروف منذ العصر الجاهلي لبسته المرأة، وذكره الشعراء آنذاك، واستمر وجوده في عصر صدر الإسلام، وعصر بني أمية. فقد ذكره الشعراء غير مرة إشارة إلى أنه كان من لباس المرأة المهم خاصة في البادية. قال ثوبة بن الحمير في محبوبته لبلى: مشيراً إلى أن الوضع الطبيعي لصاحبتها أن تكون واضحة لبرقعها:

وكنّت إذا ما زرت لبلى تبرّقت
فقد رابني منها الغداة سؤورها (٣)

فهو يشير إلى أن الوضع الطبيعي المتعارف عليه هو أن تضع المرأة البرقع على وجهها، وإلا فإن في هذا إشارة إلى أمر غير طبيعي، أو حادث قد حدث.

وقد اتخذ البرقع وسيلة لوصف عيون المحبوبة أو نظرتها من قبل عدد من الشعراء: قال الراعي النميري يشبه عيون النساء التي استقلت هودجها بأعين الآرام:

فلما استقلت في الهودج أفلت
بأعين آرام كسب البرافعا (٤)

وقال العرجي بصف كمال عيون محبوبته فسي سعتها وجمالها:

بانت لنا بعيون من براقعها
مملوءة مقل الغزلان والبقر (٥)

كما اتخذ بعض الشعراء ذكر البرقع وسيلة لوصف شعر المحبوبة. قال ابن ميادة:

(١) ابن سيده / علي بن اسماعيل / المخصص / لجنة إحياء التراث العربي في دار الأفاق الجديدة / دار

الأفاق الجديدة / بيروت / د.ت / ج ٤ / ٣٨.

(٢) المصدر السابق / ج ٤ / ٣٨.

(٣) ديوانه / ٣٠.

(٤) ديوانه / ١٣٤.

(٥) ديوانه / ١٨٣.

كَأَنَّ الْقَسْرُونَ السَّوَدَ فَوْقَ مَقْدَمِهَا إِذَا زَالَ عَنْهَا بَرْقَعٌ وَنَصِيفُ
بِهَا زَرْجُونَاتٌ بِقَفَرٍ تَنْسَمَتْ لَهَا الرِّيحُ حَنْىً بَيْنَهُنَّ رَقِيفٌ^(١)

كما وظف بعض الشعراء البرقع في صورهم الشعرية فجعلوه مشبهاً به. كما في قول النابغة الجعدي يشبه بقر الوحش ببرقوع الفتاة:

وَوَجْهَهَا كَبَرْقُوعِ الْفَتَاةِ مُلَمَعًا وَرُؤُوفَيْنِ لَمَّا يَعْسُدُوا أَنْ تَقَمَّرَا^(٢)

فقد شبه الجعدي وجه بقر الوحش ببرقوع الفتاة: لما فيه من السواد وأثر الدم والبياض، إشارة منه إلى أن الفتيات كن يزيّن برافعهن.

ولم يكن ذكر البرقع يأتي دائماً في معرض الحديث عن المرأة الحبيبة لوصف عناصر معينة من جمالها، أو ما يشبه ذلك، بل قد يذكر في معرض الهجاء أيضاً. قال الفرزدق يصف ذلة نساء بني كلب:

نَرَى لِلْكَلْبِيَّاتِ وَشَطَّ بَيُونِهِنَّ وَجُوهَ إِمَاءٍ لَمْ تَصْنُهَا الْبِرَافِعُ^(٣)

وفي هذا إشارة إلى أن وضع البرقع كان لصيانة الوجه، والحفاظ على البشرة نقية واضحة، فهو بقي من حرّ الشمس ولغح السموم. لذا فهو خاص بالحرائر دون الإماء. وبالتالي فإن عدم التقيد بلباسه قد يشير إلى هوان المرأة وذلها، ومن ثم تشبيهها بالأمّة.

ولا يفوتني أن أذكر هنا أن غطاء الوجه، ومنه البرقع كان وسيلة من وسائل ستر الوجه من الرجال، وبالتالي فقد أصبح له علاقة بقضايا الحجاب الذي فرضه الإسلام على المرأة المسلمة. ولكن لم تنقيد به جميع النساء، فقد كانت عائشة بنت طلحة تخرج سافرة، فعاتبها مصعب بن الزبير؛ زوجها، غير مرة على ذلك. فقالت له إن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم، فما كنت لأستره، ووالله ما في وصمة بقدر أن يذكرني بها أحد.^(٤)

(١) ديوانه / ١٧١، المقذ: ما بين الأذنين من خلف ومنتهى قص الشعر من مؤخر الرأس. الزرجونة: شجرة العنب.

(٢) شعر النابغة الجعدي / عبد العزيز رباح / ط١ / منشورات المكتب الإسلامي - دمشق / ١٩٦٤، ٦٢. تقمر: اصطادها في ضوء القمر.

(٣) ديوانه / ٣٦٣.

(٤) الأغاني / ج ١١ / ١٧٦.

والسفور ما كان بإزاحة البرقع أو النقاب، فقد ذكر ابن منظور في لسانه أن غطاء الوجه عند النساء كان البرقع، ثم أحدثن النقاب بعد^(١) ويبدو أن النقاب كان شائعاً أكثر عند نساء الحواضر في حين كان البرقع شائعاً عند نساء البوادي.

الخمار: ما تغطي به المرأة رأسها.. وهو كالعمامة^(٢) أما ابن سيدة، فيرى أنه السب والجلباب^(٣) وهو من الألبسة الرئيسية للرأس، لكنه قد يستعمل كلباس للرأس والبدن معاً، وقد يكون من الأقمشة الحريرية كالخز مثل خمار صاحبة العرجي:

تَخَالَ خَمَارُ الْخَزِّ مِنْ فَوْقِ جَبَدِهِ عَلَى فَرْعِ خَوَاطٍ مِنْ أَبَاءِ مُعَلَّقًا^(٤)

وانتفاء الحرير للخمار لنعومته ولكونه يشف عن الوجه، فيظهر محاسنه كما في قول جميل حيث كشفت شفافية الخمار عن جمال أسنان محبوبته وابتسامتها:

وَشَفَّ عَنْهَا خَمَارُ الْقَزِّ عَنْ بَرْدٍ كَالْبَرْقِ لَا كَسَسَ فِيهَا وَلَا ثَقُلَ
كَأَنَّهُ أَفْحَوَانٌ بَاتَ بَضْرِبَهُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ مُنْقَاضُ النَّدَى هَطْلٌ^(٥)

ولم يكن الشاعر يرى في الخمار مؤثراً سلبياً على جمال المرأة، بل على العكس قد يزيد لها جمالا وزينة، كما في قول عمر بن أبي ربيعة:

يُبْنِينَ مِنْ خَشْبَةِ الْعَيُونِ عَلَى مِثْلِ الْمَصَابِيحِ زَانَهَا الْخُمَرُ^(٦)

وقد نخلع المرأة الخمار وتجرد منه في مواقف معينة منها الالتقاء بصاحبها، كما صورها عمر غير مرة. قال:

وَاشْتَكْتُ شِدَّةَ الْإِزَارِ مِنَ الْبَهْرِ وَأَلْقَيْتُ عَنْهَا لِدَيَّ الْخِمَارَ^(٧)

ومنها كذلك مواقف الخوف والفرع كما في الحروب. قال الفرزدق:

(١) اللسان مادة (نقب).

(٢) المصدر السابق / مادة (خمر).

(٣) المخصص / ج ٤ / ٣٩.

(٤) ديوانه / ١٦٥.

(٥) ديوانه / ١٦٦. الكسس: قصر الأسنان أو صفرها. ثقل: قد تكون ثقل: وهي السن الزائد خلف الأسنان

أو دخول سن تحت أخرى في اختلاف المنبت.

(٦) ديوانه / ١٤٣.

(٧) ديوانه / ١٤٠.

إذا فَرَزَ النساءَ فلا تَبالي لها سَوْفَا خَرَجْنَ ولا خِمَاراً^(١)

ومنها حالاتُ الحزن الشديد والجزع من الأحداث؛ مثل مواقف البكاء والتعزية؛ كما هو الحال عند موت يزيد بن معاوية ومجيء النسوة لتعزية زوجته أم خالد. قال الأخطل:

إذا جاء سِرْبٌ من نساء، بَعَدَنَهَا نَجَرْدُنْ، إلا من جلابيبٍ أو خُمَرٍ^(٢)

ومن أسماء النصف وجمعها نُصَف، وقيل في تعريضها هي الخُمَر. وقد نَصَفَت المرأة رأسها بالخمار، وانتَصَفَت الجارية وتَنَصَّفَت أي اختمرت، والنصف ثوب تتجلى به المرأة فوق ثيابها كلها. سمي نصفاً لأنه نَصَفَ بين الناس وبينها، فحجز أبصارهم عنها.^(٣) قال الراعي النميري:

دعنا فألوث بالنصف ودونها جناح وركن من أهاضبٍ نَهْمَدُ^(٤)

وكثيراً ما جاء ذكر النصف في الحديث عن جمال شعر المحبوبة باعتباره وسيلة من وسائل تغطيته. قال عدي بن الرفاع يصف جمال شعر محبوبته الرجل الطويل، والذي تبدو عليه علامات النعيم:

وبأنَّ النصفَ أسفلَ منسه رَجِيلٌ وارد مبيِّن النعيم^(٥)

وقال العرجي يصف شعر محبوبته الملفوف، بالكثافة، وسواد اللون، والمزين بالعنكولة:

تلوي النصف إذا لوثة على جَنَلِ النَّبَاتِ مَعْنَكَلٍ وَحَفٍ^(٦)

ومن أسماء النصف اللثام؛ وهو ردُّ المرأة قناعها على أنفها. قال الفراء وغيره: اللثام ما كان على الفم. وأما ما كان على أرنبة الأنف فهو اللثام.^(٧) وهذا ما جاء في المخصص كذلك.^(٨) قال جرير يصف جمالها سافرة كانت، أو واضعة اللثام:

(١) ديوانه / ١٧٣.

(٢) ديوانه / ج ٢ / ٥٣٣.

(٣) انظر لسان العرب (نصف).

(٤) ديوانه / ٢٠١. جناح: اسم جبل.

(٥) ديوانه / ١٣٨. رَجَلٌ ورجل: الشعر بين الجعد والسيط.

(٦) ديوانه / ٦٠ والعنكولة: ما يعلق على الضفائر من زينة.

(٧) اللسان / (لثم).

(٨) المخصص / ج ٤ / ٣٩.

إذا سَفَرَتْ فمَسَفَرُها جميل ويَرْضِي العَيْنَ مَرَجِعُها اللُّثَامَا^(١)

النَّقَاب: وهو أيضاً من أغطية الوجه، وقيل: القناع على مارن الأنف، والجمع نقب، قال الفراء إذا أدنت المرأة نقابها إلى عيناها، فتلك الوصوصة، فإن أنزلته دون ذلك إلى المحجر، فهو النَّقَاب، فإن كان على طرف الأنف فهو اللِثَام، وقيل هو نوع من البراقع الصغيرة يوضع على الوجه دون المحجر^(٢)، وقد اتخذ الشاعر من الحديث عنه وسيلة لوصف جمال عيون المرأة التي تبرز من خلاله، قال ابن ميادة:

بَا أَطْيَبَ النَّاسِ رِيقاً بَعْدَ هُجَعَتِها وَأَمْلَحَ النَّاسِ عَيْناً حِينَ تَنْتَقِبُ^(٣)

وفال العرجي يصف عيون صاحبتة الحوراء الواسعة:

تَنْتَقِبْنَ بِالْبُرُودِ وَأَبْدِي— نَ عَيْنُونَا حَوْرَ المَدَامِيعِ نَجَّلا^(٤)

ولم يرَ الرجل في وضع النَّقَابِ تقلباً من جمال المرأة، فهي فيه كالبدر، قال العرجي أيضاً:

كَالبدر صورُها إذا انتقبت وإذا سَفَرَتْ فأنت كالشمس^(٥)

القِنَاع: من الأغطية التي اتخذتها المرأة للرأس والوجه معاً، وهو ما تَتَقَنَّعُ به المرأة من ثوب تغطي رأسها ومحاسنها، وقد يغطي المنكبين وجزءاً من صدر المرأة، وهو من لباس الحرائر فقد روي عن عمر بن الخطاب أنه رأى جارية عليها قناع فضربها بالدرّة، وقال أنشبهن بالحرائر^(٦)؟

قال عمر يصف جمال محبوبته بعد أن كشف القناع عنها:

فَجَلَا القِنَاعَ سَحَابَةً مشهورةً غَرَّاءَ تَعْشِي الطَّرْفَ أَنْ يَتَأَمَّلَا^(٧)

ويبدو أن المرأة كانت تلمسك بالقناع ويحرجها كشفه، قال عمر بن أبي ربيعة:

(١) ديوانه / ج ١ / ٢٢١.

(٢) انظر لسان العرب / (نقب)، والمخصص / ج ٤ / ٣٩، الوصوصة: خرق في السر ونحوه على قدر العين ينظر فيه.

(٣) ديوانه / ٥٨.

(٤) ديوانه / ١٢٤.

(٥) المصدر السابق / ١٤٩.

(٦) اللسان (قنع) / والمخصص / ج ٤ / ٣٩.

(٧) ديوانه / ٣٥٥.

ما ظبيةً من وَخْشٍ ذي بَقَرٍ تغذو بسيفٍ صريمٍ طِفْلاً
بَالِذٍ منها إذ تقولَ لنا. وأردتَ كشفَ قناعِها: مَهْلاً (١)

ويبدو هذا أكثر وضوحاً من خلال قول النابغة الجعدي:

مَلَكْنَا فلم نَكْشِفْ قناعاً لحرِّ ولم نَسْتَلِثْ إلا الحديدَ المسمراً (٢)

فكشف القناع عند المرأة فيه إشارة إلى كشف ما لا ترغب بكشفه، مع اختلاف طبيعة العمل نفسه، وغابته عند كل من الشعارين.

٢ - ملابس البدن الخارجية

الإزار: المِلْحَمَةُ وهو كل ما وارك وستر. (٣) وقال صاحب العين هو الرداء من الملاحف والجمع أردية. (٤) ويبدو أنه يوارى المناطق التي تستحب فيها الضخامة والامتلاء في المرأة، فقد اتخذ الشعراء وسيلة لوصف هذه المناطق، وقال ابن ميادة بصف محبوبته بامتلاء منطقة الإزار ولطافة الخصر:

حراميةٌ أما مَلَأَتْ إزارها فوُثِّتْ وأما خصرُها فلطيفٌ (٥)

لذا قبل له الحقو لوقوعه عليه، مثلما سمي الوشاح بالكشج لوقوعه عليه أيضاً. قال العرجي:

مكورة الساق رابٍ ما أحاطَ به منها الأزارُ وجالَ الكَشَجُ في البدنِ (٦)

وقد يكون هذا المئزر من الخزّ قال كثير:

تلوثَ إزار الخزّ منها برملةٍ رَدَّاحٍ كساها هائلُ الترابِ مَوْرَها (٧)

وقد يكون موسى، ملغافاً؛ أي ضم أحد طرفيه إلى الآخر. قال ابن قيس الرقيات:

(١) ديوانه / ٣٧٤.

(٢) ديوانه / ٧٢.

(٣) اللسان / (أزر).

(٤) المخصص / ج ٤ / ٧٧.

(٥) ديوانه / ١٧١. حرامية: نسبة إلى بني حرام وهم من بني جشم بن معاوية.

(٦) ديوانه / ٤٠.

(٧) ديوانه / ٣١٣. وانظر كذلك ديوان ابن قيس الرقيات / ١١٣.

بَعَجِرَ الْمُطَرَفَ السَّبَاعِيَّ عَنْهَا وَالْإِزَارَ الْمَفْشُوفَ الْمُنْفَاقِيَّ^(١)

الْجِلْبَابُ: ثوب أوسع من الخمار دون الرداء، تغطي به المرأة رأسها وصدرها. وقيل هو ثوب واسع دون الملحفة تلبسه المرأة؛ وقيل هو الملحفة. وقيل ما تغطي به المرأة الثياب من فوق كالمحفة^(٢).

قال عمر بن بشر إلى ارتداء بعض صاحباته الجلباب:

قَالَتْ سَكَيْنَةُ وَالدُمُوعُ ذَوَارِفٌ مِنْهَا عَلَى الْخَدَيْنِ وَالْجِلْبَابِ^(٣)

وهو من الملابس التي لا تضعها المرأة في بيتها. قال الفرزدق:

إِذَا حُسِرَتْ عَنْهَا الْجَلَابِيبُ وَارْتَدَتْ إِلَى الزَّوْجِ مِيَالًا يَكَادُ يَصُورُهَا^(٤)

وليس بالضرورة أن تكون الجلابيب من قماش ثقيل، إذ قد تكون كذلك من قماش خفيف. فقد قال النابغة الشيباني بصف جلابيب مجموعة من النساء تتلاعب بها رياح الشمال:

جَاعِلَاتٌ مِنَ الْفُرْنِ دَرُوعًا وَالْجِلَابِيبُ مِنْ طَعَامِ الشَّمَالِ^(٥)

وقد يصار إلى وصف جمال المحبوبة ورشاقة قامتها من خلال الجلباب. كما في قول الفرزدق:

فَقُلْتُ إِنَّ الْحَوَارِيسَاتِ مَعْطَبَةٌ إِذَا تَفَطَّنَ مِنْ تَحْتِ الْجِلَابِيبِ^(٦)

الرِّدَاءُ: من الملاحف وهو الغطاء الكبير^(٧). قال جرير:

مَا نَظَرْتُ لَكَ يَوْمَ تَجْعَلُ دُونَهَا فَضْلَ الرِّدَاءِ وَتَنْفِي بِالْمَعْصَمِ^(٨)

(١) ديوانه / ٤٢.

(٢) اللسان (جلب).

(٣) ديوانه / ٤٣٥.

(٤) ديوانه / ٣١٣.

(٥) ديوانه / ١٤٧.

(٦) ديوانه / ٢٥. الحواريات: الحضريات. معطبة: مهلكة.

(٧) اللسان / مادة (ردي)، وكذلك المخصص / ج ٤ / ٧٧.

(٨) ديوانه / مج ١ / ٦٨.

وهو وسيلة تستر به المرأة جسدها أو محاسنها. قال جميل:

لغد أورثت قلبي وكان مصححاً بثينة صدعاً يوم طارَ رداؤها (١)

وقد يذكر الرداء كوسيلة لوصف مشيتها وحركاتها من تحته. قال النعمان بن بشير:

إذا أقبلتُ قَصَلاً في الرداء تَمْشِي تَأْطُرُ أَصْلَابَهَا
تَأْطُرُ صَعْدَةَ مَرَانَةِ مِنْ الْهَيْفِ مُتَبَسِّ غَابُهَا (٢)

وبستخدم الرداء لعمل بعض أنواع الأحذية. قال الفرزدق:

وقلت لهن: احذُونَا، فحذُونَا شباريق ريط. أو رداء محبِّرا (٣)

أراد أنهن أعطبنهم خرقاً ممزقة من أثوابهن فلفوا بها أقدامهم ليخفوا آثارها.

المرط: كساء من خز أو من صوف أو كتان؛ وقيل هو الثوب الأخضر. وجمعه مروط يؤتزر بها؛ وقيل المرط ثوب غير مخيط. (٤)

قال المتوكل اللبثي يصف مروط الخز اللواتي تتخذها النساء اللاتي يصفهن بالترف والنعومة:

نواعيمٌ يَنْخِذْنَ لكل مُمَسَّى مَرْوُوطِ الْخَزِّ وَالنَّفَبِ النَّعَالِ (٥)

وقد يكون من الدباج وذلك لأن له أنباراً عدة. قال جرير:

كَأَنَّ الْمِرْطَ ذَا الْأَنْبَارِ يُكْسَى إِذَا اشْرَزْتَ بِهِ عَفِيداً رُكَّامَا (٦)

ومن المناطق التي يسترها المرط العجيزة، لذا كان هو الآخر وسيلة لوصف بدانة المرأة في المناطق التي استحبت فيها العرب البدانة، وخاصة العجيزة. قال هديبة بن الخشرم:

رَدَّاحٌ كَأَنَّ الْمِرْطَ مِنْهَا بِرَمَلَةٍ هَيَامٌ وَمَا ضَمَّ الْوِشَاحَانِ أَهْيَفُ (٧)

(١) ديوانه / ٢٢.

(٢) النعمان بن بشير/ شعره/ حقيقه وقدم له: يحيى الجبوري/ ط١ / مطبعة المعارف - بغداد/ ١٩٦٨/ ٨٣.

(٣) ديوانه / ٢٥٢. الشباريق: المقطعة، الممزقة. والمحبر: المزين.

(٤) اللسان (مرط).

(٥) ديوانه / ١٥٥.

(٦) ديوانه / ج٢ / ٧٧٧.

(٧) هديبة بن الخشرم/ شعره/ جمع وتحقيق يحيى الجبوري/ وزارة الثقافة والارشاد القومي - دمشق/ ١٩٧٦ / ١١١. وانظر كذلك ديوان ذي الرمة/ ج١ / ١٤٢ وديوانه/ العرجي / ١٦٤.

ويبدو أن هذه المروطة كانت ممتازة بالطول. فقد قال معن بن أوس يصف مشية بعض الفتيات:

أَوَانِسَ بَرَكَضْنَ الْمَرُوطَ كَأَنَّمَا بَطَانُ إِذَا اسْتَوْسَقْنَ فِي جَدَرٍ وَحَلَا (١)

الريطة: كل مُلَأَفَةٍ غَيْرِ ذَاتِ لِفْقَيْنِ كُلَّهَا نَسَجَ واحد؛ وقيل: كل ثوب لين دقيق، والجمع رِبَطٌ وَرِبَاطٌ؛ قال الأزهري: لا تكون الريطة إلا ببضاء. (٢)

وهو من لباس الحرائر والجواري لقول ابن قيس الرقيات:

السَّوَاهِبُ الْبِيضُ كَالظُّبَاءِ عَلَيَّ هِيَ الرِّبْطُ وَالشَّاحِياتُ فِي اللَّجَمِ (٣)

ومن أنواع الربط: المرقمة وكانت معروفة عند العرب، وغيرهم؛ لقول عدي بن الرفاع:

جَمَعْنَا بِسَبْيِ جَاءَنَا مِنْ نَسَائِهِمْ بَرُودُ وَقَبْطِيَا وَرِبَطَا مَرْقُمَا (٤)

ومنه اليماني المهدب. قال كثير:

كَسَوْنَ الرِّبَطَ ذَا الْهُدْبِ الْيَمَانِي خَصُورًا فَوْقَ أَعْجَازٍ ثَقَالِ (٥)

ويبدو أن الريطة كانت من الألبسة التي تكون للسفر، ذلك لأنه كثر الحديث عنها عند ارتحال الظعن. قال الأخطل:

كَأَنَّ الرِّبْطَ فَوْقَ ظُبَاءٍ قَلَجٍ غَدَاةَ لَيْسَنَ، لِلْبَيْتِ، الثِّيَابَا

فَفَارَقْنَا الْخَلِيطَ، عَلَى سَفِينٍ نَشَقُّ بِهِنَّ أُمُوجًا، صَعَابَا (٦)

وقد يذكر هذا النوع من اللباس في الصور الشعرية، إذ يأتي مشيها به. كما هو الحال في بيت الطرماح التالي حيث يشبه السحاب ومواقع كثافته ورقته بالثوب المزين الموشى بتدلي هذابه:

أَكْنَفَهُ خَلَقَ مِنْ دُونِهِ خَلَقَ كَالرَّبْطِ نَشْرَتَهُ ذِي الرَّبْرِجِ الْهُدْبِ (٧)

(١) ديوانه / ٦١.

(٢) اللسان (ربط).

(٣) ديوانه / ١٠. الشاحيات: يعني النوق.

(٤) ديوانه ١٩٦.

(٥) ديوانه / ٢٢٨. قلع: اسم موضع.

(٦) ديوانه / ج ١ / ٣٢٦. وانظر كذلك ديوان العرجي ٣٩.

(٧) ديوانه / ١٠. الربرج: الزينة من الوشي وغيره.

-١٠١-

البَرْد: البرد ثوب فيه خطوط، وخصَّ بعضهم به الوشي، والبردة كساء يلتحف به وقيل؛ البرد معروف من برود العَصَبِ والوَشْيِ،^(١) وقد وردت البرود كثيراً في الشعر الأموي، وكثيراً ما كان الفصد من وراء ذكره وصف محاسن المرأة. قال العرجي:

إذا ضربت بالبرد من دون وجهها نَلالاً أحَمَّ المقلنين أسيل^(٢)

ويبدو أنه كان للبرود أنواع كثيرة وتسميات مختلفة، منها الحبرات وهي من برود اليمن. قال ابن قيس الرقيات:

بَهَبَ البُخْتِ والنَجائب والقَيْ نَةً نمشي في الرِّيط والحِبراتِ^(٣)

ومنها الأنحِمَّيات، وكذلك الحضرميات، وهي أيضاً من برود اليمن. وقيل في الاحتميات هي البرود المؤتبة أي التي لها إتب. وقيل: ضرب من البرود أحمر اللون. وقيل: مخطط بالصفرة. قال ذو الرمة:

إذا الحَزَّ تحت الأنحِمَّيات لُثْنُهُ بمردقة الأفخاذِ مبلِّ المأكِمِ^(٤)

وقال كثيرٌ عزةً جاعلاً هذا النوع من البرود منشياً أي موشياً على صورة النشأب ووشبه يشبه أفابيق السهام:

هضيمَ الحشا رَوْدَ المطا بَخْرِيَّةٍ جميلٌ عليها الأنحِمِّي المَنشَبِ^(٥)

ومنها السبراء وهي ضرب من البرود. ثوب مسير فيه خطوط تعمل من القز كالسيور، وقيل برود يخالطها حرير؛ وشرحها سيبويه بالحرير الصافي. وقيل برد فيه خيوط صفراء^(٦) قال ابن قيس الرقيات يشبه صاحبه بالسبراء لصفرة الطيب الذي استخدمته:

صفراء كالسبراء لم تشمِطُ عذوبَتَها بحسورة^(٧)

(١) اللسان (برد).

(٢) ديوانه / ٤٧. وانظر كذلك ص ١٨. وكذلك ديوان عمر بن أبي ربيعة / ١٥٥.

(٣) ديوانه / ٢١.

(٤) ديوانه / ج ٢ / ٧٥٢.

(٥) ديوانه / ١٥٨. رود المطا: لبنة التطي.

(٦) اللسان العرب (سير).

(٧) ديوانه / ٤٤.

-١٠٢-

ومنها كذلك برود العَصْب، وهي من الثياب تُعَصَّب -أي تُلَفّ- خيوطه أولاً ثم تصبغ ثم تحاك ويبدو أنها كانت طويلة لقول عمر بن أبي ربيعة:

بَسَحَبْنِ خَلْفِي ذِيُولَ الْخَزِّ آوَنَةً وَنَاعِمَ الْعَصْبِ كِبِلًا يُعْرِفُ الْأَنْزَ (١)

وقال يصف محبوبته من خلالها:

هَيْفَاءَ مَقْبَلَةٍ، عَجْزَاءُ مَدْبِرَةٍ تَخَالُهَا فِي ثِيَابِ الْعَصْبِ دُبْنَارَا (٢)

ومن أنواع البرود الأخرى التي ذكرها شعراء هذا العصر المُرَحَّل؛ وهي ضرب من برود اليمين، سمي مُرَحَّلًا لأن عليه تصاوير رَحَل، ومُرَطَّ مَرَحَل؛ إزار خز فيه علم. وقال الأزهري: سمي مُرَحَّلًا لما عليه من تصاوير رجل وما ضاهاه؛ قال الفرزدق:

عَلَيْهِنَّ رَاحِلَاتٌ كُلُّ قَطِيفَةٍ، مِنْ الْخَزِّ، أَوْ فَيَصَرَّانَ عِلَامَهَا (٣)

ويبدو أنه كان يمتاز بالطول أيضاً لقول عمر:

بِمَشِينٍ فِي الْخَزِّ وَالْمَرَاكِجِ أَنْ بَعَّرِفَ أَنْارَهُنَّ مُقْتَضِر (٤)

الدِّيَبَاجُ: ضَرْبٌ مِنَ الثِّيَابِ، فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ، وَقِيلَ هُوَ الثُّوبُ الَّذِي سَدَاهُ وَلَحْمَتُهُ مِنَ الْحَرِيرِ. (٥) قال جميل:

إِذَا حَمَيْتُ شَمْسَ النَّهَارِ انْقَبَضَتْهَا بِأَكْسِيَةِ الدِّيَبَاجِ وَالْخَزِّ ذِي الْخَمَلِ (٦)

وكثيراً ما كان يأتي ذكر الخَمَلِ مع الدِّيَبَاجِ -والخَمَلُ شيءٌ كالزغب يكون من أصل النسيج، وقيل هو الطنفسة من ريش النعام أو غيره (٧). قال معن بن أوس:

رَفَعْنَ غَدَاةَ الْبَيْتِ خَزًّا وَبِمَنَّةٍ وَأَكْسِيَةَ الدِّيَبَاجِ مُبْطِنَةً خَمَلَا (٨)

(١) ديوانه / ١١٦.

(٢) ديوانه / ١٢٠. وانظر كذلك ديوان الفرزدق / ٧١.

(٣) اللسان / (رحل). البيت من اللسان ولم أعثر عليه في الديوان.

(٤) ديوانه / ١٤٣.

(٥) اللسان (دبج) / وانظر المخصص / ج ٤ / ٧٦.

(٦) الديوان / ١٧٥.

(٧) اللسان (الخمل).

(٨) الديوان / ٥٨.

وقال ابن قيس الرقيات يذكر الديباج الذي يألف مع أنواع الحرير الأخرى.

رَأَيْتَ الْجَوْهَرَ الْحَكِيمِيَّ وَالدَّيْبَاجَ بِأَتْلِقُ
وَخَزَّ السُّوسَ وَالْإِضْرِيحَ فَصَلَ بَيْنَهُ السَّرَقُ
وَخَمَلَ الْأَرْجَوَانَ عَلَى السَّفِينِ كَأَنَّهُ الْعَلَقُ (١)

الرَّقْمُ: خَزَّ مَوْسَى، يقال خَزَّ رَقْمًا، كما يقال بُرِدَ وَشِي: والرَّقْمُ: ضرب من البرود؛ أو هو ضربٌ مخططٌ من الوشي (٢). وغالباً ما يذكر في وصف الظعن وما ينسدل عليها من أستار قال النابغة الشيباني:

زَانَ السَّدُولَ عَلَيْهَا الرَّقْمَ إِذْ حُدِجَتْ بكلِّ زوجٍ من الديباجِ محجوبٍ (٣)

ومن البرود الأخرى ما كانت مسهمةً أي مخططةً على شكل السهام. قال النابغة الجعدي:

رَمَى ضَرَّعَ نَابٍ فَاسْتَمَرَ بَطْعَنِي كحاشيةِ البردِ اليمانيِ المَسْهُمِ (٤)

النَّطَاقُ: شبه إزار فيه نكة كانت المرأة تَنطَاقُ به. وفي حديث أم اسماعيل اتخذت مِنطَاقًا، والنِّطَاق جمعُه مَنَاطِقُ، وهو أن تلبس المرأة ثوباً ثم تشد وسطها بشيء. وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال، لئلا تعثر في ذيلها. وفي المحكم النطاق: شقة أو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل، ثم ترسل الأعلى على الأسفل إلى الركبة، فالأسفل ينجر على الأرض. (٥)

وفد جاء ذكره عند كثير من الشعراء لوصف بعض محاسن المرأة الجسمية. خاصة الروادف. قال المتنوك اللبثي يصف أجزاء من جسم محبوبته ومنها الروادف الثقال التي تكون أسفل النطاق:

وَبِمَعْصَمٍ عِبِلٍ وَكَفٍّ طَفَلَكَةٍ وروادفٍ نَحَسَتْ النَّطَاقَ نِفَالٍ (٦)

(١) ديوانه / ١٥٩. الحكمي: نسبة إلى عبد العزيز بن مروان بن الحكم. السوس بلدة بخوزستان. والإضريح:

الخزّ الأحمر. السرق: شقق الحرير الأبيض. والأرجوان: الثياب الحمراء.

(٢) اللسان (رقم).

(٣) ديوانه / ١٦٤. وانظر كذلك ديوان المتنوك اللبثي / ١٣٧ وكذلك ديوان الوليد بن يزيد / ١٥.

(٤) ديوانه / ١٤٣.

(٥) اللسان: (نطق). وانظر المخصص / ج ٤ / ٣٧.

(٦) ديوانه / ١٧٣.

وقال الفرزدق ويبدو أنه قصد بالنطاق هنا الإزار:

غَرَّثَنِي الْوَسَّاحُ وَلَكِنَّ النِّطَاقَ بِهَا بَلَّاتٌ حَوْلَ رِمَالِ ذَاتِ أَكْفَالٍ^(١)

المِطْرَفُ: والمِطْرَفُ واحد، والمِطَارِفُ أردبة من خَزٍّ مربعة لها أعلام، وقيل ثوب مربع من خَزٍّ له أعلام. قال الفراء: المِطْرَفُ من الثياب ما جعل في طرفيه عَلَمان والأصل مِطْرَف، بالضم فكسروا همزة الميم ليكونَ أخفَّ.^(٢)

وأكثر الشعراء من ذكره في إشارة منهم إلى بدانة صاحباتهم، وفخامة أعضائهن. قال ابن فيس الرقيات:

وفتاةً كالبدْر تَخْنُو إليها حين تَبْدُو العيون والأعناقُ
يَعْجِزُ المِطْرَفُ السباعي عنها والإزار المِطْوِيُّ المِلْفُاقُ^(٣)

وقال هدبة بن الخشرم:

يَنْوُنُ بِأَكْفَالٍ يُفَالِ وَأَسْوَقٍ خِدَالٍ وَأَعْضَادٍ كَسَتْهَا المِطَارِفُ^(٤)

وكان يلبس فوق الشعر والبرد حيث يشير عمر إلى ذلك قائلا:

واكْتَنَنَّا بِرَدِينٍ مِنْ جَبْدِ الْعَصَبِ مَعَا بَيْنَ مِطْرَفٍ وَشِعَارٍ^(٥)

كما كثرت الإشارة إلى غنى المحبوبة وترفها وتنعمها من خلال حديث الشعراء عن المِطْرَفِ والمادة التي تصنع منه. قال الفرزدق:

إِذَا انْتَبَهْتُ حَدْرَاءَ مِنْ نَوْمَةِ الضَّحَى دَعَيْتُ وَعَلَيْهَا دِرْعُ خَزٍّ وَمِطْرَفٍ^(٦)

السابري: ثوب دقيق النسج رقيق. وهو من أجود الثياب، والأصل فيه الدروع السابرية منسوبة إلى سابور^(٧).

(١) ديوانه / ٤٢١.

(٢) اللسان (طرف)، وانظر المخصص / ج ٤ / ٦٨.

(٣) ديوانه / ٤٢.

(٤) ديوانه / ١١٨.

(٥) ديوانه / ١٣٥.

(٦) ديوانه / ٣٨٣. وانظر ديوان عمر بن أبي ربيعة / ٤٢٨.

(٧) اللسان / (سبر).

ويرد كثيراً في الشعر الأموي. والمراد من ذكره في بعض الأحيان وصف قامة المحبوبة، وجمال حركاتها. قال عمر بن أبي ربيعة:

إنما ضلّل قلبي فاجتَوَى صَعْدَةً فِي سَابِرِي نَطَرِدُ (١)

وقد استخدم أيضاً في صور الشعراء الشعرية ليكون مشبهاً به. فقد شبهوا الكشح بطي السابري، للطفة ورفته. قال عمر بن لجأ:

وكشح كطي السابري حَبَّتْ لَهُ رَوادفٌ مِنْهَا وَعَثَّةٌ فَتَخَصَّدَا (٢)

وقد وصفوه بصفات مختلفة فكان بعضه مصبوغاً. قال الفرزدق:

نراخسى بهنّ الليل يتبعنّ فاركا بَضِيءٌ سَنَاها سَابِرِيَا مَرْعَفِرَا (٣)

ومنه ما كان لونه أبيض قال الأخطل:

إذا السابري الحرّ أخلصَ لونها تَبَيَّنَتْ لَا جَبِداً قَصِيْراً، وَلَا عُظْلاً (٤)

ويبدو أن الأنثوب الرفاق كانت منوافة عندهم، وكثيراً ما كانت النساء خاصة المترفات منهن يكثرن من افتنائها. ومن هنا أكثر الشعراء من وصفها والحديث عن مفاثن جسد المحبوبة التي تبرز من خلالها. فقال ذو الرمة:

وَشَفَعْنَ عَنْ أَجْسَادٍ غِزْلَانٍ رَمَلَةٍ فَلَاةٍ، فَكُنَّ الْقَتْلَ أَوْ شَبَهَ الْقَتْلِ (٥)

الحلة: الثوب السائر لجميع البدن، ويشترط أن يكون من قطعتين كالإزار والرداء. (٦)

قال عمر:

والبَرْدُ بَيْنَ الْحَلِيْسَيْنِ بِهِ نَجَّتَنُ مِمَّنْ طَافَ أَوْ نَظَرَ (٧)

(١) ديوانه / ٣٢٢.

(٢) ديوانه / ٧٩.

(٣) ديوانه / ٢٥٢.

(٤) ديوانه / ج ٢ / ٥٤٣.

(٥) ديوانه / ج ١ / ١٤٥. وانظر كذلك ديوان عمر بن أبي ربيعة / ١٤٥.

(٦) اللسان / (حلل).

(٧) ديوانه / ١٥٥.

ومنه حَلَّةٌ أكْبَاش: وهي من برود اليمن. قال وضاح اليمن:

وَلَقِينَهَا تَمْشِي بِأَبْطَحَ مَرَّةٍ ۚ بِخَلَاخِلٍ وَبِحُلَّةٍ أَكْبَاشٍ^(١)

ومن أنواع الأثواب الأخرى المعروفة عندهم الفرند وقيل في تعريفه هو اسم ثوب. وقيل الورد الأحمر أو هو الحرير وهو الرقيق حسن الصنعة^(٢).

وقال ذو الرمة يصف طيهن للفرند كأنما اثترن على رمل:

كَأَنَّ الْفِرْنَءَ الْخَسْرَوَانِيَّ لَثْنَهُ ۚ بِأَعْطَافٍ أَنْقَاءِ الْعُقُوقِ الْعَوَانِكِ^(٣)

٣ - ملابس البدن الداخلية

القَمِيص: وقال فيه صاحب اللسان: القميص الذي يلبس معروف مذكر. وقد

يعنى به الدرع فيؤنث^(٤). وهو خال من الأكمام والجيب. قال عدي بن الرقاع:

غَدَتِ فِي قَمِيصِهَا فَضَاقَ نَصِيغُهَا وَمَا أَلْبَسَتْهُ الرَّأْسَ إِلَّا تَعَمَّامًا^(٥)

وقد يصنع من الأقمشة الخفيفة، الرقيقة. قال جرير:

جَارِبَةٌ مِنْ سَاكِنِي الْأَسْوَاقِ لِبَاسَةٌ لِلْقَمِيصِ الرَّفَاقِ^(٦)

وللقميص أنواع مختلفة وتورد بأسماء كثيرة منها:

الْأَتَب: وهو ثوب تشغه المرأة وتلقيه في عنقها من غير كمين ولا جيب^(٧). وقيل

للأَتَب ما فصر من الثياب فنصف الساق، وهو غير الإزار لا رباط له، وليس على خياطة

السرراويل ولكنه قميص غير مخيط الجانبين^(٨). أما دوزي فيقول فيه: إنه بصورة عامة

يعني كافة الملابس القصيرة التي لا تصل إلى أكثر من منتصف الساقين، وهو يعمل

بصورة عامة من قطعة قماش مخططة^(٩). قال عمر بن أبي ربيعة:

(١) وضاح اليمن/ حياته وما نبئ من شعره. ضنعه الدكتور حنا حداد/ مجلة المورد/ مج ١٣/ عدد ٢/ ١٩٨٤/ العراق/ ص ١١٦.

(٢) اللسان/ (فرند).

(٣) ديوانه ج ٣/ ١٧٢٠. الأنقاء: الرمال. العقوق: اسم موضع. العوانك: ما انعقد من الرمل وارتفع.

(٤) اللسان (قمص).

(٥) ديوانه/ ١٩٦.

(٦) ديوانه/ ٤٥٧. الأسواق: الأمصار.

(٧) المخصص/ ج ٤/ ٣٥.

(٨) اللسان: (أَتَب).

(٩) دوزي/ رينهارت دوزي/ المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب/ ترجمة: د. أكرم فاضل/ مطبوعات وزارة الإعلام العراقية - العراق/ ١٩٧١/ ٢٨-٢٩.

قالت لذاك لها فتاة عندها تمشي بلا إنسب ولا جلاب^(١)

الدرع: درع المرأة هو قميصها، وهو أيضاً الثوب الصغير تلبسه الجارية الصغيرة في بيتها، وهو ثوب تجوب المرأة وسطه وتجعل له يدين، وتخييط فرجيه^(٢).
قال كثير:

وَعَلَّقَتْهَا وَسَطَ الْجَوَارِي غَرِيرَةً وَمَا قَلَدَتْ إِلَّا التَّمِيمَ الْمَنْظَمًا
عَبُوفَ الْقَذَى نَابِي فَلَا نَعْرِفَ الْخَنَا وَتُرْمِي بَعِينَهَا إِلَى مَنْ تَكْرَمًا
إِلَى أَنْ دَعَتْ بِالسُّدْرِ قَبْلَ لِدَانِهَا وَعَادَتْ تَرَى مِنْهُنَّ أَبْهَى وَأَفْخَمًا
وَعَالَ فَضُولِ الدَّرْعِ ذِي الْعَرَضِ خَلْفَهَا وَأَتَعَبَتْ الْحَجَلِينَ حَنْسَى تَقْصَمًا^(٣)

ومن الأقمشة التي كان يعمل منها الدرع؛ الحرير. قال الفرزدق يشير إلى نرف زوجته حدراء وتنعمها:

إِذَا انْتَبَهَتْ حَدْرَاءُ مِنْ نَوْمَةٍ الضَّحَى دَعَتْ وَعَلَيْهَا دَرْعٌ خَزٌّ وَمَطَرَفٌ^(٤)

ومما يستحسن في الدرع أن تضيق جوانبه. قال محمد بن نمير الثقفي يذكر زينب أخت الحجاج الثقفي:

بِخَبْنِ أَطْرَافِ الْبَنَانِ مِنَ النَّقَى وَيَقْتُلْنَ بِالْأَلْحَاطِ مَقْتَدِرَاتِ
وَلَيْسَتْ كَأُخْرَى أَوْسَعَتْ جَنْبَ دَرْعِهَا وَأَبَدَتْ بَنَاتِ الْكُفِّ لِلْجَمَرَاتِ^(٥)

أما الدَّرَاعَةُ والمِدْرَعَةُ: فهما جبة مشفوفة المقدم^(٦). قال عدي بن الرفاع:

مِنْ الْخَفَرَاتِ الْبَيْضِ يَحْسِبُ لَوْنَهَا إِذَا طَارَ عَنْهَا مَدْرَعُ الشَّفِّ مَذْهَبًا^(٧)

الصدر: ثوب رأسه كالمقنعة، وأسفله يغشي الصدر والمنكبين تلبسه المرأة، وكانت المرأة الثكلى إذا فقدت حميمها فأخذت عليه ليست صدرًا من صوف، والعرب تقول للقميص الصغير والدرع القصيرة الصرّة، وقال الأصمعي يقال لما يلي الصدر من الدرع صدر^(٨).

(١) ديوانه / ٤١٥.

(٢) لسان العرب (درع). وانظر كذلك المخصص / ج ٤ / ٣٦.

(٣) ديوانه / ١٣٤.

(٤) ديوانه / ٣٨٣.

(٥) شعراء أمويون / ج ٣ / ١٢٤.

(٦) اللسان (درع). وانظر المخصص / ج ٤ / ٣٦.

(٧) ديوانه / ٢٣٠.

(٨) اللسان (صدر).

قال أبو الأسود في زوجته أم سَكن:

وليسَتْ بوكْبَاءَ الصُّدَارِ إِذَا مَشَتْ تَوَكَّرُ مَشْيَ الكَوْدِنِ المَتَّحِسِ (١)

المَجَسَّد: وهو الثوب الذي يلي جسد المرأة فتعرق فيه، والمجاسد جمع مجسد. وقال ابن الأعرابي: هو القميص الذي يلي البدن. أو هو القميص المشبع بالزعفران (٢)

قال عمر بن أبي ربيعة:

فلم يَرْعَهَا وقد نَصَّتْ مجاسِدَهَا إلا سواد وراء البيت يستنر (٣)

وقال معن بن أوس:

وقد قَمَتْ إِذْ قَامَتْ وَقَالَتْ وَأَغْرَضَتْ تَجَرَّ قَشِيًّا مِنْ حَرِيرٍ وَمَجَسَّدَا (٤)

وقد يأتي ذكر هذا النوع من اللباس في إشارة إلى جمال المحبوبة ونعمومتها:

قال محمد بن بشير:

إِذَا مجاسِدَهَا اغتالت فواضِلُهَا منسها روادفَ قَمَمَاتٍ ومؤنر (٥)

ومنه قول الحارث بن خالد المخزومي مشبها النساء في مجاسدهن بالبقر الوحشي:

فذلك ديارهم لم يبقَ منها سوى طلل المَعْرَسِ والمَنَاخِ
وقد تَغْنَى بها في الدار حور نواعيمَ في المجاسِدِ كالإِراخِ (٦)

الشَّعَار: وهو ما ولي شَعَرَ جَسَدِ الإنسان دون ما سواه من الثياب والجمع أشْعَرَة وشَعَر (٧).

(١) أبو الأسود الدؤلي / ديوانه / تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين / ط٢ / منشورات مكتبة النهضة -

بغداد / ١٩٦٤ / ٣٤. وكباء: غير نظيفة. الوكر: ضرب من العدو. الكودن: الغبل واليردون.

(٢) اللسان (جسد). وانظر المخصص / ج٤ / ٣٧.

(٣) ديوانه / ١١٤.

(٤) ديوانه / ٧٧.

(٥) شعراء أمويون / ج٣ / ١٨٣.

(٦) ديوانه / ٥١.

(٧) اللسان (شعر).

قال عمر بن أبي ربيعة:

نَمَ كَانَتْ دُونَ اللَّحَافِ لِمَشْفُو فَمَعْنَى بِهَا صَبُوبِ شِعَارِ (١)

وقد يعمل من الخَزَّ لأنه يحتاج إلى نوع من القماش الرقيق الناعم لكونه يلي الجسد مباشرة. وقد خصَّ الفرزدق خَزَّ العراقِ المَعْفُوفَ بذلك إشارة منه إلى ثرف هؤلاء النسوة اللواتي يتحدث عنهن:

لَيْسَنَ الْفِرْنَيْدَ الْخَسِرَوَانِيَّ دُونَهُ مَشَاعِرُ مِنْ خَزِّ الْعِرَاقِ الْمَعْفُوفِ (٢)

الغَلَالَةُ: شِعَارٌ يَلْبَسُ تحت الثوب يلي الجسد. (٣) وقد لبسه الرجال كما لبسته النساء. ولبسه الجوّاري من النساء في مناسبات اللّهُو والطرب. ويبدو أنه كان ثوبا مضطاً في الشفافية والخفة. (٤)

أقمشة الثياب وألوانها وزخرفتها:

ارتدت المرأة الأموية أنواعاً مختلفة من الثياب من حيث نوع نسيجها وألوانها وزخرفتها. مما جلب من اليمن وعمان والشمّ والعراق والبحرين وبلاد فارس وسواحل الهند. ومن أكثر أنواع الأقمشة التي ذكرها الشعراء الأمويون في شعرهم الحرير بأنواعه المختلفة: الْخَزَّ وَالْقَزَّ والباغز وهو خَزَّ أحمر وأخضر، والبز والفرند، والإصريح؛ وهو الخَزَّ الأصفر والسرقي؛ وهو الحرير الأبيض. والخز المَعْفُوف أي الرقيق الذي فيه خطوط بيض على الطول، وخز الدمقس، والخز الأخضر والسندس... وقد ورد كثير من الأمثلة على هذه الأنواع من خلال عرضي لأنواع الملابس. وبالتالي أكتفي بالإشارة هنا إلى بعض الأبيات الشعرية التي تناولت الحرير وبعض أنواعه. قال فيس بن ذريح يصف نعومة صاحبه:

بَثَّقَلَهَا لَبَسَ الْحَرِيرَ لَلْيَنِيهَا وَنَشَكَوْا إِلَى جَارَاتِهَا ثِقَلِ الْعِقْدِ (٥)

وقال الفرزدق يذكر عتيق البز الذي يبتاع من أفضل التجار:

بَنَاتُ أَبِ حَوْرٍ كَأَنَّ حُمُولَهَا عَلَيْهَا مِنَ الْوَحْشِ الْهَجَانِ جَاذِرُهُ
كَسَاهُنَّ مُحَضَّ اللَّوْنِ سَفْبَانُ وَاصْطَفَى لَهُنَّ عَتِيقَ الْبَزِّ إِذْ جَاءَ تَاجِسَرُهُ (٦)

(١) ديوانه / ١٤٠.

(٢) ديوانه / ٣٨٤.

(٣) اللسان (غلل).

(٤) معجم دوزي / ٢٦١.

(٥) ديوانه / ٨٣.

(٦) ديوانه / ٢٨٣.

وقال عمر يذكر الخز والفز ووشي الحبرات التي تجلب من اليمن:

وعليه الخزُّ والفزُّ ووشي الجبَّرات^(١)

ومن الحرير الأبريسم، وقيل هو الخام منه، قال ذو الرمة يصف ذري الأجدال وقد بلغ إليها السراب فكانها اعتمدت بالفزُّ والأبريسم الرفيق:

كأنما اعتمدت ذري الأجدال بالفز والأبريسم الهلهال^(٢)

ولعل سبب الإكثار من ذكر الحرير بأنواعه المختلفة كثرة استخدامه خاصة عند فئة معينة من المجتمع الأموي الغني الذي عاش حياة بذخ وثراء، إضافة إلى أن بعض أنواع اللباس يحتاج إلى أن يصنع من الحرير لنعومته وشفافيته كالخمار والنقاب أو ما يشبههما من الملابس التي تسدل على الوجه؛ إذ يشترط فيها النعومة، وشيء من الشفافية لتري المرأة من خلالها، وليس أفضل من الحرير لخدمة هاتين الغايتين. وكذلك في الملابس الداخلية حيث يحتاج إلى نوع من القماش الناعم. كما هو الحال في الشعار والدرع والقميص. كما استخدم في بعض ملابس البدن الخارجية مثل المطرف والإزار وبعض أنواع المروط.

وكثيراً ما كانت هذه الأقمشة تنسب إلى بلد الصنع أو بلد الأصل فقالوا: خزُّ العراق، وخزُّ السوس... ولا شك أن الشاعر في إشارته إلى ملابس صاحبه المصنوعة من الحرير؛ إنما يشير إلى غناها وترفها وتنعمها. وهي أمور أرادها الشعراء أن تكون في المرأة.

كما ذكروا الصوف الذي دخل في صناعة النسيج لهذا العصر وفي ملابس النساء خاصة وخصوصاً الأرجواني منه كما في قول ابن قيس الرقيات يذكر لباسهن الباغز الأخضر فوق الصوف الأحمر:

جاعلات قطائف الباغز الخضَّ ر على الساهكات والأرجوانا^(٣)

كما ذكروه في أشعارهم الأخرى، فقد ذكر النابغة الشيباني يصف الدبار مشبهاً الرياض التي سكنتها المحبوبة بالصوف المصبوغ بالألوان:

(١) ديوانه / ٣٨٨. وانظر ٤٠٧.

(٢) ديوانه / ج ١ / ٢٧٨.

(٣) ديوانه / ١٥٦. الساهكات: التي تسبك عليها، أي ترم عليها.

كسأها رياضاً كالعهونِ عشبَةً لها صَبَحَ مثل الدرائيكِ ناضراً^(١)

ودخل الكتان كذلك في صنع المنسوجات والملابس لهذا العصر كما هو الحال في البرود القبطية إذ جاء في تعريفها: ثياب بيض من كتان، وكذلك المرط التي قد تصنع من كتان أو حرير أو غير ذلك. قال الراعي النميري مشيراً إلى أن الربط أيضاً تعمل من الكتان:

صَلِينٌ بِهَا ذَاتُ الْعِشَاءِ وَرَشَّهَا عَلَيْهِنَ فَنَسِي الْكَتَّانِ رِبْطٌ نَصَابِحُ^(٢)

كما دخل القطن في كثير من الملابس خاصة ملابس البدن الداخلي كالفمضان والدروع وفي بعض أنواع البرود.. إضافة إلى الجلود التي دخلت في صناعة بعض أنواع الكساء المسمى بالسبيجة.

ومن حيث الألوان فقد عرفوا اللون الأحمر وفضلوه لأنه لون الملوك والسادة. كما عرفوا الأبيض (السرق، والقبطي) والأخضر (الباغز والرفارف) والأصفر (الإضريج) والأسود (السبيجة)...

وأحبوا من الثياب المسهمة والموشاة والمرخرفة والمذهبة والمصبوغة والمهلهلة أي الرقيقة. وقد عرضت لهذه الأنواع جميعها مع الأمثلة الشعرية من خلال عرضي لأنواع الملابس. وسأكتفي بالإشارة إلى بعضها هنا. فقد وصف كثير عزة الثياب المنمنمة أي المرفمة في قوله:

من الهيف لا تخزي إذا الريح ألصقت على متنها ذا الطرتين المنمنما^(٣)

ومنها الموردة: كما في قول عمر والذي يفهم منه بأن مثل هذا النوع كان يضعه النساء والرجال:

فَمَا نِلْتُ مِنْهَا مَحْرَماً غَيْرَ أَنَّنَا كَلَانَا مِنَ الثَّوبِ الْمَوْرَدِ لَا بَسْ^(٤)

وقال عروة بن أذينة مشبهاً زي جماعة من النساء بزهر الرياض:

بَزَيٍّ جَمِيلٍ كَزَهْرِ الرِّيَاضِ أَشْرَفُ زَاهِرٍ نَسَّوَارِهَا^(٥)

(١) ديوانه / ٦٤. الدرائيك: جمع درنيك وهو كل ما له خمل من بساط أو ثوب أو هو الطنفسة.

(٢) ديوانه / ١٥٩.

(٣) ديوانه / ١٣٤.

(٤) ديوانه / ٣٩٥.

(٥) ديوانه / ٢١٩.

ثانياً: الحليّ

الحليّ وهو ما تزين به المرأة من مصوغ المعنديات أو الحجارة وجمعه حُلِيّ. (١) وقد اهتمت المرأة منذ القديم بزینتها ووضعها للحليّ. كما أكثر الشعراء من الإشارة إلى هذا الأمر في شعرهم مشيرين من خلال وصفهم لحلي المرأة إلى ترفها وغناها ومنزلتها الرفيعة عند أهلها الذين يتمتعون بصفات السؤدد، والقوة مما جعلهم يملكون من المال ما يستطيعون به تحلية نساءهم أو بناتهم، إضافة إلى رغبة الشاعر في إظهار مدى جمال محبوبته من خلال وصفه لزینتها وحليها التي تزيدها بهاء وجمالاً. واستمر هؤلاء الشعراء على ما كانوا عليه في العصر الأموي حيث استطاعت فئات من المجتمع الوصول إلى درجة كبيرة من الغنى نتيجة للظروف الجديدة التي غدا عليها العرب خاصة وأن جزءاً كبيراً من أموالهم كان على شكل مصوغات ذهبية وفضية، إضافة إلى عدد كبير من الأحجار الكريمة والمجوهرات المختلفة الأخرى. فإذا ما أضفنا إلى ذلك أن العرب قد عرفوا اللؤلؤ واتجروا به لوقوع جزء من بلادهم على بحر اشتهر بوجود اللؤلؤ فيه منذ وقت طويل، كما نقلوا إلى بلادهم كثيراً من المصوغات والأحجار الكريمة نتيجة لعملية التبادل التجاري التي كانت بينهم وبين جيرانهم من الدول والممالك، علمنا أن عهدهم بالزينة وبأصناف الحلي قديم قبل العصر الأموي، لكن اهتمام الناس في هذا العصر بهذه الأمور قد بلغ أوجه خاصة عند الطبقة الحاكمة والمترفة، ولم يقتصر هذا على النساء دون الرجال، بل نافس بعض الرجال نساءهم في التزين واتخاذ العقود واستبدالها كما يستبدل الواحد منهم لباسه (٢).

وقد انعكس غرام الناس لهذا العصر بالحلي على شعرائهم وبدأوا بظهورون هذا الاهتمام عن طريق وصفهم لأشكاله المختلفة وأنواعه على أجساد محبوباتهم. وكذلك ألقتوا إلى صوته الذي كان محبباً لهم فقد ذكره الشعراء غير مرة في شعرهم. قال النابغة الشيباني:

وللحليّ وسواسٌ عليها إذا مشّت كما اهتزّ في ریح من الصيفِ عِشْقٌ (٣)

وقد تقوم المرأة بعمله بنفسها. قال أعشى همدان:

أنحسبُ غزوَ الشأمِ يوماً وحرّبه كيبضٍ ينظّمُ الجُمانَ المفضّصاً (٤)

(١) لسان العرب (حلا).

(٢) الأغاني / ج ٧ / ٥٩.

(٣) ديوانه / ٤٣. العشرق: شجر قدر الذراع لها حب صفار إذا جف صوت يمر الريح، وانظر ديوان أبي دهل / ٥٧.

(٤) الأغاني / ج ٦ / ٥١.

ومن بين أنواع الحلبي التي ذكرها الشعراء: حلي الرأس والعنق.

فمن حلي الرأس التاج. وهو عصاة مكللة بالجوهر. وقيل هو ما بصاغ من الذهب والجوهر (١). وقد كانت جميلة المغنبة تضع على رؤوس جواربها التيجان. (٢)

ومنه كذلك الشَّكْل. وهو خاص بالشعر. كانت تعلقه الجوارب في شعورهن من لؤلؤ وفضة ويسمى السلس وهو لؤلؤ من فضة (٣).

قال ذو الرمة:

سَمِعَتْ مِنْ صَلَاحِ الْأَشْكَالِ وَالشَّذَرِ وَالْفَرَاثِدِ الْغَوَالِي (٤)

القلادة: ما يجعل في العنق والجمع فلائد. (٥) قال عروة بن أذينة بصف فلائد محبوبته والتي تبدو أنها كانت تتكون من طبقات عدة حيث نصل إلى أذنيها:

كَأَنَّ الْقَلَادَةَ فِي جَبْدهَا إِلَى حَبِّ تَعْقِدَ مِنْهَا الرِّعَاثَا
مِنْ الدَّرِّ بِحِفْظٍ بِاقْوَانِهِ كَجَمْرِ الْفَضَا يَنْلُظِي مَجَانَا (٦)

ولم تكن كل القلائد مصنوعة من الدر والياقوت أو المصوغات والمجوهرات الأخرى فحسب؛ بل قد تتخذ من قرنفل وسك ومحلب لبس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء كما هو الحال في (السَّخَاب). (٧) قال العَرَّاجي:

قَبْدَا وَمَا عَمِدَتْ بِذَاكَ تَبَرُّمًا جِدَّ بِمَجَّ عَلَى النَّبَانِ سَخَابَهُ (٨)

وقال أيضاً بصف جمال محبوبته حيث اجتماع سواد الشعر مع بياض العنق:

بَشَبَّ سَوَادَ الْفَرْعِ مِنْهُ بِيَاضَهُ شَبَّوبَ سَخَابِ الْمِسْكِ حَلْبًا مُبَرِّقًا (٩)

(١) اللسان (توج).

(٢) الأغاني / ج ٨ / ٢٢٧.

(٣) لسان العرب (شكل).

(٤) ديوانه / ج ١ / ٢٧٧.

(٥) اللسان (فلد) / والمخصص / ج ٤ / ٤٤.

(٦) ديوانه / ٢٩٣.

(٧) اللسان (سخب).

(٨) ديوانه / ٢٧.

(٩) المصدر السابق / ١٦٥.

أما عمر، فقد جعلها من القرنفل والدر قال:

قلدوها من القرنفل والدر سخابا، واهأ له من سخاب^(١)

وقد جعل المرأة فلادتها من طاقتين طافة لؤلؤ وطافة جمان كما في قول المتوكسل اللبني:

سبتني بجيدر لم يعطّل ولبّة عليها ردافا لؤلؤ وجمان^(٢)

من أنواع الفلاذ المخنقة: وهي فلادة ضيقة تلصق بالرقبة التصافاً. وقد جاء في الأغاني أن بثينة صاحبة جميل كانت قد اتخذت مخنقة بلح في واسطتها تضاحه^(٣). والمخانيق كما تبدو في مخلفات العصر الأموي على نوعين:

الأول: سمط واحد من الأحجار أو الخز. كما يظهر في رسم سيدة ضمن رسوم قصير عمرة الجدارية^(٤).

أما النوع الثاني: فيتألف من دلالية على هيئة وريقة نباتية تشد على الرقبة بواسطة شريط أو خيط ويتبين هذا النوع أيضاً في رسم سيدة أخرى كانت تزين بعض جدران قصير عمرة^(٥).

الطوق: والطوق والعقد: حلّي يجعل في العنق، وكل شيء استدار فهو طوق كطوق الرحي الذي يدبر القطب^(٦). وكان يعمل من الذهب المزين بالجواهر. فقد أرسل معاوية إلى عائشة أم المؤمنين طوقاً من ذهب به جوهرة، قدره مئة ألف دينار^(٧).

ولم بشر بعض الشعراء في شعره إلى المواد التي صنع منها طوق صاحبه وإنما اكتفى بالإشارة إلى كونها حاليه غير عاطلة. قال الراعي النعمري:

(١) ديوانه / ٤٢٢.

(٢) ديوانه / ١٩٢.

(٣) الأغاني / ج ٨ / ١١٢.

(٤) زكية عمر العلي / التزيق والحلي عند المرأة، في العصر العباسي / زكية عمر العلي / وزارة الإعلام الجمهورية العراقية - العراق / ١٩٧٦ / ١٥٦.

(٥) اللسان (طوق) / والمخصص / ج ٤ / ٤٤-٤٥.

(٦) الإبيشي / شهاب الدين أبو الفتح / المستطرف في كل من مستطرف / دار إحياء التراث العربي /

٣١ / ١٩٥٢.

ألا اسلمي اليوم ذات الطوق والعاج والدل والنظر المستأنس الساجي^(١)

وقد أراد بعض الشعراء من وصف الطوق وصف جمال محبوبته، كما في قول ذي الرمة الذي يرى محبوبته تضع الطوق على عنق كعنق ظبي أبيض العنق أحور:

وفي المرط من مَيِّ نوالي صريمة وفي الطوق ظبي واضح الجيد أحور
وبين مَلَاثِ المرط والطوق نَفَنَفْ هَضِيمَ الحشا رَأْدُ الوشاحين أَصْفَرُ^(٢)

العقد: الخيط بنظم فيه الخرز، وجمعه عقود. وقد اعتقد الدر والخرز وغيره إذا اتخذ منه عقد^(٣)؛ قال عدي بن الرفاع:

وما حَسِينَةُ، إذ قامت نودعنا للبين، واعتقدت شذرا ومرجانا^(٤)

وقال العرجي يذكر بعضاً من زينة محبوبته ومنها العقد المنظوم من اللؤلؤ:

تَعْلَقُ هَذَا الْقَلْبُ لِلْحَبِيبِ مُعْلَقًا غَزَالًا نَحَلَّى عِقْدَ دُرٍّ وَبَارِقًا^(٥)

وأما عقد صاحبة الأخطل فهو من العقيق؛ وهو خرز أحمر تتخذ منه الفصوص قال:

عليها، من سموط الدر، عقد يزبن الوجه، في سنن العقاق^(٦)

وأما ذو الرمة فقد أراد من ذكر عقود صاحبه وصف جمالها، فهي لا تكتفي بعقد واحد بل بعقود، ويصف هذه العقود بالجريان كناية عن جريان صاحبها التي يشبهها بالظبية البكر المنفردة عن صاحبانها، قال:

من الواضحات البيض تجري عقودها على ظبية بالرميل فاردة بكر^(٧)

السمط: الخيط مادام فيه الخرز، وإلا فهو سلك. والسمط: خيط النظم لأنه يعلق. وقيل: فلادة أطول من المخنفة وجمعه سموط^(٨). وقال ابن سيده الخيط يكون فيه النظم من اللؤلؤ وغيره^(٩). قال النابغة الشيباني:

(١) ديوانه / ١١٨.

(٢) ديوانه / ج ٢ / ٦١٩ - ٦٢٠.

(٣) لسان العرب (عقد) / وانظر المخصص / ج ٤ / ٤٤. والبيت في ديوان عدي / ١٦٨.

(٤) ديوانه / ١٦٨.

(٥) ديوانه / ١٦٣.

(٦) ديوانه / ج ١ / ٧٩.

(٧) ديوانه / ج ٢ / ٩٥١.

(٨) لسان العرب (سمط).

(٩) المخصص / ج ٤ / ٤٥.

فوشاحها قَلِقَ وشَبَّ سَمَوَطُهَا نَحَرَ عَلَيْهِ سَمَوَطُهَا وَنِظَامُهَا^(١)

وقد يعمل من الجمان واللؤلؤ كسموط صاحبة عدي بن الرقاع. قال:

وَسَمَوَطٌ تَسْتَنُّ فَوْقَ التَّرَاقِي مِنْ جَمَانٍ وَلَوْلُؤٍ مَنَظْمُومٍ^(٢)

أما سَمَوَطٌ صاحبة النابغة الشيباني ففيه مزيدٌ من الفنِّ وحسنِ الصنعة. فهو مصنوع من البافوت والذهب... وجعل بين كل خرزتين من لون واحد في العقد خزرة مخالفة لهما:

نَرَى فَوْقَ الرَّهَابِ لَهَا سَمَوَطاً مَعَ الْبَافُوتِ فَصَّلَهُ الْفَرِيدُ^(٣)

وقد يسمى بالنظام: وهو الخبط الذي ينظم به اللؤلؤ، وكل خبط ينظم به لؤلؤ أو غيره^(٤). قال المتوكل اللبني:

وَنَحَرَ زَانَهُ دَرَّ حَلِيٍّ وَبَافُوتٌ يَضْمَنُّهُ النَّظَامُ^(٥)

الْقِرْطُ: وهو الشنْف. وقبل الشنْف في أعلى الأذن والفِرْطُ في أسفلها، وقيل: الفِرْطُ الذي يعلّق في شحمة الأذن، والجمع أقراط وفِراط، وفِرْوط وفِرْطَة... ويقال للدرّة تعلّق في الأذن فِرْط^(٦).

قال الطرماح:

لَا خَيْرَ فِي رَجُلٍ بِجَالَسٍ عِرْسَهُ وَبِيبِيعٍ قِرْطِيَّهَا إِذَا مَا أَعْدَمَا^(٧)

وقد اتخذ الشعراء من ذكر القِرْط وسيلة لوصف جمال العنق وطوله. فقالوا كناية عن ذلك (بعيدة مهوى القِرْط). وقال كثيرون:

مِنْ الشَّمِّ مَشْرَافٌ يَنْبِفُ بِفِرْطِهَا أَسْبَلٌ إِذَا مَا فَلَدَ الْحَلِيَّ وَاضِحٌ^(٨)

(١) ديوانه / ٢٢٦.

(٢) ديوانه / ١٣٨.

(٣) ديوانه / ٩٦.

(٤) اللسان (نظم).

(٥) ديوانه / ١١٦.

(٦) اللسان (قِرْط). والمخصص / ج ٤ / ٤٣.

(٧) ديوانه / ٤٦٨.

(٨) ديوانه / ١٨٧.

وكذلك إلى وصف غنى المحبوبة وترفها. قال وضاح اليمن:

عَلَّقَ قَلْبِي رِبِّبَ بَيْتٍ مَلُوكٍ ذَاتَ قَسْرَطِينَ وَعِثَّةَ الْكَفَلِ (١)

ومن أسمائه الرِّعَات: وقال فيه صاحب اللسان: إنه القِرْط. (٢) قال جميل:

وَكَادَتْ نَحْبِدَ الْأَسَدُ عَنِّي مَخَافَةً فَهَلْ يَقْتُلُنِي ذُو رِعَاتٍ مَطَرَفُ (٣)

ومن أنواعه: الخَرَص: وهو القِرْط بحبة واحدة وقيل: هي الحلقة الصغيرة من الحللي كهيئة القرط. (٤) قال النابغة الشيباني يشبه الدر في أفراط صاحبه ببض طائر موجود في عشه:

وَكَأَنَّ الدَّرَّ فِي أَخْرَاصِهَا بَيْضُ كَحْلَاءٍ أَقْرَنَتْهُ بِعُشٍّ (٥)

أما الشَّنُوف، فقد اتفق أصحاب المعاجم على أنها ما يعلق في أعلى الأذن (٦) قال النابغة مشبهاً شُنُوف صاحبه بالبض في جوف العش.

عَلَيْهَا الدَّرُّ نَيْطَ لَهَا شُنُوفًا كَبَيْضِ ضَنْبِلَةٍ فَنَسِي جُوفِ عَشٍّ (٧)

الخاتم: من حللي النساء. وقال ابن سيده: خواتم النساء التي يلبسها في الأصابع من اليد والرجل وأحدثها فتخة. وقيل الفتوخ خواتم بلا فصوص كأنها حلق. الواحدة فتخة. (٨) وقد كانت معروفة عند العرب منذ العصر الجاهلي. واستمرت النساء على نختمهن في أصابع اليدين والرجلين في عصر الإسلام ومنهن بعض زوجات الرسول عليه السلام.

واستمر الحال في العصر الأموي. حيث كن يتختمن في أصابعهن العشر. فقد ذكر صاحب الأغاني في خبر السواد في ثنيثي عمر بن أبي ربيعة: وكان النساء يتختمن في أصابعهن العشر، فخرجت إحدى صواحبه إليه فضربت به بظاھر كفها -لأمر كان بينهما-

(١) ديوانه / ١٢٤.

(٢) اللسان (رعت). والمخصص / ج ٤ / ٤٣.

(٣) ديوانه / ١٢٩. وانظر كذلك ديوان الراعي النميري / ١٧٧.

(٤) اللسان (خرص) والمخصص / ج ٤ / ٤٣.

(٥) ديوانه / ١٨٣. كحلاء: طائر نيه.

(٦) اللسان (شئف) والمخصص / ج ٤ / ٤٣.

(٧) ديوانه / ٧١. وانظر ديوان هذبة بن الخشرم / ١١٧.

(٨) لسان العرب (ختم) / المخصص / ج ٤ / ٤٩.

فأصابته الخواتيم ثنيتيه العليين فنفضنا وكادتا تسقطان، فقدم البصرة فعولجنا له، فثبتنا واسودتا، وقد عبره الحزين الكنانى بذلك قائلاً:

ما بالَ سِنَّيْكَ أم ما بالَ كَشْرهما أهكذا كُسِرَ في غير ما باسِ
أم نَفْحَةٌ من فتاةٍ كُنْتَ تَأْلُفُها أم نالها وَسَطَ شَرْبِ رَصْدَمَةِ الكاسِ^(١)

أما السوار فهو معروف، ويقال له أيضاً السوار وهو القلب؛ والجمع أسورة وأساور.^(٢) وقال الله عز وجل "يَحْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ"^(٣)

وقد أكثر الشعراء الأمويون من ذكر السوار موضحين جمال المكان الذي يوضع فيه وما يستحسن فيه من صفات. قال كثير يصف امتلاء مكان سوارى صاحبه وهو مما يرغب في المرأة:

وكظَّنتِ سَوارِيها فلا بألوانِها لدن جاورا الكفين أن يتقدما^(٤)
وأكثروا من الجمع بينه وبين الخلخال الذي أحبوا في موضعه هو الآخر الامتلاء والاكتناز. قال النابغة:

وخلا خبيلَ مـلـاءٍ ودَمَّ البـجَّ وسُـورِ^(٥)
ومن أسمائه البارقي. قال العرجي:
تعلَّقَ هذا القلبَ للحينِ مَعْلَقاً غَزَلاً نَحْلَسَى عِقْدَ دُرٍّ وبارقا^(٦)
ومن أسمائه أيضاً الوَقْفُ وهو السوار من عاج، والذي كان يعرف بالمَسَك. قال أبو دهب:

يجولُ وشاحاها ويغتصَّ حجلَها ويشبَعُ منها وَقْفُ عاجٍ ودملج^(٧)

(١) الأغاني / ج ١ / ٢٣٠-٢٣١.

(٢) اللسان (سور) والمخصص / ج ٣ / ٤٦.

(٣) سورة فاطر آية: ٣٣.

(٤) ديوانه ١٣٤ / وانظر كذلك ديوان النابغة الشيباني / ١٤٦.

(٥) ديوانه ١٣٩.

(٦) ديوانه ١٦٣ / وانظر كذلك ديوان النابغة الشيباني / ١٦٦.

(٧) أبو دهب الجمحي/تحقيق عبد العظيم عبد المحسن / ط ١ / مطبعة القضاء/النجف

وقبل في المَسَك هو: سوار من مَسَك وهي القرون، وقد تكون من دبل وهو جلد ظهر السلحفاة البحرية أو البرية أو عظام ظهر دابة بحرية تتخذ منه الإسورة والأمشاط. (١) قال ذو الرمة:

وفي العاج منها والدماليج والبري قنأ مالن للعين ريان عبهر (٢)

الدمليج: والدملوج من حلي الذراع؛ المعضد من الحلي. (٣)

وقد أكثر الشعراء كذلك من ذكره في شعرهم إشارة إلى امتلاء عضد المرأة وهو مما يستحب فيها. قال عمر بن لجا:

نرى الخلخال والدملوج منها إذا ما أكرها نسبا وهابا (٤)

ومن أسمائه المعضد لتزينها العضد، قال جرير:

تشجى خلخالها خدال فعممة وتري السوار تزينه والمعضدا (٥)

الخلخال: الذي تلبسه المرأة وهو كالخلخل (٦) والخلخل من الحلي التي أكثر الشعراء من ذكرها وأحبوا أن تكون المرأة صموت المخلخل أي التي لا يجري خلخالها في سافها لامتلائه واكتنازه.

قال عروة بن أذينة:

وعجيزة تفج وساق خدلة بيضاء تفصم كظلة خلخالها (٧)

وقال القطامي:

خسود منعمة نصح العبير بها إذا نميل عن خلخالها انفصا (٨)

(١) لسان العرب (عوج).

(٢) ديوانه / ج ٢ / ٦٢٢.

(٣) لسان العرب (دمليج).

(٤) ديوانه / ٤٨ / وانظر كذلك ديوان ابن قيس الرقيات / ٦١ / وديوان جميل / ١٨٠.

(٥) ديوانه / ج ١ / ٣٧٦ / وانظر كذلك ٦٠٣.

(٦) اللسان (خلخل).

(٧) ديوانه / ١٤٤.

(٨) ديوانه / ٩٨. وانظر كذلك ديوان ابن قيس الرقيات / ٥٥.

ومن أسمائه الحجل. قال الأخطل:

أسيلة مجرى الدمع، أما وشاحها فيجري، وأما الحجل منها فلا يجري (١)

وقال الحارث بن خالد المخزومي:

أغر ممكور هضيم الحشى وقد ضاق عنها الحجل والدملج (٢)

ومن أسمائه أيضاً البرت. قال الفرزدق.

ويحسبها بانت حصاناً، وقد جرت لنا برتاها بالذي أنا شاكره (٣)

الوشاح: ومن حلي النساء، كزسان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر، تتوشح المرأة به. (٤) وقال الجوهري: الوشاح ينسج من أديم عريض ويرصع بالجواهر وتشدّه المرأة بين عاتقيها وكشحيها (٥)

وقد أحبوا أن يكون هذا الوشاح قلماً يجري جرياناً، لا مشدوداً ضيقاً، لأنهم فضلوا في مكانه عدم الامتلاء إذ أنهم أحبوا الخصور الهيفاء. قال الحارث بن خالد المخزومي يصف دقة خصر صاحبه:

غرثان سبط وشاحها فلق ربان من أردافها المبرط (٦)

وقال أبو دهبيل الجمحي يصف وشاح صاحبه بأنه لا يثبت على خصرها الدقيق لرفته:

يجول وشاحها ويغتص حجلها ويشبع منها وقف عاج ودملج (٧)

أما عروة بن أذينة، فهو الآخر بشير إلى ضمور خصر صاحبه في حين هي مضمة الساقين:

(١) ديوانه/ج ١ / ١٧٩.

(٢) ديوانه / ٤٨.

(٣) ديوانه / ١٨٩.

(٤) لسان العرب (وشح). والمخصم/ ج ٤ / ٤٥.

(٥) اللسان (وشح). والمخصم/ ج ٤ / ٤٥.

(٦) ديوانه / ٦٨. وانظر كذلك / ٩٠.

(٧) ديوانه / ٥٧. وانظر كذلك ديوان هذبة بن الحشرم / ١١١.

عهدي بها فسمت نصفين أسفلها
وفوق ذلك عسب للوشاح به
مثل النقا من كثيف الرمل الهاري
مجرى لكشج ألوف السّر معطار^(١)

ومن الأمور التي أحبوها في الوشاح أيضاً السلاسة، للطايفة مكانه.

قال يزيد بن معاوية:

خدلج الساق ممكورف
سأوس الوشاح كمثل القمر^(٢)

وسماه العرجسي بالكشج لوقوعه عليه:

مكورة الساق راب ما أحاط به
منها الأزار وجال الكشج في البدن^(٣)

البريم: حبل فيه لونان مزين بجوهر نشده المرأة على وسطها وعضدها.^(٤)

قال عمر:

نظرت إلي بعين ريم أكحل
قبهت بدر حليها ووشاحها
عمدا وردت عنك دعوة عوهج
وبربها وسوارها فالدملج^(٥)

وقال المتوكل الليثي:

خود إذا اغتسلت رأيت وشاحها
فسوق البريم يجل كل مجال^(٦)

ومن أنواعه الحجاب: وهو شيء تعلق به المرأة الحلي، ونشده في وسطها، وقال

الأزهري: الحجاب هو البريم، إلا أن البريم يكون فيه ألوان من الخيوط نشده المرأة على حقوبها.^(٧)

قال عمر بن لجأ بصف صاحبه بتمام الخصر ولبنه:

أسيلة معقد السمطين منها
وغرني حيث تعقيد الحجاب^(٨)

(١) ديوانه / ١٩٦-١٩٧ / العسيب: القسم الأجرد من السعة لا ينبت عليه الخوص، الكشج: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف. وانظر كذلك / ٣٩١.

(٢) يزيد بن معاوية بن أبي سفيان / شعره / جمعه وحققه: صلاح الدين المنجد / ط١ / دار الكتاب الجديد - لبنان - بيروت / ١٩٨٢ / ص ١٩. وانظر كذلك ديوان المتوكل الليثي / ١٨٨.

(٣) ديوانه / ٤٠.

(٤) اللسان (برم).

(٥) ديوانه / ٤٨٨.

(٦) ديوانه / ١٦٥.

(٧) اللسان (حقب).

(٨) ديوانه / ٤٨.

كانت المصوغات تصنع من المعادن والأحجار الكريمة والخرز والزجاج والعظم والفخار والجلود.

وقد أشار شعراء العصر الأموي إلى هذه المواد من خلال حديثهم عن أنواع الحلبي المختلفة التي صنعت منها. ومن أشهر هذه المواد:

الذهب: وهو الثبر عند العرب.^(١) ومن أسمائه العين، والعسجد والنضار... وقد ورد في القرآن الكريم "زين للناس حبّ الشهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطرِ المقنطرةِ من الذهبِ والفضة".^(٢) وهو معروف عند العرب منذ العصر الجاهلي وذكره الشعراء الجاهليون في شعرهم وكذلك فعل الأمويون، ومنه الذهب العقيان أي الخالص. قال النابغة الشيباني:

كانما الذهبُ العقيانُ جعله بين الزمردِ أو ساطِ البعاسيبِ^(٣)

وكثيراً ما كانوا يجمعون بينه وبين اللؤلؤ كما في قول الأخطل:

من كلِّ بيضاءٍ مكسّالٍ، برهرةٍ زانتُ معاطلها بالدرِّ، والذهبِ^(٤)

ومنه الشذر: وهو قطع من الذهب يلتقط من المعدن من غير إذابة الحجارة، ومما يصاغ من الذهب فرائد بفضل بها بين اللؤلؤ والجوهر.^(٥) قال عدي بن الرقاع:

وما حسّينة إذ قامت تودعنا للبين واعتقدتُ شذراً ومرجاناً^(٦)

الفضة: وقد عرفت أيضاً منذ العصر الجاهلي، ووردت في القرآن الكريم في قوله تعالى "عليهم ثيابٌ سندسٌ خضرٌ واستبرقٌ وحلّوا أساورٌ من فضةٍ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً".^(٧) ولقد اشتهرت بلاد العرب بالذهب والفضة منذ تاريخ بعيد، خاصة في بلاد

(١) اللسان (ذهب).

(٢) سورة آل عمران/ آية ١٤.

(٣) ديوانه / ١٦٥.

(٤) ديوانه / ج ١ / ٢٤٢.

(٥) اللسان / (شذر).

(٦) ديوان / ١٦٨.

(٧) سورة الإنسان آية / ٢١.

- ١٢٣ -

البمن التي تقع على شواطئ بحر العرب وقد ساعد على ذلك اتصالها بالأقاليم البحرية الأخرى كالهند والمدن الأفريقية، فنشط فيها بيع وشراء هذين المعدنين، فكان في بلاد اليمن أسواق خاصة لبيع الفضة وتداولها. (١) كما اشتهرت بلاد فارس هي الأخرى بإنتاج الفضة. (٢) وحينما آلت هذه البلاد إلى العرب بعد فتحها تحولت هذه الثروات العظيمة إليهم فتحلت نساؤهم بكل هذا الكم الهائل من المصوغات والمجوهرات.

ومن أسماؤها عند الشعراء الورق واللجين وقد جمعهما ابن فبس الرقيات في بيت واحد مشبهاً لون المرأة بهما.

بِبِضَاءٍ كَالْوَرَقِ اللَّجِينِ بَزِينَهَا وَجَهٌ عَلَيْهِ نَضْرَةٌ وَقَسَامَةٌ (٣)

وقال عروة بن أذينة يشبه محبوبته بالفضة المشربة بالذهب مشيراً إلى لونها الرائق الجميل وملبسها الناعم الرقيق:

دَوَابَّةُ الْمُقْلَتَيْنِ مَشْرِقَكَةٌ بِالْحَسَنِ يَجْرِي فِي مَائِهَا دَمُّهَا
كِفِضَّةِ الْكَنْزِ أَشْرِبَتْ ذَهَبًا يَكَادُ طَرَفُ الْجَلِيسِ يَكْلِمُهَا (٤)

أما إناء الفضة المسمى بالفانور، فاستخدم مشبهاً به في بعض صورهم الشعرية. قال معن بن أوس:

وَنَحْرًا كَفَانُورِ اللَّجِينِ وَنَاهِدًا وَبَطْنًا كَفَمَدِ السَّيْفِ لَمْ يَدْرِ مَا الْحَمْلَا (٥)

وكثيراً ما جمع الشعراء بين الذهب والفضة، فكانت قطعها تسمى بالسبائك. قال ابن قيس الرقيات مشبهاً وجهه صواحيبه بها لبياضها وإشراقها ولمعانها:

نَظَرُنْ إِلَيْنَا بِالْوَجْهِ كَأَنَّمَا جَلَوْنَ لَنَا فَوْقَ الْبَغَالِ السَّبَائِكَا (٦)

ومن أنواع الفضة الأخرى، الجمان؛ وهي هنوات تتخذ على أشكال اللؤلؤ من فضة. فارسي معرب واحدته جمانة. قال الجوهري: حبة تعمل من الفضة كالدرّة. (٧)

(١) جواد علي/ تاريخ العرب قبل الإسلام/ مطبعة المجمع العلمي العراقي/ العراق / ١٩٥٩ / ٨ج / ١٢٩.

(٢) الإصطخري/ أبو اسحق إبراهيم بن محمد/ المسالك والممالك/ مطبعة بريل/ لندن / ١٩٢٧ / ١٥٥.

(٣) ديوانه / ١٦٥.

(٤) ديوانه / ٧٩.

(٥) ديوانه / ٥٨.

(٦) ديوانه / ١٢٨.

(٧) اللسان (جمن).

قال هذبة بن الخشرم بصف الجمان على أعناق النسوة، وبشير إلى مكان صنعها:

عليهنَّ من صنع المدينة حلبةٌ جَمانٌ كأعناقِ الدِّبَا ورِفَارِفُ^(١)

قال عديّ بن الرقاع موضحاً أن سموط صاحبه مصنوع من الجمان واللؤلؤ.

وسَمَّوْطَ تَسْنَنَ فوق التراقي من جَمانٍ ولؤلؤٍ منظوم^(٢)

اللؤلؤ: (الدَّرُّ)^(٣). وهو سيد الأحجار الكريمة عند العرب وقد عرفه

العرب منذ القديم حيث إنه كان يستخرج من شواطئهم. وقد جاء في القرآن الكريم بقوله تعالى "ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون"^(٤)

قال أبو دهب الجمحي بصف صوت الحلبي:

كَانَ وساويسَ الحلبي إذا مشَتْ وشارفهنَّ اللؤلؤ المتشرجُ
تخششُ بالي عشري زجلت به يمانية هبت من الليل سجسج^(٥)

وقال شبيب بن البرصاء:

حالي الترائب والذفرى عُقْدَن به من لؤلؤ وجَمانٍ غير أفراد^(٦)

كما أكثر شعراء هذا العصر من ذكر الدر وهو جمع درة وهي اللؤلؤة العظيمة.^(٧)

قال الأحوص: يشير إلى أن وجه محبوبته يزيد من حسن اللؤلؤ وجماله لا العكس:

وإذا الدرُّ زان حَسَنَ وجوه كان للدرِّ حسن وجهك زينا^(٨)

وقال عمر مشبها الحلبي بالشهب لشدة لمعانه:

ترى عليهنَّ حلبي الدرّ متسفاً مع الزبرجد والباقوت كالشَّهب^(٩)

(١) ديوانه / ١١٨ / الرفارف: الثياب الخضراء.

(٢) ديوانه / ١٣٨ / وانظر كذلك ديوان خالد بن الحارث المخزومي / ٧١.

(٣) لسان العرب (لأ).

(٤) سورة الطور آية / ٢٤.

(٥) ديوانه / ٥٧. العشرق: الشجر الناعم. وسجسج: باردة معتدلة البرودة ويقال إنها ريح الجنة لا حر فيها

ولا برد.

(٦) شعراء أمويون / ج ٣ / ٢٢٦.

(٧) اللسان (در).

(٨) ديوانه / ٢٠٩.

(٩) ديوانه / ٤٢٨.

أما اللؤلؤ الصغار، فقد أطلق عليها المرجان، وهو من الألفاظ المعربة وقد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى "يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ" (١) وهو نبات بحري أحمر منشعب (٢) وجاء في اللسان كذلك بأنه جوهر أحمر (٣).
قال عمر:

بَجَرِي عَلَيْهَا كَلِمَا اغْتَسَلْتُ بِهِ فَضَّلُ الْحَمِيمَ بِجَوْلِ كَالْمَرْجَانِ (٤)

الياقوت: فارسي معرب، من الأحجار الكريمة المستخدمة في صناعة الحلبي. ومن ألوانه الأحمر والأبيض والأزرق. وقد ورد أيضاً في القرآن الكريم بقوله تعالى "كَانَ مِنْهَا" (٥).
الياقوت والمرجان (٥).

قال المتوكل اللبني:

وَنَحَرَ زَانَهُ دَرَّ حَلِيٍّ وَيَاقُوتَ يَضْمُنُّهُ النَّظَامُ (٦)

وفال الأصوص:

بِزَيْنٍ لَبَنَهَا دَرَّ تَكْنَفُهُ كَأَنَّهُ إِذَا بَدَا جَمْرُ الْغَضَى بَقْدِ (٧)

الزبرجرد: حجر أخضر يتكون من معدن الزمرد، وهو من الأحجار الثمينة التي اشتهرت في تطعيم بعض أنواع الحلبي، وأفضله الشديد الخضرة الصافي (٨).

(١) سورة الرحمن / آية ٢٢.

(٢) زكي عبد الرحمن / الأحجار الكريمة في الفن والتاريخ / المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر / ١٩٦٤ / ١٤٥.

(٣) اللسان (مرج).

(٤) ديوانه / ٢٩٣.

(٥) سورة الرحمن / آية ٥٨.

(٦) ديوانه / ١١٦.

(٧) ديوانه / ٥١-٥٢.

(٨) القلقشندي / صبح الأعشى في صناعة الإنشاء / وزارة الثقافة والإرشاد القومي / المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر / ١٩٦٣ / مصر / ج ٢ / ١١٠.

وقال عمر:

وزبرجد ومن الجمآن به
سلس النظام كأنه جمر^(١)

وقد أضاف عمر لجمال هذه الزينة وفيبتها حسن الصنعة إذ هي منسفة. قال:

تري عليهن حلّي الدر منسفا
مع الزبرجد والياقوت كالشهب^(٢)

الودع: والودع، والودعات منافيف صفار تخرج من البحر نرين بها العناكيل،

أو خرز بيض جوف في بطونها شق كشق النواة تتفاوت في الصغر والكبر. ^(٣) فهو كما يبدو نوع من المحار أو القواقع البيضاء الصغيرة فقال الراعي:

كأن مناسط الودع حيث عفدنه
لبان دخيلسي أسيل المقلد^(٤)

وقال جميل:

لم تعلمي يا أمّ ذي الودع أنني
أضاحك ذكراكم وأنت صلود^(٥)

الجزع: ضرب من الخرز. وقيل: هو الخرز البياني، وهو الذي فيه بباض

وسواد تشبه به الأعين واحدته جزعة، وقيل سمي جزعا لأنه مجزع أي مقطع بألوان مختلفة أي قطع سواده ببياضه. ^(٦) قال ابن قيس الرقيات:

حييت عنا أمّ ذي الودع
والطوق والخرزات والجزع^(٧)

العاج: عظم أنياب الفيل الواحدة عاجة. ويقال للمسك عاج، وهو الذبل أي

ظهر السلحفاة البحرية. ^(٨) قال الراعي النميري:

وفي العاج والحناء كف بنانها
كشحم النفا لم يعطها الرند قاذح^(٩)

(١) ديوانه / ١٤١. وانظر ديوان ابن قيس الرقيات / ١٠٨.

(٢) ديوانه / ٤٢٨.

(٣) اللسان (ودع).

(٤) ديوانه / ١٧٢.

(٥) ديوانه / ٦٨.

(٦) اللسان (جزع).

(٧) ديوانه / ٦٥.

(٨) اللسان (عوج).

(٩) ديوانه / ١٥٨.

ثالثاً الطيب:

عرفت المرأة العربية أنواعاً مختلفة من الطيب منذ العصر الجاهلي، وقد ورد ذلك في شعر الشعراء، وكذلك في كتب الأخبار، وورد ذكر لأنواع الطيب في القرآن الكريم كالمسك والكافور... واستمرت المرأة على اهتمامها بالطيب واستخدامه في أغراض مختلفة. وكثر هذا الاهتمام في العصر الأموي نتيجة وجود طبقة غنية تملك المال لشراء أنواع مختلفة منه، وكذلك نتيجة لحياة الترف والتنعيم التي كانت من نصيب جماعة من النساء الأمويات. قال النابغة الشيباني:

عِثَاقُ جَوَازِي الحُسْنِ تَضْحِي كَأَنَّهَا - وَلَوْ لَمْ تُصِبْ طَبِيباً لَأَلَّ عَوَاطِرُ^(١)

ومن أشهر أنواع الطيب التي عرفها هذا العصر:

المِسْك: ضرب من الطيب كانت العرب تسميه المشموم.^(٢) وهو من العطور القديمة المعروفة عند العرب، وجاء في قوله تعالى "خَتَامَهُ مِسْكِ" وفي ذلك فليتنافس المتنافسون^(٣) وقد أكثر الشعراء من ذكره إشارة إلى غنى المحبوبة وترفها من ذلك قول ابن قيس الرقيات:

شَبَّ بِالْعَالِ مِنْ كَثِيرَةِ نَارٍ شَوْقَتْنَا وَأَيْسَنَ مِنَّا الْمَزَارُ
أَوْفَدَتْهَا بِالْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ الرُّطُ بِرِفَاتَةٍ فَد ضَاقَ عَنْهَا الْإِزَارُ^(٤)

وكثيراً ما كانت النساء يمزجن المسك بأنواع أخرى من العطور، كما في قول النابغة الشيباني:

وَفَدَّ عَبِيقَ الْعَبِيرِ بِهَا وَمِسْكَ يَخَالِطُهُ مِنَ الْهِنْدِيِّ عُودُ^(٥)

ومنه قول العرجي:

إِذَا بَلَ نَضِجَ الزَّعْفَرَانِ لِبَانَهُ مَعَ الْمِسْكِ بَزْدَادَانِ طَبِيبَا وَيَعْبَقَا^(٦)

(١) ديوانه / ٦٠-٦١.

(٢) لسان العرب (مسك).

(٣) سورة المطففين / آية ٢٦.

(٤) ديوانه / ٢٣.

(٥) ديوانه / ٩٧.

(٦) ديوانه / ١٦٥.

وكثيراً ما ورد ذكر المسك وأنواع الطيب الأخرى عند وصف طيب رائحة فم المحبوبة أو طعمه. قال الوليد بن يزيد:

فَمَا مِسْكٌ يَعْلُ بِزَنْجَبِيلٍ وَلَا عَسَلٌ بِالْبَيَانِ اللَّفَاحِ
بِأَشْهَى مِنْ مُجَاجِرِ رَيْقِ سَلَمَى وَلَا مَا فِي الرِّفَاقِ مِنَ الْقِرَاحِ^(١)

وقال جرير:

كَأَنَّ الْمِسْكَ خَالَطَ طَعْمَ فِيهَا بِمَاءِ الْمَزْنِ يَطَّرِدُ الْحَبَابَا^(٢)

كما أكثر الشعراء الأمويون الإشارة إلى الرائحة الطيبة التي تنبعث من أردان المحبوبة، أو من أجزاء ثيابها الأخرى. وفي هذا إشارة إلى أن المرأة لم تكتف برش الطيب على جسدها بل على ثيابها أيضاً، أو أن الطيب من كثرته كان يلحق ثيابها فتنبعث منها الرائحة الطيبة. وفي كل هذا إشارة إلى ترف المرأة وتنعيمها وغناها. أو إلى أمنية الشاعر في أن تكون المرأة خاصته كذلك.

قال الأخطل:

يَجْرِي ذَكْيُ الْمِسْكِ فِي أُرَادِنِهَا وَتَصِيدُ بَعْدَ تَفَنُّسٍ وَدَلَالِ^(٣)

وقال عروة:

كَأَنَّ خَزَامِي طَلَّةَ ضَافِئِهَا النَّدَى وَفَارَةَ مِسْكِ ضَمْنَتِهَا ثِيَابُهَا^(٤)

وقال جرير:

كَأَنَّ نَشْرَ الْخَزَامِيِّ فِي مَلَا حِفْئِهَا قَدْ بَلَ أَجْرَعَهَا طَلٌّ وَتَهْمِيمِ^(٥)

وللمسك أنواع متعددة منها: المسك الذكي وهو كامل الطيب والنفاذ قال النابغة:

إِذَا مَا جَرَى الْجَادِيَّ فَوْقَ مَتُونِهَا وَمِسْكَ ذَكْيٍ جَفَقَتْهَا الْمَجَامِرُ^(٦)

(١) ديوانه / ٣٨.

(٢) ديوانه / ٢٤٣.

(٣) ديوانه / ج ١ / ١٣٨.

(٤) ديوانه / ٢٦٤.

(٥) ديوانه / مج ٢ / ٦٦٩.

(٦) ديوانه / ٦١.

ومنه المسك الأسود. قال جميل:

تَأْرَجُ بِالْمِسْكِ الْأَحْمَرِ ثِيَابَهَا إِذَا غُرِفَتْ فِيهَا وَبِالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ^(١)

ومن أنواعه أبيض الصَّهَابِيِّ المأخوذ لونه من الصَّهْب وهو الحمر أو الشفرة.

فقال عمر:

كِتَابٌ بِسَكِّ حَالِكٍ وَبِصَفْرِ مِسْكِ صَهَابِيِّ بَعَلٍّ بِمَجْمَرِ^(٢)

ومنه كذلك فأر المسك وسمي بذلك نسبة إلى جردان سود يقال لها فأرات المسك ليس عندها إلا رائحة لازمة لها^(٣). ولا علاقة بين كلمة فأر المسك وفأرة المسك التي نغني وعاءه.

فقال كثبّر:

يَبَاشِرُنْ فَأَرُ الْمِسْكِ فِي كُلِّ مَهْجَعٍ وَيَشْشُرُقُ جَادِيَّ بَهْنِ مَفِيدٍ^(٤)

ومن أنواعه المسك الذبيح. وقد يكون هو ما عناه جميل في قوله:

كَأَنَّ خَزَامِي عَالِجٍ فِي ثِيَابِهَا بُعِيدَ الْكَرَى أَوْ فَأَرُ مِسْكِ تَذْبَحٍ^(٥)

ومنه المسك الخالص. قال ابن فيس الرقيات:

وَوَجِدْتُ مِسْكَ خَالِصًا قَدْ ذَرَّ فَوْقَ عِيُونِهِنَّ^(٦)

ومن أنواعه كذلك المسك الإذفر وهو الكامل الرائحة. قال عمر:

فَبِتُّ أَسْفَى عَنِيقَ الْخَمْرِ خَالِطَهُ شَهِدَ مِشَارَ وَمِسْكَ خَالِصٍ ذَفْسَرِ^(٧)

العنبر: وهو طيب معروف، وقيل هو الزعفران وقيل الورد، وسمي بذلك لأنه يتخذ من جلد سمكة بحرية يقال لها العنبر^(٨) وجاء في صبح الأعشى أنه ينبع من

(١) ديوانه / ٧٥.

(٢) ديوانه / ١٥٠.

(٣) المستطرف / ج ٢ / ٣٢. ولسان العرب (مسك).

(٤) ديوانه / ١٩٥.

(٥) ديوانه / ٤٣.

(٦) ديوانه / ٦٧.

(٧) ديوانه / ١١٥.

(٨) اللسان (عنبر).

- ١٣٠ -

صخور وعيون في الأرض فيجتمع في البحر، فإذا نكثت طفا على الماء وقطعته الريح وأمواج البحر إلى قطع صغيرة وكبيرة. (١) وكان يعتبر من السلع النفيسة. وقد عرف لدى العرب منذ العصر الجاهلي.

قال العرزدق:

فَبِتْنَا كَأَنَّ الْعَنْبَرَ الْبَحْتُ بَيْنَنَا، وَبَالَهُ نَجَّرَ، فَارَهَا قَدْ تَخَرَّمَا (٢)

وأشار بعض الشعراء إلى طيب رائحة الفم عند المحبوبة بأن جعلوه خليطاً من المسك والعنبر والكافور. قال العرجي:

كَأَنَّ الْمِسْكَ وَالْعَنْبَرَ وَالْكَافُورَ فِي فِيهِ (٣)

ومن أنواعه العنبر الهندي كما في قول العرجي:

يَسْبُ مَنُونُ الْجَمْرِ بِالنَّدِّ نَارَهُ وَبِالْعَنْبَرِ الْهِنْدِيِّ فَالْعَرْفُ سَاطِعٌ (٤)

وقال جرير:

تَسْنَفُ بِالْعَنْبَرِ الْهِنْدِيِّ قَاطِعَةً هَمُّ الضَّجِيعِ فَلَا دُنْيَا كَدْنِيَانَا (٥)

ومنه العنبر الوردِي. قال جميل:

نَارُجَ بِالْمِسْكِ الْأَحْمَمِ ثِيَابُهَا إِذَا غَرِقَتْ فِيهَا وَبِالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ (٦)

ومنه كذلك العنبر الأكلف كما في قول عمر أيضاً:

وَالْعَنْبَرَ الْأَكْلَفَ الْمَسْحُوقَ خَالِطَهُ وَالزَنْجَبِيلَ وَرَاحَ الشَّامِ وَالْعَسَلَا (٧)

وأشاروا كذلك إلى العنبر الرطب. قال ابن قيس الرقيات:

أَوْفَدَتْهَا بِالْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ الرُّطَّ بِ قَنَاءٍ قَدْ ضَاقَ عَنْهَا الْإِزَارُ (٨)

(١) صبح الأعشى / ج ٢ / ١١٧.

(٢) ديوانه / ٥٥٧.

(٣) ديوانه / ١٠٤.

(٤) ديوانه / ٥٠.

(٥) ديوانه / مج ٢ / ١٦٤.

(٦) ديوانه / ٧٥. وانظر ديوان عمر بن أبي ربيعة / ٤٥١.

(٧) ديوانه / ٣٥٨. الأكلف: لون بين السواد والحمرة.

(٨) ديوانه / ٢٣.

وكذلك مسحوق العنبر. كما في قول جميل:

بَسْتَفَ رَبِحَ مَدَامَةٍ مَعْلُولَةٍ بِذِكِّي مِسْكٍ أَوْ سَحْبِقِ الْعَنْبَرِ (١)

الرَّعْفَرَانُ: صيغ معروف وقيل هو من الطيب. وقيل هو الجادي. (٢) وقد أكثر الشعراء من استخدام الاسم الثاني له أي الجادي. ومن خصائص هذا النوع من الطيب أنه ذو لون، وبالتالي فإنه بكسب المرأة اللون الذهبي الذي كان محبوباً عندهم. قال عمر بن أبي ربيعة يتحدث عن لبات صاحبتة ونحراها المشبعة بالزعفران:

وَالزَّعْفَرَانُ عَلَى تَرَائِبِهَا شَسِرْفٌ بِهِ اللَّبَّاتُ وَالنَّحْرُ (٣)

ومن الذين استخدموا الاسم الثاني له وهو الجادي، هذبة بن الخشرم.

نَضْمَخْنُ بِالْجَادِي حَتَّى كَأَنَّمَا الْأَنْوُفُ إِذَا اسْتَعْرَضْتَهُنَّ رَوَاعِفُ (٤)

ومنه الجادي المفيد أو المدوف إذ كان من عادة النساء وضعه في الماء حتى يذوب، كما في قول كثير:

بِاسِثْرُنَ فَأَرَّ الْمِسْكَ فِي كُلِّ مَهْجَعٍ وَبِشْرِفٍ جَادِيٍّ بَهْنٍ مَقِيدُ (٥)

العبير: أخلط من الطيب، وقيل هو الزعفران. (٦)

قال القطامي:

خَوْدٌ مَنْعَةٌ نَضَخَ الْعَبِيرُ بِهَا إِذَا تَبَيَّلَ عَنْ خُلْخَالِهَا انْفَصَمَا (٧)

وقال الحارث بن خالد المخزومي:

أَتَرَجَّةٌ عَبِقَ الْعَبِيرُ بِهَا عَبَقَ الدَّهَانُ بِجَانِبِ الْحَقِّ (٨)

(١) ديوانه / ١٠٢.

(٢) اللسان / (زعفر)

(٣) ديوانه / ١٤١.

(٤) ديوانه / ١١٧.

(٥) ديوانه / ١٩٥.

(٦) اللسان (عبر).

(٧) ديوانه / ٩٨.

(٨) ديوانه / ٧٦.

- ١٣٢ -

ولعل ما يؤكد أن العبير هو الزعفران، أو أنه كان بشكل نسبة كبيرة منه امتلاكه خاصية اللون، مما كان يصيغ من تنطيط به من النساء باللون الأصفر أو الذهبي، وهو من الألوان التي كانت محببة عندهم. قال النابغة الشيباني:

صَفَرُ السَّوَالِفِ مِنْ نَضَحِ الْعَبِيرِ بِهَا تَبَسَّدُوا لَهَا غُرَّرَ دُونَ الْجَلَابِيبِ (١)

ويبدو أنه كان يستخدم للشعر بشكل خاص، ومنه يتحدر إلى الوجه بعضه. قال النابغة أيضاً.

وَلَهَا غَدَائِرٌ فَدَعَلَوْنَ مَا كَمَا يَغْذِي الْعَبِيرَ أَثْنُهَا وَسَخَامُهَا (٢)

وقد يتحدر أيضاً إلى الثياب، أو أنه قد يستخدم في طياته كما في قول عمر:

عَبِقَ الثَّيَابِ مِنَ الْعَبِيرِ مَبْتَلٍ بَمَشْيِ بَمِيدٍ كَمِشْبَةِ النَّشْوَانِ (٣)

الكافور: أخلاط تجمع من الطيب نركب من كافور الطلع، ومنه الإغريض وهو مما يجري مجرى الصمغ. (٤) وقد ورد بالقرآن الكريم في قوله تعالى: "إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا" (٥).

وغالباً ما كان يخلط مع عطور أخرى ليعطي مركبات عطرية جديدة وخاصة مع المسك قال النابغة الشيباني:

كَأَنَّ رُضَابَ الْمَسْكِ فَوْقَ لثَانِهَا وَكَافُورَ دَارِيٍّ وَرَاحِأً نَصَفَاقٍ (٦)

أما عمر فقد جعله مع المسك والعبير الهندي والفرنقل، قال:

فَبِتُّ أَسْقَى عَنِيْقَ الْخَمْرِ خَالِطَهُ شَهْدَ مُشَارٍّ وَمِسْكَ خَالِصَ ذَفِيرٍ
وَعَنْبَرَ الْهِنْدِ وَالْكَافُورَ خَالِطَهُ فَرَنْقُلَ فَوْقَ رَفْرَاقٍ لَهُ أَشْرُ (٧)

(١) ديوانه / ١٦٦.

(٢) المصدر السابق / ٢٢٦.

(٣) ديوانه / ٢٩٣.

(٤) اللسان (كفر).

(٥) سورة الإنسان آية / ٥.

(٦) ديوانه / ٤٤.

(٧) ديوانه / ١١٥.

أما الراعي فقد أراده مع المسك والزعفران:

لها لثات وأنياب مفلجة
كالأفحوان على أطرافه البرد
يجري بها المسك والكافور أونه
والزعفران على لبانتها جسد^(١)

البخور: عود يتبخر به أي بطيب به،^(٢) وهو معروف عند العرب منذ القديم. وعرف العصر الأموي أنواعاً كثيرة لأعواد البخور منها: البلنجوج قال الأخطل يصف ترف النسوة اللواتي يتحدث عنهن:

لا بصطلبن دخان النار، شاتبه
إلا يعود بلنجوج، على فحم^(٣)
وقال عمر يذكر أنواع العطور المختلفة التي تستخدمها صاحبه:

يفوح القرنفل من جبرها
وريح البلنجوج والعنبر^(٤)
ومنها المنديل الذي قد يستخدم مع المسك في أحيان كثيرة. قال وصاح اليمن يصف محبوبته أيضاً:

وتوقد حيناً بالبلنجوج نارها
وتوقد حيناً أحياناً بمسك ومنديل^(٥)
ومنها عود الرند قال عمر يشبه رائحة فم محبوبته عند صحوها من نومها بالخمير الجيدة الممزوجة بماء السحاب النقي مع العنبر الأكلف المخلوط بالزنجبيل والرند:

كان فاهها إذا ما جئت طارقتها
شجت بماء سحاب زل عن رصف
والعنبر الأكلف المسحوق خالطه
خمر ببيسان أو ما عتقت جدر
من ماء أزهر لم يخلط به كدر
والزنجبيل ورنده هاجه السحر^(٦)

ومنه كذلك القطر، وهو من أعواد البخور التي يتطيب بها. قال عمر أيضاً:

لم يرعني بعد أخذي هجعة
غير ريح المسك منها والقطر^(٧)

(١) ديوانه / ٨٤.

(٢) اللسان (بخر).

(٣) ديوانه / ج ١ / ٢٢٢.

(٤) ديوانه / ١٧٣.

(٥) ديوانه / ١٢٤.

(٦) ديوانه / ١٢٣.

(٧) المصدر السابق / ١٤٨.

- ١٣٤ -

الخزامى: نبت طيب الريح، واحدته خزاماه؛ وقبل: هي عَشْبَةٌ طويلة العبدان صغيرة الورقة، حمراء الزهرة، طيبة الريح لها نور كنور البنفسج. (١) قال جرير يصف الرائحة المنبعثة من ملابس محبوبته بنشر الخزامى:

كَانَ نَشْرُ الخَزَامِي فِي مَلَا حِفْهَا قَدْ بَلَ أَجْرَعَهَا طَلٌّ وَتَهْمِيمٌ (٢)

القرنفل: وهو شجر هندي ليس من نبات أرض العرب طيب الرائحة. (٣)

قال عمر يمزج المسك مع الخزامى مع القرنفل، وكان مغرماً بـمزج أنواع العطور المختلفة في شعره:

كَأَنَّ سَحِيقَ الْمِسْكِ خَالَطَ طَعْمَهُ وَرِيحَ الْخَزَامِي فِي جَدِيدِ الْقَرْنَفْلِ (٤)

الزنجبيل: مما ينبت في بلاد العرب بأرض عمان، وهو عروق تسري في الأرض والعرب نصف الزنجبيل بالطيب، وهو مستطاب عندهم جداً. (٥)

قال عمر يتحدث عن عطر قم محبوبته:

لَيْسَ طَعْمُ الْكَافُورِ وَالْمِسْكِ شَيْبَا نَسَمُ عَلًّا بِالسَّرَّاحِ وَالزَّنْجَبِيلِ
حِينَ تَنْثَابُهَا بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهِهَا طُرُوفُهَا إِنْ شَتَّتْ أَوْ بِالْمَقْيِيسِ (٦)

الذريوة: فئات من قضب الطيب الذي بجاء به من بلد الهند يشبه قضب النَّشَاب. وقيل: هو نوع من الطيب مجموع من أخلاط. (٧)

قال ابن قيس الرقيات يصف الرائحة الطيبة المنبعثة من أردان صاحبه:

فَسَوْفَ الْجُلُودِ يَفْسُوحُ فِي أُرْدَانِهَا عَبَقُ الذَّرِيوَةِ (٨)

(١) اللسان (خزم).

(٢) ديوانه / ج ٢ / ٦٦٩ / وانظر كذلك / ج ١ / ٢٧٤. وانظر كذلك ديوان عروة بن أذينة / ٢٦٤.

(٣) اللسان (قرنفل).

(٤) ديوانه / ٣٦٨. وانظر كذلك ص ١٧٣.

(٥) اللسان (زنجبيل).

(٦) ديوانه / ٣٣٨.

(٧) اللسان (ذرة).

(٨) ديوانه / ٤٥.

الغالية: نوع من الطيب تركب من مسك وعنبر وعود ودهن، وفي حديث عائشة، رضي الله عنها، كنت أَغْلَفُ لحيَةَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالغالية. (١)
وحينما تزوج عمر بن عبد العزيز بفاطمة بنت عبد الملك أسرج في مسارجه تلك اللبلة الغالية. (٢)

قال الحارث بن خالد المخزومي:

وَكأنَّ غَالِيَةً تَبَاشَرُهُمَا تَحْتَ الثَّيَابِ إِذَا صَفَا النِّجَمُ (٣)

السَّكَّ: ضرب من الطيب يركب من مسك ورامك، عربي، وفي حديث عائشة، كنا نضمد جباهنا بالسك المطيب عند الإحرام؛ وقيل: هو طيب معروف يضاف إلى غيره ويستعمل. (٤)

قال عمر:

كِتَابٌ بِسُكِّ حَالِكٍ وَبِصَفْرَةٍ وَمِسْكِ صَهَابِيٍّ بَعْلٌ بِمَجْمَرٍ (٥)

ومن أنواع العطور الأخرى التي كانت تستعملها المرأة عطر الورد؛ وغالباً ما كان يستخدم للشعر، (٦) وكذلك البان (٧) والمحلب (٨) والخلوق (٩) وغيرها.

والحق أن الإنسان ليعجب من كثرة هذا العطر الذي ينبعث من بين دقات دواوين الشعر الأموي سواء من حيث كثرة أنواعه، أو شيوعه بين النساء، أو كثرة استخدامهن له. ويتساءل المرء أيضاً هل الشاعر نقل لنا في ذلك صورة واقعية لما كانت عليه المرأة في هذا العصر. أم أنه هو أرادها كذلك امرأة معطّارة تنبعث الرائحة الطيبة من جسدها

(١) اللسان (غلا).

(٢) المستطرف / ج ٢ / ٣٦.

(٣) ديوانه / ٩١.

(٤) لسان (سك).

(٥) ديوانه / ١٥٠.

(٦) انظر ديوان الراعي النميري / ١١٩.

(٧) انظر ديوان جرير / مج ١ / ١٦٤.

(٨) انظر الأغاني / ج ١٧ / ٢٢٣.

(٩) انظر ديوان القطامي / ٥٨.

- ١٣٦ -

وثيابها، وإنّي لأميل إلى الرأي الثاني، لأن الشاعر أراد اتمام صورة "المرأة النموذج" التي يجب أن تكون عليه المرأة خاصته، فهي بالإضافة إلى ما ذكر من صفات جسدية ومعنوية أرادها أن تكون معطّاراً ذات رائحة طيبة، تهزم بأنافتها ولباسها وتشكيل شعرها وترتيبه. والدليل على أن ما كان منهم لم يكن من باب وصف الواقع فقط أن هذا الكم الهائل من أنواع العطور لم يقتصر على البيئات الغنية والمترفّة وإنما وجد حتى في البيئات ذات الفقر الشديد والبعيدة عن الترف والحضارة، فهذا لم يمنع الشاعر من أن يرسم صورة "المرأة النموذج" بعطرها وأنافتها. كما أرادها ونمّائها.

رابعاً الكحل والخضاب: عرفت المرأة الأموية الكحل والخضاب واستخدمته في إظهار جمال عينيها، خاصة وأن الرجل قد أحبّ المرأة الكحلّاء وجعل هذه الصفة من صفات الجمال المهمة عنده. فاكتحلت المرأة بالإثمد وهي مادة مأخوذة من حجر أسود يسحق قبل استعماله.

فسال عمر، بصف دموع صاحبتّه التي اختلطت بالإثمد:

فجاءت تهادى على رقبتي من الخوف أحشاؤها ترعدُ
وكفّت سوابق من عبرةٍ على الخدّ جال بها الإثمدُ^(١)

وكانت صورة الدموع المختلطة بالكحل من الصور المثيرة عند الشعراء، فتناولها غير واحد منهم. فقال الأحموس:

وقد عجبت لما قالت بذي سلمٍ ودمعها بسحبيل الكحل يطردُ^(٢)

واستخدم الكحل في الصورة الشعرية حيث وقع مشبهاً به خاصة في الحديث عن الأطلال والظعن. قال عديّ بن الرقاع مشبهاً رماد أطلال صاحبتّه بكحل العين:

موضع الأنضاد لأباً ما يرى ورمادٌ مثل كحل العين هساب^(٣)

وقال الفرزدق:

تسرى بين أحجارها للرماد د كنفض السحب من الإثمد^(٤)

(١) ديوانه / ٣١٠.

(٢) ديوانه / ٥٢ / وانظر كذلك ديوان عمر بن أبي ربيعة / ص ٢٣٦، ٢٣٤ / وديوان جرير / ج ١ / ٨.

(٣) ديوانه / ٤٢. نضد: جمعه أنضاد، وهو ما ينفد من المتاع.

(٤) ديوانه / ١٥٥.

- ١٣٧ -

ويعتبر الكحل من وسائل الزينة المهمة عند العرب منذ القديم. وشجع الإسلام هذه الوسيلة فرأى فيه الرسول الكريم فائدة كبيرة لأنه يجلو البصر، وكثيراً ما أوصى الآباء بناتهم به باعتباره أزين الزينة على حد قولهم. (١)

ولم يكن الكحل هو الوسيلة الوحيدة لتزيين العين بل كانت المرأة تقوم كذلك بالاعتناء بحاجبها وجعلها على صورة مخصوصة. قال عمر بن أبي ربيعة:

وَجَبِينِ وَحَاجِبٍ لَمْ يَصْبُهُ نَتَفَّ خَطٌّ كَأَنَّهُ خَطُّ نُونٍ (٢)

يعني بذلك ما يتشكل عن تقوس الحاجب مع العين.

أما الخضاب فهو ما يَخْضَبُ به من حنّاء وكَنَم ونحوه. (٣) وهذا ما يكون غالباً للشعر لأنه يزيد سواداً ونعومة.

قال العَرَجِي مشيراً إلى أن الحنّاء والكَنَم من وسائل الزينة:

حَنَى أَوْبُسْتُ إِلَى نَرَائِهَا مِنْ زَيْهَا الْحَلْيُ وَالْحَنَاءُ وَالْكَنَمُ (٤)

وقد أكثروا من الإشارة إلى الأطراف المخضوبة. قال عروة بن أذينة:

فَتَنَاولْتُ رَأْسِي لَتَعْرِفَ مَسَّهُ بِمَخَضَّبِ الْأَطْرَافِ غَيْرِ مُشْنَجٍ (٥)

وأشاروا كذلك إلى الكفّ المخضوبة قال أبو دهيل:

وَكَفِّ كَهْدَابِ الدَّمَقْسِ لَطِيفَةٍ بِهَا دُوسُ حَنَاءٍ حَدِيثٍ مُضَرَّجٍ (٦)

ولم يكن خضاب الشعر هو الوسيلة الوحيدة الخاصة بزينة الشعر عند المرأة الأموية، بل كانت تقوم بتطيبه ودهنه بالدهن الخاص به، ولعل قيمة الطيب تبدو في رائحته الطبية المنبعثة منه، وكذلك في عملية لمعان الشعر نتيجة لدهنه بأنواع مخصوصة من الدهن. ولبس هذا فحسب، بل أكثر الشعراء من إظهار كثرة هذا الطيب وإتقان المرأة لعملية التطيب نفسها بحيث أنها تعلّ متون الشعر إلى أن تصل به إلى جلدة الرأس. كما في قول القطامي:

(١) عيون الأخبار / ج ٤ / ٧٧.

(٢) ديوانه / ٢٩٦.

(٣) اللسان (خضب).

(٤) ديوانه / ٦.

(٥) ديوانه / ٤٠٩ / وانظر كذلك ديوان الراعي / ١٠٢.

(٦) ديوانه / ٥٧. الدرس: المراد به التزيين. مضرّج: مصبوغ.

رَجُلٌ تَعْلُ أَصُولُهُ الْأَدَهَانَا (١)

وترى النعيمَ على مفارقٍ فاجِمٍ

ومثله قول المتوكسل اللبثي:

وَأَسَحَمَ مَجَاجِ الدَّهَانِ كَأَنَّهُ
بِأَبْدِي النِّسَاءِ الْمَاسِطَاتِ مِثَالِي (٢)

ويشير البيت السابق كذلك إلى فضبة تسريح الشعر أو تمشيطه بطرق مختلفة، فقد جعل المتوكسل شعر محبوبته على شكل مِثَالٍ أي أطراف الزمام. أما عروة بن أذينة فقد جعله مرة مسترسلا دانياً ومرة على شكل غداثر. قال:

لَهَا وَارِدٌ دَانٍ عَلَى جِيدٍ ظَبِيَّةٍ
بَسَائِلِي مِثْلَ عَفْرِ ذُنَابُهَا (٣)
وقال:

وَعُدَايِرُ سَوْدٍ لَهَا وَمَقْلَدٌ
بِضِّ نَرَايِيهِ بَنِيْفٌ شِكَاْلَهَا (٤)

ويبدو أن محبوبه عروة بن أذينة كانت تنوع في طريقة تسريحة شعرها فمرة تجعله مسترسلا دانياً على عنق يشبه عنق ظبية مفزوعة في أرض سهلة ممتدة، وفي هذا إظهار لجمال المرأة شعراً وعنفاً معاً. ومرة تجعله على شكل ضفائر، مما يوحي بقدرتها على التعبير في شكلها حسبما نراه مناسباً، ومما يؤكد أنها المرأة ذاتها أنه أشار لها في القصيدة الأولى بسعيدة والثانية بسعدة.

أما محبوبه ذي الرمة، فكانت تطويه بالمداري وتسرحه:

وَذُو عَصْرٍ فَوْقَ الذَّنُوبِينَ مُسْبَلٌ
عَلَى الْبَانِ يَطْوِي بِالْمَدَارِي وَيَسْرَحُ (٥)
وقد جمع في العفاس على شكل "كبة". قال معن بن أوس:

وَوَحَفَ بَيْثِي فِي الْعَفَاصِ كَأَنَّهُ
عَلَيْهَا إِذَا دَنَيْتُ غَدَاثُهَا كَرَمٌ (٦)

(١) ديوانه / ٥٧.

(٢) ديوانه / ١٩٢.

(٣) ديوانه / ٢٦٢.

(٤) المصدر السابق / ١٤٢.

(٥) ديوانه / ج ٢ / ١٢٠١.

(٦) ديوانه / ٣٧. الوحف: الكثير. بئني: يردد. العفاس: الواحدة عقيصة وهو ما جمع من الشعر كهيلة الكبة.

أما شعر محبوبه عمر بن أبي ربيعة المرحل في العقاص فقد أشبه فنو النخلة المتكور. قال:

سبته بوحفٍ في العقاصِ مرَّجَلٌ أثبتَّ كفنو النخلةِ المتكورِ^(١)

ومن التشبيهات غير المحببة إلى النفس تشبيه الشعر بالحيات كما هو عند ذي الرمة في البيت التالي:

وأسحَمَ كالأسودِ مُسَكِّراً على المتنبِّين مُنْسَدِراً جُفَاً^(٢)

ومع كراهية هذه الصفة إلا أنه يبدو لي وصفاً واقعياً لشكل من أشكال نسريح الشعر معروف عند النساء ولا يزال موجوداً إلى وقتنا الحاضر.

وكان هناك نسوة يعملن على تمشيط المرأة سواء أكن في ذلك متخصصات يعملن بأجر كاللواتي نراهن في زمننا الحاضر أم كن من قريبات المرأة أو جواربها (كانه بأيدي الماشطات مثاني).

وقد ذكر صاحب الأغاني أن سكينه بنت الحسين كانت أحسن الناس شعراً؛ فكانت تصفف جمعتها لم ير أحسن منه. حتى عرف ذلك. فكانت تلك الجمعة تسمى السكينية. وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلاً قد صفف جمته السكينية جلده وحلقه.^(٣)

كما عرفت المرأة نوعاً من الشعر المستعار في مجالس الغناء فقد ذكر أن جميلة المغنية كانت تضع على رأسها وفرة شعر كما كانت تضع مثلها على رؤوس ضيوفها. كما ذكر في أخبارها أيضاً أنها كانت تجعل على رؤوس جواربها شعوراً مسدلة كالعناقيد إلى أعجازهن.^(٤)

(١) ديوانه / ١٠٤.

(٢) ديوانه / ج ٣ / ١٥٢٠.

(٣) الأغاني / ج ١٦ / ص ١٤٤.

(٤) المصدر السابق / ج ٨ / ٢٢٧.

وهكذا كانت المرأة تستشعر نوعها أنثى. فلم تكتفِ بالجمال الأنثوي الذي أبدعه الله في هيئة خاصة تعجب أصحاب الأذواق الرفيعة وبخاصة أذواق الرجال. ولكنها أيضاً خدمت جمالها هذا وهيأت له من اللباس ما يبرزه ويحافظ عليه، واتخذت من العطور ما يبعثه فواح الرائحة دائماً. كما اهتمت بجمال شعرها أيضاً فتكلفته له أشكالاً تتناسب مع بقية أجزاء جسدها وخصوصاً الوجه والعنق؛ إن دلَّ هذا على شيء فإنما يدل على أن المرأة الأموية غالباً ما كانت مبالغة إلى استشعار أنوثتها مستفيدة مما جلبته لها الحضارة من أنواع الزينة والحليّ والعطور والثياب خدمة لجمالها وتمييزاً لنوعها.

الفصل الثاني

المرأة في الإطار الإنساني

المرأة في الإطار الإنساني

لقد أكثر الشعراء من الحديث عن المرأة في شعرهم لهذا العصر، وخاصة الحبيبة منها، والشعراء الأمويون ليسوا بدماء في ذلك، فقد أخذت المرأة الجاهلية من اهتمام شعراء عصرها هي الأخرى نصيباً كبيراً، إلا أن الاهتمام الملحوظ بالمرأة عند الشعراء الأمويين قد بلغ قدراً كبيراً، ليس فقط باحتلالها مقدمة القصائد التقليدية، أو وصف مشاعر الحب نحوها، أو وصفها جسدياً ومعنوياً وإنما نجد عدداً من الشعراء قد حفل شعره بل حياته أحياناً بالتغني بها وبجمالها وبحبها لها؛ ومن هؤلاء بعض شعراء الحجاز وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة.

وعمر بن أبي ربيعة هو أحد شعراء الحجاز الذين كان لهم شهرة واسعة في العصر الأموي، ولعل هذه الشهرة انبعثت من كون شعره مخالفاً إلى حد كبير لشعر سابقه. فهو أولاً من أوائل الشعراء الذين حفل شعرهم بالمرأة فلم يقل في أغراض الشعر الأخرى، وإنما كان موضوع شعره الغزل وهو ثانياً، لم ينهج في شعره نهج القصيدة العربية القديمة من وقوف على الأطلال، وحديث عن الطعن ثم النافذة. ولعل ذلك راجع إلى أسباب عديدة على رأسها أنه لم يقل في أغراض الشعر التي تحتاج إلى مثل هذه المقدمات، ثم إنه مكى ومن عليه القوم فيها وبالتالي فإنه عرف إلى حد كبير حياة الاستقرار وعابثها، ولم يعرف في حياته أطلالا وطمعاً وتغلات كذلك التي عرفت عند غيره من الشعراء، خاصة شعراء البادية، وما تلك الأطلال التي عالجها في بعض قصائده إلا نوع من الطلل النفسي يشير فيها إلى علاقة مع صاحبة من صاحبته تحولت إلى طلل في نفسه بانتهاء علاقته بها لرحيلها أو رحيل أهلها أو غير ذلك من الأسباب، وبعضها كان يمهّد بها للحديث عن علاقة كانت له في الماضي، ثم أصبحت في وقت قول القصيدة طللاً وذكرى. وإذا ما عرفنا أن شعر عمر قيل في معظمه لبغني أدركنا لماذا لم يعن بالمقدمات الطويلة في شعره.

وشعر عمر بن أبي ربيعة يمكن تقسيمه إلى نموذجين كبيرين:-

الأول: هو ذلك الشعر الذي قاله يصف مغامرة عاطفية مع واحدة من نساء عصره سواء كانت هذه المغامرة بدعوة من المرأة أو برغبة منه.

الثاني: هو ذلك الشعر الذي لم يظن له كثيرون ممن درسوا شعر عمر وفصروه على

النوع الأول أو ما يشبهه. وأعني به الشعر العذري الذي يبدو فيه مثل غيره من الشعراء العذريين رغم عدم قصره على واحدة، كما هو الحال عند كثير عزة وجميل صاحب بئنة وغيرهما.

فأما النموذج الأول، فتتجلى فيه عناصر ثلاثة، وهي الشاعر (الرجل)، والمرأة، والمجتمع. فأما الشاعر فهو يبدو رجلاً مفتوناً بالجمال يتبعه حيثما وجده، ويغامر في سبيل الوصول إليه، وبصوّر نفسه فيه محبوباً مرغوباً فيه عند النساء، فهو يتمتع بشكل جميل، فارس، من أسرة عريقة، وغنية، وذات مكانة اجتماعية، شاعر بطري النساء في شعره، ويرضيهن بمدحه لهن، وذكر صفاتهن الجمالية ويبدو لبقاً في التعامل معهن، مع كثرة مغامراته، وملاحقته لهن.

قال يصف إحداهن وهي تبكي وجداً به، وتشكو شدة حبها له:

هَاجَ حَزَنَ الْقَلْبِ مِنْهَا طَائِفٌ	وَهُمُومٌ حَاضِرَاتٍ وَذِكْرٌ
وَمَقَالَ الْخُودِ لَمَّا وَاجَهْتَ	جِهَةَ الرِّكْبِ وَعَيْنَاهَا دِرَرْ
بَا أَبَا الْخَطَّابِ مَا جَسَمْتَنَا	حِجَّةً فِيهَا عَنَاءٌ وَسَهَرٌ
بَعْدَ بَرِّ اللَّهِ إِلَّا نَظَرَةً	مَنْكُم لَيْسَ لَهَا عِنْدِي خَطَرٌ
قُلْتُ: مَا جَسَمْتَنَا مِنْ حُبِّكُمْ	بَا ابْنَةَ الْخَبَرِ بَيْنِ أَدهَى وَأُمُرٍ (١)

وقال في أخرى محبة له، وتطمع في زيارته، وإذا شعرت بأنه سيتأخر عنها لا

تثبت أن تشق ثوبها قهراً وحزناً:

ذَكَرَ الرِّبَابَ - وَكَانَ قَدْ هَجَرَ	ذَكَرَى قُرْبِيَّةً - أَحْدَثَتْ وَطَرَ
وَلَهَا بِأَعْلَى الْخَيْفِ مَنَزَلَةً	هَاجَتْ لَهُ شَوْقاً كَمَا صَبَرَ
وَالْبُرْدَ بَيْنَ الْحَلَّتَيْنِ بِهِ	تَجَنَّنَ مِمَّنْ طَسَافَ أَوْ نَظَرَ
قَالَتْ لِتَرْبِهَا: بِعَمْرِكَ مَا	هَلْ تَطْمَعَانِ بِأَنْ نَرَى عُمَرَا؟
إِنِّي كَأَنَّ النَّفْسَ مَوْجِسَةً	وَلِذَاكَ أَطْمَعُ أَنَّهُ حَضَرَ
فَأَجَابَتْهَا فِي مَهَازِلِكِ	وَأَسْرَتْنَا مِنْ قَوْلِهَا سَخَرَا
إِنَّا لَعَمْرُكَ مَا نَخَافُ، وَمَا	نَرْجُو زِيَارَةَ زَائِرٍ ظَهَرَ
لَوْ كَانَ يَأْتِينَا مَجَاهِرَةً	فِيْمَنْ نَرِيْن إِذَا لَقَدْ شَهَرَ
قَالَتْ لَهَا الصَّغْرَى وَفَدَ حَلَفَتْ	بِاللَّهِ لَا بِأَتِيَكُمَا شَهَرَا
فَتَنَفَّسَتْ صَعُوداً لِحَلْفَتِهَا	وَهَوَتْ فَشَقَّتْ جَيْبَهَا فَطَرَا

-١٤٤-

وَجَسَرْتُ مَا فِيهَا بِأَدْمَعِهَا جَزَعًا وَقَالَتْ: حَبِّ مَنْ ذَكِيرًا
بَا رَبِّ إِنِّي قَدْ شَغِفْتُ بِهِ أَعْقِبَ فَوَادِي مِنْهُمْ صَبْرًا^(١)

أما المرأة في هذا النموذج، فهي -في الغالب- من أسرة عريقة، ومن بنات العائلات الحجازية المرموقة، وهذا أمر طبيعي لأن الشاعر في واقعه يتعامل مع هذا المستوى من النساء فهن إما فريباته، وإما من وسطه الاجتماعي، ولكن يجب أن ننتبه إلى عدم دقة المقولة التي تقول: إنه لم يتنزل إلا في الحرائر وفي بنات الطبقة العليا في المجتمع، فقد تنزل بعدد من الجواري والقيان، ومنهن أسماء والبعوم وجارية ابن ماجة، وسأعرض لغزله هذا في الفصل الذي سأحدث فيه عن الجواري والقيان، أيضاً هناك عدد كبير من أسماء النساء في شعره لا نعرف عنهن تاريخياً شيئاً، فقد يكن من غير الحرائر أو من غير وسطه الاجتماعي.

وهو بصور المرأة التي يتنزل بها غنية، مرفقة، منعمة، مخدومة تسكن القصور، وترفل في الثياب الفاخرة، وروائح العطر تنبعث منها ومن الأماكن التي تنزل فيها، وهي جميلة، ومثقلة بأنواع الجواهر والحلي، ولا شك أن كثيراً من هذه الصفات تنطبق على نساء الطبقة العليا في الحجاز بسبب الغنى الكبير الذي كان يتمتع به أولو أمورهن من آباء وأزواج.

ومن نسائه أولئك (نعم) التي وصفها بأنها امرأة منعمة، مخدومة لها وال كفاها كل ما تحتاج إليه:

وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا ظِلُّ غُرْفَةٍ وَرَبَّانٍ مَلْنَفُ الْحَدَائِقِ أَخْضَرُ
وَوَالٍ كَفَاهَا كُلَّ شَيْءٍ بِهِمُّهَا فَلَبِستُ لَشَيْءٍ آخَرَ اللَّيْلِ تَسْهَرُ^(٢)

وقال في ثابته:

ضَرَبُوا حُمَرَ الْقِيَابِ لَهَا وَأَحْبَطَتْ حَوْلَهَا الْحَجَرَ
فَطَرَقْتُ الْحَيَّ مَكْتَنِمًا وَمَعِيَ عَضْبٌ بِهِ أَثَرُ
فَإِذَا رَبِّمَّ عَلَى مُهْدٍ فِي حِجَالِ الْخَرِّ مُسْتَنِيرُ
بِسَادِنٍ نَجَلُو مَفْجَسَةً عَذْبَةً غَرًّا لَهَا أَشَرُ

(١) ديوانه / ١٥٥-١٥٦.

(٢) ديوانه / ٩٥.

فهذا الوالي الذي كفاها كل شيء، وهذا الفصر الضخم الذي تعيش فيه حياة مرهقة وناعمة، لم يوفرا لها كما يبدو كل ما تحتاجه من حيث كونها إنسانة فهي لا تتمتع بكثير مسن جوانب شخصيتها الإنسانية، فهي غير مستقلة وإنما تعتمد على غيرها في النفقة ومظاهر الفنى السابقة. التي هي في ظاهرها لصالح المرأة، لكنها كما يبدو لبست كذلك مع هذه المرأة لأنها لا تشعر بإنسانيتها، فقيمتها الإنسانية الحقيقية تختفي وراء هذه الأمور الضخمة من حولها، لذا لا تلبث أن تنقلت من هذه الأسوار. وتحاول أن تأخذ قسطاً من الحرية التي تحقق فيها لنفسها شيئاً مما يرضى ذاتها، فهي بذلك كأنما تحقق لنفسها قدراً خفيضاً من الإرادة تمارس به جانباً من شخصيتها الخاصة، وهي بهذا القدر الخفيض تستقبل صاحبها.

وإذا كان هذا وضع المرأة ابنة الطبقة العالية. فكيف بغيرها من نساء الطبقات الأخرى.

والطرف الثالث في هذا النموذج، وهو المجتمع الحجازي، فالشاعر بصورة وقد سمح ببعض الحرية للمرأة حيث كانت تخرج للحياة، وتنتزه في المنتزهات، وتلتقي الرجال في مواسم الحج، وبعض مجالس الغناء، أو في ندوات الشعر التي تعقد في بيئتها، وتستقبل فيها الشعراء والمغنين. وهو، وإن تجاوز عن ذكر بعض النساء في شعر الشعراء أحياناً فإنه مازال بشكل عام يسور حياة المرأة بسور شديد. بل قل بأسوار ضخمة من الممنوعات التي لا يسمح لها ولا للرجل الذي تحب بتجاوزها. قال عمر يصف حاله مع ابن عم صاحبه الذي لا يسمح له بالإلمام ببيئتها. لذا يراه يتمر وبسر له الشحناء ويظهر له البغض وهو يرصد كل حركاته.

إِذَا زَرْتِ نَعْمًا لَمْ يَزَلْ ذُو قَرَابَةٍ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ أَلَمَ بِبَيْتِهَا
أَلْكُنِيَ إِلَيْهَا بِالسَّلَامِ فَإِنَّهُ
لَهَا كَلِمًا لَا فَيْتَسُهَا يَنْمَرُ
بُسْرًا لِي الشُّحْنَاءُ، وَالْبِفَضِ يَظْهَرُ
بُشَهْرًا إِلْمَامِي بِسُهَا وَيَنْكَرُ^(٢)

(۱) دیوانہ / ۱۶۰.

(۲) دیوانہ / ۹۲.

فأين العم هنا أو القريب بشكل عام يمثل أحد هذه الأسوار الضخمة التي تحيط بالمرأة، فهي لا تترك لتختار من تريد، وترد من لا تريد وإنما يفعل ذلك أقرباؤها عنها. إذ كل واحد منهم هو بمثابة الوصي عليها بحميها، ربما لأنه لا يثق بقدرتها على حماية نفسها، فهي مازالت تعامل على أنها أقل من أن تدافع عن نفسها، لأنها لا تتناول أمور الحياة بنفسها باعتبارها راشدة، بل باعتبارها سجين في الأسرة والمجتمع.

ومع أن الشاعر يبدو وكأنه يحاول مساعدتها لتحقيق بعض إنسانيتها، إلا أنه لا يزال هو الآخر خائفاً من المجتمع، قلقاً من الظهور جبهة بلقائها ويتجلى خوفه من المجتمع وحذره من خلال أبياته التالية:

وليلة ذي دُوران جشمي السرى	وقد يجشم الهول المحب المغرر
فبت رقيباً للرفاق على شفا	أحاذر منهم من بطوف وانطسّر
إلهم منى يستمكن النوم منهم	ولي مجلس، لولا اللبنة، أو عر
وبانت قلوصي بالعراء ورخلها	لطارق ليل أو لمين جاء مغور
وبت أناجي النفس أين خباؤها	وكيف لما آني من الأمر مصدّر؟
فدلّ عليها القلب رباً عرفتها	لها، وهوى النفس الذي كاد بظهر
فلما فقتت الصوت منهم وأطفئت	مصايح شبّت بالعشاء وأنور
وغاب فمير كنت أهوى غيوبة	وروح رعبان، ونوم سم
وخفضت عني الصوت أقبلت مشية الحباب	وشخصي خشيّة الحيّ أزور ^(١)

فلا شك أن الشاعر يحاول أن يوظف كل شيء من حوله ليبيدي لنا مدى الحذر من هذه المغامرة "فبت رقيباً للزمان، يستمكن النوم منهم. أطفئت مصايح بالعشاء وأنور، وغاب فمير" وكذلك في استخدامه صيغة المبالغة "فقلّ روح رعبان، ونوم سم، فهو من شدة حذره وخوفه يحاول في الوقت المناسب الذي يضمن له النجاح في مغامرته دون أن يعرض نفسه لسخط المجتمع الذي لا يزال يحذره الشاعر حذراً كبيراً. وهو مجتمع يرفض مثل هذه المغامرات ويتشدد فيها، رغم كل ما ذكر عنه بأنه كان منفتحاً، وكانت المرأة فيه منحررة إلى حدّ كبير. ولعلّ ما قبل فيه هو من باب التحرر النسبي مقارنة بالمجتمع العراقي أو مجتمع البادية الذي ما يزال أكثر تشدداً، وأكثر رفضاً لحرية المرأة؛ فكثير من الدراسات التي صورت انفتاح المجتمع الحجازي وحرية المرأة الكبيرة، وفدرة

-١٤٧-

الرجال لتجاوز كثير من الأسوار فد بالغت كثيراً في ذلك، فهو ما يزال مجتمعاً فيه قدر من البداوة (روح رعيان) ولم يصل إلى المستوى الذي تحدث عنه من المدنية أو الحضارة والتي من الممكن أن تعطي أفرادها مزيداً من الحرية. بحيث يبدو فيه الشاعر أقل خوفاً، وأقل حذراً من خطر القبض عليه عند ذهابه لزيارة صاحبه، بل لعله على الأقل يذهب يمشي مشية عادية لا مشية الحباب كما يقول عمر. وقد صور هذا الموقف في قصائد كثيرة. (١) منها قوله:

فَأَتَيْتُهُمْ عِنْدَ الْعِشَاءِ مَخَاطِرًا حَذَرَ الْأَنْبِيسِ وَلَيْسَ شَيْئاً يَسْمَعُ
أَقْبَلْتُ أَخْفِي مِشْبَتِي مُتَقَنِّعًا وَأَخُو الْخَفَاءِ إِذَا مَشَى بَتَقْنَعٍ (٢)

وليس هو فقط الذي يخاف المجتمع ويحذره، ففتاته هي الأخرى كذلك، لذا هي تناجاً بمقدمه، وتخاف، وتبدأ بالولولة، ثم لا تلبث أن نهضاً، ويظهر منها الرضى. قال:

فَحَبِيتُ إِذَا فَاجَأَتْهَا، فَتَوَلَّهَتْ، وَكَادَتْ بِمَخْفُوضِ التَّحِيَّةِ تَجْهَرُ
وَقَالَتْ وَعَضْتُ بِالْبَنَانِ: فَضَحْتَنِي وَأَنْتَ امْرُؤٌ مَيْسُورٌ أَمْرِكَ أَعْسَرُ
أَرْبَتَكَ إِذْ هَتَأَ عَلَيْكَ أَلَمٌ تَخَفَ وَقَبِيتَ وَحَوْلِي مَسْنٍ عَدُوكَ حُضَّرُ؟
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي: أَنْعَجِلُ حَاجَةً سَرَرْتُ بِكَ أَمْ قَدْ نَامَ مِنْ كُنْتُ تَحْذَرُ
فَقُلْتُ لَهَا بَلْ قَادَنِي الشَّوْقُ وَالْهَوَى إِلَيْكَ، وَمَا نَفْسٌ مِنَ النَّاسِ تَشْعُرُ
فَقَالَتْ وَقَدْ لَانَتْ وَأَفْرَحَ رَوْعَهَا: كَلَّاكَ بِحُضْرٍ رَبُّكَ الْمُنْكَبِّرُ
فَأَنْتَ أَبَا الْخَطَّابِ، غَيْرَ مَدَافِعٍ عَلَيَّ أَمِيرٌ مِمَّا مَكُنْتَ مُؤَمَّرُ (٣)

فما كانت المرأة لتتخذ من زيارة صاحبها هذا الموقف مع رغبتها فيها (وكادت بمخفوض التحية تجهر) إلا لخوفها من انكشاف أمرها، وتعرض نفسها وصاحبها للخطر، لذا ما لبثت أن لانت وأفرح روعها عندما علمت بأن أحداً لم يلحظ زيارة الشاعر لها، وكان من الممكن أن تفعل عكس هذا لو لم تطمئن إلى أنه كان حذراً في زيارته لها، كان من الممكن أن تناجاً به وأن تلطم وجهها وتتهمه بأنه فعل ذلك قصد الإساءة إليها لأنه لم يحسب لعواقب الأمور حساباً. كل هذا مع رغبتها الأكيدة في زيارته لها. قال مصوراً حالتها الأخيرة هذه:

(١) انظر المقطوعات ذات الأرقام ٦-١٦-٢٣-٤١-٦٣-٨٩-١٤٦-١٦٠-١٨١-١٨٧...

(٢) ديوانه / ١٨٧.

(٣) ديوانه / ٩٦-٩٧.

إلا سواداً وراء البيت يستتير
بيضاء أنسة من شأنها الخفر
وقد رأى كثرة الأعداء إذ حضروا
وشؤم جدّي، وحين ساقه القدر
وصرم حبلّي ونحقيق الذي ذكروا
ولم نَجَلْ إلى أن بسطَ القمَرُ (١)

فلم يرعها وقد نضت مجاسدها
فلطمت وجهها واستنبتت معها
ما باله حين يأتي، أخت، منزلنا
لشقوة من شقائي، أخت، غفلتنا
قالت: أردت بهذا عمداً فضيحتنا
هلا دسست رسولا منك بعلمي

ثم تنتهي هذه المغامرة بمثل ما بدأت به من الخوف والحذر، إذ غالباً ما بطلع
الضجر ويبدأ المجتمع بالنهوض، وهو مازال عندها، وتبدو الخشية من الفضحبة عند المرأة
أكبر، فتراها تكي وتولول خائفة، ولكن سرعان ما تجد الحل المناسب، من ذات نفسها
أو بمساعدة اخوانها وهو حل يبدو أكثر حكمة من حل الرجل الشاعر الذي يظهر فيه
الاندفاع وعدم التعقل حيث بنوي مواجهة قومها بالسيف:

وكادت نوالي نجميه تتغور
هَيُوبٌ، ولكن موعدك عِزُّور
وقد لاح معروف من الصبح أسفر
وأبفاظهم قالت: أشر كيف تأمر
وإما ينسال السيف نأراً فينأر
علينا، ونصديقاً لما كان يؤثر؟
من الأمر أدنى للخفاء وأسئر
ومالي من أن تعلمتا متأخر
وأن ترحبا سرباً بما كنت أحصر (٢)

فلما تقضى الليل إلا أفله
أشارت بأن الحي قد حان منهم
فما راعنسي إلا مناد: ترحلوا
فلما رأت من فد تنبه منهم
فقلت: أباديهم، فإما أفوتهم
فقالت: أنحفيقاً لما قال كاشح
فإن كان ما لا بد منه فغيره
أفص على أختي بدء حديثنا
لعلهما أن تطلباً لك مخرجاً

ويخرج من عندها بصورة متكررة إذ يلبس لباس نساء، وذلك حسب مشورة
الأخت الصغرى:

من الحزن، تدري عيرة تتحدر
كساآن من خز ديمقس وأخضر
أتى زائراً، والأمر للأمر بقدر

فقامت كئيباً ليس فسي وجهها دم
فقامت إليها حرتان عليهما
فقالت لأختيها: أعينا على فني

(١) ديوانه / ١١٤-١١٥.

(٢) ديوانه / ٩٨-٩٩.

فَأَقْبَلَتَا. فَارْتَاعَنَا، ثُمَّ قَالَتَا: أَقْلِي عَلَيْكَ اللُّومَ فَالْخَطْبُ أَيْسَرُ
فَقَالَتْ لَهَا الصَّغْرَى: سَاعَظْهُ مَطْرَكِي وَدِرْعِي. وَهَذَا الْبُرْدُ إِنْ كَانَ بِحَذَرٍ
بِقَوْمٍ فَيَمِشِي بَيْنَنَا مَتَنَكِّسًا فَلَائِي سِرْنَا بِغُشُو، وَلَا هُوَ بَظْهَرُ (١)

ولكنه لا ينجو من لوم الأخنتين وتغنيدهما للأمر. إذ هن لم يمررن بالتجربة ذاتها. وبالتالي لم يكونا معها تماماً. ومبادرتهما في تقديم العون كانت جزئية. قال:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ قُلْنَ لِي أَمَا تَنْقِي الْأَعْدَاءَ وَاللَّيْلُ مَقْمَرُ؟
وَقُلْنَ: أَهَذَا دَابُّكَ الدَّهْرَ سَادِرًا؟ أَمَا تَسْخِي أَوْ نَرَعُو أَوْ تَفْكَرُ (٢)

وكثيراً ما بصور عمر المرأة هي المبادرة، ترسل له للالتقاء بها وذلك عن طريق جاريتها، أو رسالة خطية منها، أو بطرق أخرى مختلفة، فيلبي دعوتها ويلهوان معاً. وهي في أثناء ذلك تطلب إليه أن يكون حذراً. قال:

دَسْتُ إِلَيَّ رَسُولًا لَا تَكُنْ فَرَقًا وَاحْذَرُ وَقَبْتَ وَأَمَرُ الْحَازِمِ الْحَذَرُ
إِنِّي سَمِعْتُ رَجُلًا مِنْ ذَوِي رَحِمِي هُمُ الْعَدُوُّ بَظْهَرِ الْغَيْبِ فَسَدَ نَذَرُوا
أَنْ يَغْتَلَّوكَ وَفَاكَ الْفَتْلُ قَادَرُهُ وَاللَّهُ جَارَكَ مِمَّا أَجْمَعَ النَّفَرُ
السَّرُّ بِكُتْمِهِ الْإِثْنَانُ بَيْنَهُمَا وَكُلُّ سَرٍّ عَدَا الْإِثْنَيْنِ مُنْشِيرُ
وَالْمَرَّةُ إِنْ هُوَ لَمْ يَرْفَبْ بِصَبُونِهِ لَمَحَ الْعَيْسُونَ بِسُوءِ الظَّنِّ يَشْتَهَرُ (٣)

فالمرأة هنا تبدو جريئة جداً في دعوتها لصاحبها رغم ما سمعت من تهديد بني قومها له بالقتل، ولكنها ما زالت حذرة، لذا تطلب إليه أن يلتزم أقصى درجات الحذر. وقد تطلب إليه أن يزورها على ظهر بغلة بدلا من الفرس، لأن صهيل الفرس قد يكشف وجوده عندها.

وَمَا أُنْسَ لَا أُنْسَ مِنْ قَوْلِهَا غَدَاةٌ مِنِّي إِذْ أَجَدَّ الْمَسِيرُ
أَلَمْ نَرَ أَنَّكَ مَسْتَشْهَدُ وَأَنَّ عَدُوَّكَ حَوْلِي كَثِيرُ
فَلِنْ جِئْتَ فَاتٍ عَلَى بَغْلَةٍ فَلَيْسَ يَوَاتِسِي الْحَفَاءَ الْبَعِيرُ (٤)

وقد تكون دعوتها له للهو ومناشدة الشعر كما في قوله على لسانها:
فَالَتْ: لَوْ أَنَّ أَبَا الْخَطَّابِ وَافَقَنَا فَنَلَهُو الْيَوْمَ أَوْ نَنشُدُ أَشْعَارًا (٥)

(١) ديوانه / ٩٩-١٠٠.

(٢) ديوانه / ١٠٠.

(٣) ديوانه / ١١٣.

(٤) ديوانه / ١٣١-١٣٢.

(٥) ديوانه / ١٢١.

وقد نرسل إليه لمعاته في أمر من الأمور كتشهيره بها في شعره مثلاً. (١)

وهي في هذا كله نطلب إليه الحذر الشديد، وتوصيه بضرورة التزام خطة سائرة للالتقاء بها، وفي هذا تأكيد آخر أن المجتمع كان ما يزال محافظاً لا يعطي المرأة من الحرية إلا النزر اليسير.

وسطوة المجتمع هذه أحسها غير واحد من شعراء الحجاز في العصر الأموي حتى وإن انشغلوا بقضايا أخرى تهمهم أكثر، فابن قيس الرقيات يلقي مع عمر بن أبي ربيعة في طبيعة الحديث عن المرأة وكذلك في نوع المرأة التي يذكرها في شعره، فهي الأخرى غنية، مترفة، منعمة، عطرة، مخدومة، وقد تناول في بعض قصائده صورة المرأة المبادرة التي ندعوه للالتقاء بها، ويبدو هو وإياها في حذر شديد وخوف من المجتمع. قال:

قالت لمولانا: اذهبي فسلي	إن كان قبل الرواح منطلقا
هل بأنينا الفتى تعانبه	ولو أتانا الرواح ما خرقا
لما أتاني الرسول مكتنما	أقبلت أمشي والنجم قد خففا
شئت بردي لها وشيئني	قلب إذا كان مشهد صدقا (٢)

وكذلك الأصوص في قوله:

خمسن دسسن إلي في لطف	حور العيون نواعم زهرو
فطرفت مع الجري وقد	نام الرقيب وحلق النسر
مستبطناً للحسي إن فرعوا	عضبا بلوح بمنته أشرو (٣)

ولقد استمر المجتمع على ما هو في عصر العرجي، المتأخر بعض الشيء، وأكثر من هذا الشعر الذي يبدو فيه حذراً من المجتمع خائفاً منه. فقد رأي أنه يسور حياته وحياة المرأة من حوله بأسوار شديدة من الصعب تجاوزها، رغم ما قد يبدي من بعض التسامح من التقاء الرجال بالنساء مقارنة بغيره من المجتمعات، وقد أكثر العرجي من شعره هذا كثرة تقارب ما كان عند عمر بن أبي ربيعة، وذلك ربما للنشابة بين حياه كل من الشعارين من حيث الغنى، والمكانة الاجتماعية... إلى غير ذلك من أمور جمعت بينهما. وساكتفي بمثال واحد قال:

(١) ديوانه / ٢٦٤.

(٢) ديوانه / ٦٨.

(٣) ديوانه / ٨٤.

فَلِلَّيْلِ عُبْنًا مَن رَأَى مِثْلَ مَجْلَسٍ
لَقِيتَ بِهِ سَرَبًا تَنْظُرُنَ مَوْعِدِي
فَبَعَثَ بِسَاوِي الزَّعْفَرَانِ فَلَمْ أَرَمْ
وَحَتَّى بَدَتْ أُخْرَى النُّجُومِ وَبَاشَرْتُ
فَلَمَّا بَدَا جَرَسٌ مِنَ اللَّيْلِ وَاحْتَوَتْ
فَقَعْتُ إِلَى طَرَفٍ مِنَ الْخَبْلِ لَمْ يَبِتْ
بُورْدَ كَسْبِدِ الْغَبْلِ ذِي مُبْعَثٍ لَهُ
فَلَا مَ شَمْلِي بَعْدَ مَا شَتَّ حِفْبَهُ
بَحُورٍ كَأَمْثَالِ الدَّمَى فَطَفَّ الْخَطَا

بِكُرْسَانٍ، أَسْقَاهُ الْغَمَامَ الرِّوَاعِيْدُ
وَقَدِّمًا وَقَتٌ مِنِّي لَهُنَّ الْمَوَاعِيْدُ
مَعَ الْقَوْمِ حَتَّى لَمْ تَخْفَنِي الْمَرَاصِيْدُ
خَدُودَ الرِّجَالِ لِلرَّفَادِ الْوَسَائِيْدُ
كَلَابِ الرِّعَاءِ الْمَوْسِدَاتِ الْمَوَاقِيْدُ
مَذَا لَا وَلَمْ تَفْزِرْ عَلَيْهِ الْمَذَاوِدُ
إِذَا مَا جَرَى فِي الْخَبْلِ عَقَبٌ وَشَاهِدُ
بِهِنَّ، وَذُو الْأَضْغَانِ عَنْهُنَّ هَاجِدُ
لَهُوْنٍ، وَهَنَ الْمَحْصَنَاتُ الْخَرَائِيْدُ (١)

فما زال هذا المجتمع شديداً صارماً، وما زال الشاعر وكذلك المرأة يخافان ويضطرران إلى بذل أقصى جهدهما في التخفي تحت جناح الظلام وبعيداً عن العيون للالتقاء.

وإزاء هذا الوضع فإن المرأة الحجازية رغم ما كانت تملكه من الغنى وسعة العيش من قصور وحلي وجواهر وخدم... لم تكن تملك نفسها من حيث هي إنسانة ولم تستطع التعبير عن رغباتها الحقيقية أنها حرة فإنها لا تزال إلى حد كبير مملوكة لمن وقر لها هذا الغنى، وهذه الحياة، ذلك أن هذا المجتمع كان يجعل من شخصيتها شخصية التابع الذي يقبع في ظل متبوعه، وهو أمر يكاد يكون طبيعياً في المجتمعات التي تعتمد على الرجل وحده في الإنتاج فطالما هي غير منتجة فإنها تبقى تابعة لمن يوفر لها عناصر الحياة، وستبقى خاضعة له مهما حاولت التفلت من قبضته.

والنموذج الثاني للشعر الحجازي عامة، وشعر عمر بن أبي ربيعة خاصة، يمثل جزءاً كبيراً آخر من شعر عمر وشعراء الحجاز الآخرين هو شعر يكاد يشابه شعر العذريين من بني عذرة وغيرهم. إلا أنه عند عمر خاصة لا يلتزم امرأة واحدة فيه مثلهم بل تعددت عنده أسماء النساء. والمرأة في هذا النوع من الشعر تبدو صاحبة حضور كبير عند الشاعر، فهو يحبها حباً شديداً، ويتمنى لقاءها، ويسعى خلفها، لكنها تبدو متمنعة تصدّه كثيراً، أما هو، فتنبئها نفسه، ويقف على أطلالها، ويتذكر أيامه معها، ويذكر صفاتها حتى إنه يرى الموت أخف وطأة مما يكابده في حبها:

(١) ديوانه / ١١٧-١١٩. الموسدات: كلاب الصيد. سيد الغيل: ذئب الأجمة أو أسدها.

-١٥٢-

لَسْتُ مَطَاعاً أَبْهَ الْعَاذِلَ
وَحَبَّهَا لِي سَقَمٌ دَاخِلٌ
لَمْ يَلْقَهُ حَافٌ وَلَا نَاعِلٌ
لَا أَنَا مَوْصُولٌ وَلَا ذَاهِلٌ
أَكْرَهُ مِمَّا يُخْبِرُ السَّائِلُ
وَمَاتَ قَبْلَ الْمُتَنَفِّسِ وَاصِلُ^(١)

بَا أَبْهَ الْعَاذِلَ فِي حَبِّهَا
أَنْتَ صَحِيحٌ مِنْ جَوَى حَبِّهَا
إِنْ الَّذِي لَاقَيْتَ مِنْ حَبِّهَا
الْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةِ كَذَا
لَمَّا أَتَانِي فَائِلٌ بِالَّذِي
يَا لَيْتَنِي مَتَّ وَمَاتَ الْهَوَى

وكثيراً ما يبدأ الشاعر هذا النوع من الشعر بمقدمة طليعية يوضح فيها البعاد أو الجفاء من محبوبته، فعلافته بهذه المرأة وذكرياته معها أصبحت مثل هذه الأطلال الدارسة التي كانت من قبل عامرة بوجود أصحابها فيها. وكثيراً ما يذكر صفات المحبوبة في شعره هذا وكأنه يريد أن يقنع الآخرين ممن يلومونه على حبه لها أنها تستحق ذلك بما هي عليه من جمال؛ وهو في وقوفه على أطلالها يتذكر هذا الجمال فيصفه مفصلاً فيه في كثير من الأحيان.

وكثيراً ما كانت المرأة تصدّه لأنها لا تنفق به، فهي غير مطمئنة له لأنه غير متوجه توجهها صحيحاً، بل هو صاحب ملال وسأم:

قُلْتُ: فَإِنِّي هَائِمٌ
فَالَتْ: بَلْ أَنْتَ مَارِحٌ
لَسْنَا، وَإِنْ حَدَّثْنَا،
صَبَّ بِكُمْ مَكَايِفٌ
ذُو مَالٍ مُسْتَظَرَفٌ
يَغْرُنَا مَا تَخْلِفُ^(٢)

وليس هذا النمط من الشعر العفيف موجوداً عند عمر بن أبي ربيعة فقط. بل هو موجود بكثرة عند غيره من شعراء الحجاز. فشعر الحارث بن خالد المخزومي في ابنة عمه عائشة بنت طلحة هو أيضاً يعدّ من هذا النوع فقد أحبّ الحارث عائشة حباً شديداً كما يبدو وكان يكني عنها بجاريته بكرة أو بشرة حتى لا يسبب لها حرجاً في ذلك. وقد أكثر من الوقوف على أطلالها،^(٣) كما تحدث عن البين والفرق^(٤) وكثيراً ما زاره طيف بشرة. قال:

(١) ديوانه / ٣٤١-٣٤٢.

(٢) ديوانه / ٤٦٢.

(٣) انظر ديوانه / المخطوعات ذات الأرقام / ١٣-٣٥-٣٦-٤٢.

(٤) المصدر السابق/ انظر المخطوعة رقم ٢٠.

”لبشرة“ أسرى الطيف والخبث دونها وما بيننا من حزن أرض وببدها
 وفترت بها عيني وقد كنت قبلها كثيرا بكائي مشفقا من صدودها
 وبشرة خوذ مثل تمثال بيعه تظل النصارى حولها يوم عيدها (١)

وبحكم ظروف كل من الشاعر ومحبوبته قد يحدث الفراق وتنقطع حبال الوصل بين المحبين، وعندها يضطر المحبان إلى دفع البعد والحرمان عن طريق الطيف والخيال، لتلقي أطراف المحبين فتغلب على البعد ”وهو أمر مهم عند أهل الغرام بتوصل إليه بالمنام، وإنما ندعو إليه الحاجة عند طول النهجر وشدة الضجر، ومقاساة نار الملل والسهر“ (٢) وبالطيف ينجو المحبون من الضيق الذي يلزمهم في ذكر لوايح النفس وعواطف الحب، وأكثر ما يكون لقاء الأطياف في الليل إذ يحتل الليل مكانة مهمة جداً عند الشعراء خاصة المحرومين منهم من الوصال واللقاء، ففي الليل تسكن النفوس وتخلو لتتذكر الأحباب، وتشتد فيه عادة مشاعر الحب فتلتقط أطياف المحبوبة. رغم بعد المسافات، وصعوبة التضاريس الطبيعية التي يضطر لقطعها من مفاوز، وجبال شواهِق وصحار وفغار. وشعر الحارث بن خالد المخزومي في نسائه الأخريات لا يختلف كثيراً فهو في معظمه شعر تتدفق فيه العواطف الجياشة والمشاعر العذبة.

وللأحوص شعر كثير من مثل هذا النوع يصف فيه عواطفه التي يبدو فيها مثل كثير من الشعراء العذريين، (٣) وكذلك شعر عبيد الله بن قيس الرقيات الذي قاله في ابنة عمه رقية، كله بندرج تحت هذا النوع. (٤) أما العرجي فقد أكثر هو الآخر من هذا اللون من الشعر. (٥)

والمرأة في الشعر الحجازي عامة مازالت ملتزمة إلى درجة كبيرة بما أملت عليه تقاليد عصرها، حتى لو سمح لبعض النساء من أفراد الطبقة العليا في المجتمع بشيء من الحرية الشخصية أكثر مما حققته مثباتها في بيئات الشعر الأموي الأخرى، فهي مازالت غير فاردة على تجاوز ظروف عصرها وتقاليده، ولكنها تميزت في المجتمع بغناها

(١) ديوانه / ٥٩، الخبث: المتسع من بطون الأرض، البيعة: معبد النصارى.

(٢) داود الأنطاكي، تزيين الأسواق في أخبار العشاق / ط١ / دار حمد ومحيو - بيروت / ١٩٢٨ / ج٢ / ٤١٦.

(٣) انظر مثلاً القصائد ذات الأرقام ٩٧-١٠٨-١١٧-١٢٠-١٣١-١٣٣-١٦٥.

(٤) انظر القصائد ذات الأرقام / ٢٥-٣٣-٥٢-٧٣.

(٥) انظر القصائد ذات الأرقام ١١-١٢-١٥-١٩-٢٧-٢٨-٣٦-٣٩-٥٢-٥٧-٥٨-٥٩-٧٠.

وترفها وتنعيمها. فعكست لنا صورة هذا المجتمع المترف الذي حققت فيه المرأة كما حقق الرجل شيئاً من طيب الحياة ورغدها، مما انعكست آثاره على هذه العلاقة بين الرجل والمرأة. فقام الرجل برعاية المرأة وإشعارها بذاتها وقيمتها في حياته، وشعرت هي بهذه المكانة، فخدمتها بما أظهرته للرجل من جمال وزينة ودل، فساعدت الرجل الشاعر على تناول ذلك كله في شعره.

كما برز بعض الشعراء مثل ابن فيس الرقيات، والعرجي يتخذون من المرأة واجهة لتحقيق مآرب سياسية وسأعرض لذلك تفصيلاً في فصل قادم.

أما بوادي الحجاز فقد شاع فيها نوع من الغزل عرّف بالشعر العذري، وقد أكثر الكتاب والنقاد من تفسير هذا النوع من الشعر والبحث في أسباب وجوده، ثم خصائصه^(١) وخلاصة القول فيه: أن الشعر العذري موجود منذ العصر الجاهلي واستمر في العصور اللاحقة إلا أنه لم يبرز ظاهرة ملحوظة إلا في العصر الأموي، وكثرت التفسيرات لهذه الظاهرة فمنهم من ردها إلى أسباب دينية، ومنهم من ردها إلى أسباب سياسية أو اقتصادية أو غير ذلك. ولعل السبب الرئيسي الذي أراه وراء هذا النوع من الحب هو استعداد فردي ونفسي يكون عند الفرد ربما بالقطرة وربما بحكم ظروف التنشئة الأسرية أو البيئية وربما بهما معاً، فإذا توافر مثل هذا الاستعداد للإنسان يكون قادراً على الاقتصاد على امرأة واحدة يحبها حباً شديداً، وبقي لها عمره كله، وقد يبقى يتغنى بحبه لها بطرق مختلفة منها ما يظهر إن كان المحب شاعراً، ومنها ما لا يظهر بحكم الظروف التي تحيط به، أو بصاحبته وهو في أثناء ذلك يتحدث عن مشاعره وأشواقه، ويشكو البين والبأس من اللقاء... يعمق هذا الشعور عنده أن الظروف تمنعه من الزواج بصاحبته، وهو لا يستطيع الوصال معها بالطرق غير المشروعة سواء كان ذلك بسبب الوازع الديني، أو للظروف الاجتماعية، أو لعدم رغبته في افتتاح أمور تهدم حصنه من الأخلاق والمبادئ والمثل العليا، أو للأسباب السابقة مجتمعة.

ثم يأتي بعد ذلك دور الأسباب الأخرى التي جعلت هذا النوع من الغزل يظهر ظهوراً واضحاً في هذا الوقت ويشيع شيوعاً بيتاً في بادية الحجاز بشكل خاص. ولعل

(١) انظر كتاب تطور الغزل من الجاهلية إلى الإسلام لشكري فيصل، وكتاب الحب العذري لموسى خليل

سليمان، ونشأة الحب العذري للدكتور أحمد عبد الستار الجوّاري، وكتاب الغزل لسامي الدهان، وحديث

هذا يعود في أسبابه إلى طبيعة العصر الأموي. فعندما جاء الإسلام غير كثيراً من المفاهيم الدينية والاقتصادية والاجتماعية في المجتمع العربي، وقد اختلف مقدار الاستجابة لهذا التغيير من بيئة إلى أخرى، بل من شخص إلى آخر. ففي حين نرى بيئة الحجاز موطن الإسلام تتمتع بقدر كبير من الغنى بحكم ظروف كثيرة تحدثت عنها في التمهيد، نجد البيئات الأخرى كنجدة وبواديها لم ينلها من هذا الغنى إلا أقل القليل بينما تقع بوادي الحجاز بين بين في هذا الأمر. إن وقوع بوادي الحجاز بين الصحراء المدفوعة في الفقر، القاسية في ظروفها الطبيعية، وبين بيئة الحجاز الغنية جعلها تقف موقفاً متوسطاً أيضاً في تناول أمور الحضارة. وفي تأثرها في أمور المال والسياسة، فكل بيئة من بيئات العصر الأموي لجأت إلى نوع من الحياة يتناسب مع ظروفها الاقتصادية والسياسية. فهذه البيئة نادرة العطاء الاقتصادي، وحضور المرأة فيها من الندرة وغياب التكرار، وقلة النماذج يجعل الرجل حينما يظفر بجانب من العلاقة بينه وبين المرأة يرى في هذا الأمر عنصراً ثميناً يستحق أن يقصر حياته وفنه عليه، فهو يجد في المرأة شيئاً من إكسبير الحياة فيتمسك به، وربما كان هذا سر هذا النوع من الغزل.

اشتهر عدد من الشعراء في هذا المجال منهم عروة بن حزام، وهديبة بن الخشرم أستاذ جميل، وزبادة بن زيد، وعبيدالله بن قطبة، وأخوه جؤاس وهما من أهل بثينة صاحبة جميل الذي يُعدّ زعيم شعراء عصره في هذا النوع من الغزل.

اشتهر هؤلاء الشعراء بعنايتهم الكبيرة بالغزل، وقصر حياتهم وفنهم على امرأة واحدة يتفننون بها، ويبثونها مشاعر الحب والإعجاب، والشكوى والألم من تمنعها عليهم، والشكوى كذلك من المجتمع بوشاته وعذاله، والدهر بسبب تضيقه بين الأحبة إلى غير ذلك من الحديث عن مشاعر الحب والحرمان. وإذا ما أردنا النظر إلى صورة المرأة الإنسانية في هذا الشعر نجد أنها قد حققت لنفسها الكثير من المكانة النسبية والإنسانية، فاستمرار الشاعر سحابة حياته يتفنى بالمرأة وبحبه لها، فيه إشارة إلى اعتبار هؤلاء الشعراء المرأة إكسبير الحياة التي يستأهل أن يتمسك به تمسكه بالحياة ذاتها، ووجود امرأة مخصوصة من لحم ودم في حياة الشاعر وشعره يعني أنها بالنسبة له الحياة التي يحرص عليها، فحرصه على هذه المرأة وحبه لها كحرصه على الحياة نفسها وحبه لها. ووجود مثل هؤلاء الشعراء أو هؤلاء الرجال في الحياة فيه دعم كبير لقضية المرأة الإنسانية. وسأختار شعر جميل صاحب بثينة نموذجاً لهذا النوع من الشعر.

نبدو بثينة شخصية ناضجة في شعر جميل، لها موقف تدافع عنه، وتصر عليه.

فقد أظهرها لنا شعر جميل في أغلبه امرأة كانت ترفض أي علاقة مادية بينها وبينه.
قال:

تعالَي نبع في العام يا بَنُّ دِينَا بُدُنِيَا فَإِنَّا قَابِلًا سَنَتَوْبُ
فَقَالَتْ: لَعْنًا يَا جَمِيلَ نَبِيْعِهِ وَآجَالِنَا مِنْ دُونِ ذَلِكَ قَرِيبُ^(١)
وقال في مكان ثانٍ:

إِذَا قُلْتُ قَدْ جَادَتْ لَنَا بِنَوَالِهَا أَبْتُ نَمُ قَالَتْ: خُطَّةٌ لَا أَشَاؤُهَا^(٢)
وقال في مكان ثالث:

فَقُلْتُ لَهَا وَقَدْ غَلَبَ النَّعْزِيُّ: أَمَا يَقْضَى لَنَا يَا بَنُّ سَوْلُ؟
فَقَالَتْ ثُمَّ زَجَّتْ حَاجِبَيْهَا: أَطَلْتُ وَلَسْتُ فِي شَيْءٍ تُطِيلُ
فَلَا يَجِدَنَّكَ الْأَعْدَاءُ عِنْدِي فَتَنَكَّلَنِي وَإِسَّاكَ النَّكُولُ^(٣)

ولم يكن هذا التمتع من بثينة بسبب نضوب المشاعر عندها فقد أوضح جميل من خلال شعره أن بثينة كانت تحبه، وقد أظهرت له ذلك بطرق متعددة. ولكن يبدو لي أنها كانت صاحبة موقف آمن به وأصرّت عليه وسواء كان ذلك الموقف بسبب الوازع الديني كما هو الحال في البيتين الأوليين، أم أنها تخشى الأعداء، أو للسبيين معاً قال:

عَشِيَّةً قَالَتْ فِي الْعَنَابِ: فَتَلَّتَنِي وَفَتَّلِي بِمَا قَالَتْ هُنَاكَ نَحَاوِلُ
فَقُلْتُ لَهَا: جَوْدِي! فَقَالَتْ مَجِيبَةً: أَلَلَجِدُّ هَذَا مِنْكَ أَمْ أَنْتَ هَازِلُ؟^(٤)

ومن المواقف الأخرى التي أبانت فيها بثينة عن مشاعرها لجميل قوله على لسانها:

وَمَا أُنْسَ مِ الْأَشْيَاءِ لَا أُنْسَ قَوْلَهَا وَقَدْ فَرَبْتُ نَضْوِي: أَمَصَرَ تَرِيدُ؟
وَلَا قَوْلَهَا: لَوْلَا الْعَيُونُ الَّتِي تَرَى أَنْتِكَ فَاغْذِرْنِي قَدْ تَسَّكَ جُدُودُ^(٥)

(١) ديوانه / ٣١.

(٢) ديوانه / ٢٤.

(٣) ديوانه / ١٦٢-١٦٣.

(٤) ديوانه / ١٥٤.

(٥) ديوانه / ٦١-٦٢.

ففرغها من ارتحاله وذهابه إلى مصر. دليل على ما كانت تكنه له من حب ورغبة في البقاء قريباً منها، وكذلك رغبتها بزيارته ما كانت لتأتي من فراغ. قال:

وما أنسَ م الأشياءِ لا أنسَ قولها	غداة انصداعِ الشَّعبِ: هل أنتَ واقفٌ؟
ولا قولها بالخَيْفِ: أنسى أنيتنا	جَذارَ الأعادي أو متى أنتَ عاطِفٌ
ولا قولها لي: يا جميلُ احفظنني	ونفسَكَ من بعضِ الذبن تَلَطِّفُ
بني عَمِّي الأَدْنَبَنَ منهم وغيرهم	من الناسِ صَمَنَّهُمُ إِلَيْكَ المَعَارِفُ
ولا عَيْنَهَا إِذْ يَغْسِلُ الدَمْعَ كَحُلَّهَا	وتَبْدِي لَنَا مِنْهَا الهوى وهي خائِفُ
وقالت ترفَّقُ في مقالِفِ ناصِح	عسى الدهرُ يوماً بعد نأيٍ بساعِفُ
فإن تَدُنْ مِنَّا يَرَجِعَ الْوَدَّ راجِعُ	وإلا فَقَدْ بَانَ الحبيبُ المَلَطِيفُ ^(١)

فرغبة بثينة في أن يمكث لأطول مدة ممكنة (هل أنت واقف) وهذا الحرص الكبير جداً عليه من أبناء عمِّها وغيرهم؛ فهو دليل آخر على مشاعرها نحوه.

ولبثينة موقف واضح مما كان يجري حولها، ومن الوشاة سواء كانوا من أقاربها أم من غيرهم. وكيفية التعامل مع مثل هذه الأمور من ضرورة إخفاء الهوى إلى غير ذلك مما يؤكد أنها لم تكن شخصية غائبة، أو هامشية في علاقتها مع جميل بل لها موقف، ولها طريقة في التعامل مع الأحداث. قال جميل على لسانها:

وبثينة قد قالت وكَلَّ حديثها	إلينا ولو قالت بسوءٍ مَمْلَحُ
تقول: بني عَمِّي عليكِ أظنَّةُ	وأنسَتِ العدوَّ المسْرِفَ المَتَطَحُ
وقالت عيونٌ لا تزال مُطلَّةُ	علينا وحولي من عدوِّك كَشَّحُ
إذا جئتنا فانظُرْ بعينٍ جَلِيفِ	إلينا ولا يغرُّرك من بتَصَحُ
رجالٌ ونسوانٌ يودون أنني	وإيَّاكَ نخزي يا بن عمي ونُقْصَحُ
وقالت: تعلم: أن ما قلت باطلٌ	أبادي سباً منهم إن كنتَ تمزَحُ
وحولي نساءٌ إن ذُكرتُ بريبةٍ	شمتن وما منهن إلا سيفسَحُ ^(٢)

وما كثرة الحوار بينه وبينها، وكثرة الحديث على لسانها إلا دليل على أن العلاقة لم تكن من طرف جميل فحسب، بل كانت بثينة عنصراً فاعلاً ومشاركاً إلى حد كبير. ولم تكن مواقف بثينة كلها تشير إلى حبها له، أو خوفها عليه فحسب ولكنها قد تغضب عليه وتصدّه وتعاتبه وتهجره كما في قوله:

(١) ديوانه / ١٢٢-١٢٣.

(٢) ديوانه / ٤٥-٤٦ / وانظر كذلك ٨٩.

عرفت مصيفَ الحيِّ والمربعا
معارفَ أطلالٍ لبثته أصبحت
معارفَ للخودِ التي قلتَ أجملِي
فقلت أفي ما عندنا لك حاجةٌ
فقلت لها: لو كنت أعطيتَ عنكم
فقلت: أكلَ الناسَ أصبحتَ مانحا
فما نَعَجَّةٌ أدماءَ ترعى مهارقا
بأحسنَ منها يومَ قالت: ألا أرى
كما خَطَبَ الكَفَّ الكتابَ المرجعا
معارفها قَفَرًا من الحيِّ بلفعا
إينا فقد أَصْفَيْتِ بالودِّ أجمعا
وقد كُنْتَ عِنا ذا عزاءٍ مشيعا
عزاءٌ لأفللتَ الغداةَ النضرعا
لسانك كيما أن تُعَزَّ وتخدعا
تُرَجِّي لها طِفلا يَرُوحَ مَرُوعا
جَمِلا غدا لم ينتظِرَ أن يُنْعَا^(١)

وتبدو شخصيتها واضحة متميزة في قدرتها على الصبر والاحتمال في سبيل حبها
في حين لم يستطع ذلك جميل:

لا خَبَرَ في الحبِّ وقفا لا تحرَّكُهُ
لو كان لي صبرها أو عندها جَزَعِي
عوارضُ اليأسِ أو يرتاحهُ الطمَعُ
لكنت أملكُ ما آتسي وما أدعُ^(٢)

وهذا اعتراف من جميل بقدرته بثينة على الصبر، والتحكم في الأمور أكثر منه دون
أن يشكك في صدق مشاعرها أو قلة حبها له.

أما في بوادي نجد، فإننا نرى إغرافاً في البداوة، وبعداً كبيراً عن المدنية
والحضارة التي نراها في الحجاز أو الشام، وما زال الشعراء هناك يميلون إلى التمسك
بنهج القصيدة العربية الجاهلية من وقوف على الأطلال، ووصف الظعن، ونسب المرأة
بذكر صفاتها وزينتها ومشاعر الحب نحوها... وقد يتحدثون عن طيفها أو عن البين...
ثم ينتقلون إلى الحديث عن النافذة والصحراء، ثم المدح أو الفخر أو الهجاء. وقد اختلف
الشعراء في درجة التمسك بهذا التقليد وفي التوسع فيه. اشتهر من شعراء نجد عدد
منهم مثل ذي الرمة، والراعي النميري وتوبة بن الحمير ومزاحم العقيلي، وغيرهم ومن
الشاعرات لبلَى الأخيلية وربيّا العقيلية وغيرهما.

وإذا ما استثنينا لبلَى الأخيلية وعدداً من الشاعرات اللواتي ظهرن في ذلك العصر
في نجد وبواديها، فإن المرأة غالباً ما تبدو لنا ساكنة بشكلها الشاعر كيما يريد بدءاً

(١) ديوانه / ١٠٨-١٠٩.

(٢) المصدر السابق/ ١١٢.

من الحديث عن أطلالها وطلعتها ثم مواصفاتها الجسمية أو المعنوية وانتهاء بحديثه عن مشاعره نحوها، فنحن نعرف ما يحب الشاعر فيها، وما قد يريد منها... أمّا شخصيتها هي فغائبة في أغلب الأحيان لا نعرف عنها شيئاً فلا نعرف رأيها بهذا الرجل الشاعر الذي يذكرها، ولا نعرف نفسيها أو تفكيرها أو أيّاً من أركان شخصيتها الأخرى إلا ما ندر.

والأمر الذي لا أشك فيه أنه كان للمرأة حضور واسع وعميق في نفس الشاعر سواء كانت هذه المرأة واحدة مخصوصة بعينها أو نموذجاً لعنصر من عناصر الحياة المهمة التي سعى الشاعر خلفه لتحقيق وجوده كما سعى خلف الكلاً والماء... فلا يعقل أن يكون هذا الحديث الخصب عن المرأة فقط لتنميط عناصر القصيدة، وإنما قد يكون مدخلاً، ولكنه اختار أن يلبس هذه القصة لبوس الغزل فكل عنصر من عناصر القصيدة العربية الناضجة بشكل جزءاً من حياة العربي في صراعه وكفاحه لأجل البقاء في ظل هذه الحياة الصعبة القاسية التي يعيشها.

ولعل هذا أيضاً قد يفسر لنا جانباً من طبيعة الوصف الجسدي والمعنوي الذي كان للمرأة حيث إن الشعراء كادوا يجمعون على صفات معينة رغبوا أن تكون في المرأة، فقد يكون هذا "النموذج" الذي وضعوه نصب أعينهم وقالوا فيه ما أرادوا وأحبوا من عناصر الجمال الذي يحقق لهم خصب الحياة وديمومتها، وهو مرادهم على أساس أن المرأة تمثل القدرة على المحافظة على الجنس البشري، لذا كان لا بد لهذا النموذج الذي جرى الشاعر خلفه أن يكون على أفضل صورة جمالية رأوها، ولا يمنع هذا من أن تكون هذه المرأة موجودة، فيسبح عليها الشاعر كل ما أراد من صفات سواء وجدت فيها أم لم توجد، لأنه يراها بعينه المحبة، ويرى كل ما فيها جميلاً. وذو الرمة أحد هؤلاء الشعراء الذين قضوا حياتهم، ووظفوا كلّ فنهم يتغلزلون بالمرأة في ديوانه الضخم فهو لا يملّ تعلقه بها، فلا نراه إلا وهو يبحث عنها كما يبحث رجل الصحراء عن الماء والكلاً.

وفي قصيدته البائية قدر كبير من هذه العناصر التي يقول فيها:

ما بال عَيْنِكَ منها الماء ينسكب	كانّسه من كلّ مفرق سرب
وفراء غريبة أنأى خوارزها	مشلّشيل ضيعته بينها الكتب
استحدثت الركب من أشياهم خيراً	أم راجس القلب من أطرابه طرب
أم دمنة نسفت عنها الصبا سغوا	كما تنشكر بعد الطيبة الكتب

-١٦٠-

نكبَاءَ نَسَحَبَ أَعْلَاهُ فَيَنْسَحِبُ
ضَرْبُ السَّحَابِ وَمَرُّ بَارِحٍ تَرِبُ
نَوَّيٍّ وَمَسْنُوقٌ بِالرِّيحِ وَمَحْتَطَبُ
كَأَنَّهُا خِلَلٌ مُوَشَّشَةٌ قَشَبُ
دَوَارِجِ الْمَوْرِ وَالْأَمْطَارِ وَالْحَقَبُ
وَلَا يَرَى مَثَلَهَا عَجْمٌ وَلَا عَرَبٌ (١)

سَيْلًا مِنَ الدَّغَصِ - أَغَشَتْهُ مَعَارِفُهَا
لَا بَلُّ هُوَ الشَّوْقُ مِنْ دَارٍ تَخَوَّنَهَا
يَبْدُو لِعَيْنَيْكَ مِنْهَا وَهِيَ مَزْمَنَةٌ
إِلَى لَوَائِحَ مِنْ أَطْلَالِ أَخْوِيَةٍ
بِجَانِبِ الزَّرْقِ لَمْ تَطْمَسْ مَعَالِمَهَا
دِيَارَ مَيْتَةٍ إِذْ مَيَّ تَسَاعَفْنَا

فانسكاب الدمع من عيني الشاعر شبهه بانسكاب الماء من المزايدة المخرومة. وما كان الشاعر ليختار هذا التشبيه عبثاً وهو ابن الصحراء الفاحشة، ويعرف قيمة كل فطرة من فطرات الماء المنسكبة من الغربة، ودمعه المدرار هذا ما كان ليذهب رخيصاً، وإنما هو يبكي على شيء غالي ثمين له قيمة كبيرة في نفسه تعدل قيمة الماء في حياته، فهو يبكي على محبوبته التي ارتحلت عنه، ولم يبقَ من أشياؤها سوى أشياء قليلة تذكره بها. حتى هذه الأشياء القليلة لم تسلم من عبث الطبيعة وقساوة الصحراء، فكأنما تلاعب هذه الطبيعة، وفسونها على الديار معادل موضوعي لقساوة الحياة وعبثها بالكائنات الحية التي تصارع صراعاً شديداً من أجل البقاء.

ولم يغفل ذو الرمة دور المرأة ولم يجعلها هامشية تماماً، وإنما أراد لها أن تكون ذات بعد إيجابي في حياته العسرة فقال: "إذ مي تساعفنا" ففي كلمة تساعفنا مشاركة من جانبها. فقد أراد الشاعر أن تكون ذات دور مثلما أراد لها أن تكون متميزة ليست كالأخريات إذ لا يوجد مثلها في العرب ولا في العجم، وأظنه كان موفقاً كثيراً في قوله هذا، وإلا سببساءل المرء عن طبيعة مي. وهل تستحق أن يقضي الشاعر حياته ينفى بها. ويكاد يقصر جلّ فنه في سبيل ذلك. فلا بدّ لمثل هذه المرأة أن تكون شيئاً متميزاً يساوي هذه الحياة التي قضاها الشاعر يجري وراءها. بعد ذلك بدأ الشاعر بذكر صفاتها، فصورها لنا في صورة النموذج الذي رأيناه في المرأة الصفة. فهي متكاملة جسمياً ونفسياً. وقد تناولها في صور مختلفة؛ وهي واضعة لثيابها، وهي مستلبة، وصور جانباً من علاقة مادية ربما كانت بينهما:

عنها الوشاح ونمّ الجسم والقصبُ
فوق الحشبة يوماً زانها السلبُ

عجزاًء مكورة خمصانة قلق
زبن الثياب وإن أنوابها استلبت

تربك سُنَّةَ وَجَّهِ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ مَلَسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلَا نَدَبٌ
إِذَا أَخُو لَذَمَ الدُّنْيَا تَبَطَّنَهَا وَالْبَيْتَ فَوْقَهُمَا بِاللَّيْلِ مَحْتَجِبٌ
سَافَتْ بِطَيِّبَةِ الْعَرْنَيْنِ مَارَنَهَا بِالْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ الْهِنْدِيِّ مَحْتَضِبٌ^(١)

وفد ينساء المرء هنا إن كان الشاعر قد مارس هذه العلاقة فعلا مع مَيَّة حتى قال ما قال. مع ما عرف عن مجتمعه من حجب المرأة وتبرقعها وشدة غيرة الرجل عليها، وحديثه هو عن تمنع مي نفسها وبخلها وعفتها في قصائد كثيرة منها:

وإنا لنرضى حينَ نَشْكُو بَخْلَوَةَ إِلَيْهِنَّ حَاجَاتِ النُّفُوسِ بِسَلَا بَذَلٍ
ومما القفر أزرى عندهن بوصلنا وَلَكِنْ جَرَتْ أَخْلَافُهُنَّ عَلَى الْبُخْلِ^(٢)
وهو القائل في ظعن مي:

وفي الحيِّ مِمَّنْ نَتَقِي ذَاتَ عَيْنِهِ فَرِيقَانِ: مَرْتَابٌ غِيُورٌ وَنَافِسٌ
وَمُسْتَبْشِرٌ تَبْدُو بِشَاشَةً وَجْهِهِ إِلَيْنَا وَمَعْرُوفُ الْكَأْبَسَةِ عَابِسٌ
تَبَسَّمَنَ عَنْ غَيْرٍ كَأَنَّ رَضَابَهَا نَدَى الرَّمْلِ مَجْنَهُ الْعِيَادِ الْقَوَالِسُ
عَلَى أَفْحَوانٍ فِي حَنَادِيحٍ حُرَّةٍ يَنَاصِي حَشَاهَا عَانِسُكَ مَتَكَوِسٌ
وخالَسَ أَبْوَابَ الْخُدُورِ بَعْبْنِيهِ عَلَى جَانِبِ الْخَوْفِ الْمَحَبُّ الْمَخَالِسُ
وَالْمَحْنُ لَمَحَا عَنْ خُدُودِ أُسَيْلَةٍ رِوَاءِ خَلَامَا أَنْ تَشِيفَ الْمِعَاطِسُ
كَمَا أَتْلَعْتَ مِنْ نَحْتِ أَرْضِي صَرِيمةً إِلَى نَبَاقِ الصَّوْتِ الظُّبَاءِ الْكُوانِسِ^(٣)

هذا ونحن نعلم أن مَيَّة كانت متزوجة من غيره، وبالتالي فالعواطف بينه وبينها أكبر، فإذا استبعدنا ذلك عن الواقع فلا بد أن يكون من نسج الخيال، ولكن أنى له هذا الخيال؟! أو قل هذا الوصف؟! وأقول ربما أراد أن يكون هذا النموذج مثالياً متكاملاً في كل شيء؛ وبالتالي فقد صور لنا العلاقة النموذج بين رجل محب وصاحبه بغض النظر عن الواقع الذي استمد منه عناصر هذا النسج. إن كانت حياته الزوجية أو أي علاقة أخرى له في دور القبان أو ما شابه ذلك. فهذه الأمور كانت موجودة في العراق الذي كان ذو الرمة قد تردد عليه غير مرة. وهذا الوصف من ابن الصحراء لا يقل صراحة عن وصف ابن المدينة الحجازية. ومع أن الغزل المحروم في البيئة الاجتماعية المتقسفة هو السائد غالباً، لكننا نجد رسيماً مادياً صريحاً كما هو الحال في الأبيات السابقة.

(١) ديوانه / ج ١ / ٢٨ / وما بعدها.

(٢) المصدر السابق / ج ١ / ١٤٦.

(٣) ديوانه / ج ٢ / ١١٢٤ / وما بعدها.

ثم يتابع الشاعر ذكر صفاتها فهي لمياء الشفة، ذات أسنان محددة دقيقة، كحلاء العين واسعتها، بيضاء مثل الفضة التي مسّها ذهب، طويلة العنق وهذه الصفات هي التي أحبها فيها كما يقول:

نزداد للعين إبهاجاً إذا سمرت
ولمياء في شمّتها حوّة لعسّ
كحلاء في برّج: صفراء في نّعج
والفرط في حرّم الذّفرى معلقة
ونحرج العين فيها حين تنقرب
وفي اللثا وفي أنيابها شنب
كانها فضة قد مسّها ذهب
تباعد الحبل منه فهو يضطرب
تلك الفتاة التي علقت عرساً
إن الكريم وذا الإسلام يختب (١)

فالجانب الإنساني غير متعارض مع الجانب الديني عنده، إذ أن اعتناق الإسلام ديناً لم يمنعه من التأثر بجمال هذه الفتاة، واختلاب عقله، مما أدى به إلى الهيام بها.

ثم يتحول الشاعر إلى نافته، فيصورها ضعيفة متعبة، تكاد تنفي من شدة السير والتعب، لكنها مع ذلك مازالت تحتمل الصعاب قادرة على المضي. ولم لا وهي تحمل رجلاً له من الصفات ما لها، فهو أيضاً ما يزال يسير ماضياً مثل السيف المنجرد الحاد لا يعجزه تعب أو غيره.

نخدي بمنّخرق السربال منّصلت
مثل الحسام إذا أصحابه شحبوا (٢)

وهذا إصرار عنيد على الحياة رغم فساوة العيش وفساوة الطبيعة، ورغم صعوبة ما فيها وهي التي تؤدي إلى تفرق الأهل والأحباب وارتحالهم عن ديارهم، ولا تبقي منهم سوى آثار الديار.

ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن حُمر الوحش، فيصور إناثها تابعة للذكر وهو الذي يرعاها، ويصف صراعها مع وحوش أخرى من غير فضيلتها في ظل هجير الصحراء اللافت وقلّة الماء، ويصور جريها في سبيل طلب الماء، ويستمر في هذا سحابة نهاره وليله حتى صباح اليوم التالي، حينما يصل إلى عين الماء فيتقدم حمار الوحش أمام الأذن يشق لها الطريق، وفي اللحظة الحاسمة حينما نصل إلى مرحلة شرب الماء تتعرض لخطر الصائد الذي كان في انتظارها ويبدأ الصراع بين رغبة شرب الماء للمحافظة على حياتها وبين الموت، وكلاهما مَرَّ يهدد بقاءها فتختار شرب الماء، وبصوب الصياد سهامه إليها فتطيش كلها، ولا تصيبها وتعود من حيث جاءت.

(١) ديوانه / ج ١ / ٣١ وما بعدها.

(٢) ديوانه / ج ١ / ٤٦.

-١٦٣-

وهناك لوحتان أخريان قام ذو الرمة برسمهما في قصيدته هذه: الأولى لوحة ثور الوحش وصراعه مع كلاب الصيد التي أرسلها صاحبها عليه وخرج منها منتصراً. واللوحة الثانية اللوحة التي رسم فيها الظليم وصاحبه وأولادهما، حيث وضع فيها الخوف الكبير للظليم وصاحبه على أفراخهما من سباع الليل أو برد السماء. فقد تركاهما بدون غطاء سوى الرمال.

وهو في لوحاته الثلاثة بصور الصراع الكبير مع الطبيعة الفاسية في ظل الصحراء ولهيبها، وقلة مائها، وكثرة وحوشها التي تتربص بعضها ببعض يريد كل واحد منها الصراع ليبقي على نفسه حيث الحياة الفاسية والبيئة المخيفة التي لا ترحم الحيوان أو النبات. لذا فنحن لا نرى شخصيات القصيدة إلا مأزومة في سرعة جريانها، أو خائفة على مصيرها، أو تصارع غيرها. ولعلّ هذا الحب المضني لمي وجربه وراءها، ووقوفه على أطلالها باكياً، وتتبعه لهذه الأطلال ما هو إلا صورة من صور صراع الشاعر مع الحياة والطبيعة الفاسية فالمرأة هي رمز لاستمرار وجود هذا الإنسان والمحافظة على بقائه. ومحبيته هي النموذج الأمثل لهذه المرأة. ويبدو العنصر الأنثوي في هذا الصراع خاصة في اللوحة الأولى غير قادر على تمثل المخاطر، فهي تخاف بشكل غائم يدل على قلقها الكبير من المجهول بينما الذكر يخشى عليها وعلى نفسه من المخاطر المحدقة بها. ولعلّ هذا بصور واقع المرأة في هذه البيئة مقارنة ببيئات أخرى كالحجاز أو بواديه القريبة منه. فشخصية مي شخصية ضعيفة مقارنة ببيئة صاحبة جميل أو عزة صاحبة كثير أو النساء الحجازيات من مثل صاحبات عمر بن أبي ربيعة. فهذه الإنسانية تبدو في مجتمعها في موقع لا يتخطى حدوداً كبيرة مثلما تخطت صواحب شعراء الحجاز.

ولكن لا يذهبن بنا الظن أن هذا النموذج هو الدائم، فالمرأة عند ذي الرمة رغم ما قبع في نفسه من كونها العنصر المهم في الحياة غير بعيدة عما قبع في نفس شعراء العراق والجزيرة الفراتية باعتبارها سبّة وسلعة للهجاء وقد برز هذا في هجائه لنبينا امرئ القيس وكان سبب هذا الهجاء أن ذا الرمة نزل بقرية لهم فلم يقره ولم يعلقوا له، فهجأهم في عدة قصائد وتعرض فيها لنسائهم وبناتهم واتهمهم بسوء الخلق وبجلب العار لأهلهم. (١)

(١) انظر القصائد ذات الأرقام / ٧-١٥-٢٤٧.

-١٦٤-

ومن شعراء نجد الآخرين الراعي النميري الذي كان يبدأ أيضاً شعره بالوقوف على الأطلال، ووصف الظعن ثم يذكر صفات المرأة الجسدية والنفسية ويتحدث عن زينتها... إلى غير ذلك من القضايا التي تخص المرأة. ولكنه ورغم وجود هذا النموذج العام في شعره الذي يكاد يطفئ على أي نموذج آخر، فإننا ما نزال نراه يتحدث في شعره إلى امرأة يفخر أمامها، ويشرح مظاهر فروسيته وشجاعته لها، وسواء قُسر هذا على أنه من قبيل التقليد، أم كانت هناك امرأة معينة مخصوصة يتحدث إليها ويرغب بنيل إعجابها؛ فإن في مثل هذا الشعر صورة نعطي أهمية خاصة للمرأة حيث تفسر كثيراً من بطولات الرجال شعراء، وغير شعراء لأجل كسب إعجابها ونيل رضاها. فمثل هذه المواقف تحتسب للمرأة في بعثها النخوة والشجاعة في نفوس الرجال وإثارة أسباب النجاح في نفوسهم، وفيها صورة حبة لكرامة المرأة عند الرجل وإعزازه لها، إذ ما كان يقدم على اقتحام الأهوال وخوض المعارك لأجل تحقيق إعجاب من لا نستحق ذلك، أو من لا تأثير في نفسه حب الحياة، فهي هنا مثلها مثل الحياة تستحق أن يكافح الإنسان ويجد من أجل الإبقاء عليها. ومن ذلك قول الراعي:

ألم تعلمي يا أمّ أسعد أنني أهّاج لخيرات الندى وأهيسج
وهّم عرائسي من بعيد فأدلجت بي الليل منجاةً العظام دلوّج^(١)

وقال في قصيدة ثانية له:

السنا أشدّ الناس يا أمّ سالم لدى الموت عند الحرب قدماً تأسيا
فلم يبق منا الفتل إلا بغيّة ولم يبق من حبيبي ربيعة باقيا
برزنا لضبعاني معدّ فلم ندع ليكر ولا أفناء تغليب ناديا^(٢)

إلى آخر القصيدة التي يفخر فيها بقدرته وقدره قومه العسكرية وتحقيقتهم للانتصارات على أعدائهم من تغلب وأحلافها.

وهناك صور أخرى للمرأة مازالت تقبع في نفس الراعي حيث صورها جزءة خائفة من سفره وارتحالها، ضعيفة تطلب الحماية، ولا ينسى صورتها في الحرب كيف تعاملوا معها وكيف تركوها. قال في القصيدة التي يمدح بها بشر بن مروان وقد أراد السفر إليه يظهر خوف نسائه عليه من الموت أو مما قد يلاقى في رحلته:

(١) ديوانه / ١٦٦.

(٢) المصدر السابق / ١١٧.

فأصبحن قد أفصرن عن متبسل
وهنّ بحاذرن الردى أن بصيبي
وأعلم أن الموت يا أمّ سالم
فكائن نرى من مسعفر بمنية
قرى طارق الهمّ الفلاص المناقب
ومن قبل خلقي خطّ ما كنت لأقبا
فرين محيط حبله من ورائسبا
بجنبها أو معصرم لبس ناجيا (١)

وقال في وصف بعض النسوة اللواتي يعتمدن على الرجال في حمايتهن عند
الغز، وقد يطلبن إليهم ذلك بصورة مباشرة بقولهن لهم (امنعونا):

أولئك نسوة في إرث مجّد
مدلات يسرن بكسل ثغر
لهنّ فوارس لبسوا بمبيل
كرائم بصطفين وبصطفينا
إذا ارزقن من فزع حمينا
ولا كشفر إذا قلن امنعونا (٢)

وخوف الشاعر على المرأة بعده قائم على أساس أن المرأة في ذلك التركيب
الاجتماعي والاقتصادي غير منتجة مالا أو دخلا مادياً. كذلك لا يستطيع الدفاع عن
أنفسهن. وكل نظرة المجتمع للمرأة أن تلد الرجال أي هي مصنع من يعوض الماضين من
الرجال في الحروب. ومن لبس لها دخل ولا إنتاج من حق صاحبها أن يخاف
عليها بعده.

أما صورة المرأة في الحرب عند الراعي فليست بجديدة. بل يؤكد فيها صفة
الضعف. بعد مقتل رجالها، وهزيمة قومها:

ونحن تركنا بالعقبر نساءكم
مع الثكل هزلّ يشوين الأفاعيا (٣)

وللمرأة الشاعرة في نجد ونواحيها ظهور واضح. فقد ظهر عدد من الشاعرات
وعلى رأسهن لبلى الأخيلية والخنساء بنت أبي الطراح وماوية العقيلية وهنبدة الخفاجية
وربا العقيلية. وسأرجى الحديث عنهن إلى الحديث عن المرأة الشاعرة ولكن يهمني أن
أقول هنا إن ظهور عدد من الشاعرات مع قدرتهن الكبيرة على التعبير عن عواطفهن
ومشاعرهن تجاه من أحبين من الرجال. وقدرتهن على الدفاع عنهم. والخروج إلى الأمراء
والخلفاء. وشجاعتهم النفسية في الدفاع عن حقوقهن، ومخاطبة عليّة القوم. وأعني هنا
بشكل خاص لبلى الأخيلية - كل هذا كان لمعة من ضوء على طريق إثبات الشخصية وإن
كان هذا كله لم يغير كثيراً من مركز المرأة بالنسبة للرجل في بيئتها البدوية العامة.

(١) ديوانه / ١١٥.

(٢) المصدر السابق / ١٥١.

(٣) ديوانه / ١١٨.

كما أننا نلاحظ في نجد ونواحيها ظهور عدد من الشعراء العذريين منهم توبة بن الحمير صاحب لبلى الأخيلية، وكاهل صاحب سلمى، وهو من عامر بن أبي ربيعة، والضحاك بن كلثوم، ومزاحم العقيلي، وهذا يعني أن الشعر العذري لم يختص ببادية الحجاز وحدها في هذا العصر وإنما كان له انتشار أيضاً في نواحي نجد، وقد بدت المرأة في هذا النوع من الشعر لا تختلف كثيراً عن بثينة صاحبة جميل من حيث نضج شخصيتها وتطورها بل تفوقت بعض النساء في نجد عليها كما هو الحال عند لبلى الأخيلية صاحبة توبة التي يقول فيها:

رمانى ولبلى الأخيلية قومها	بأشباء لم تخلق ولم أدر ماهيا
قلبت السدي تلقى ويحزن نفسها	وبلقونه بيني وبين ثابيا
فهل يبدرن الباب قومك أننى	قد أصبحت فيهم قاصي الدار ناثيا
تمسك بحبل الأخيلية وأطرح	عدا الناس فيها، والوشاة الأذانيا (١)

وقال:

يلومك فيها اللاثمون نصاحه	قلبت الهوى باللائمين مكانيا
لو أن الهوى عن حب ليلى أطاعني	أطعت، ولكن الهوى قد عصانيا
وكم من خليل قد تجاوزت بذله	إليك، وصار لو أنيت سقانيا (٢)

وتبدو شخصية صاحبة مزاحم العقيلي ناضجة، قوية في قولها له كما جاء في

شعره:

فما عنب جَوْنٌ بأعلى نبالة	خضير أمانته الأكف الفواطف
بأطيب من فيها وماذقت طعمه	ولكنني بالطير والناس عارف
وما أم أحوى الجدين نعرضت	أمام المطايا فهي في الشرق عاطف
بأملح منها يوم قالت وصحيتي	بجنب الغضا منها منيح وواقف
دع الناس ماساءوا يقولوا	ولا تكن معني بعوران الكلام القذائف
ولكنما هاروك بالبذل وارضى بك	القوم حتى كلهم لك خائف
بأشياء مما يأسبب الناس لو رقبوا	بها البدر أضحى لونه وهو كاسف
ألم تسر أن الناس ما يعلمونه	يكن مثل ما نذري الرياح العواصف (٣)

(١) ديوانه / ٥١.

(٢) المصدر السابق / ٥٣.

(٣) مزاحم العقيلي / شعره / تحقيق نوري حمودي القيسي / مجلة المخطوطات العربية / مج ٢٢ / ج ١ / أيار

١٩٧٦ / ١٠٧.

فمثل هذا الموقف من الناس وأقوالهم ما كان ليصدرَ عن امرأة هامشية ضعيفة. بل فيه قوة العالم بأحوال الناس وطباعهم، وما تعودوا عليه، وكذلك الحلّ الأمثل في صدهم والوقوف في وجههم. وليس هذا فحسب فهي تتبنى هذا الموقف وتحاول جاهدة أن تقنع صاحبها به بل تطلب إليه ذلك.

ومما بصّورَ عمق أثر المرأة في نفسه قول مزاحم العقيلي:

ولست بمُخصِّصٍ حسبَ ليلي لسائلٍ من انناسٍ إلا أن أقولَ كثيرُ
لها في سوادِ القلبِ تسعةَ أسهمٍ وللناسِ طَرّاً من هَوَايَ عَشيرُ^(١)

أما في الجبهة الشرقية من الدولة الإسلامية في العراق والجزيرة الفراتية فقد أكثر شعراء هذه المنطقة من البدء بالمقدمات الغزلية في شعرهم سواء في قصيدة المدح أو الفخر أو الهجاء. فمن المعروف أن شعراء هذه المنطقة كانوا يقدمون على الخلفاء والأمراء لمدهم ونيل عطائهم، ومنهم جرير والفرزدق. والأخطل الذي اعتبر لفترة طويلة شاعر البلاط الأموي. والغرض الثاني الذي غلب على شعرهم هو الهجاء وهو ما عرف بشعر النقائص فقد نهجى هؤلاء الشعراء الثلاثة وغيرهم وقضوا فترة طويلة من حياتهم في هذا النهاجي، وقد شكلوا ما يشبه الأسواق الأدبية فكان الناس يجتمعون فيها، ويقوم الشعراء بإلقاء شعر النقائص التي كانت في الغالب هجاء للخصم وفخراً لصاحبها وقومه، وكثيراً ما كان الشاعر يبدأ شعره هذا بمقدمة غزلية يتحدث فيها عن المرأة وما يتعلق بها من شؤون؛ مثل الوقوف على أطلالها والحديث عن ظعننها، ووصفها نفساً وجسداً، والحديث عن الحب وشؤونه وقد يتحدث عن الشيب وموقف المرأة منه.

وإذا نظرنا نظرة عامة في هذه المقدمات رأينا الشاعر فيها يتحدث غالباً عن المرأة بشكل عام، فلا نستطيع أن نطمئن إلى أن الشاعر يتحدث عن امرأة مخصوصة، وإن كنا لا نستبعد ذلك في بعضها، لكن كثرة هذه المقدمات، وتعدد الأسماء فيها، وكذلك تعدد صور المرأة وأشكالها بها من قصيدة إلى أخرى، والأهم من هذا وذاك اقتصار اهتمام الشاعر الإيجابي بالمرأة على هذه المقدمات إلا في القليل النادر، هذه الأمور مجتمعة تجعلنا نشك في إمكانية تلمس شخصية محددة للمرأة من خلال هذه المقدمات، فنحن لا نستطيع تلمس عاطفة صادقة نستطيع من خلالها تلمس إنسانية المرأة، فربما كان

نوعاً من الشعر الذي يجب أن يقال، أما المرأة الإنسانية فهي صورة فابغة في أعماق الرجل، وهي أمر ثانوي بالنسبة له إذا ما قورن هذا الشعر بالشعر الحجازي مثلاً عذرياً كان أم غير عذري.

ولعلنا نستطيع تلمس صورة المرأة الإنسانية من خلال الجانب الآخر من شعر المرأة سواء الذي قاله في أجزاء القصيدة الأخرى أو حتى في بعض المقدمات التي يتحدث فيها عن موقف المرأة من الشيب أو ما شابه ذلك. ولعل أكثر ما اشتهر به شعراء العراق والجزيرة الفراتية هو الشتم بالمرأة. وذلك من خلال شعر النقائض، فالمرأة لم تكن شيئاً أثيراً لدى الرجل، بل هي سبة، يشتم الشعراء بها، لذا نراها أما واختاً وزوجة معرضة للهجاء بأفدع أنواعه وأفحشها، فقد هتك هؤلاء الشعراء أعراض بعضهم بعضاً مستخدمين المرأة وسيلة لذلك، كما سنرى.

ويمكننا أن نقول إن كثيراً من هذه المقدمات هي امتداد للعرف عند الشاعر العربي بالبدها، وبخاصة في أغراض الشعر التقليدية، وعلى رأسها المدح والهجاء والفخر. ولكننا قد نجد علاقة بين مقدمة القصيدة وموضوعها من ذلك على سبيل المثال قصيدة جرير التي يعاتب فيها جده الخطفي لمنعه إياه بعض ماله. قال:

ألا حيّ رهبي ثم حيّ المطالبا	فقد كان مأنوساً فأصبح خالبا
فلا عهد إلا أن تذكر أو ترى	تماماً حوالي منصّب الخيم بانبا
إلى الله أشكو أن بالغور حاجة	وأخرى إذا أبصرت نجداً بدا لبا
إذا ما أراد الحي أن يتزابلوا	وحنّت جمال البين حنت جمالبا
إلا أيها الوادي الذي ضمّ سبله	إلينا نوى ظمباء حبيبت وادبا
نخطى إلينا من بعد خيالها	بخوض خدارباً من الليل داجبا
نظرت برهبي والظعائن باللوى	فطارت برهبي سعبة من فؤادبا ^(١)

ولعل البيت التالي هو الذي يوضح هذه العلاقة ففيه ربط بين هذه المقدمة بما فيها من حديث عن العطاء والمنع مع موضوع القصيدة. قال:

فإنك إن تطي قلباً فطالما منعت وحلات القلوب الصوادبا^(٢)

(١-٢) ديوانه / مج ١ / ٧٤-٧٦.

(٢) المصدر السابق / مج ١ / ٧٩-٨٠، استمرارها: تنافلها.

وبتابع حديثه عن لبلى ورحلته على الناقة وعن هند وسكينة وأسماء إلى أن يصل

إلى قوله:

وبأمرني العَدَالُ أن أغلبَ الهوى وأن أخفيَ الوجدَ الذي ليس خافيا
فبا حشراتِ القلبِ في إثر من يرى ويلغى خبرهُ منك قاصيا
تعرضتُ فاستمررتُ من دون حاجتي فحالكَ إنسي مستمرَّ لحالبا
فَرُدِّي جِمالَ البينِ ثم نَحْمَلِي فمالكَ فيهم من مقام ولا لبا
وإنسي لَمَفْرُوزٍ أعللَ بالمنى لياليَ أرجو أن مائك مالبا
وقائله والدمعَ يحدّرُ كحلّها أبعدَ جريبرُ تكرمونَ المواليا^(١)

إلى نهاية القصيدة التي بصرف الجزء الأخير منها في الفخر بنفسه.

ونستطيع من خلال بعض المقدمات خاصة تلك التي يتحدث فيها عن الشيب أن نستحضر صورة المرأة عند هذا الشاعر أو ذاك، فهي تصور حقيقة رأي هؤلاء الشعراء الذين يقطنون هذه البيئة. ومن ذلك ما قاله الأخطل في مقدمة قصيدة له يمدح بها قومه، ويهجو جريرا:

كذبك عيناك، أم رأيت بواسط غلسَ الظلام، من الرباب، خبالا
ونعززت لك، بالأبالخ، بعد ما قطعت، بأبرق، خلّة ووصالا
وتغولت، لتروعننا، جنية والغانيات يرينك الأهوالا
بمدد، من هفواتهن، إلى الصبا سببا، بصدّن به الغواة، طوالا
ما أن رأيت كمكهن، إذا جرى فبنا، ولا كحبالهن جبالا
المهديات، لمن هوين، مسبّة والمحسنات، لمن قلين مقالا
برعين عهدك، ما رأيتك شاهدا وإذا مزلت بصرن عنك مزالا
وإذا وعدتك نائلا، أخلفنه ووجدت، عند عدائهن مطاللا
وإذا دعوتك عمهسن، فإنه نسب، يزيدك عندهن خبالا
وإذا وزنت حلومهن إلى الصبا رجح الصبا بحلومهن فمالا^(٢)
وفال في قصيدة أخرى:

حثوا المطسي، فولتنا مناكبها وفي الخدور، إذا باغمتها، الصور

(١) ديوانه / مج ١ / ٧٩-٨٠، استمرارها: تفاظها.

(٢) ديوانه / ج ١ / ١٠٥-١٠٧.

يَبْرُقْنَ لِلْقَوْمِ، حَتَّى يَخْتَبِلَنَّهُمْ وَرَأْيَهُنَّ ضَعِيفٌ، حِينَ يَخْتَبِرُ^(١) - ١٧٠ -

فهذا الشعر بوضح جانباً مهماً من نظرة الشاعر إلى المرأة، فهي بالنسبة له شيء جميل يستمتع به ليس غير، وهي ليس أكثر من جاهلة وماكرة ومخلعة للوعود، والحقيقة أن مثل هذه النظرة غير غريبة على شاعر بدوي مثل الأخطل الذي فلما يرى في المرأة شيئاً غير الضعف والهزيمة والجهل، لأنه عاش في بيئة قبلية لا ترى في المرأة أكثر مما رأى، فهي غير منتجة، وغير قادرة على الدفاع عن حولها بل عن نفسها، وأكثر من ذلك هي أثناء الحروب - وما أكثرها - تكون عبئاً كبيراً على الرجل، إذ قد تسبى، وما أكثر ما حدث ذلك فكانت عاراً على أهلها وقومها، ولكن، ومع كل ذلك، فإن في هذا الشعر صورة إنسانة قادرة على أن يكون لها تأثير في نفس الرجل رغم ضعفها وتبعيتها له تبعية مسرفة، وهي ذات إرادة تمنح وتمنع وتنحطى محطة الضعف الاجتماعي في نفسها.

وقد أكثر هنا الشعراء من الحديث عن المرأة السبية، فالمجتمع العراقي كان أقرب إلى البداوة، وطريقة الحياة فيه قريبة من الطريقة الجاهلية، إلا أنها جاهلية في مظلة دولة أو حاكم بضبط الأمور وفي الدولة الأموية كان الحاكم، بترك القبائل تتقاتل فيما بينهما إلى الحد الذي اعتقد فيه أنه قادر على ضبط الأمور، بينما كانت الجاهلية قبل الإسلام في مظلة قبيلة وبغير دولة. وقد تأثرت المرأة بهذا الوضع القبلي زمن الأمويين، وخاصة في الجزيرة الفراتية، فما زالت تؤخذ سبية، ولا نستطيع الدفاع عن نفسها. وقد صور شعراء هذه البيئة فزع النساء وضعفهن. قال الفرزدق:

إِذَا فَرَزَعَ النَّسَاءَ فَلَا تَبَالِي لَهَا سَوْفَا خَرَجْنَ وَلَا خِمَاراً^(٢)

وقال في مدحه للزغل بن عروة الجرمي:

بِهِمْ تَنْقِي السَّبِيَّ النَّسَاءَ وَتَنْهِي إِذَا اتَّخَذُوا أَسْيَافَهُمْ كَالْمَخَارِقِ
عَلَى عَهْدِ ذِي الْفَرْنَيْنِ كَانَتْ سَيُوفُهُمْ عَمَائِمَ هَامَاتِ الْمُلُوكِ الْبَطَارِقِ^(٣)

وقال في مدح أسد بن عبد الله:

هَمُّ الضَّوَارِسِ بِحُمُومِ النَّسَاءِ إِذَا خَرَجْنَ يَسْعِينَ يَوْمَ الرُّوعِ خَفَانَا^(٤)

(١) ديوانه / ج ١ / ١٩٤.

(٢) ديوانه / ١٧٣.

(٣) ديوانه / ٤٠٩.

(٤) ديوانه / ٦٣٣.

وقال جرير في مدح عبد الملك وهجاء الأخطل:

رَقِصْتُ بِعَاجِنَةِ الرُّحُوبِ نِسَاؤَكُمْ رَقِصَ الرِّثَالِ وَمَالِهِنَّ ذَبُولُ
أَبْنَ الْأَرَاقِمِ إِذْ تَجَرَّ نِسَاءَهُمْ يَوْمَ الرُّحُوبِ مُحَارِبٌ وَسُلُولُ^(١)

ومثل هذا الشعر لا يختلف عن الشعر الجاهلي كثيراً، بل فكر الشاعر هنا لم يتغير بمجيء الإسلام والانصواء تحت دولة تطبيق تعاليم الإسلام. وترفض مثل هذا الشعر، بل مثل هذه الحروب، وهذه المعاملة غير الإنسانية للمرأة؛ وقد يفسر لنا هذا الشعر سبب كراهية العربي للبنات وتفضيلهم للذكور. فبالإضافة إلى كون الذكور يشاركون في الحرب ويدافعون عن أنفسهم وقبيلتهم، فإنهم كذلك لا يكونون مفقداً حينما يؤخذون أسرى كحال المرأة التي كثيراً ما تكون هدف الغزاة لأخذها سبية، وفي ذلك إمعان في ذل أهلها وقبيلتها، وقهر لهم. وزيادة في امتهان العدو كانوا يستاقون نساءه كما يستاقون الإبل وغيرها من الدواب المسلوكة. قال الأخطل:

يَوْمَ الْكَلَابِ، وَفَدِ سَيَقَتْ نِسَاؤُهُمْ سَوَّقَ الْجَلَاثِبِ، مِنْ عُونٍ وَأَبْكَارِ
مُسْتَرْدَفَاتٍ، أَفَاءَ نَهْشِ الرَّمَاحِ لَنَا نَدَعُو رِيَاحاً، وَتَدَعُو رَهْطَ مَرَارِ^(٢)

ولم تكن المرأة في حروبهم معرضة للسبي فقط، وإنما كانت تتعرض أيضاً للقتل وقد يمثل بها حيث تبقر الحوامل منهن، ويتركن في ساحة المعركة تنقر الطيور بطونهن، وتضرب أعينهن قوادم النسور، قال الأخطل:

وَكِمَ، مِنْ جَنِينٍ، بَاتَ يَنْزِعُ نَفْسَهُ لَقَيْسِيَّةٍ، فَدَ هَكَّهَا السَّيْفُ بِالْخَصْرِ
سَلِيمِيَّةٍ، سَوْدَاءَ، أَوْ عَامِرِيَّةٍ تَجَرَّ سَلَاهَا، حِينَ تَنْهَضُ بِالصَّدْرِ
بِهَا رَمَقٌ، فَالطَّبِيرُ تَنْقَرُ بِطْنَهَا وَنَضْرِبُ عَيْنَيْهَا قَوَادِمُ، مِنْ نَسْرِ^(٣)

ولم تكن مثل هذه الصور البشعة للمرأة في ساحة الوغى من بنات خيال الشعراء. بل هي صور حقيقية واقعية تناقلتها كتب الأخبار، فقد ذكر في كتاب أخبار جرير والأخطل في الحديث عن يوم الرحوب، وهو يوم كان لقيس على تغلب إذ أغار الجحاف ابن حكم السلمي على تغلب فقتل وأصحابه خلقاً كثيراً، وبقروا النساء وقتلوهن؛ فمن كانت حاملاً بقروها ومن كانت غير حامل قتلوها.^(٤) ومثله يوم الكحيل.^(٥)

(١) ديوانه / ج ١ / ١٠٢.

(٢) ديوانه / ج ٢ / ٦٣٨.

(٣) ديوانه / ١٨٢.

(٤) أبو تمام / حبيب بن أوس الطائي / نقائض جرير والأخطل / دار الكتب العلمية / بيروت - لبنان / ٢٢٩ / ١٩٢٢.

(٥) المصدر السابق / ٢٢٦.

وقد كانت المرأة هي الأخرى تستشعر الضعف في نفسها وتنتظر الرجل ليحميها من السبي؛ فقد سببت في يوم (العداب) حسينة بنت جابر بن شريط العجلي أخت أبحر وكانت تحت تمام بن سودة وقد تزوجها عمرو بن الحرث بن أفيش العكلي فلبثت عنده. وعندما جاء زوجها وأبوه سودة ليفاديا بها اختارت عمرو بن الحرث. وقالت في ذلك تعير زوجها تماماً:

نَمَامٌ قَدْ أَسْلَمْتَنِي لِرِمَاحِهِمْ وَخَرَجْتَ تَرَكُضٌ فِي عِجَاجِ الْفَسْطَلِ
وَتَلَوْنِي أَنْ لَا أَكْسَرَ إِلَيْكُمْ هَيْهَاتَ ذَلِكَ مِنْكُمْ لَا أَفْعَلِ
إِنِّي وَجَدْتُكُمْ نَكُونُ نَسَاؤُكُمْ يَوْمَ الْلِقَاءِ لِمَنْ أَنْتَ كُمْ أُولِ (١)

ومن هذه الأبيات نخلص إلى أن المرأة على ضعفها تستطيع أن تفرق بين القوي الذي يحميها والضعيف الذي لا يستبسل في الذود عنها.

ولم يخرج شعر النفااض بصورة للمرأة تغاير كثيراً صورتها لدى أولئك الشعراء في غير النفااض. فقد جعلوا من المرأة سلعة هجاء يتبايعونها في أسواقهم الشعرية فكانما خلقت لتكون سبة لهم. فكانت أما وأختاً وزوجة معرضة لهذا الهجاء لم تنتبهم عنه أمومة ولا أخوة ولا زوجة.

فألواحد منهم هنك عرض نسائه قبل أن يهتك عرض نساء خصمه لأنه كان يعلم علم اليقين أن الشاعر المهجو لن يسكت على ذكر نسائه في الشعر. وألسن الناس يتناشدونه ويتندرون به. وهم في هذا كله قد أفحشوا إفاحشاً كبيراً. وقالوا من الشعر ما تنبو الأذن عن سماعه. وسأختار ما خف منه قال الفرزدق في ذلك يذكر أم جرير:

تبكي المراغة (٢) بالرغامِ على ابنِها والنَاهِضَاتُ بِنَحْنٍ بِالْإِعْوَالِ
سوفي النواهيقَ مَأْتِماً بِبِكِينِهِ وَتَعَرَّضِي لِمَصَاعِيدِ الْفُقَالِ
سَرِياً مَدَامَعَهَا، تنوحُ على ابنِها بِالرَّمْلِ قَاعِدةً عَلَى جَلَالِ (٣)

(١) نفااض جرير والأخطل / ٢٢٨.

(٢) والمراغة: هي الأنان التي لا تمتنع من المحول. وقيل: المراغة موضع التمرغ. فكان أمه ولدت في

مراغة الإبل لحقارتها. وقيل: لأنها ولدت في مراغة الدواب فهو ابن الرذيلة. وقيل إنما يعيره ببني كليب

لأنهم أصحاب حمير. وقيل ابن المراغة شتم عند العرب يقولون: يا ابن المراغة اللسان والتاج (مرغ).

(٣) ديوانه / ٤٩٧.

وقد أصبح هذا اللقب (المراغة) لقباً يكاد يكون ملازماً لأم جرير في أشعار عصره. قال عمر بن لجأ فيه:

با بن المراغة أنت الأم من مشى حسباً وأخوّر من تكلم عوداً (١)
وقال:

با بن المراغة شر العالمين أبا زعّ بالمراغة حيث اضطرّك القدر (٢)
وقال الأخطل فيها:

يَعْنِي ابْنَ يَرْبُوعٍ بِشَنَمِي أُمِّهِ وما انفلتت مني، صحيحاً أدِيمِها
ولا وجدوا أمّا، له، عريسةً ولا أسهرتها، من خثان، كلومها
وقد آل من نسل المراغة أنها على النخس والإنعاب، باقٍ رسيماً (٣)

ولم تكن الأم فقط التي وقعت بين أنياب هؤلاء الشعراء يتشدقون بذكرها، بل وقعت كذلك الأخت والزوجة، ومما فالوه في الأخت، قول جرير من قصيدة طويلة له في جعثن أخت الفرزدق:

وجعثن كانت خزيّة في مجاشع كما كان غدرّ بالحواري منكرها
وجعثن قد زيدت حدادا على الزنا وزادت على حمل الحوامل أسهرا (٤)
إلى نهاية الأبيات التي أفحش فيها إفحاشاً كبيراً.

ومما قبل في الزوجة: قول عمر بن لجأ النعمي في أم حزره زوجة جرير عند وفاتها:

نعانق أم حزره وهي نعش تكشّف عن جنازتها الثيابا
تركنتك حافراً أن كنت نبكي على الأموات تلتمس الضرابا (٥)

ومما قاله الفرزدق في مناسبة وفاة أم حزره زوجة جرير أيضاً:

(١) ديوانه / ٧٠.

(٢) المصدر السابق / ٩٥.

(٣) ديوانه / ١ ج / ٣٢١-٣٢٢.

(٤) ديوانه / ١ ج / ٤٧٦-٤٧٩.

(٥) ديوانه / ٥٥.

-١٧٤-

والمصطفون لدينه الأخيارُ
جَدْنَا بنوحَ على صده حمارُ
خُزْيَ علانيةً عليك وعارُ
جَزَعَا، غداة فراقها، الأعيارُ
ومكان جَنُوتِها لهنَّ دُوارُ
ألا بفونك عندها الإصهارُ
سيكون، أو سيعينك المقدارُ
إنَّ المناكحَ خيرها الأكارُ
ميتاً إذا دخل القبورَ بزارُ
يبرقن، بين فصوصهنَّ، ففكارُ
ما مثل ذلك تفعل الأخيارُ (١)

قال الملائكة الذين تَخَيَّرُوا
أبكى الإلهَ على بليّة من بكى
كانت منافسةَ الحياض، وموتها
فلئن بكيتَ على الأتان لقد بكى
بنهسن أذرعهنَّ حين عهدنها
أخوات أمك كلهنَّ حريصةً
فاخطبَ وقل لأبيك يشفعُ إنه
يكرأ عستُ بك أن تكونَ حظية
إن الزبارةَ في الحياض، ولا أرى
لما جَنَّتَ اليومَ منها أعظماً
ورثيتها وفضحتها، في قبرها

وهو في هذه الفصيصة ينقض قصيدة جرير التي قالها في رثاء زوجته ومطلعها:

لولا الحياء لعادني استعبار
ولزرت قبرك والحبيب يسزار (٢)

ولم يتوقف هؤلاء الشعراء عند الأم والأخت والزوجة بهجائهم الفاحش بل شملوا

بهجائهم هذا عموم نساء القبيلة، قال عمر بن لجأ في نساء قوم جرير:

نُظِلَّ ببسوتَ ربوعِ نساءٍ
على السوءاتِ مارنةَ الجلودِ
على طَلحٍ وأودَ نساءٍ سَوَّ
تضمَّنَ لؤمَّها طَلحٌ وأودُ
خَلِفْنَ نذالةً وولسَدنَ ذلاً
لثبمات المعاطيسِ والخدودِ (٣)

وقال جرير في نساء تغلب:

نسوان تغلب لا حلم ولا حسب
ولا جمال ولا دين ولا خفر (٤)

(١) ديوانه / ٣٢٤-٣٢٦، بليّة: هضبة باليامة دفنت زوجة جرير في أسفلها، الصدى الجثة ينهسن:

ياخذن بمقدم أسنانهن، الجثوة القبر، الدوار أصنام كانت في الجاهلية أخوات أمك أراد الأثن، فصوص

الواحدة: فص: ملقتى كل عظيمين.

(٢) ديوانه / مج ٢ / ٨٦٢.

(٣) ديوانه / ٦٧.

(٤) ديوانه / مج ١ / ١٥٩.

-١٧٥-

أما خراسان، فكان هذا الإقليم تابعاً للعراق سياسياً وإدارياً، وكان بدار من قبل والي العراق. وجنده كانوا من العراق حيث اتجهوا منذ العصر الراشدي لفتحها وخاصة جند البصرة، وقد حملوا معهم ما كان بينهم من عصبية قبلية. وقد كان جل شعر شعراء خراسان يصف هذه العصبية التي احتدمت بينهم، وفي وصف الحروب مع الأتراك. وفيما يخص المرأة من هذا الشعر يمكن أن نميز نوعين منه: الأول: هو ذلك الشعر الذي قاله بعض الشعراء بصف حبه وإعجابه ببعض نساء الترك اللواتي أعجب بهن أو وقع في حبهن؛ ومنهم أبو جلدة اليشكري: فقد مر أبو جلدة هذا بفصر من قصور "بست" (١) بنزله رجل من الدهاقين، فرأى بنته تشرف من أعلى القصر، فأنشأ يقول:

إن في القصر ذي الخبا بدر تم	حسن السدل للوؤاد مصيبا
ولعبا بالخلوف بأرج منه	ريح رنر إذا استفل منيبا
لبس الخز والمطارف والقـ	ز وعصبا من اليماني قشيبا
ورأيت الحبيب يترز كفا	ما رآه المحب الا خضيبا (٢)

كما عشق أبو جلدة اليشكري دهقانة (ببست) وكان يختلف إليها، ويكون عندها دائما، وقال فيها:

وكأس كأن المسك فيها حسوتها	ونازعنيها صاحب لسي موم
أغر كأن البدر سنة وجهه	لها كفّل وافٍ وقسرع ومبسم
بضيء دجى الظلماء رونق خده	وينجاب عنه الليل والليل مظلم
ونديان كالحقنين والمئن مدمج	وجيد عليه نسق در منظم
وبطن طواه الله طبا ومنطق	رخيم وردف نيط بالجو مضم
به تبلتني واستبتني وغادرت	لظي في فؤادي نارها تنضرم
أبيت بها أهدي إذا الليل جنني	وأصبح مبهورا فما أنكلم
فمن مبلغ قومي الدنا أن مهجني	تبين، لئن بانث الا تلتوم
وعهدي بها -والله بصلح بالها-	تجود على من يشتهيها وتنعم
فما بالها ضنت على بודהا	وقلبي لها يا قوم عان متبم (٣)

(١) بست: مدينة بين سجستان وغزني وراه من نواحي كابل.

(٢) الأغاني / ج ١١ / ٣١٩.

(٣) المصدر السابق / ج ١١ / ٣٢٥.

فشعر أبي جلدة بهذه الدهقانة لا يختلف عن شعر غيره ممن تغزلوا بالنساء العربيات؛ إذا استثنينا البيت قبل الأخير، فهو قد اتفق مع غيره من الشعراء في طبيعة الشعر، وبالأمر التي عرض لها إذ اتفق معهم على الصفات التي أحبوها في المرأة، وكذلك في وصف مشاعر الحب نحوها، لكنه اختلف عنهم في أنهم كانوا يصفون صاحباتهم بالبخل والتمنع، أما هو، فقد وصفها بالكرم ومع الجميع بحبث وضعها في مرتبة سيئة من الخلق. ومن هؤلاء أيضاً يزيد بن مفرغ الحميري الذي تغزل في جمانة وهي دهقانة الأهواز وفي أخذها أناهيد وأسماء وقد كان له أخبار معهن من ذلك قوله:

سما برقَ الجمَانِ فاستطارا	لعلَّ البرقَ ذاك يَكُورُ نارا
قَعُدْتُ لَهُ الْعِشَاءَ فَهَاجَ شَوْفِي	وَذَكَّرَنِي الْمَنَازِلَ وَالْدِيَارَا
دِيَارَا لِلْجَمَانِ مَفْغَرَاتٍ	بَلْبِينَ وَهَجِينَ لِلْقَلْبِ أَذْكَارَا
فَلَسَمَ أُمْلِكُ دَمَوْعَ الْعَيْنِ مِنِّي	وَلَا النَّفْسَ الَّتِي جَاسَتْ مِرَارَا
فَسَرَقَ فَالْقُسْرَى مِنْ صَهْرَتَاجٍ	فَدِيرَ الرَّاهِبِ الطَّلَلِ الْقِفَارَا
فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: عَرِّجْ قَلِيلَا	نَذَاكِرُ شَوْفَنَا الدُّرَسَ الْبَوَارَا
بَآيَفٍ مَا غَدَوُوا وَهُمْ جَمِيعٌ	فَكَادَ الصَّسْبُ يَنْتَحِرُ انْتِحَارَا ^(١)

والثاني: هو ذاك الشعر الذي قاله الشعراء في الحنين إلى ديارهم وأسرهم وحببياتهم، كما سيأتي في الحديث عن شعر الأزواج في زوجاتهم، وأخص بالذكر فصيحة الطرمّاح في زوجته أم صمصام،^(٢) وفصيحة مالك بن الربيع المشهورة في أسرته،^(٣) ومن الشعراء من حمل حبه إلى خراسان فبقى هناك يتغنى به، مثل الصمة القشيري الذي خطب ابنة عم له كان لها محبا، فاشتط عليه عمه في المهر؛ فسأل أباه أن يعاونه وكان كثير المال فلم يعنه بشيء؛ فسأل عشيرته فأعطوه؛ فأتى بالإبل عمه، فقال: لا أقبل هذه في مهر ابنتي، فاسأل أباك أن يبدلها لك، فسأل ذلك أباه فأبى عليه، فلما رأى ذلك من فعلهما قطع عقلها وخلّاهما، فعاد كل بغير منها إلى ألقاه، وتحمل الصمة راحلا، ومضى من وجهه حتى لحق بالثغر وقد طال مقامه، واشتاقها، وندم على فعله:

(١) يزيد بن مفرغ الحميري/ جمع د. عبد القدوس أبو صالح وتحقيقه/ مؤسسة الرسالة- بيروت/ ١٩٧٥-١٣١-١٣٢.

(٢) ديوانه/ ٩٨.

(٣) شعراء أمويون/ ج١/ ٤١.

حننتَ إلى ربا ونفستك باعدت
فما حسن أن تأتي الأمر طائعا
كأنك لم تشهد وداع مفارق
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها
نحمل أهلي من قنين وغادروا
ألا يا خليلي اللذين نواصيا
فما إنه لا بد من رجوع نظره
لمغصّب قد عزّه القوم أمره
نبرّض عنبه الصبابة كلما
فلبست عشبات الحمى برواجه
مزارك من ربا وشعباكما معا
ونجزع أن داعي الصبابة أسمعا
ولم تر شعبي صاحبين تقطعا
عن الجهل بعد الحلم أسبلنا معا
به أهل ليلي حين جيد وأمرعا
بلومسي إلا أن أطيع وأسمعا
بمانية شتى بها القوم أو معا
حياء بكف الدمع أن بتطلعا
دنا الليل أو أوفى من الأرض ميقعا
إليك ولكن خل عنبك ندمعا (١)

فالشاعر يتحدث عن حب كبير لابنة عمه لم تستطع المسافات البعيدة بينهما، ولا طول مدة الارتحال أن تمنعه أو تخفف منه، فقد بغيت حاضرة حضورا كبيرا في نفسه ووجدانه ولم تستطع امرأة أخرى أن تحل مكانها.

أما الشام مركز الخلافة؛ فإن صورة المرأة في شعره لم تكن واضحة تماما. فأغلب شعراء الشام هم شعراء وافدون إلى البلاط الأموي، والشعر الشامي خاصة في الشطر الأول من عهد الأمويين، لم يكن له طابع خاص به، لأن هؤلاء الشعراء الوافدين حملوا خصائص شعر مناطقهم التي وفدوا منها، وكان في مجمله شعر مديح، يحمل خصائص القصيدة التقليدية التي تتناسب مع طبيعة الشعر الرسمي ووقار الخلافة. أستثنى من ذلك الغزل السياسي الذي اتخذ منه بعض الشعراء، وعلى رأسهم ابن قيس الرقيات، وعبد الرحمن بن حسان وسيلة لهجاء قوم الفتاة وتجريحهم والنيل منهم. وسأعرض لهذا النوع من الغزل في فصل قادم. وقد اشتهر من شعراء الشام عدي بن الرقاع، اشتهر بشعره الرسمي فجاءت صورة المرأة عنده باهته لأنه تناولها في حدود مقدمة القصيدة فقط. وبالثوليد بن يزيد بدأ الشعر الشامي بظهر ملامح مغايرة، فأصبح امتدادا لما كان قد ظهر في الحجاز حيث امتدت الحركة الغنائية، والشعر الحضري إلى الشام وأصبح الحال يشابه الحال في الحجاز، ساهم في ذلك الثرف والغنى عند بعض الشاميين وخاصة الخلفاء وأسرهم وحاشبتهم، فقلدوا الحجازيين في كثير من فنون حياتهم.

الفصل الثالث

المرأة في الإطار الأسري

الفصل الثالث

المرأة في الإطار الأسري

شغلت المرأة بأنواعها المختلفة حيزاً واسعاً من الشعر الأموي وقد نال المرأة في الإطار الأسري قدر لا بأس به خاصة المرأة الزوجة. إنني آمل ومن خلال جمعي لهذا الشعر، واستخباره، واستنطاقه، أن ألقى ضوءاً على الواقع الاجتماعي للمرأة الأموية، وما تمثله من وظيفة اجتماعية. ولما كانت كتب الأخبار مفيدة في توضيح الصورة الوظيفية للمرأة فإنني أنوي الاستعانة بها لجلو هذه الصورة وتوضيحها، واستكمال بعض الجوانب الخافية وإضاءتها ما أمكنني ذلك. ومما زاد من ضرورة اعتمادي على هذه الأخبار اقترانها في كثير من الأحيان بالشعر، وكثيراً ما يصعب فهم الشعر بدونها.

المرأة الزوجة

كان للمرأة الزوجة حضور واضح في حياة الشاعر الأموي، إذ مدحها، وتغزل بها امرأة حبيبة إلى نفسه، فذكر مشاعر الحب والشوق لها، والوجد بها، وتخوف من فراقها، ووصفها جسداً ونفساً، ومن هؤلاء الشعراء، الطرماح، والمتوكل اللبني، وخالد بن يزيد، والحارث بن خالد المخزومي، وجبرير، والفرزدق، والعرجي... وغيرهم كثيرون. وقد كان لهذا الحب مظاهر كثيرة أخرى منها: استشارتها في أمور حياتهما، ورثائها عند موتها... وفي مقابل ذلك نرى مظاهر جفاء بين الزوجين، فقد اختلف بعض الأزواج فيما بينهم، وكرهوا بعضهم بعضاً، وقد أدى بهم هذا كله إلى الطلاق، ومن مظاهر هذا الجفاء: اللوم والنعيف، والزواج من أخرى، والهجاء المتبادل. وقد أكثر بعض الشعراء من هجاء زوجاتهم بسبب كبر السن أو البخل والحرص على جمع المال، والسفاهة، وعدم الاهتمام بالأمور العظيمة، وكثيراً ما كانت ترد عليه الزوجة، وتهجوه هي الأخرى، وغالباً ما كانت تهجوه بوضاعة النسب وضآلته، وبالبخل أيضاً، وهم من خلال أشعارهم عرضوا للمخالفات الزوجية وإلى أسبابها، وكذلك الطلاق الذي قد يندم الشاعر عليه فيما بعد، فيقول شعراً يتشوق فيه إلى مطلقة نادماً على طلاقه إياها.

كما عرضوا في أشعارهم لقضايا أخرى تتعلق بالزوجة والزواج، منها: تعدد الزوجات، وضرب الزوجة، والخوف عليها من الزواج بعد وفاة الزوج، والغيرة... إلى غير ذلك من القضايا التي سأعرض لها فيما يلي:

أولاً: مظاهر الحب والوثام بين الزوجين

وأول مظاهر هذا الحب هو التعبير المباشر عما يكنّه الشاعر لزوجته من هوى عظيم؛ يتمثل في الشوق إليها والحنين إلى لقائها ومن ذلك قصيدة معبرة قالها الطرماح يحنّ فيها إلى زوجته حينما كان بعيداً عنها، مغترباً في كرمان. فقد كان الطرماح يصفي زوجته الهوى وهو ناء عنها مغترب، فشرح في قصيدته هواه لها، وشوقه إليها، وحنينه إلى لقائها.

وهو في مطلع قصيدته يذكرنا بمطلع معلقة امرئ القيس، فقد أراد الطرماح من ليله "بهم" (١) أن بنجلي. مع أن صباحه ليس بأفضل؛ ولكنه يرى فيه لعينة بعض الراحة، لأنه يستطيع أن يقلّب نظره وبطرحه كل مطرح، وهو يطلب من هذا الصباح أن يقلّص من غير الليل، وأن ينبه الديكة، لعل الليل بنجلي سريعاً. قال:

فيا صَبَحَ كَمَشَّ غَبَرَ اللَّيْلِ مَصْعِيداً بِبِمٍ، وَنَبَّهَ ذَا الْعِصَاءِ الْمُوشَّحِ (٢)

وهو إنما يطلب ذلك من ليله وصباحه لضيقة من المقام بكرمان، ورغبته في العودة إلى بلاده؛ إلى زوجته وأسرته.

كَغَضَى حَزْناً، يَا سَلَمَ، أَنْ كَانَ ذَاهِباً بِكَرْمَانَ بِي حَوْلٍ وَلَمْ أَنْسِرْ (٣)

وهو إذ يعجز عن تحقيق اللقاء بزوجه في الواقع يطلبه في الحلم لعله يتحقق. قال:

أَنَامَ لِأَلْقَى أُمَّ سَلَمٍ، وَرَبَّهَا، رَمَانِي الْكَرَى بِالزَّائِرِ الْمَتَزَخِّزِ (٤)

ويعبّر عن حبه لزوجته وشوقه إليها، إذ يقول مخاطباً ابنه صمصاماً:

أصمصام، إِنْ تَشَفَّعَ لَأُمِّكَ تَلَقَّهَا لَهَا شَافِعٌ فِي الصَّدْرِ لَمْ يَنْبَرَحْ
إِذَا غَبَتَ عَنَّا لَمْ يَغِيبْ، غَبَرُ أَنَّهُ بَعِثْنَا لَنَا فِي كُلِّ مَمْسَى وَمُصْبَحٍ
هَلْ الْحَبِّ إِلَّا أَنَهَا لَوْ نَجَرَدَتْ لَذَبْحِكَ، يَا صَمصَامُ، قُلْتَ لَهَا: اذْبَحِي

(١) بهم/ مدينة من مدن كرمان/ وهي أرض بعيدة في الجنوب الشرقي من بلاد فارس، على ساحل البحر.

(٢) الطرماح بن حكيم/ديوانه، تحقيق عزة حسن، نشر وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي/ دمشق/

٩٨ / ١٩٦٨

(٣) المصدر السابق/ ١٠٠.

(٤) ديوانه/ ١٠١.

وإن كنتَ عندي أنتَ أحلى من الجنَى جنَى النحل أمسى واتنا بين أجبح
لظمان، في ماءٍ أحالته مَزنَةً بعبد الكرى في مَدَهْنٍ بين أطلح^(١)

ثم يعرج على صفاتها الجسدية؛ فيصفها بأنها عجزاء كالرملة اللينة، رخصة الأعالي، لينة، دفيقة الخصر.

وذكرها في نفسه تباريح من عيش الحياة المؤلم بسبب طول بعده عنها، وهو مع كل معاناته من البعد والحرمان مخلص لها أيما إخلاص، إذ لم تستطع أي فتاة مهما بلغ جمالها أن تشق طريقها إلى نفسه وتأخذ مكانها:

وذكراك ما لم نسعف الدارَ بيننا تباريح من عيش الحباة المبرح
أغارَ على نفسي لسلمة خاليساً ولو عرَضْتُ لي كلُّ ببضاء بَبْدَح
تَمَلِّح ما استطاعت وبغلبَ دونها هوى لك ينسي مَلَحَةَ المَمَلِّح^(٢)

فهو يحفظ غيبتها حفظاً كبيراً بقوله "أغار على نفسي لسلمة" إذ يفار لها على نفسه في حال غيابها فيمنع أي امرأة أن تأخذ مكانها.

ويتابع الشاعر فصيدته بعد ذلك مظهراً جزعه وخوفه من عدم عودته إلى بلاده ولقيا زوجته، وابنه صمصام، وقلقه على المصير الذي سيحل بهما إن مات وتركهما، وهو يصور ذلك تصويراً جميلاً رائعاً يظهر فيه الحرص الشديد على أسرته حياً وميتاً^(٣).

والفصيدة تصور الصراع الذي كان في نفوس العرب المسلمين الذين اغتربوا عن أرضهم مع البعوث، أو لأي سبب آخر، والشعور بالغربة الشديدة في هذه البلاد؛ رغم ما قد تكون عليه من خصب، وكثرة ماء وغنى. إلا أن الشاعر لم يستسغ هذه الأماكن، التي لا تشبه بلاده، ولا الناس فيها يشبهون ناسه وبالتالي فقد صوّر هؤلاء الشعراء شعورهم بالغربة، وشوقهم المبرح وحنينهم إلى أوطانهم، وإلى أسرهم، ورغبتهم في العودة إليهم، وخوفهم من الموت في هذه البلاد الغريبة وقد بدت المرأة في هذا كله حاضرة حضوراً كبيراً تملك نفس الشاعر، فلا يستطيع مفارقتها، ولا تستطيع امرأة أن نحل مكانها، فهي الوطن النفسي للشاعر الذي لا يرغب به بدلاً، كما لم يرغب بوطن آخر بدلاً لوطنه

(١) ديوانه / ١٠١-١٠٢ / واتنا: مقبلاً، والأجبح: مواضع النحل في الجبل تغسل فيها واحدها جيح.

(٢) ديوانه / ١٠٣-١٠٤.

(٣) انظر بقية القصيدة / ١٠٤ وما بعدها.

الأم، فهي قد استطاعت بحضورها في نفسه أن تتجاوز كل المسافات، وكل الثقافات، لتتغف هي في القمة العليا من النفس والحضور بالنسبة للشاعر وهذا الموقف يذكرنا بموقف الصّمة الغشيري من محبوبته حينما اضطره والده وعمه إلى ترك محبوبته وللحاق بالثغر^(١)، وكذلك الشاعر مالك بن الربيع في قصيدته الذائعة المشهورة^(٢).

ومن الذين كانوا يعجبون بزوجاتهم محمد بن بشير الخارجي؛ فقد كان معجباً بزوجه سعدى، وكانت كما نذكر الأخبار من أسوأ الناس خلقاً، وأشدّه على عشير، فكان يلقي منها عنثاً، فغاضبها يوماً لقول آذته به واعتزلها، وانتقل إلى زوجته الأخرى، فأقام عندها ثلاثاً، ثم اشتاق إلى سعدى، وتذكّرها، وبدا له في الرجوع إلى بيتها، فتحول إليها، وقال أبياناً أبان فيها عن مقدار حبه لها وشوقه لها، وغلبتها على عقله ونفسه، فهو لا يستطيع الصبر عنها. وهذا الحب الكبير هو الذي يدعوه إلى ابتغاء رضاها والعفو عن ذنوبها قال:

أراني إذا غلبت بالصبر حبّها أبي الصبر ما ألقى بسعدى فأغلب
وقد علمت عند التعانسب أنسا إذا ظلمتنا أو ظلمنا ستعنب
وإني وإن لم أجن ذنباً سأبتغي رضاها وأعفو ذنبها حين تذب
وإني وإن أنبت فيها بربدي بها عجباً من كان فيها يؤنب^(٣)

ومن الذين تغزلوا بزوجاتهم الحارث بن خالد المخزومي، وكان محباً لزوجته، معجباً بها، فقال يذكر هذا الحب الشديد الذي أسرته به: والذي حرك مشاعر الشوق عنده إلى لقيائها:

يا أمّ عمرانٍ مازالت وما برحت بي الصباة حتى شقني الشفق
لا اعتسق الله رقي من صبايتكم ما حرنني أنني صبّ بكم قليق
ضحكت عن مرهف الأناب ذي أسر لا قصم في ثناياها ولا روق
يتوق قلبي إليكم كني بلاقبكم كما يتوق إلى منجانيه الغرق^(٤)

(١) انظر الأغاني / ج ٦ / ٧-٨.

(٢) انظر شعراء أمويون / ج ١ / ص ٤١ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق / ج ٣ / ١٧٢.

(٤) ديوانه / ٧٣-٧٤.

-١٨٣-

إن في خطابها (بأم عمران) هو في حد ذاته تعبير عما يكنه لها من حب لأنه من باب التكريم لها، فقد كانت العرب إذا أرادت تكريم المرأة كُنَّتها، وكثيراً ما كانت تكنى باسم أبيها وقد تكنى باسم ابنها، إضافة إلى تركيزهم على صفة الإنجاب هنا فكانهم بهذه الكنية المبكرة للبنات يستعجلون أمومتها.

ومنهم كذلك خالد بن يزيد الذي شبيب بزوجه رملة بنت الزبير، والتي رفضت أن تنزوجه إلا بعد طلاق زوجته^(١) لدلَّها ونيتها، وشعره فيها بصور حبه لها وحنينه إليها، وتأثيرها على نفسه فحبه الكبير يغير طبيعة الأشياء: فالمكان الذي تنزله يصبح قريباً من النفس محبباً إليه حتى وإن كان من قبل ليس كذلك. قال:

أَحَنُّ إِلَيَّ بِنْتُ الزَّبِيرِ وَقَدْ عَلَتْ بِنَا الْعَيْسَ خَرْفًا مِنْ نَهَامَةٍ أَوْ نَعْبَا
إِذَا نَزَلْتُ أَرْضًا نَحَبَّ أَهْلُهَا إِلَيْنَا وَإِنْ كَانَتْ مَنَازِلُهَا حَرْبًا
وَإِنْ نَزَلْتُ مَاءً وَإِنْ كَانَ قَبْلُهَا مَلْبَحًا وَجَدْنَا مَاءَهُ بَارِدًا عَذْبًا^(٢)

وهو القائل لعبد الملك بن مروان، كان أبغض خلق الله عز وجل إلي آل الزبير، حتى تزوجت رملة، فصاروا أحب خلق الله إلي^(٣)، وقال فيها:

أَحَبُّ بَنِي الْعَوَامِ طَرًّا لِحَبِّهَا وَمَنْ حُبَّهَا أَحْبَبْتَ أَخْوَالَهَا كُلُّيَا^(٤)

وقد صور العرجي صراعه ومعاناته الداخلية حيث لم يستطع أن ينهي نفسه عن حب عثمة زوجته، فلقد تحول حبه لها إلى داء عميق متمكن من نفسه لا يستطيع منه انفكاكاً، فقال:

مَنْ لِنَفْسٍ عَنِ الْهَوَى لَا تَنَاهَى لَا تُبَالِي أَطَاعَهَا أَمْ عَصَاهَا
عَادِلٌ فِي الْهَوَى بَنَصْحٍ وَبِخَشَى أَنْ يَسُوقَ الرَّدَى إِلَيْهَا هَوَاهَا
لَوْ بِهِ مَا بَهَا مِنَ الْوَجْدِ لَمْ يَنْ هُوَ مُحِبًّا وَلَمْ يَبَالْ بِلَاهَا
خَامَرَتْ مِنْ هَوَى عَثِمَةَ دَاءً مُسْتَكِينًا لِحَبِّهَا أَذْوَاهَا^(٥)

(١) عمر رضا كحالة / أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام / ط٢ / المطبعة الهاشمية / دمشق / ١٩٥٨ / ج١ / ٣٩٥.

(٢) الأغاني / ج١٧ / ٣٤٤. الملح: ضد العذب.

(٣) الألوسي / محمود محمد شكري / بلوغ الأرب في أحوال العرب / تحقيق محمد بهجة الأثري / ط٣ / دار الكتاب العربي - مصر / ١٣٤٢هـ / ج٢ / ٧.

(٤) الأغاني / ج١٧ / ٣٤٤.

(٥) ديوانه / ٥٠-٥١.

وهو بعد ذلك يذكر نسبها الطبيب، وحسبها العريق الذي لا تبلغه امرأة أخرى فهي من أسرة ماجدة عريقة. (١)

وقد امتدحت العرب الزوجة بالحسب الطيب، والنسب العظيم، لأن الزوجة صورة من قومها تتخلق بأخلاقهم، وإذا ما أنجبت فد تنجب على شاكلتهم. فأبناؤها قد يكونون صورة منها، أو منهم، وأخلاقها صورة من أخلاقهم. ثم إن الزوجة ذات الحسب هي فخر لزوجها إذ لو لم يكن كفؤاً لها في حسبه ونسبه، لما زوّجها، وقد كانت العرب تزوج الكفؤ من الرجال ولا نرده، فالحسب الماجد، وحسن الأحدثه، والأخلاق الكريمة الفاضلة هي من مطامح المرأة في زوجها، وقد حرص الرجل الأموي على الزواج من ذوات الحسب والنسب واقتخر بذلك (٢). ومن مظاهر حب الزوج لزوجته تقديم الهدايا لها، فقد دخل مصعب بن الزبير يوماً على زوجته عائشة وهي نائمة ومعه ثمانى لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار، فأنبهها ونثر اللؤلؤ في حجرها (٣). ومن ذلك أيضاً إقطاعها القطائع، فقد أقطع عبد الملك بن مروان زوجته عاتكة أرضاً خارج باب الجابية سميت باسمها واتخذت بها قصراً. (٤)

من مظاهر الحب والوثام بين الزوجين مشاركة الرجل زوجته في أحزانها، فقد فقد الفرزدق اثنين من أولاده فقال يريثيها ويذكر حزن زوجته نوار عليهما:

ولو كان البكاء يرْد شيئاً	على الباكي بكيت على صقوري
إذا حنّت نوار تهيج منسي	حرارة مثل ملتهب السعير
حنين الوالدين، إذا ذكّرنا	فؤادينا، اللذين مع القبور
إذا بكينا حوارهما استحثت	جناحين خلف الأجواف خور (٥)

فهذه المشاركة الزوجية في أحزانها على ولديهما اللذين فقداهما جعلته وإياها كأنما هما نفس واحدة، وصاحباً فؤاد واحد هو هاذان الابنان المفقودان، فإذا ما تذكرتهما الزوجة وحنّت لهما تهيج بالشاعر حرارة ملتهب كالسعير. حزناً وولها على من فقد وفقدت.

(١) انظر بقية القصيدة / ٥١.

(٢) العقد / ج ٦ / ٩٧-٩٨ وفيه اقتحار الوليد بن عبد الملك والحجاج بن يوسف الثقفي كل منهما بزواجه العربيات ذوات الحسب والنسب.

(٣) تاريخ دمشق / (تراجم النساء) / ٢٠٣.

(٤) الأغاني / ج ١١ / ١٨٢.

(٥) ديواته / ١٩٥.

ومن مظاهر حب الزوجة أيضاً السعي لحمايتها وتخليصها من كل ما يمكن أن يصيبها، من ذلك تخليص عبيدالله بن الحر^(١) زوجته من السجن فقد جاء في مئة وثمانين فارساً معهم الفؤوس والكلاليب لمكابرة السجن، وقاظهم يومئذ بالكوفة، وقال مفتخراً بعمله هذا أمامها:

ألم تعلمي يا أمّ توبة أننسي أنا الفارس الحامي حقائق مَدْجَحِ
وأني صبحت السجنَ في رونقِ الصّحى بكلّ فتى حامي الزّمارِ مَدْجَحِ^(٢)

ثم يذكر صفاتها الجسدية والنفسية، فهي صاحبة خد أسيل، وجبين كقرن الشمس.. ثم يذكر مشاعر الحب الشديد نحوها بقوله:

وما أنتِ إلا منية النفس والهوى عليك سلامٌ من حبيبٍ مَسَحَجِ
وما زلتُ محزوناً بحبك واجماً وإنّي لما تلقّين من بعده شجي^(٣)
ثم يعود إلى فخره بنفسه وبشجاعته:

فبالله هل أبصرت مثلي فارساً وقد ولّجوا عليك من كلّ مولج
ومثلي حامي دون مثلك أنسي أشدّ إذا ما غمرة لم تفرج
أضاربهم بالسيف عنك لترجعي إلى الأمن والعيش الرفيع المخرّجِ
إذا ما أحاطوني كرّرت عليهم ككرّ أبي شبلتن في الخيس مَحْرَجِ^(٤)

وهذا الفخر أمام المرأة بالشجاعة، هو تقليد قديم رأيناه عند الشعراء وقد أكثر منه ابن الحرّ وكثيراً ما ابتدأ شعره بـ "ألم تعلمي يا أمّ توبة" فالمرأة كانت رمزاً من رموز الفرسان ووحياً من إحياءات الأبطال الذين اتخذوا منها مركزاً قوياً لحركة القصيدة، لذلك أكثر ابن الحرّ من الفخر بنفسه أمام زوجته في هذه القصيدة، وفي فصائد أخرى غيرها، وهو في أثناء ذلك يذكرها بموقفه الذي دافع فيه عنها، وابتغى منه إعادتها إلى حيانها الآمنة وعيشها الرفيع، فهو حريص على ذلك أيما حرص، وتبادله هي هذه المشاعر ويتبدى حرصها عليه في ظل هذا الموقف أيضاً، إذ تطلب إليه أن بدع القوم وينجو بنفسه سالماً، بعدما خلصها من السجن:

(١) عبيد الله بن الحرّ / شاعر، فاضل، من الذين شهروا بالفتك بالإسلام، انصف بالجرأة والصرافة وقد أمر المختار الثقفي بزوجه فحبست، وأقسم بالله ليقتله وليقتل أصحابه، فلما بلغ ذلك عبيد الله أقبل في فتيانه، حتى دخل الكوفة ليلاً فكسر باب السجن وأخرج امرأته وكل امرأة أو رجل في السجن.

(٢) شعراء أمويون / ج ١ / ٩٩ / وانظر الطبري أحداث سنة ٦٨٠ / ج ٣ / ٥٠٣.

(٣) المصدر السابق / ج ١ / ١٠٠.

(٤) نفسه / ج ١ / ١٠٠. المخرّج: الواسع، الشبل: ولد الأسد إذا أدرك الصبد، الخيس: موضع الأسد.

ولا غرو إلا قول سلمى ظعيني أما أنت يا ابن الحر بالمتحرج
 دع القوم لا تقتلهم وانج سالما وشمر هداك الله بالخيل واخرج (١)
 ثم يعود بعد ذلك إلى الفخر بنفسه، من شجاعة وفدرة فائقة في قيادة أتباعه
 من الغنّيان، وطاعتهم له وكرمه الكبير معهم ومع غيرهم.

ومن مظاهر حب الرجل لزوجته أن يعاف المال إذا كان سيبعده عنها، فقد خرج
 أبو دهبيل ليحوز ميراثاً له بمصر، فعاد من منتصف الطريق وقال فيها:

اسلمي أم دهبيل بعد هجر
 واذكري كرى المطي البكس
 لا تخالسي أنبي نسبك لما
 إن تكوني أنت المقدم قبلي
 ونقض من الزمان وعمر
 بعدما قد توجهت نحو مصر
 حال بيش ومن به خلف ظهري
 وأطع بنو عند قبرك فبري (٢)
 فالشاعر يقدم القرب من زوجته على أي أمر آخر، وإن كان مهماً في حياته
 كالمال، لأنه لم يرد أن يهجر زوجته الحبيبة إلى نفسه، وهو موقف يحسب له عندها،
 لذلك لا يلبث بذكرها به، لأنه يؤكد من خلاله عمق مشاعره نحوها. وفي بيته الأخير
 يصور مدى القلق الإنساني الذي يكون بين الزوجين فيمن سيسبق الآخر في الموت، فإذا
 كانت هي التي ستموت قبله فهذا يعني انتهاء الحياة بالنسبة له، وبالتالي فسرعان ما
 سيحضر قبره بالقرب من قبرها، كما يقول.

وقد يحدث هذا القلق عند الرجل نتيجة لتخوفه من زواج زوجته بعده، فيجزع
 لذلك جزعاً كبيراً، ومن هؤلاء هدية بن الخشرم الذي جزع جزعاً كبيراً خوفاً من أن
 تنزوي زوجته من شخص آخر، عندما اقتيد ليقتل بشخص آخر كان قد قتله؛ لأنه قد لا
 يكون مثله في الشجاعة والكرم فقد انفضت إلى زوجته، وكانت من أجمل النساء، فقال:

أفلي علي اللوم يا أم بوزعا
 ولا تنكحي إن فرّق الدهر بيننا
 من القوم ذا لونين وسّع بطنه
 كلبلا سوى ما كان من حدّ ضرره
 ولا تجزعي مما أصاب فأوجعا
 أغمّ الفضا والوجه ليس بأنزعا
 ولكن أذبا حليمّة ما توسعا
 أكبيرد مبطان العشيّات أروعا
 إذا القوم هشّوا للفعال تقنعا
 إذا ما مشى أوقال فولا تبلنعا (٣)

(١) شعراء أمويون / ج ١ / ١٠١.

(٢) أبو دهبيل الجمحي / ديوانه / تحقيق عبد العظيم عبد المحسن / ط ١ / مطبعة القضاء في النجف / الأشرف - العراق / ١٩٨٢ / ١١٦ / بيش: من بلاد اليمن قرب دهلك. والأغاني / ج ٧ / ١٤٥.

(٣) هدية بن الخشرم / شعره جمع: يحيى الجبوري وتحقيقه / منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي / العراق / ١٩٧٦ / ١٠٥ - ١٠٦. الغم: أن يسبل الشعر حتى يضيق الوجه والفضا والنزع: انحصار مقدم شعر الرأس من جانبي الجبهة، والعرب تحب النزع وتثمين بالأنزع، وتذم الغم وتتشاءم بالأغم وتراه لثيماً. كليلًا: جباناً. أكبهط: الكبد من كثرة الأكل الأروع: الجبان، تقنع: ليس القناع: كناية عن اختيائه لبعده وجبته، تبلنعا: تحذلق في كلامه.

فهو لا يريد من زوجته أم يوزع أن ثلومه على ما حصل، لأن اللوم لا يفيد بعدما حَمَّ القضاء، ولأن الإنسان عرضة للردى، ولا بد أنه ملاقي المنايا يوماً. لذا عليها أن لا تجزع على ما أصابه، رغم علمه بعظم المصائب، وشدة إبلامه، وما يشغله هو زواجها بعده، لذلك يوصيها بأن تختار رجلاً ذا مواصفات خاصة؛ تتلخص بأن يكون رجلاً أنزعا ليس بأغم، حليماً واسع الصدر، شجاعاً قوياً ليس بكثير الأكل، كريماً جميل الشكل... ويبدو أن جزعه ليس من فكرة زواجها بعده، بل من نوع الرجل الذي سيخلفه على امرأته. (١)

ومن مظاهر حبّ الرجل لزوجته الجزع عليها عند موتها، فيبكيها بكاء حاراً. وقد يرثيها بشعر إن كان شاعراً يبرز فيه مقدار الفاجعة التي أصابته هو وأبناؤه بسبب هذا الحدث الجلل. ومن الذين رثوا زوجاتهم فاشتهروا بذلك جرير إذ تعدّ قصيدته في رثاء زوجته "خالدة" من عبون المراثي في الشعر العربي، وهي أم ابنه حذرة ومطلعها:

لولا الحباء نعادني استعباراً ولزرت قبرك والحبيب بزاراً (٢)

وقد صوّر الشاعر ولهفه واختلاط عقله لهذا المصائب الجلل الذي أصابه لأن أولاده لا يزالون صغاراً في السن بينما هو متقدم فيه:

ولهنّ قلبي إذ علّنتني كبراً وذوو التماثم من بنيك صفاراً (٣)

ثم بمدحها بما كانت عليه من خلق عظيم وعشرة محببة، فهي علق نفيس بضن به لنفاسته، فقد عاشت معه مكرمة، وفارقت على حب جمعهما وحسن عشرة:

نعّم القربن وكنيت علق مضيّة وارى بنعف بليّة الأحجار
عمرت مكرمة المساك وفارقت ما مسّها صلف ولا إفتار (٤)

ويدعو لقبورها بالسقيا- على عادة الشعراء- من سحاب هزم ذي رعد صوته شديد، ولعل الفصد من طلب السقيا للقبور هو أن تبقى عهودها غضة من الدروس. لا يتسلط عليها ما يزيل جدتها (٥) وكأنها هو عهد من الشاعر أن تبقى ذكراها في نفسه كذلك.

(١) انظر قصة مشابهة حدثت مع عبد الرحمن بن سهل وزوجته أم هشام الأغاني / ج ١٣ / ٣٨ وما بعدها.

(٢) ديوانه / مج ١ / ٨٦٢.

(٣) ديوانه / مج ١ / ٨٦٢.

(٤) ديوانه / مج ١ / ٨٦٢. النعف أسفل الجبل وأعلى الوادي. بلية: اسم بلد. المساك: اسم الإمسك. الإفتار: العسرة.

(٥) المرزوقي / أبو علي أحمد بن محمد / شرح ديوان حماسة أبي تمام / نشر: أحمد أمين وعبد السلام هارون / ط ١ / دار الجيل - بيروت / ١٩٩١ / القسم الثالث / ١٠٥٥.

وبتذكر صفاتها مادحاً إياها بإكرام العشير وحسن الجيرة، ويتذكر جمالها، وهي مع جمالها تتميز بحسن الثناء بين الناس.

كَانَتْ مَكْرَمَةً الْعَشِيرِ وَلَمْ يَكُنْ بَخْشَى غَوَائِلَ أَمْ حَزْرَةً جَارُ
وَلَقَدْ أَرَاكَ كَسَبْتَ أَجْمَلَ مَنْظَرٍ وَمَعَ الْجَمَالِ سَكِينَةً وَوَفَارُ
وَالرِّيحَ طَيِّبَةً إِذَا اسْتَقْبَلَتْهَا وَالْعِرْضَ لَا دَنِيْسَ وَلَا خَوَارُ
وَإِذَا سَرَبْتَ رَابْتَ نَارِكَ نَوَّرَتْ وَجْهَهَا أَغْرَ بَزِينَةَ الْإِسْفَارُ (١)

ويدعو الشاعر لزوجته بدوام صلوات الله تعالى والملائكة وكل الصالحين والأبرار عليها ما رفع الحجب أيديهم بالتلبية. ثم يذكر أولئك الذين يلومونه لجزعه على زوجته وشدة بكائه عليها. ثم يختم رثاءه لها ببيت في الحكمة خلاصته أن لا بد للفرقاء أن يتفرقوا يوماً.

ومن الذين رثوا زوجاتهم أيضاً في هذا العصر الوليد بن يزيد (٢) إذ قال يرثي زوجته سلمى:

أَلَمَّا نَعَلَمَا سَلْمَى أَقَامَتْ مَضْمَنَةً مِنَ الصَّحَرَاءِ لَحْدَا
لَعَمْرُكَ يَا وَلِيدَ لَقَدْ أَجَنَّاوَا حَسَبًا وَمَكْرَمَةً وَمَجْدَا
وَوَجْهًا كَانَ يَقْصُرُ عَنْ مَدَاهِ شُعَاعَ الشَّمْسِ أَهْلٌ أَنْ يَفْدَى
فَلَمْ أَرْ مَبْتَأَ أَبْكِي لَعِينِ وَأَكْثَرَ جَازِعًا وَأَجَلٌ فَقْدَا
وَأَجْدَرُ أَنْ تَكُونَ لَدَيْهِ مَلَكَا بِرَبِّكَ جَلَادَةً وَبِسِرِّ وَجْدَا (٣)

فلقد أظهر الوليد أيضاً جزعه على زوجته سلمى ولم تمنعه من ذلك هيبه الملك، وبدا هذا الجزع واضحاً في قوله (لعمرك يا وليد...)، وهي على ما عليه من صفات تزيد من جزعه لخسارة فقدها.

(١) ديوان جرير / مج ٢ / ٨٦٣.

(٢) ومنهم أيضاً الفرزدق / حيث رثى زوجته حدراء / الديوان ٣٦٣. وكذلك مالك المزموم الخارجي رثى زوجته أم العلاء. أنظر ديوان الخوارج / ٦٠.

(٣) الوليد بن يزيد / شعره جمع د. حسين عطوان وتحقيقه / ط ١ / المطبعة الاقتصادية / عمان

مظاهر حبّ الزوجة لزوجها

- ١٨٩ -

من مظاهر حب المرأة لزوجها خوفها عليه، فعلى الرغم من تقدير المرأة العربية للشجاعة، والفخر بها، وإعجابها بالرجال الشجعان، إلا أنها كانت في الواقع تخشى على زوجها الهلاك؛ لعلمها أنها بخسارته نخسر هي وأبنائها كثيراً، فهو الزوج والأب والحامي والنصير، وهو المنفق الذي بقيها من ذلّ الحاجة أو السؤال، ومن ذلك ما رأيناه عند زوجة عبيد الله بن الحر السابق إذ حثته على الانشغال عن قتل أعدائه بالنجاة بنفسه والهرب خوفاً عليه^(١) وبسبب هذا الخوف عليه قد ترفض خروجه للحرب، فقد صوّرها النابغة الجعدي وهي تذكره بكتاب الله تبكي بكاء شديداً وتطلب إليه أن لا يتركها ويذهب فقال:

باتت تذكّرني بالله فاعدة والدمعُ ينهلُ من شأنهما سبلا
يا ابنة عمّي كتابُ الله أخرجني كرهاً وهل أمنعُ الله ما فعلا
فلان رجعتُ قربَ الناس بـرجعتني وإن لسحتُ بربي فابتغني بدلا
ما كنتُ أعرجُ أو أعمى فبَعِذَرتني أو ضارعا من ضنى لم يستطع جولا^(٢)

وكيف له أن يتأخر عن الجهاد وهو ليس بأعمى ولا بأعرج؟ ويشير الشاعر هنا إلى الجزع الذي كان ينتاب الأسر الإسلامية عند خروج الرجل مع البعوث في الجيوش، وما كان يخلق هذا الخروج من حزن في نفوس الزوجات خاصة، إذ كن يخشين عدم رجوع أزواجهن إما بسبب قتلهم، أو بسبب تجميرهم هناك، ثم اضطرارهم لبدء حياة جديدة مع أخريات، كما أن الأبيات تشير إلى ما كان يتبع في الغالب عند وفاة الزوج من اتخاذ الزوجة بدلا لزوجها المتوفى.

ومنه مشورة نوار زوجة الفرزدق عليه بأن يتنحى عن الحجاج لأنه شديد العقاب حتى أن الجن نهاه قال:

ألم نَرَ ما قالتْ نَوار ودونَها من الهمِّ لي مُستَضَمَّرٌ أنا كاتِمُهُ
تقولُ وعينَها تفيضان: هل ترى مكانَكَ ممن لا أراك تَخاصمُهُ
تَنَحَّ عن الحجاجِ إن زحامَــهُ شديدٌ إذا أغضى على من يَراحمُهُ

(١) شعراء أمويون/ ج ١/ ١٠١.

(٢) النابغة الجعدي/ ١٩٤.

ومن يأمن الحجاج، والجنّ تنقي عقوبته، الا ضعيف عرائمه (١) - ١٩٠ -

ومن مظاهر حب الزوجة لزوجها حرصها على ماله وهي قضية قديمة قدم شعر الفخر نفسه، فقد صور الشعراء الجاهليون نساءهم وهن يلمنهم على إسراف المال وكثرة البذل، واستمر على ذلك شعراء العصر الأموي، وشعراء العصر العباسي. (٢) وقد يقول قائل ما كان هذا الا مدخلا بدخله الشاعر للفخر بنفسه وكرمه وسعة بذله ولكن وإن كان هذا التفسير بصدق على بعض شعر الفخر فإن قضية الحرص على المال عند المرأة خاصة الزوجة هي قضية قديمة جديدة، إذ كانت المرأة وما زالت الأكثر حرصاً على مال زوجها، لأنها تعتقد أنه مالها ومال أولادها وعند الانفاق قد ترى بعضه إنفاقاً زائداً وتعدّه من باب العبث والإسراف لأنها الأكثر خوفاً من المستقبل الذي لا تعرف ما يخبئ لها أو لأولادها مع عدم توفر الفرص الكافية لها للعمل، وتسديد ما ينقصه الزوج. هذا إضافة إلى أن الرجل كان يشركها في تحمل سلبات الإنفاق ولا يشركها في إيجابياته كالمدح الذي يكون له دونها. وموقف الرجل من هذا الأمر فيه إشارة إلى تبعية المرأة لأنها لا تنتج كما ينتج الرجل، وبذلك ليس لها إسهام في اتخاذ القرار.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره صاحب الأغاني أن عبد الله بن الحشر كان يعطي كثيراً حتى أعطى منشفته وأعطى فراشه ولحافه، فقالت له امرأته: لشد ما تلاعب بك الشيطان، وصرت من إخوانه مبذراً كما قال الله عز وجل "إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين" فرد عليها بأبيات قال فيها:

مكارم ما تعبنا بأموالنا التدر	مكى باتينا الغيت المغيث نجد لنا
رجال وضئت في الرخاء وفي الجهر	مكارم بما جدنا إذ تمنّعت
خلاف الذي يأتي خبار بني نهدي	أردنا ما جدنا به من يلاينا
ويُسعدنا نهدي بن زيدر على الزهد	تلوم على إتلافي المال طلّني
علي ولا منكم غواني ولا رُشدي	أنهد بن زيدر لست منكم فتشفقوا

(١) ديوانه / ٥٣٢-٥٣٣.

(٢) لقد لاحظت هذا الأمر بشكل جلي عند شعراء العصر العباسي. انظر رسالتي للماجستير بعنوان "الأسرة في شعر العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري" إشراف د. عبد القادر الرباعي. جامعة اليرموك / ١٩٨٧.

+ نهدي بن زيد / هو رفاعه بين روي النهدي، كان أخاً وصديقاً لابن الحشر فقال له: يا رفاعه، ألا تسمع إلى ما قالت هذه الورهاء وما تتكلم به؟! فقال: صدقت والله وبرنا! إنك لمبذر وإن المبذرين لإخوان الشياطين. الأغاني/ج ١٢، ٢٦.

- ١٩١ -

أَبَيْتَ صَغِيرًا نَاشِئًا مَا أَرَدْنَسَمَ وَكَهَلًا وَحَتَّى تَبْصِرُونِي فِي اللَّحْدِ
سَابِذَلَّ مَالِي إِنَّ مَالِي ذَخِيرَةٌ لِعَقْبِي وَمَا أَجْنَبِي بِهِ نَمْرَ الْخُلْدِ (١)

فهو لن يتوانى عن عمل المكارم، لأنه متعود عليها، وعلى رأسها بذل ماله في الوجوه التي تعود عليه وعلى أبنائه بالحمد، فهو - كما يعتقد - الذخر الذي بدخره له ولهم لا بهمه في ذلك لومة لائم.

ومنه كذلك أن الفرزدق دخل على سلم بن زياد في سجنه وقد حبسه ابن الزبير، فطلب إليه معونته في توفير مهر زوجته النوار البالغ عشرة آلاف درهم فقال:-

دَعَسِي مَغْلَقِي الْأَبْوَابِ دُونَ فَعَالِهِمْ وَمَرِّي تَمَشِّي بِي - هُبْلِي - إِلَى سَلَمٍ
إِلَى مَنْ بَرَى الْمَعْرُوفَ سَهْلًا سَبِيلَهُ وَيَفْعَلْ أَفْعَالَ الْكِرَامِ الَّتِي تَنْوِي (٢)

فقال له: هي لك، ومثلها نفقتك، ثم أمر له بعشرين ألفاً فقبضها، فقالت له زوجته أم عثمان الثقفية: أعطني عشرين ألفاً وأنت محبوساً فقال:

أَلَا بَكَرْتُ عَرَسِي تَلُومَ سَفَاهَةً عَلَى مَا مَضَى مِنِّي وَتَأْمُرُ بِالْبُخْلِ
فَقُلْتُ لَهَا وَالْجُودَ مِنِّي سَجِيَّةً وَهَلْ يَمْنَعُ الْمَعْرُوفَ سَوَالَهُ مَثْلِي
ذَرْنِي فَإِنِّي غَيْرَ نَارِكٍ شِيمَتِي وَلَا مَقْصِرٍ عَنِ السَّمَاحَةِ وَالْبَذْلِ
وَلَا طَارِدٌ ضَيْفِي إِذَا جَاءَ طَارِقًا فَقَدْ طَرَقَ الْأَضْيَافُ شَيْخِي مِن قَبْلِي (٣)

إنه بسفه رأي زوجته ويتعلق بالبذل الذي يأمل من ورائه حسن الثناء، لقد ورث هذا عن آبائه وهو عازم على الاستمرار على نهجهم.

ومن مظاهر حرص المرأة على زوجها منعه من الزواج من ثانية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وقد تحيك المكائد لمنع ذلك الزواج، فقد كان أبو دهب يهوى امرأة من قومه يقال لها عَمْرَة، وكانت امرأة جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر وكانت عمرة توصيه بحفظ ما بينهما وكتمانه، فضمن لها ذلك واتصل ما بينهما، فوقفت عليه زوجته فدست إلى عمرة امرأة داهية من عجائز أهلها؛ فجاءتها فحادثتها طويلاً ثم قالت لها في عرض حديثها: إني لأعجب لك كيف لا تتزوجين أبا دهب مع ما بينكما! قالت: وأي شيء يكون بيني وبين أبي دهب! قال: فتضاحكت وقالت: أنسترين عنسي شيئاً

(١) الأغاني / ج ١٢ / ٢٦-٢٧.

(٢) المصدر السابق / ج ٩ / ٣٣٠.

(٣) نفسه / ج ٩ / ٣٣١.

- ١٩٢ -

تحدثت به أشراف قريش في مجالسها وسوقه أهل الحجاز في أسواقها والسقا في مواردها! فما يتدافع اثنان أنه يهواك وتهوينه؛ فوثبت عن مجلسها فاحتجبت ومنعت كل من كان يجالسها من المصير إليها. وجاء أبو دهل على عادته فحجبت وأرسلت إليه بما بكره. وفي ذلك يقول:

نطاولُ هذا الليلَ ما يتلجَّ وأعبتُ غواشي عَبرني ما تفرَّجُ
وبتُ كئيباً للهموم كأنما خلالَ ضلوعي جمرَةٌ تنوَّجُ
فطُوراً أمتي النفسَ من عمرة المني وطوراً إذا ما لجَّ بي الحزنَ أنشِجُ
وأبصرتُ ما مرتُّ به يومَ بأججٍ ظباءٌ وما كانت به العيرُ يحججُ
فإنك عيَّنَ فد أهبتَ بصاحبِ حبيبٍ له في الصدرِ حبٌّ مولجُ
لقد قَطَعَ الواشون ما كان بيننا ونحن إلى أن يوصلَ الحبْلُ أحوجُ
رأوا غيرةً فاستقبلوها بالتيهم فراحوا على ما لا تحبُّ وأدلجوا
وكانوا أناساً كنت آمن غيبيهم فلم ينههم حِلْمٌ ولم يتحرَّجوا (١)

ومن مظاهر حب المرأة لزوجها طلب رضائه، حتى وإن كان على حساب مشاعرها، فها هي زوجة يزيد بن عبد الملك تشتري له الجارية المغنية حباية لتحقيق له غايته من الدنيا ومتعها. فقد ذكر الطبري في تاريخه قال: قالت سعدة ليزيد: يا أمير المؤمنين، هل بقي من الدنيا شيء تنمناه بعد؟ قال نعم، حباية. فأرسلت سعدة رجلاً فاشتراها بأربعة آلاف دينار. وصنعتها حتى ذهب عنها كلال السفر؛ فأثت بها يزيد. فأجلسها من وراء الستر، فقالت: يا أمير المؤمنين، أبقى شيء من الدنيا تنمناه؟ قال: ألم تسأليني عن هذا مرة فأعلمتك فرفعت الستر. وقالت: هذه حباية، وقامت وخلتها عنده. فحظبت سعدة عند يزيد وأكرمها وحباها، وسعدة هذه هي من آل عثمان بن عفان. (٢) وقد يتساءل المرء هل يمكن للمرأة أن تفعل ذلك؟! ويبدو لي أنه ممكن في ذلك العصر لأن الجواري بدان بالشيوع كثيراً وأصبح الرجل أباً وأخاً وزوجاً بفتني منهن الكثير، وكان يزيد يملك ما يملك من المال والجاه؛ وقد عرفت سعدة في قرارة نفسها

(١) ديوانه / ٥٢ / وما بعدها / وكذلك الأغاني / ج ٧ / ١١٦-١١٧. ما يتلج: غواشي العيرة: ما

غشيه منها وشق عليه. بأجج: مكان على شانية أميال من مكة. اليهم: ألب بانب النبا: إذا تكلم

وحرض عليه.

(٢) الطبري / أحداث سنة ١٠٥ / ج ٤ / ١١٠.

-١٩٣-

أن يزيد سيئ تربها عاجلاً أم آجلاً رضى أم لم يرض. فرأت أن تفعل هي ذلك لعلها تحظى عنده. وقد قبل في معرض أخبار يزيد وسلامة وحبابة. أن جدته أم سعيد العثمانية فعلت ذلك لتشفله عن سلامة التي غلبت عليه قبل أن يشتري حبابة (١).

ومن مظاهر حب الزوج أيضاً مشاركته في أفراحه ومناسباته الطيبة، كمجاملته في بعض الأمور، وتقديم التهاني له بمناسباته السعيدة كالنصر وما شابه ذلك. كانت عائشة بنت طلحة بغاضبة زوجها مصعب بن الزبير، فطالت مصارمتها له. وشق ذلك عليها وعليه. وكانت لمصعب حرب فخرج إليها ثم عاد وقد ظفر، فشكت عائشة مصارمته إلى مولاة لها. فقالت: الآن يصلح أن تخرجي إليه. فخرجت فهنأته بالفتح وجعلت تمسح التراب عن وجهه. فقال لها مصعب: إني أشفق عليك من رائحة الحديد. فقالت: لهو والله عندي أطيب من ريح المسك الأذفر (٢).

ومن مظاهر حب الزوجة لزوجها رثاؤه عند موته. فإذا ما توفي ذلك الرجل الذي حرصت عليه ليظل الدرع الحصين لها ولأولادها، بكته. وتفجعت عليه، ورثته إن كانت تفرض الشعر. ومن اللواتي رثبن أزواجهن لهذا العصر الرباب زوجة الحسين بن علي إذ قالت فيه:

إن الذي كان نورا يستضاء به	بكر بلَاءٍ فتيل غير مدفون
سيط النبي جزاك الله صالحه	عنا. وجنبت خسران الموازين
قد كنت لي جبلاً صعباً ألود به	وكننت نصحبنا بالرحم والدين
من الليثامي ومن للسائلين ومن	بغني ويأوي إليه كل مسكين
والله لا أبغني صهراً بصهركم	حتى أغيب بين الرمل والطين (٣)

ومن اللواتي رثبن أزواجهن في هذا العصر أيضاً ميسة بنت جابر، وكانت عند حارثه بن بدر. وكانت ميسة تذكر بجمال وعقل ولسان. فلما هلك حارثه تزوجها بشر بن شعاف بعده فلم تحمه. فقالت ترثي زوجها السابق: الحارثه:

بَدَلْتُ بِشْراً شَقَاءً أَوْ مُعَاقِبَةً	من فارسٍ كان قَدْماً غيرَ خَوَارٍ
بِأَ لِبْتَنِي قَبْلَ بِشْرٍ كَانَ عَاجِلَنِي	دَاعٍ مِنْ اللَّهِ أَوْ دَاعٍ مِنَ النَّارِ (٤)

(١) مروج الذهب / ج ٢ / ١٩٦

(٢) الأغاني / ج ١١ / ١٨٢

(٣) الأغاني / ج ١٦ / ١٤٢

(٤) الأغاني / ج ٨ / ٤١٣

وقد وصف الأخطل بكاء الزوجة على زوجها وأسراب النساء تأتي لتعزيتها، في رثاء يزيد بن معاوية بقوله:

تَصْبِحُ المَوَالِي، أن رأوا أُمَّ خَالِدٍ مَسْلَبَةً، تبكي على الماجدِ، الغَمْرِ
إذا جاء سِرْبٌ من نساء يَعدُّنها تجردن إلا من جلابيبٍ، أو خَمْرِ (١)

ومن مظاهر حبّ الزوجة لزوجها الوفاء له بعد وفاته، فقد كثرت القصص التي تشير إلى وفاء الزوجة لزوجها بعد وفاته حتى عقد بعض الكتاب عنواناً لهذا الموضوع في كتبهم (٢) ومن قصص الوفاء التي شاعت في هذا العصر قصة زوجة هدية بن الخشرم، فقد بلغ منها الجزع مبلغاً كبيراً حينما أفتبد لبقثل، وقال أباها السابقة بنصحها فيمن تزوج، وما هي الشروط التي يجب أن تتوافر فيه، فمالت إلى جزار وأخذت سفرته، فجذعت بها أنفها، وجاءته ندمى مجدوعة فقالت: أنخاف أن يكون بعد هذا نكاح؟ فرسف في قيوده وقال: الآن طاب الموت. (٣)

ومن اللواتي شُهرن بالوفاء لأزواجهن بعد وفاتهم، ورفضن الزواج من بعدهم: الرباب زوجة الحسين بن علي وكانت من خيار النساء وأفضلهن فخطبت بعد قتل الحسين عليه السلام، فقالت: ما كنت لأتخذ حمأ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. (٤)

مظاهر جفاء العلاقة بين الزوجين

قلما تخلو الحياة الزوجية من الخلافات، ولكن هذه الخلافات تختلف في أسبابها وطبيعتها، وسدتها، وبالتالي فإنها قد تكون سبباً في جفاء العلاقة الزوجية، وقد تشد هذه الخلافات فتتحول إلى خلافات شديدة تنتهي بالطلاق، وكذلك كان حال الأزواج في العصر الأموي، فقد بدا الجفاء في جوانب من علاقات بعضهم، وكان هناك نهج بينهم، وقد وصلت هذه الخلافات في بعضها إلى حدّ الطلاق.

(١) ديوانه / ج ٢ / ٥٣٣. المسلبة: اللابسة ثياب الحداد. السرب: الجماعة. تجردن: شققن ثيابهن، فخرجن منها.

(٢) الجوزية / ابن قيم الجوزية / أخبار النساء / شرح وتحقيق نزار رضا / منشورات مكتبة الحياة / بيروت.

د.ت / (باب ما ذكر من وفاء النساء) / ١٢٥.

(٣) الأغاني / ج ٢١ / ٢٧٠.

(٤) الأغاني / ج ١٦ / ١٤١.

-١٩٥-

وأول مظاهر هذا الجفاء اللوم؛ فقد تلوم الزوجة زوجها وتعاتبه على فعوده وقلة ماله تريد من ذلك كله حثه على العمل والخروج لكسب الرزق لها، ولأولادها، وهي كذلك تذكره بواجبه تجاه أسرته وحقوقها عليه، وكثيراً ما ينفع مثل هذا اللوم، فيحقق مبتغاهما؛ فقد وصف جرير لوم زوجته وحثها إياه على الخروج لكسب الرزق في قصيدة قالها بمدح عبد الملك بن مروان:

نَعَزْتُ أُمَ حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ رَأَيْتَ الْمَوْرِدِينَ ذَوِي لِفَاحٍ
تُعَلِّلُ - وَهِيَ سَاغِبَةٌ - بَنِيهَا بِأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّبِمْ الْقَرَّاحِ
سَأْمَنَاحَ الْبَحُورِ فَجَنَّبِينِي أَدَاةَ اللُّومِ وَانْتَظِرِي امْتِاحِي (١)

صحيح أن مثل هذا الشعر قد يكون من باب تحفيز الممدوح إلى العطاء، وهو يتكرر في شعر المديح، لكنه يشير أيضاً إلى ما كان يعمل في نفس الزوجة حينما نصيق ذات يد الرجل، ويجلس دونما عمل، وهو لا يملك المال الذي نحتاجه أسرته، فترى أن من واجبه حثه على الخروج لكسب الرزق له ولأسرته. (٢)

ومن ذلك قول الشاعر جبهاء الأشجعي لزوجته وقد نصحته بالهجرة إلى المدينة لتحسين ظروفهم المعيشية:

قَالَتْ أَنْبَسَةُ دُعْ بِلَادَكَ وَالتَّيْسُ دَاراً بِطَيِّبَةٍ رَبَّهِ الْآطَامِ
نَكْتَبُ عِيَالَكَ فِي الْعَطَاءِ وَتَفْتَرِضُ وَكَذَاكَ يَفْعَلُ حَازِمُ الْأَقْوَامِ
فَهَمَمْتُ ثُمَّ ذَكَرْتُ لَيْلَ لِفَاحِنَا يَلُوى عُنَيْرَةً أَوْ بَقْفَ بَشَامِ
إِذْ هَنَّ عَنْ حَسْبِي مَذَاوِدُ كَلَمَا نَزَلَ الظَّلَامُ بِعَصْبَةِ أَغْنَامِ
إِنَّ الْمَدِينَةَ لَا مَدِينَةَ فَالزَّمِي حِفْفَ السَّنَادِ وَقَبَّةَ الْأَرْجَامِ (٣)

ومن أسباب اللوم والعتاب بين الأزواج التعلق بالجواري. فقد بدأت الجواري منذ هذا العصر ينافسن المرأة الحرة على قلب الرجل العربي. وبدأ هؤلاء الرجال يتعلقون بالجواري، ويقدمونهن خاصة في أخريات هذا العصر، فقد ذكر الثعالبي عن بعضهم أن عبد الله بن محمد بن بشير البصري قال: علق أبي جارية لبعض الهاشميين فبعثت أمي إليه تعاتبه، فكتب إليها:

(١) ديوانه / ج ١ / ٨٨. الساغية: الجائفة. النفس من الماء: ما كان مروياً كافياً. الشبم: البارد

(٢) انظر كذلك، تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) / ٥٥٠ / قصة أم مسلم الخولانية حيث حث زوجها للخروج إلى معاوية بن أبي سفيان لطلب معونته وقد قدم فصل الشتاء وهم لا يملكون شيئاً.

(٣) الأغاني / ج ١٨ / ٩٦-٩٧ / وشعراء أمويون / ج ٢ / ٢٤.

لا تَتَّبَعَنَّ لَوَعَةً إِنْشَرِي وَلَا هَلْعَا
 بل ائْتَسِي نَجْدِي إِنْ ائْتَسَيْتِ أَسَى
 مَا نَصْنَعِينَ بَعِينَ عَنْكَ طَامِحَةً
 إِنْ قُلْتِ قَدْ كُنْتَ فِي وَدٍّ وَتَكْرِمَةٍ
 وَأَيُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمِعْتَ بِهِ
 لَمْ تَبْقِ عَيْنَا حَسِينَ عِنْدَ لِحْظَمِهَا
 وَمَنْ بَطِيقَ مَذَكٍّ عِنْدَ صَبْوَتِهِ
 وَلَا تُفَاسِنُ بَعْدِي الْهَمَّ وَالْجَزْعَا
 بِمِثْلِ مَا قَدْ فَجَعْتَ الْيَوْمَ قَدْ فَجَعَا
 إِلَى سَوَاكِ وَقَلْبِ عَنْكَ قَدْ نَزَعَا
 فَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ ذَاكَ قَدْ مُنَعَا
 إِلَّا إِذَا صَارَ فِي غَابَاتِهِ انْقِطَعَا
 لَغِيرِهَا فِي قَوَادِي بَعْدَهَا طَمَعَا
 وَمَنْ يَقُومَ لِمُسْتَوْرٍ إِذَا خَلَعَا (١)

فالشاعر يعلن لزواجه بأنه قد أصبح غير راغب فيها، وأن عبئه طمحت عنها إلى هذه الجارية، وما عليها إزاء ذلك إلا أن تقبل الأمر رغماً عنها. ولا شك أن هذه الفصيذة تصوّر حال بعض النساء، اللواتي كن يعانين من سلطة الرجل التي لا تمنعه من عمل ما بغضب زوجته دون أن يكثر في ذلك بما كان بينهما من ود. ولا بهمه بعد ذلك موقف زوجته أو مشاعرها تجاه فعله هذا.

ومن دواعي لوم المرأة لزوجها النصابي. ومن الذين نالهم كثير من اللوم بسبب ذلك العَرَجِي حتى مله سمعه قال:

نَلِكْ عِرْسِي تَلُومُنِي فِي النَّصَابِي
 أَهْجَرْتُ فِي الْمَلَامِ تَزَعَمُ: أَنِّي
 إِنْ رَأَيْتُ رَوْعَةً مِنَ الشَّبَبِ صَارَتْ
 نَحْسَتْ لَيْلٍ بِكَفِّ قَابِسٍ نَارٍ
 مَلَّ سَمْعِي وَمَا تَمَلَّ عِثَابِي
 لَاحَ شَيْبِي وَقَدْ تَوَلَّى شَبَابِي
 فِي قَذَالِي مَيِّبَةً كَالشَّهَابِ
 اعْتَشَاهَا بَعَارِضٍ مِنْ سَحَابِ (٢)

ولكنه يرفض منها هذا رفضاً شديداً ويؤكد لها أنه لن ينتهي عن طلب الغواني:

قُلْتُ: مَهْلًا فَقَدْ عَلِمْتَ إِبَائِي
 لَيْسَ نَاهِيٍّ عَنْ طِلَابِ الْغَوَانِي
 وَرَكُوبِ إِذَا الْجَبَانَ تَطَلَّوْا
 أَحْمِلِ السَّيْفَ فَوْقَ أَفْرَحٍ وَرِدِ
 أَجْشَمَ الْهَوْلِ فِي الْكَعَابِ وَقَدْ مَا
 مِنْكَ هَذَا، وَقَدْ عَلِمْتَ جَوَابِي
 وَخُطَّ شَيْبٍ بَدَا وَدَرَسَ خِضَابِ
 فَرَفَأَ عِنْدَ عِرْسِيهِ فِي الثَّيَابِ
 ذِي حَجَّوْلِ كَأَنَّهُ سَيِّدُ غَابِ
 جَشِمَ الْهَوْلَ ذُو الْهَوَى فِي الْكَعَابِ (٣)

(١) شعراء أمويون / ج ٣ / ١٨٧. وانظر كذلك في هذا المجال ما كان بين مصعب بن الزبير وعائشة بنت

طلحة تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) / ٢١٩.

(٢) ديوانه / ١١٤-١١٥.

(٣) ديوانه / ١١٥.

-١٩٧-

فهو يرى أن ملاحقة الغواني من مظاهر الفتوة ودليل رجولة وشباب، ومن هنا فهو لا ينصاع للوم زوجته، ويحاول أن يقلل من شأن الشيب الذي بدأ يظهر في مفرقه وذلك بتأكيد اتباع منهج الحياة الذي تعود عليه، وتعوده كذلك الرجال الشجعان من قبله.

ومن أسباب اللوم والعتاب بين الزوجين المبيت خارج المنزل، فقد كان عبد الرحمن ابن سبحان بنادم الوليد بن عثمان على الشراب، فبيبت عنده خوفاً من أن يظهر وهو سكران، فيجد، فقالت له امرأته: قد صرت لا تبتي في منزلك وأظنك تزوجت، وإلا فما مبيتك عن أهلك، فقال لها شعراً يشرح فيه سبب غيابه عن بيته دافعاً ظن زوجته به قال:

لا نعدميني نديماً ماجداً أنفاً	لا قائلاً فاذفاً خلتاً بيّهتان
أغرّ راووفه مَلانَ صافية	تنفّي الفدى عن جبين غير خزيان
سبينة من فُرى بيروت صافية	عذراء أو سُبُت من أرض بيسان
إنا لنشربها حتى تمبل بنسا	كما تمايسل وسنان بوسنان ^(١)

ومن طريف ما يذكر في هذا المجال ما كان من رجل من أهل الشام كان مع الحجاج يحضر طعامه، فكتب إلى امرأته يعلمها بذلك فكتبت إليه:

أنهدي لي الغرطاس والخبز حاجتي	وأنت على باب الأمير بطين
إذا غبت لم تذكر صديقاً ولم تُفم	فأنت على ما في يدك ضنين
فأنت ككلب السوء في جوع أهله	فبهزل أهل البيت وهو سمين ^(٢)

فالأبيات تصور واقعاً مهماً في هذا العصر، بل ربما في كل عصر حيث إن المرأة تعرف حقوقها على زوجها، وعلى رأسها توفير أبسط مقومات الحياة بالنسبة لها، ومنها الطعام، ونجد أن ذلك أنفع لها من الكذب والرسائل، وما شابه ذلك وهي هنا تذكره بهذا الواجب وتعتفه تعنيفاً شديداً؛ لأنه نسي حاجتها إلى الطعام، مع أنه يعمل في تحضيره، فكأنها تشير إلى أنه قد شبع هو في حين ترك أهل بيته جائعين، مما يدل على سوء خلقه.

وقد يؤنب الرجل زوجته بسبب افتضاح أمره بشعر قاله زوجها السابق، فقد أنب زوج لبنى إياها لافتضاح أمره بشعر قبس فيها.^(٣)

(١) الأغاني / ج ٢ / ٢٥٦.

(٢) تاريخ دمشق / تراجم النساء / ٥٨٨.

(٣) الأغاني / ج ٩ / ٢٠٨-٢٠٩.

- ١٩٨ -

ومن مظاهر الجفاء بين الزوجين مغايظتهم لبعضهم بعضاً. وشماتة أحدهم بالثاني فقد تقوم بعض الزوجات بمغايظة زوجها؛ سواء كان ذلك من باب إثارة كنوع من إظهار الدل والاهتمام والممازحة، أو من باب المغايظة الحقيقية التي تنم عن نوع من الجفاء. فمن النوع الأول ما كان من عائشة بنت طلحة، فقد ذكر صاحب الأغاني أنها كانت من أشد الناس مغايظة لأزواجها. وكانت تكون لمن بجيء لحديثها في رقيق الثياب، فإذا قالوا جاء الأمير، ضمت عليها مطرفها وقطبت، وقبل كان عمر بن عبيد الله أشد الناس غيرة، فدخل يوماً على عائشة وقد ناله حرّ شديد وغبار، فقال لها انفضي التراب عني، فأخذت منديلاً تنفض عنه التراب، ثم قالت له: ما رأيت الغبار على وجه أحد قط كان أحسن منه على وجه مصعب، فكان عمر يموت غيضاً^(١)

ونجد مثل هذه المغايظة للزوج أو المغاضبة له كثيراً عند بعض النساء الحجازيات خاصة. كعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، وبعض نساء الخلفاء في البلاط الدمشقي كعائكة بنت يزيد،^(٢) فقد أوردت كتب الأخبار كثيراً من أحوالهن مع أزواجهن وأيضاً ما كان يفعله الزوج لاسترضاء زوجته الغاضبة فقد كان يكلف في ذلك بعض خاصته، أو بعض الشخصيات الفكاكية التي عرفت في ذلك العصر، كأشعب الذي اشتهر في بيئة الحجاز وبخاصة في قصص سكينة، ولعل مثل هذه المغايظات النسائية كانت نتيجة شعور المرأة بقيمتها في مجتمعتها، وفي نفس زوجها، فقد وصلت المرأة إلى مكانة كبيرة، وقد أشعرها من حولها بقيمتها في حسيها ونسبها وفي مالها، واستقلالها الاقتصادي، وفي جمالها وقدرتها على غزو قلب الرجل، والتمكن من قلبه وعقله كل ذلك جعلها تظهر دلالها على زوجها، وتحقق لنفسها ما قد يشعرها بقيمة نفسها، وشخصيتها.

وأما النوع الثاني من المغايظة الذي يظهر فيه الجفاء، فمثاله ما كان من زوجة عبد الله بن معاوية، حينما خطب ربيعة بنت محمد، وخطبها كذلك بكار بن عبد الملك بن مروان، فتزوجت بكاراً، فشمتت به زوجته أم زيد فقال:

(١) الأغاني / ج ١١ / ١٨٧.

(٢) انظر في ذلك أخبار عائشة بنت طلحة / ج ١١ / ص ١٧٧ / وأخبار سكينة بنت الحسين / ج ٢ /

٢٦٥-٢٦٦ / وانظر كذلك خبر عائكة مع زوجها يزيد / ج ٢ / ٢٨٢٢

سلا ربّة الخدر ما شأنها ومن أيّما شأننا نَعَجِبُ^(١)
 فلست بأول من فأنه على إربه بعض ما بطلَبُ
 وكائن تعرّض من خاطب فزوّج غير النّي يخطبُ
 وأنكحها بعده غيرُه وكانت له قبله تحجبُ^(١)

وببدو أنه كان لهذا الشعر أثر في نفسها لأنه روي في خبرهما أنها وبعد سماعها هذا الشعر قالت له: والله ما شمت ولكني نفست عليك فقال: لا جرم والله. لا سؤتك أبداً ما حبيت.

ومنه أيضاً أن امرأة أنصارية هزئت بمحمد بن بشير الخارجي وقالت فيه والله ما أرى فيه خيراً وما أشبهه إلا بعبدنا أبي الجون. وبلغ زوجته هذا القول، فعيرته بذلك. وكانت إذا أرادت غيظه كنته أبا الجون. فقال في ذلك:

وأبدي الهدايا مارأيت معاتياً من الناس إلا الساعدينة أجمالُ
 وقد أخطأتني يوم بطحاء منعم لها كفّ بصاد فيها وأحبّل
 وقد قال أهلي خير كسب كسبته أبو الجون فاكسب مثلها حين ترحلُ
 فإن بات إضاعي بأمر مسرة لكن فما تسخطن في العيش أطولُ^(٢)

ولعل الذي أثار الزوجة في مثل هذه الكنية أنه جاء من امرأة كان الشاعر معجباً بها، فهي تذكره بأنه غير مرغوب فيه عند النساء وجميل منها هي أن ترضى به في حين لا ترضى به غيرها. لذا فقد رأت في هذه القصة سبباً لمفايظته وإثارته.

ومن مظاهر الجفاء بين الزوجين أيضاً الملل فقد كانت المرأة تمل زوجها أحياناً بسبب بعده عنها للسفر مع الفتوح، أو لأي سبب آخر. فإذا ما طال هذا البعد، فقد تمل هي الانتظار وتمل العلاقة التي تربطهما. وهذا ما كان من شماء إحدى زوجات حارثة بن بدر الغداني التي طلقها بسبب وشاية من أحد أصدقائه مفادها أنها قد صاحبت غيره. فقال معللاً ما كان منها أنها ملته بسبب بعده الطويل عنها:

لعمرك ما فارقت شماء عن فلي ولكن أطلست الناي عنها فمَلَّتْ
 مقبماً بمروود لا أنا قافِلٌ إليها ولا تدنو إذا هي حلتِ^(٣)

(١) عبد الله بن معاوية / شعره / جمع عبد الحميد الرازي / ط١ / مؤسسة الرسالة / بيروت / ١٩٧٦ / ٢٨.

(٢) الأغاني ج ١٦ / ١١٦ / شعراء أمويون / ج ٣ / ١٩٣-١٩٤.

(٣) المصدر السابق / ج ٨ / ٤١٢.

-٢٠٠-

فهو بـصور طبيعة النفس البشرية التي تتحمل الأشياء إلى حد معين. كذلك كانت زوجته، فقد أصبح هو مقيماً بمروّزود لا يستطيع العودة إليها. وكذلك لا نستطيع هي القدوم عليه. وحينما بطول الزمن على هذه الحال فقد يحدث الملل والجفاء بل الطلاق أيضاً.

ومن مظاهر الجفاء بين الزوجين تنكر الزوجة لزوجها لكبر سنه، في حال ما تكون هي صغيرة في السن، فقد ذكر أنه كان لأبي الأسود الدؤلي امرأة من بني قشير وامرأة من عبد القيس، فأسنّ وضعف عما يطيقه الشباب من أمر النساء، فأما القشيرية فكانت أقدمهما عنده وأسنهما، فكانت موافقة له، صابرة عليه. وأما الأخرى وكانت أشبههما وأجملهما فالتوت عليه لما أسنّ، وتنكرت له وساءت عشرتها، فقال فيها أبو الأسود شعراً منه:

أفاطم مهلاً بعض هذا التعبس	وإن كان منك الجدّ فالصرم موثسي
نشتم لي لما رأنتي أحبها	كذي نعمة لم يئدها غير أبوس
فإن تنقضي العهد الذي كان بيننا	وتلوي به في ودك المتحلّس
فإني - فلا يغرك مني تجلّي -	لأسلكي البعاد بالبعاد المكنّس (١)

ومنه كذلك ما ذكره صاحب الأغاني من أن عقيل بن علفة لما تزوج زوجته الأنمارية - وقد كبر - فرت منه، فلقبها جحاف، أحد بني قتال بن يربوع، فحملها إلى عامل فدك، وأصبح عقيل معها، فقال الأمير لعقيل: ما لهذه نستعدي عليك يا أبا الجرباء؟ فغلل ذلك بكبر سنه وضعفه. (٢)

أما مظاهر الجفاء من الزوج لزوجته فتتمثل في مغابظتها بتعدد الزوجات، بل تهديدها بذلك، فقد ذكر صاحب الأغاني أنه حين قدم يزيد بن معاوية على أم خالد زوجته من المدينة، وقد تزوج أم مسكين بنت عمر بن عاصم... فحملت إليه بالشام، فأعجب بها وجفا أم خالد، وقد دخل عليها وهي تبكي فقال:

مالك أم خالد تبكيسن	من قدير حلّ بكم تصجّين
باعت على بيعك أم مسكين	مبمنة من نسوة مبامبن

(١) ديوانه / ١١١-١١٢ / وانظر الأغاني / ج ١٢ / ٢٢٧.

(٢) الأغاني / ج ١٢ / ٢٢٦.

حَلَّتْ مَحَلَّكَ الَّذِي تَحَلَّيْنِ زَارَتْكَ مِنْ بَثْرَبٍ فِي جَوَارِبِنِ

فِي مَنْزِلٍ كُنْتَ بِهِ تَكُونِينَ (١)

وقد تزوج محمد بن بشير الخارجي ابنة عم له، وهي كارهة له فلما رأى استخفافها به، قال:

تَنَاقَلْتُ أَنْ كُنْتُ ابْنَ عَمٍّ نَكَحْتِهِ فَمَلَّتْ وَقَدْ بَشَعَى ذُوو الرَّاْيِ بِالْعَذَلِ
فَإِنَّكَ إِلَّا تَتْرَكِي بَعْضَ مَا أَرَى تَنَازَعْتُكَ أُخْرَى كَالْقَرِينَةِ فِي الْحَبْلِ
تَلْزُكَ مَا اسْطَاعَتْ إِذَا كَانَ قَسَمُهَا كَفَسَمِكَ حَقًّا فِي التَّلَادِ وَفِي الْبَعْلِ
مَنْى نَحْمَلُهَا مِنْكَ يَوْمَ لِحَالَةٍ فَتَتَّبَعُهَا نَحْمَلُكَ مِنْهَا عَلَى مِثْلِ (٢)

ومثل هذا الشعر يوضح موقف المرأة من تعدد الزوجات، أو من جلب ضرة لها، إذ لا ترى فيها مشاركة ومنافسة على قلب زوجها فحسب؛ بل على كل ما يخصه وبممتلكه. "باعت على بيعك أم مسكين" و "في منزل كنت به تكونين"، ولعل البيتين الأخيرين للخارجي يوضحان ذلك أكثر بقوله "تلزك" فهذه الكلمة تصور وقع الضرة على الزوجة الأولى. لذا اتخذ بعض الرجال الزواج الثاني خير وسيلة لتهديد الزوجة، ومن ذلك ماهدد به الفرزدق زوجته سويداء:

أَلَا زَعَمْتَ عِرْسِي سَوَيْدَةً أَنَّهَا سَرِيعٌ عَلَيْهَا حِفْظَتِي لِلْمَعَاتِبِ
وَمَكْثَرَةٍ بِسَا سَوْدٍ وَدَّتْ لَوْ أَنَّهَا مَكَانُكَ، وَالْأَقْوَامُ عِنْدَ الضَّرَائِبِ (٣)

فكثيرات هن اللواتي يبنين مكانها، وهو بمن في حسبه وشماله قادر على استبدالها، ولكن الذي يشفع لها أبناؤها الذين يحبهم، ويدخرهم لكبره:

وَلَوْ لَا أَبْنَاؤُهَا الَّذِينَ أَحَبَّهُمْ، لَقَدْ أَنْكَرْتُ مِنْى عُنُودَ الْجَنَائِبِ
وَلَكِنَّهُمْ رِيحَانٌ قَلْبِي، وَرَحْمَةٌ مِنْ اللّٰهِ أَعْطَاهَا مَلِكُ الْعَوَاقِبِ
بِقُودُونِ بِي إِنْ أَعْمَرْتَنِي مَنِيَّةً وَبَنَاهَوْنَ عَنِي كُلَّ أَهْوَجٍ شَاغِبِ
هَمَّ بَعْدَ أَمْرِ اللّٰهِ شَدَّوْا حَبَالَهَا. وَأَوْنَادَهَا فَبِنَا بِأَبْيَضٍ شَاقِبِ (٤)

(١) الأغاني / ج ١٧ / ٣٤٢. ديوانه / ٣٤.

(٢) انظر قصتها في الأغاني / ١٦ / ١٣٣.

(٣) ديوانه / ٢٨.

(٤) ديوانه / ٢٩.

ومن مظاهر الجفاء الأخرى ضرب الزوجة فقد كان جار لشريح القاضي بضرب زوجته فقال شريح في ذلك:

رَأَيْتَ رَجَالًا يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمْ فَشَلَّتْ بِيَمِينِي بِسُومِ أَضْرِبَ زَيْنَبَا
الْأَضْرِبَهَا فِي غَيْرِ جَرَمٍ أَتَتْ بِهِ إِلَيَّ، فَمَا عَذْرِي إِذَا كُنْتُ مَذْنِبَا (١)

ومن مظاهر الجفاء بين الزوجين المهاجاة بين الأزواج، إذ كثرت هذه المهاجاة في العصر الأموي؛ ولم يكن هذا العصر هو العصر الوحيد الذي شهد مثل هذه الظاهرة التي استقطبت كثيراً من الأشعار التي يهجو فيها الرجل زوجته، أو التي تهجو فيها المرأة زوجها.

كان هجاء النساء لأزواجهن في اتهامهم بالبخل والجبن وندني الحسب. أما هجاء الرجال لزوجاتهم فكان في وصفهن بالسفاهة والبخل ونهاية الأشياء التي تهمهن. من ذلك ما قاله إسماعيل بن يسار في رثائه محمد بن عروة بن الزبير متهماً زوجته بانسغالها في أمور صغيرة ناسية ذلك الحدث الجلل الذي حدث بدمشق وهزه من الأعماق:

تلك عرسي رامتُ سفاهاً فِراقِي واسْتَمَلَّتْ، فَمَا نَوَاتِي عِنَاقِي
زَعَمْتُ أَنَّهَا مَلَائِكِي مَعَ الْمَا لِي، وَأَنْبِي مُحْسَالِيكَ الْإِمْلَاقِي
ثُمَّ نَامَتْ عِيُونُهَا بَعْدَ وَهْنٍ حُسْنِي الصَّابِ جَفْنُهَا وَالْمَاقِي
وَتَنَاسَتْ مُصِيبَةُ بَدْمَشَقٍ أَشْخَصْتُ مَهْجَنِي فُؤُوقَ التَّرَاقِي (٢)

أما مسكين الدرامي، فبنساءه إن كانت زوجته معتلة، أم أن ما بها فقط وحمى غضب نشتهي الصخب، ذلك أنها تكثر لومه. ويقول: لا تلمها لأنها من نسوة ذوات خلق سيء بغضبهن أدنى شيء، لا عرف لهن في الكرم والخلق مثل شמוש الخيل نشغب في كل وقت وفي كل مناسبة. قال:

أَصْبَحْتُ عَادَلْتِي مَعْتَلَةً فَرَمَا، أَمْ هِيَ وَحْمَى لِلصَّخْبِ
أَصْبَحْتُ تَنْفَلُ فِي شَحْمِ الدَّرَى وَتَنْظُنُّ الْيَوْمَ دَرًا بِنْتَهَسْبِ
لَا تَلْمَهَا إِنَّهَا مِنْ نِسْوَةٍ "مَلَحَهَا مَوْضُوعُهُ فَوْقَ الرُّكْبِ"
كَشْمُوسِ الْخَيْلِ يَبْدُو شَغْبَهَا كَلِمَا فَبِلَ لَهَا هَالٌ وَهَبْ (٣)

(١) الأغاني / ج ١٧ / ٢٢٣.

(٢) ديوانه / ٤٥.

(٣) مسكين الدرامي / ديوانه / جمع وتحقيق عبد الله الجبوري و خليل العطية / ط ١ / مطبعة دار البصري / بغداد ١٩٧٠ / ص ٢٣-٢٤.

ومن الذين هجوا زوجاتهم لهذا العصر الفرزدق حيث هجا زوجته نوار. (١) كما أنه هجا زوجته رهيمة النمرية (٢) وكذلك ابن عبدل فقد تزوج امرأة من همدان فقالوا له: علام تزوجت. فقال:

نزوجتْ همدانيةً ذاتَ بهجةٍ على نَمَطِ عاديةٍ ووسائدِ
لعمري لقد غالبتُ بالمهرِ إنه كذلكُ بَغالِي بالنساءِ المَواجِدِ (٣)

فلما دخل بها كرهها، فقال يهجوها في قصيدة هجاء مرأ منها هذه الأبيات:

وقالت ما نسلادك قلتَ مالي حِمَارٌ ظَالِعٌ ومزادنان
وبوريٍّ وأربعةٍ زَبَوف وثوبسًا مُفْرِسٌ متخَرِّفان
وقطعةً جَلَّةَ لا نَمُرُ فيها ودنا عومسٍ مَنقَابِلان
فقلت قد رضيتَ فسَمِّ الفأ ليسمعَ ما نقولُ الشاهدان
وما لك عندنا ألفٌ عثيد ولا تسمعَ تَعَدُّ ولا ثَمَّان
ولا سَبَّحَ ولا سِيتَ ولكن لكم عندِي الطويلُ من الهوانِ (٤)

والأبيات توضح مسألة المهر وما تطلبه المرأة. واختلاف الزوجين حول هذا الأمر.

ومن طريف ما يروى من هذا التهاجي ما كان يقوله الرجل فنرده عليه زوجته. فقد كان لجندل بن الراعي امرأة من بني عقيل، وكان بخيلاً، فنظر إليها يوماً وقد هزلت، وتحدد لحمها فأنشأ يقول:

عَقْلِيَّةٌ أَمَّا أَعَالِي عِظَامِهَا فَعَوَجٌ وَأَمَّا لَحْمُهَا فَقَلِيلُ
فقلت مجيبةً له عن ذلك:

عَقْلِيَّةٌ حَسَنَاءُ أَرَى بَلَحْمِهَا طَعَامٌ لَدَيْكَ ابْنُ الرَعَاءِ قَلِيلُ

فجعل جندل يسبها ويضربها، وهي تقول: قلت فأجبت، وكذبت فصدفت، فما غضبك؟ (٥)

(١) ديوانه / ٤١١-٤١٢.

(٢) ديوانه / ١٦١.

(٣) الأغاني / ج ٢ / ٤١٨-٤١٩.

(٤) المصدر السابق / ج ٢ / ٤١٩ / البوري: الحصر المنسوج من القصب / فارسيّ مدرب. الجلة: فقة كبيرة للتمر. وانظر كذلك هجاء عمار ذو كبار لزوجته في الأغاني / ج ٢ / ٢٢٢-٢٢٥.

(٥) نفسه / ج ٢٤ / ٢١٨. وجندل هو ابن الشاعر المعروف الراعي النميري.

-٢٠٤-

ومما يذكر في أخبار أبي وجرة أنه تزوج زينب بنت عرقطة فولدت له عبداً.
وكانت قد عنست، وكان أبو وجرة يبيعها، وإنما أقام عليها لشرفها، فقال لها ذات يوم:

أعطى عبداً وعبيد مَفْنَعُ من عِرمسٍ مَحْزَمَها جَلَنَفَعُ
ذات عِساسٍ ما تَكَادُ تَشْبَعُ تجلند الصَّحْنِ وما إن تَبْضَعُ
نَمَرٌ في الدارِ ولا تَوَرَّعُ كأنها فيهم شجاعٌ أَفْرَعُ

فقالت: زينب نجيبه:

أعطى عبداً من شَيْخٍ ذي عَجَرٍ لا حَسَنَ الوجهِ ولا سَمَحَ بَسَرٍ
يشرب عَسَّ المدْفِرِ في اليومِ الخَصِرِ كأنما بَقْدِفٌ في ذاتِ السَّعَرِ
تَقادِفُ السَّيْلِ مِمنِ الشَّعْبِ المَضِرِ (١)

ومن الشاعرات اللواتي اشتهرن بهجاء أزواجهن حميدة بنت النعمان بن بشير: فقد عرف عنها كثرة هجائها لأزواجها، فقد قالت في زوجها الحارث بن خالد المخزومي وقد تزوجها حينما قدم على عبد الملك بن مروان شعراً توضح فيه تفضيلها للدمشقيين من كهول وشبان على أبناء الحجاز الذين جاءوا إلى دمشق، وتشير إلى أن لهم رائحة كريهة كرائحة صنان النبوس لم تنفع في إزالتها أنواع العطور المعروفة آنذاك، لذا تظهر ندمها على الزواج منه:

نكحت المدينيَّ إذ جاءني فيالكٍ من نَكْحَسٍ غاوبيه
كَهَسُولٍ دمشقيٍّ، وشَبَّانَها أحسبُ إلينا من الجاليسه
صَنَكانَ لهم كَصَنانِ التَّبُو سِ أعيا على المِسْكِ والغالبيه

فرد عليها الحارث بقول يشابه قولها، إذ فضل نساء مكة على نساء دمشق ولو كنَّ في المقبرة فهن أشهى إلى نفسه من اللواتي يسكنن دور دمشق ويشبه رائحتهن التي هي مزيج من الصنان والمسك بريح المرق.

أَسْنا ضَوْءُ نارِ صُمرةٍ بالقَفِّ سره أبصرت أم سنا ضَوْءُ برقِ
فاطناتِ الحَجَّونِ أشهى إلى قَلِّ بي من ساكناتِ دورِ دمشقِ
بنضوءِ عَنِّ لو تَصَمَّخُنَّ بالمسِّ سَكِّ صَناناً كأنه رِبْحٌ مَرَقِ (٢)

(١) الأغاني / ج ١٢ / ٢٤٦ / العرمس: الناقة الشديدة الصلبة. والمحزم: ما وضع عليه الحزام، يعني البطن.

العساس: القدح الضخم. ذات السع: حر النار. الشعب المضر: سيل الماء القريب.

(٢) ديوانه / ١٢١ / وانظر أخبارها في الأغاني / ج ٩ / ٢٢٧ وما بعدها.

وقد هجت حميدة هذه زوجها روح بن زنباع. وهناك حوار هجائي بينه وبينها أوردته الأصفهاني منه:

إِنْ نَبِكَ مِنَّا نَبِكَ مِمَّنْ يَهِينُهَا وَإِنْ تَهَوَّكُم نَهَوَّ اللُّثَامُ الْمَغَارِفَا

وقالت هي:

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مَهْرَةٌ عَرِيبَةٌ سَلِيلَةٌ أَفْرَاسُ تَجَلَّلَهَا بَغْلٌ
فَإِنْ نُنَجِّتْ مَهْرًا كَرِيمًا فَبِالْحَرَى وَإِنْ بَسَكَ إِقْرَافٌ فَمَا أَنْجِبِ الْفَحْلُ (١)

ومن اللواتي هجون أزواجهن ميسة بنت جابر: زوجة بشر بن شُعاف. وقد أشارت في شعرها إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يختر لها عندما استخارته في زواجها من بشر، بل كأنما أراد تعذيبها إذ أوقعها في بليّة، وتدعو الله أن يخلصها منه، لما هو عليه من مظهر كربه، وأخلاق لنيمة:

مَا خَارَ لِي دَوَّ الْعَرْشِ لَمَّا اسْتَخَرْتَهُ وَعَذَّبَنِي أَنْ صِرْتُ لَابِنِ شُعَافِ
فَمَا كَانَ لِي بَعْلًا وَمَا كَانَ مِثْلَهُ يَكُونُ حَلِيبًا أَوْ بِنَالًا إِلَاقِي
فِيَا رَبِّ قَدْ أَوْفَعْتَنِي فِي بَلِيَّةٍ فَكُنْ لِي حِصْنًا مِنْهُ رَبِّ وَكَافِ
وَنَحْ إِلَهِي رِبْقَتِي مِنْ بَدِ امْرِئٍ شَتِيمٍ مَحْبِسًا لِكُلِّ مَصَافِي
هُوَ السَّوَاءُ السَّوَاءَ لَأَخِيرَ عِنْدَهُ لَطَالِبِ خَيْرٍ أَوْ أَحَدٍ قَوَافِي
بَرَى أَكْلَةً إِنْ نَلْتَهَا قَلَعَ ضَرْسَهُ وَمَا نَلَّكَ زَلْفَى بِآلِ عَبْدِ مَنْافِ
وَإِنْ حَادَثَ عَضُّ الشَّعَافِي لَمْ يَكُنْ صَلِيبًا وَلَا ذَا نَدْرَأَ وَقُذَافِ (٢)

لقد استطاعت الشاعرة أن تصور لنا مدى الكراهية التي تعمل في نفسها تجاه زوجها. وذلك بما انتقته من ألفاظ نصف حبانها المعذبة (عذيني. بلية. ونحّ إلهي ربقتي). وبما انتقته من صفات له - (السوأة، لآخر عنده لطالب خير). ووصف بخله وجبنه، ومن هنا لجأت إلى الله سبحانه وتعالى ليكون لها حصناً ومخلصاً في آن واحد. وذلك من شدة العاجعة التي أصابها بزواجها من بشر هذا.

(١) انظر حوارهما الطويل في الأغاني ج٩ / ٩٢٢ وما بعدها.

(٢) الأغاني ج٨ / ٤١٣. الربة: العقدة. شتيم المحيا: كريمة. الأحذ: الذي لا يتعلق به شيء، لجوده.

الطلاق

قد تؤدي مظاهر الجفاء السابقة بين الزوجين إلى الطلاق إذ كان الطلاق شائعاً في هذا العصر كما يبدو من شعر شعرائه. ومن كتب الأخبار أيضاً. وكان له أسباب كثيرة منها:-

عنبية الطلاق فقد كان الطلاق عند فئة من فئات المجتمع سهلاً جداً يتم لأقل الأسباب، ولا شك أن بعض أفراد هذه الفئة كانوا يملكون من المؤهلات ما يهون عليهم كثرة الطلاق، والزواج سواء من حيث المال لدفع المهر أو من حيث المكانة الاجتماعية التي تسهل عليهم الزواج مرة أخرى ممن يريدون. ومن أشهر القصص التي تروى في هذا المجال قصة الوليد بن يزيد الخليفة الأموي الذي طلق زوجته سعدى لأنه أعجب بأختها سلمى وأراد الزواج منها، ولما لم يستطع تنفيذ الزواج من سلمى، عاد يطلب سعدى، وعندما استلم الخلافة عاد وخطب سلمى وتزوجها. وقد قال شعراً في الأثنين (١) ومما قاله نادماً على طلاق زوجته سعدى:

أسعدت هـل إليك لنا سبيل	وهل حتى القيام من تلاقبي
بلى ولعل دهرأ أن يؤاني	بموت من حبيبك أو طلاق
فأصبح شامتا وتفر عيني	ويجمع شملنا بعد افتراق
فطلقها، فليست لها بكفء	ولو أعطيت هندا في الصداق (٢)

وحينما أراد خالد بن يزيد بن معاوية الزواج من رملة بنت الزبير رفضت إلا أن يطلق زوجته، وكان عنده زوجتان فطلقهما (٣) وقد يطلق الرجل زوجته لإرضاء إحدى زوجاته الأخريات، فقد ذكر أن أم حكيم تزوجت من عبد العزيز بن الوليد فلم تنزل عنده مدة، ثم تزوج ميمونة بنت عبد الرحمن بن أبي بكره فملكته، وأحبها حباً شديداً، وذهبت بعقله كل مذهب، فلم ترض منه إلا بطلاق أم حكيم، فطلقها، فتزوجها هشام بن عبد الملك، ثم مات عبد العزيز، فتزوج هشام ميمونة أيضاً، وكان شديد المحبة لأم حكيم، فطلق لها ميمونة، افتصاصاً لها فيما فعلته بها في اجتماعها عند عبد العزيز... (٤)

(١) الأغاني / ج ٧ / ٢٥ وما بعدها.

(٢) ديوانه / ١٥٢ / الهند: اسم للمئة من الإبل.

(٣) أعلام النساء / ج ١ / ٣٩٥.

(٤) الأغاني / ج ١٦ / ٢٧٧.

-٢٠٧-

وقد تطلب المرأة نفسها الطلاق في قصص نوحى بما وصلت إليه المرأة من عزة نفس وإحساس بالأنفة؛ إذ هي ترفض أن تكون عالة على زوجها، أو أن تكون محط شغفته، فهي لا ترضى ضعفاً أو شفقة. فقد روت كتب الأخبار أن زوجة المتوكل اللبني أصابها مرض أفعدها فطلبت الطلاق من زوجها وأصررت عليه، فطلقها، ثم إنها برئت بعد الطلاق. فقال قصيدته فيها والتي مطلعها:

ففي قبل التفريق يا أماما وردّي قبل بترككم السلاما
طربت وشاقتني يا أمّ بكر دعاء حمامة تدعو حماما (١)

والحق أنه في قصيدته لا يذكر السبب الذي قاله الأصبهاني من كونها أفعدت فطلبت الطلاق، ولكنه يشير إلى أن الواشين هم الذين سعوا بينهما. ولا أدري إن كان في قوله هذا يشير إلى الأسباب الكامنة وراء طلاقه إياها. قال:

سعى الواشون حتى أزعجوها ورث الحبيل فانجذم انجذاما (٢)

وقد تطلب المرأة الطلاق كذلك إذا أراد الرجل تغيير مكان سكنه. فقد قدم محمد ابن بشير الخارجي البصرة، فتزوج بها امرأة من عدوان، كانت موسرة. فأقام عندها بالبصرة مدة، ثم طالبها أن ترحل معه إلى الحجاز فرفضت، وقالت فلما أن نقيم معي ها هنا أو تطلقني. (٣)

ومن طريف الأمر أن تعترف الزوجة الأولى بأن الزوجة الثانية أفضل منها. ونخاصم زوجها وتطلب منه الطلاق. هذا ما كان من أم حقة زوجة الشاعر معن بن أوس فقد خرج إلى البصرة، وتزوج هناك امرأة جميلة موسرة تدعى ليلي. فلما رأتها أم حقة قالت لمعن: هذه والله خير لك مني فطلقني، ثم مالبت أن تطلق ليلي. فلما عرفت أم حقة الخبر، قالت: والله لو كان قبك خير ما فعلت ذلك. فطلقني أنا أيضاً. ومما قاله لأم حقة في مطالبتها إياه بالطلاق:

كأن لم يكن يا أمّ حقة قبل ذا بميطان مصطاف لنا ومراع
وإذ نحن في غصن الشباب وقد عسا بنا الآن إلا أن يعوض جازع
فقد أنكرنّه أمّ حقه حادثاً وأنكرها ما شئت والودّ خادع

(١) ديوانه / ١١٠ / وانظر الخبر مع بعض الشعر في الأغاني ج ١٢ / ١٦٠-١٦١.

(٢) ديوانه / ١١٤.

(٣) الأغاني / ج ١٦ / ١٢٠.

-٢٠٨-

ولو آذنتنا أمَّ جُفَّةَ إذ بنا
شباب واذ لما ترعنا الروائع
لقلنا لها بيني بلبل حميدة كذلك بلا ذم تؤدى الودائع (١)

وقد نشعر المرأة بقيمة نفسها، وعظم نسبها، وتوقفها على زوجها، فنشعره بكرها له، وعدم رغبتها فيه؛ كالذي حدث للحجاج مع زوجته هند بنت النعمان بن بشير وكانت من أحسن نساء زمانها خلقاً وأدباً ولطفاً وفصاحة، ولها إلمام بالنثر والنظم، فوصف للحجاج حسننها، فخطبها، وبذل لها مالا كثيراً، ولما رحل بها إلى العراق دخل عليها في بعض الأيام وهي تتمثل بشعر تظهر فيه توقفها عليه في حسنها وجمالها ونذمه، فطلقها، وبعث لها في طلاقها عبد الله بن طاهر فقالت له أعلم: باین طاهر أنا كنا فما حمدنا، وبنا فما ندمنا، وأعطته المئتي ألف درهم التي كان أرسلها لها الحجاج، بشارة بخلاصها من كلب ثقیف كما سمته هي. (٢)

وكثيراً ما كان يطلق الرجل زوجته فيندم بعد ذلك، وتتبعها نفسه، وقد عقد ابن عبد ربه في كتابه العقد فصلاً بهذا العنوان (٣). ومن هؤلاء في هذا العصر معن بن أوس في طلاق زوجته ليلى، والمتوكل الليثي في طلاق زوجته أم بكر، ومحمد بن بشير الخارجي في طلاق زوجته البصرية، وحارثة بن بدر في طلاق زوجته السماء، وغيرهم كثيرون. ومما قاله أبو قطيفة حينما طلق زوجته، فنزوحها رجل من أهل العراق، ثم ندم بعد أن رحل بها الزوج وصارت إليه:

فيا أسفاً لفرقة أمِّ عمرو ورحلت أهلكها نحو العراق
فليس إلى زيارتها سبيلٌ ولا حتى القيامة من تلافِي
وعَلَّ اللهَ يَرْجِعْهَا إلينا بموتٍ من حَليلٍ أو طلاقٍ
فأرجِعْ شامناً وتفرَّعِنسي ويَجْمَعْ شملنا بعد افتراقٍ (٤)

(١) ديوانه / ١٠٨ / وانظر الشعر كذلك في الأغاني وتفاصيل الخبر / ج ١٢ / ٦٠ وما بعدها. ميطان: اسم مكان. عسا: غلظ ويبس.

(٢) زينب يوسف العاملي/ الدر المنثور في طبقات ربات الخدور/ ط١ / دار المعرفة - بيروت

١٣١٢هـ / ٥٣٢-٥٣٣.

(٣) العقد / ج ٧ / ١١٥.

(٤) الأغاني / ج ١ / ٣٥. وقد ورد البيت الأخير في مقطوعة للوليد بن يزيد في صفحة سابقة

- ٢٠٩ -

ومن هؤلاء أيضاً الفرزدق بعدما طلق النوار. وقد كانت هي التي طلبت الطلاق، وتوسّطت في ذلك كثيراً لأجل تحقيقه (١) ولعل الذي دفع النوار لذلك أمران: الأول: أن الفرزدق قد تحايل عليها في عملية الزواج منها، فهي لم ترضَ به زوجاً، وإنما هو فعل ذلك حينما أوكلت إليه أمر نفسها بحكم قرابته لها لتزويجها من شخص آخر أرادت الزواج منه، لكنه غشّها وحول الأمر إلى نفسه، والثاني: أنها لم ترضَ مارأت منه من أخلاق؛ خاصة أنها كانت توصف بحسن الخلق، وما كانت النوار لنصرّ على طلاقها منه، ولو بعد حين إلا لأنها كانت تتمتع بشخصية فوية، ومعرفة بحقوقها الدينية والدنيوية معاً. وكانت الغيرة كذلك سبباً من أسباب الطلاق، فقد طلق القتال الكلابي امرأته بنت ورفاء بن الهيثم عندما وجد عندها جرير بن الحصين وقال في ذلك:

ولما أن رأيت بني حصّين	بهم جَنَفَ إلى الجاراتِ بادِ
خَلَعْتَ عِذارها وَلَهَيْتَ عنها	كما خَلَعَ العِذارَ من الجوادِ
وقلّت لها: عليك بني حصّين	فمما بيني وبينك من عَوادِ
أُنَادِيهَا وما يومٌ كيوم	فضى فيه امرؤٌ وطَرَ العَوادِ
فرحت كأنني سيفٌ صَقِيلٌ	وعَزّت جارةً ابن أبي قَرادِ (٢)

وقد طلق حارثة بن بدر زوجته؛ وذلك أنه ائتمن أحد أصحابه عليها حينما خرج إلى خراسان، فما كان من هذا صاحب إلا أن أحب الزوجة، فأرسل إلى بدر يخبره بتغيرها بعده، وأنها فضحته من تلعب الرجال بها، فطلقها، ثم ندم على ذلك. (٣) وإذا كان القتال قد أخذ بالظن دون اليقين، وكذلك فعل الحارثة بن بدر، فإن مسكين الدارمي رفض هذا المبدأ، ورفض كذلك أن يجلس لزوجته في البيت مراقباً لها، وهو لا يمنعها من الخروج فيحول بيتها إلى قبر قبل الممات، لأنه مقتنع بأنه إذا لم تحصن الزوجة زوجها فليس ينجبها بناء فصر لها. وهو كذلك يأبى أن يأخذ الأمور على محمل الظن بل يتأكد من صحة أي خبر يردده قبل أن يتخذ منه موقفاً. قال:

(١) انظر أخبارهما في الأغاني / ج ٣ / ٣٦٣-٣٦٤ / وكذلك ج ٢١ / ٢٨٦.

(٢) القتال الكلابي / ديوانه / تحقيق د. احسان عباس / دار الثقافة - بيروت / ١٩٦١ / ٤٧. الجنب: الميل

والجور. خلع عذارها: طلقها.

(٣) الأغاني / ج ٨ / ٤١٢ / وللقصة تفاصيل وفيها شعر كثير.

إلى جنبِ عُرْسِي لا أفارقها شَبْرًا
لأجعلَه قبل المماتِ لها قَبْرًا
فليس يَنْجِبُها بنائي لها قَصْرًا
على غَيْرَةٍ حتى أحيط به خُبْرًا
فكيف إذا ما غبتُ من بيتها شَهْرًا^(١)

وإني امرؤ لا آلفُ البيتَ قاعدًا
ولا مَقْسَمٌ لا نبرحُ الدهرَ بينَها
إذا هي لم تَحْضِنْ أمامَ فتاتها
ولا حاملٌ ظني ولا قال قائل
وهبني امرأ راعيتٌ مادمتُ شاهدًا

ومن جميل قوله في الغيرة:

وأفبح الغيرةَ في كلِّ حينٍ
مناصباً فيها لوهم الظنون
بخافٍ، أو ينصبها للعيون
منك إلى خلقٍ كريمٍ ودينٍ
فتبشعُ المقرونَ حبلَ القرين^(٢)

ما أحسنَ الغيرةَ في حينها
من لم يزلْ متهمًا عرسه
يوشكُ أن يَغْرِبَها بالذي
حسبكُ من تحصينها ضَمًّا
لا نظهرنَّ منك على عورةٍ

فهو هنا ينزع، منزعاً أخلاقياً مهماً وذلك بطلبه من الزوج أن يكون القدوة لزوجته والمثال الحسن لها، فهي حينما ترى منه التزام مبدأ الأخلاق، فإنها ستلتزمه، والعكس صحيح.

وقد يكون السبب وراء الطلاق بين الزوجين عدم الإنجاب، أو غيرة أم الزوج من تعلق ابنها بزوجته كما هو الحال في قصة فيس ولبنى.^(٣)

وقد وصف الأخطل المرأة المطلقة والنساء بعدنها بقوله:

وأضحكتُ عامرَ نعتادٍ دَوْسًا
كما اعتسَدَ المَطْلَفَةُ النساءُ
يَطْفَنُ بها، وما يغنين شيئاً
وقد بَيَّنِّي، على الصِّلَفِ، الخِباءُ^(٤)

ومن طريف الأمر أن يتذكر الزوجان، زواجهما السابق؛ فيندم كل واحد منهما على فراق شريكه الأول، ويبكي كل واحد منهما على ما فاتته، فقد طلق أعرابي امرأته فتزوجها الأخطل، وكان الأخطل قد طلق امرأته قبل ذلك، فبينما هي معه إذ ذكرت زوجها الأول فتتغست؛ فقال الأخطل:

(١) ديوانه / ٤٧-٤٨.

(٢) ديوانه / ٦٧.

(٣) الأغاني / ج ٩ / ١٨٣.

(٤) ديوان الأخطل / ج ٢ / ٧٥٧ / الصلف: ألا تحظي المرأة عند زوجها.

كَلَانَا عَلَى هَمٍّ بَيْتٍ كَانَمَا بَجَنَّبِيهِ مِنْ مَسِّ الْفَرَاشِ فُروَحٌ - ٢١١ -
عَلَى زَوْجِهَا الْمَاضِي تَنَوَّحَ وَإِنِّي عَلَى زَوْجَتِي الْآخَرَى كَذَكَ أَنْوَحُ (١)

الزَّوْجُ الْكَفُّ

تطلعت العرب إلى تزويج الرجل الكفء ولم ترده، واختلفت المعايير المأخوذ بها في هذه الصفة من أسرة إلى أخرى، ومن فئة اجتماعية إلى أخرى، إلا أنهم كادوا يجمعون على صفة الحسب العالي، والنسب الكريم، فيه، لأنه سيكون صاحب خلق طيب، وحسن أدونة، وسيكون رجلاً نبيلًا شجاعاً. ولكن لم تكن هذه المعايير دائماً هي المقدمة عند المرأة أو عند أهلها، فقد تفضل الرجل الغني، أو الذي في سن الشباب إلى غير ذلك من الصفات التي قد تكون محببة للمرأة ولذويها.

فقد قيل في سبب فرض عبد الملك بن مروان الصداق أربعين ديناراً لا يزداد عليها؛ أنه خطب امرأة من فريش يقال لها زينب، ونافسه فيها رجل من أهل بيته، فقال لها ذلك الرجل أَصْدَقْتُكَ عِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ؛ فتزوجته وترك عبد الملك (٢) واختارت ابنة عم العجير السلولي شخصاً موسراً عليه عندما خيّرهما أبوها بينهما وكانت تهواه ويهواها. وقد قال فيها شعراً منه:

أَلَمَّا عَلَى دَارِ لَزِينَبَ قَدْ أَنَى لَهَا يَلِوِي ذِي الْمَرْخِ صَبَفٌ وَمُرْبَعٌ
وَقَوْلَا لَهَا قَدْ طَالَمَا لَمْ تَكَلَّمِي وَرَاعَاكَ بِالْعَيْنِ الْفَوَادُ الْمَرْوَعُ
وَقَوْلَا لَهَا قَالَ الْعَجِيرُ وَخَصَّنِي إِلَيْكَ، وَإِرْسَالُ الْخَلِيلَيْنِ يَنْفَعُ
أَأَنْتِ النَّبِيَّ اسْتَوْدَعْتُكَ السَّرَّ فَاَنْتَحَى لِي الْخَوْنُ مَرَّاحٌ مِنَ الْقَوْمِ أَفْسَرَعُ (٣)

إلى نهاية القصيدة التي يعاتبها فيها على ما كان منها، ويفخر بنفسه، وكأنه بهذا الفخر يذكرها بأنه يملك ما هو أفضل من المال. وفي هذا المجال تذكر قصة عبدالله ابن جعفر عندما زوج ابنته من الحجاج بسبب المهر الذي دفعه إليه، وقد قال فيه سعيد ابن المسيب: إِنْ أَبَاهَا لَمْ يَزُوجْ إِلَّا الدَّرَاهِمَ، (٤) وقد اتهم فليس صاحب ليلى بأن أهلها لم يزوجه لرجل من ثقيف إلا بسبب ماله: (٥)

(١) انظر القصة مع الشعر في الأغاني / ج ٨ / ٢٩٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) / ١١٨. وزينب هذه هي زينب بنت عبد الرحمن المخزومية.

(٣) الأغاني / ج ١٣ / ٧١.

(٤) انظر تفاصيل القصة في الأغاني / ج ١٥ / ١٠.

(٥) ديوانه / ١٥٦.

-٢١٢-

وقد يشتط الأب في مهر ابنته فيؤدي بالخاطب إلى تركها والرحيل إلى بلاد أخرى، كما حدث مع الصمّة القشيري الذي خطب ابنة عمه فاشتط والدها بمهرها ورفض والده مساعدته، فمضى من وجهه حتى لحق بالثعر. (١)

وقد تتحكم الأم في مصير زواج ابنتها أيضاً، فترفض ابن عمها الفقير، حتى إن كان يتمتع بصفات كثيرة كالفضاحة والجود والمنعة، وتأمل لها زوجاً موسراً، فقد ردّ مزاحم العقيلي على عمه حينما علم برد طلب الزواج من ابنته باعم، أنقطع رحمي، وتختار علي غيري لفضل أباعر تحوزها، وطفيف من الحظ نحطى بها وقد علمت أنني أقرب إليك من خاطبها الذي تريده، وأفصح لساناً، وأجود كفاً، وأصفح جانباً، وأغنى عن العشيبة! فقال لاعليك فإنها صائرة إليك وإنما أعلل أمها بهذا، ولكن ما لبثوا أن زوجها من رجل موسر، فقال في ذلك:

خليلتي هل من حيلة تعلّمانها	بقرب من ليلى إلينا احتيالها
فإن بأعلى الأخشبين أراكه	عدتني عنها الحرب دان ظلالها
وفي فرعها لو تستطاع جنابها	جنيّ بجنتيه المّجنتي لو ينالها
هنيئاً لليلي مهجة ظفرت بها	وتزويج ليلى حين حان ارتحالها
فقد حبسوها محبس البدن وابتنى	بها الربح أقوام تساخف مالها
فإن مع الركب الذين تحمّلوا	عمامة صيف زعزعتها شمالها (٢)

وقد ترفض المرأة خاطبها لأنه صعلوك فقير بنفق ماله في الخمر، خطب أبو جلدة امرأة من بني عجل يقال لها خليعة بنت صعب، فأبت أن تتزوجه وقالت: أنت صعلوك فقير لا تحفظ مالك، ولا تلقى شيئاً إلا أنفقته في الخمر وتزوجت غيره، فقال أبو جلدة: شعراً يفخر بنفسه ويخبرها أن الذي أذهب ماله كرمه ومساعدته للآخرين، ويخبرها أيضاً أنها لو رأت شجاعته لسرها أن تكون خادمة له لا زوجة فحسب:

لما خطبت إلى خليعة نفسها	قالت خليعة ما أرى لك مالا
أودى بمالي يا خليع تكرمي	وتخرّفي ونحملني الأثقالا
إنسي وجدك لو شهدت موافقي	بالسفنح يوم أجّل الأبطالا
سيفي، لسرك أن تكوني خادماً	عندي إذا كره الكماء نزالا (٣)

(١) انظر تفاصيل القصة والشعر في الأغاني / ج ٦ / ٧-٨.

(٢) انظر تفاصيل القصة مع الشعر ج ١٩ / ٩٩ وما بعدها، وكذلك ديوانه / ١٢٣-١٢٤.

(٣) الأغاني ج ١١ / ٣٢٠.

- ٢١٣ -

كما قد نكره المرأة سواد اللون في الخاطب وترده بسبب ذلك. فقد خطب مسكين الدارمي فتاة من قومها فكرهته لسواد لونه وقلة ماله أيضاً، وتزوجت رجلاً آخر ذا يسار له مثل نسب مسكين، فمر بها يوماً وهي جالسة مع زوجها، فقال فيها شعراً يفتخر فيه بنفسه وبهجوها:

أنا مسكين لمن يعرفني لوني السمرة ألوان العرب
من رأى ظيماً عليه لؤلؤ واضح الخدين مقروناً بضرب
أكسبه الورق البيض أباً ولقد كان وما بدعي لأب (١)

وقد تبادر المرأة ذاتها فتطلب الزواج من الرجل إن رأت فيه ما يعجبها، أو ما يفيدها، فقد كان أبو الأسود الدؤلي يحلس إلى فناء امرأة بالبصرة فيتحدث إليها، وكانت برزة جميلة، فقالت له: يا أبا الأسود، هل لك في أن أتزوجك، فإني صناع الكف، حسنة التدبير، قانعة بالميسور قال: نعم فجمعت أهلها، فتزوجته، فوجد عندها خلاف ما قدره، فغدا على من كان حضر تزويجه إياها فسألهم أن يجتمعوا عنده ففعلوا، فقال لهم:

أريت امرأة كنت لم أبله أتانني فقال: اتخذني خليلاً
فخاللتني ثم أكرمته فلم أستمذ من لدنه فتبلاً
والفنيته حين جربته كذوب الحديث سروفاً بخيلاً
فذكرته ثم عانته عتاباً رفيقاً وفسولاً جميلاً
فالفنيته غير مستعجب ولا ذاكر الله إلا قليلاً
السبت حقيقاً بتوديعه واتبع ذلك صرماً طويلاً (٢)

وقد تصر المرأة على مثل هذا الطلب إن ذكرها الشاعر أو زارها وخشيت المضيحة، فقد ذكر في أخبار عمر بن أبي ربيعة في قصة طويلة له مع كلثم المخزومية أنها قالت حين استأذنها في الخروج من بيتها بعد زيارته لها: بعد أن فضحتني لا والله لا تخرج إلا بعد أن تتزوجني ففعل وتزوجها. (٣)

(١) الديوان / ٢٢. وقد مر بعض هذا الشعر وذكر أنه قاله في زوجه ولكن صاحب الأغاني يذكر بعض هذا الشعر في هذه المناسبة / ج ٢٠ / ٢١١. ومثل هذا السبب أيضاً كان وراء رد خطبة الشاعر نصيب من فتاة أمجينة. انظر: نصيب بن رباح، شعره / تحقيق د. داود سلوم / مطبعة الإرشاد - بغداد / ١٩٦٧ / ٥٨. والأغاني / ج ١ / ٣٥٤.

(٢) ديوانه / ١٢٢.

(٣) الأغاني / ج ١ / ٢٠٤ وما بعدها. وانظر في هذا المجال أيضاً ج ٢ / ١٤٥ حيث عرضت امرأة من الكوفة الزواج على الشاعر الحكم بن عديل.

رغم الدور الكبير للأم في حياة الأسرة بعامه، وفي حياة الأبناء خاصة، فإن حضورها في الشعر كان أقل بكثير من حجم دورها الحقيقي ولعل ذلك راجع إلى سببين اثنين الأول: أن العرب كرهت أن تذكر الحرم في أشعارها ومنها الأم، وبالتالي قل ذلك الشعر الذي يتحدث عن الأم ودورها في حياة الابن، والثاني: أن الحديث عن الأم قلما يصلح لأن يكون مقدمة للقصة العربية كما هو الحال بالنسبة للمرأة الحبيبة سواء أكانت زوجة أم لم تكن، وبالتالي لم يصلنا مثل هذا الشعر إن كان قيل فعلا وأما بالنسبة للشعر الذي قالته الأمهات في أبنائهن، فهو أيضاً قليل، ولعل قلته هذه امتداد لقله شعر المرأة عامة؛ سواء الذي قالته النساء فعلا أو على الأقل الذي وصل إلينا.

ويمكن تقسيم هذا الشعر الذي بين يدي إلى قسمين الأول: يعرض لمظاهر حب الأم لأبنائها، والثاني يعرض لمظاهر حب الابن لأمه وسأستعين بالأخبار لما فيها من فائدة في توضيح صورة الأم لهذا العصر.

مظاهر حب الأم لأبنائها

من مظاهر حب الأم لأبنائها الحرص عليهم فقد كانت الأم وما زالت الأكثر حرصاً على أبنائها، منذ مرحلة التفكير في الحمل بهم، وإلى أن يكبروا، ويصبحوا رجالاً، فهي تدأب على رعايتهم أجنة في بطنها، بل حتى قبل ذلك، ثم أطفالاً صغاراً، وأولاداً كباراً ثم رجالاً.

ففي مرحلة التخطيط للحمل تختار الأم الوقت الذي تتوقع أنه الأفضل للحمل، فتختار أيام الطهر وتتجنب منها الوقت الذي يكون قبل الحيض مباشرة لاعتقادها أن الحمل في مثل هذه الأيام ينجب لها ابناً ضعيفاً، ثم هي تفتخر بأنها ولدت بطريقة سليمة، وليس منكساً، وتحرص على رضاعته رضاعة طبيعية، وبشروطها الصحيحة؛ فتجعل فاصلاً بين كل حمل وآخر، حتى لا ترضعه حليباً فاسداً، (وهو الذي يكون أثناء فترة الحمل). ثم بعد ذلك تقوم بتربيته تربية سليمة جسدياً ونفسياً، فهي تحرص على أن ينمو نمواً نفسياً صحيحاً، وذلك بأن تهدهده، وتلاعبه، وتضاحكه، وتنميه على مسرة، ولا تنميه مستوحشاً مغموماً بسبب جوع أو ألم أو ضيق، فقد قالت ليلي الأخيلية للحجاج حين سألها عن ولدها وقد أعجبه ما رأى من شبابه: "إني والله ما حملته سهواً، ولا

أرضعته بئناً، ولا وضعته غيلاً، ولا أنمته تنفاً". (١)

ولا يتوقف دور الأم هنا، بل تبقى ترعاه في صباه وتحرص عليه، فقد ذكر أن عمر بن العزيز رمحته دابة، وهو غلام بدمشق، فأنى به أم عاصم، أمه، فضمته إليها، وجعلت تمسح الدم عن وجهه، ودخل أبوه عليها على تلك الحال، فأقبلت تعذله وتلومه وتقول: "ضيعت ابني، ولم تضم إليه خادماً، ولا حاضناً يحفظه من مثل هذا". (٢)

وهي إن اختلفت مع أبيه وأدى الخلاف بهما إلى الانفصال، فإنها نصر على إبقاء ابنها معها غير آبهة بحجم المسؤولية التي تلقىها على نفسها بإصرارها هذا، لاعتقادها بأنها الأحق به، والأكثر حفاظاً عليه، فقد حاجت امرأة أبي الأسود الدؤلي زوجها عند معاوية بن أبي سفيان، وعندما أراد زوجها انتزاع ولدها، قالت مبينة حقها فيه:

ليس من قال بالصواب وبالحق	كمن جاز عن منار السبيل
كان ندي سقاءه حين يضحى	ثم حجري فنساؤه بالأصيل
لست أبغي بواحد يابن حرب	بدلاً ما علمته والجليل

فأجابها معاوية:

ليس من غداه حبنا صغيراً	وسقاءه من نديه بخذول
هي أولى به وأقرب رحماً	من أبيه بالوحي والتزويل
أم ما حنت عليه وقامت	هي أولى بحمل هذا الضئيل (٣)

وقد يمتد هذا الحرص على الابن إلى حين أن يصبح رجلاً فتفرض أن يلحقه أي أدى، وقد تضطر إلى القتل في سبيل ذلك، فقد ذكرت الروايات -إن صحت- أن أم خالد بن يزيد قتلت زوجها مروان بن الحكم لأنه أدى ابنها وأراد أن يضع منه في شيء جرى بينهما. (٤) والحقيقة، إن صحت هذه الرواية، أن السبب ليس في هذا فقط، وإنما في منع مروان ابنها خالداً من حقه في الخلافة وإيثار ابنه عبد الملك بها، فلعل الأم أرادت الانتقام منه لإخلافه الوعد لها ولابنها وللآخرين، ونزعه الحق من صاحبها الفعلي ومنحه إلى غيره.

وقد يتحول حب الأم الزائد لابنها ورغبتها في الاستئثار به بعد زواجه إلى مشكلات بينه وبين زوجته، فقد ذكرت الأخبار أن أم قيس بن ذريح صاحب لبنى: كانت

(١) العقد / ج ٧ / ٣. بئناً: منكساً، غيلاً: لبناً فاسداً. تنفاً: مستوحشاً باكياً.

(٢) تاريخ مدينة دمشق / تراجم النساء / ٥٣٤.

(٣) أحمد بن أبي طاهر / بلاغات النساء / شرح أحمد الأنفي / ط ١ / مطبعة تونس قرطاج - تونس /

١٩٨٥ / ٥٥. وانظر شاعرات العرب في الإسلام ٦٦-٦٧.

(٤) تاريخ الطبري / أحداث سنة ٦٥ هـ / ج ٣ / ٤٢٣.

السبب وراء طلاقها منه لما رأت من عكوفه عليها وانشغاله بها عن أمه، فاحتجبت بأنها امرأة غير ولود فطلبت إليه طلاقها. (١)

من المظاهر المهمة لحب الأم أبناءها؛ متابعتهم في أمور حياتهم وإسداء النصائح لهم. فهي بحكم خبرتها بالحياة، وبحكم حبها الكبير لهم وحرصها الشديد على نجاحهم في حياتهم. وعلى مكانتهم في قومهم ومجتمعهم - تكون قادرة على تقديم النصائح المخلصة لهم. ولعل من أشجع ما عرف التاريخ من نصيحة شجاعة، وأعظم موقف وففته أم وشهد لها التاريخ بذلك هي وقفة أم مصعب بن الزبير. أسماء بنت أبي بكر، حينما جاء ولدها يستشيرها حينما رأى خذلان الناس له حتى ولده وأهله ولم يبق معه إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة وإن الأمويين يعطونه ما أراد من خير الدنيا. فقالت له: بصوت المرأة الشجاعة الحازمة، الواثقة من موقفها، ومما يمكن أن يكون عليه موقف ابنها الذي ربه وأعدته لمثل هذا الموقف - أنت والله يا بني أعلم بنفسك؛ إن كنت تعلم أنك على حق، وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رفيتك يتلعب بها غلمان أمية. وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت! أهلك نفسك، وأهلك من قتل معك، وإن قلت كنت على حق، فلما وهن أصحابي ضعفت؛ فهذا ليس من فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا، القتل أحسن. (٢) وأسماء ذاتها التي دفعت ولدها عبدالله بن الزبير إلى الموت في قتاله الحجاج، ولم يردها حنان الأم تجاه ما رآته له من مجد في قتله. (٣)

وفي مقابل موقف أسماء من الحياة الدنيا ومباهجها؛ نرى موقف أم معاوية بن يزيد حين رفض أن بوصي لأحد من أهل بيته بالخلافة حين شعر بدنو أجله، وتركها للأمة تقرر أمرها. فما كان من أمه إلا أن غضبت منه غضباً شديداً، وحثته على التمسك بالخلافة لأهل بيته وأن يعهد بها إلى واحد منهم، وأنبته على التخلي عنها والبراءة منها. (٤)

وقد تكون الأم أكثر من غيرها قدرة على معرفة قدرات ابنها وما قد يناسبه ولا يناسبه، وعندها توصيه بما تعتقد أنه الأفضل له، والأنسب لشخصه، وهذا ما كان من أم

(١) الأغاني / ج ٩ / ١٨٢.

(٢) تاريخ الطبري / أحداث سنة ٧٢ / ج ٣ / ٥٣٩.

(٣) البستاني / كرم البستاني / النساء العربيات / دار نظير عبود / لبنان / ١٩٨٨ / ١٨٦.

(٤) مروج الذهب / ج ٣ / ٧٣.

-٢١٧-

الأوقص المخزومي، فقد ذكر أن أمه أوصته بأن يلزم الدين بقولها: يا بني، إنك خلقت في صورة لا تصلح معها لمجامعة الغنّيان في بيوت الفيان، فعليك بالدين، فإن الله يرفع به الخسيسة، ويتم به النقيصة، قال: فنفعني الله بقولها. (١)

وتبدو حكمة المرأة الأم وسعة أفقها في تقسيم الميراث بين أبنائها، فتحاول أن تكون حكيمة في ذلك ما وسعتها الحكمة، حربصة ما وسعها الحرص، حتى يبقى الحب يعمر قلوب أبنائها، وبيوتهم معاً، متجاوزة ما يمكن أن يكون من وجد وقتي في نفوسهم، فقد ذكر أن فاطمة بنت الحسين أعطت ولدها من حسن بن حسن موروثةا من حسن بن حسن، وأعطت ولدها من عبد الله بن عمرو ميراثها من عبد الله بن عمرو، فوجد ولدها من حسن بن حسن في أنفسهم من ذلك، لأن ما ورثت من عبد الله بن عمرو أكثر، فقالت لهم: يا بني، إني كرهت أن يرى أحدكم شيئاً من مال أبيه بيد أخيه فيجد في نفسه، فلذلك فعلت ذلك. (٢)

ومن باب الحرص على حياة ابنها وسعادته كانت تجعل لها دوراً في حب أبنائها، فها هي أم مجنون ليلى تتوسط عند ليلي لعله يثوب إلى رشده، ويعود إليه عقله (٣).

وقد تشاقق الأم إلى ابنها أو تخاف عليه فتفعل ما يمكنها عمله حتى تعيده إليها لا يعيها في ذلك طلب أو تعب، فقد كان لامرأة شامية ابن مكتبة بالسند، فجمر فصانعت في إذنه فأعياها، وطلبت حتى شهرت، فنصحها أحدهم بأن تأني الفرزدق، فأنته وأخبرته قصتها، فكتب إلى عامل الناحية التي ابنها فيها شعراً منه:

انتني نهادي بعدما مالت الطلى،	وعندي رداح الجوف فيها شرابها
فقلت لها: إيه اطلبني كل حاجة	لدي، وخفت حاجة وطلابها
فقلت: سوى ابني لا أطلب غيره	وقد بك عاذت كلنم وغلابها (٤)

ومن مظاهر حب الأم لأبنائها التوصية بهم في حال حاجتهم إلى مثل هذه التوصية قالت أم هذبة بن الخشرم لما شخص إلى المدينة فحبس بها:

(١) العقد / ج ٦ / ١٢.

(٢) تاريخ مدينة دمشق / تراجم النساء / ٢٨٤.

(٣) انظر قصته في الأغاني / ج ٢ / ٣٥.

(٤) ديوانه / ٧٩-٨٠. الطلى: الأعناق، الرداح: الواسعة. كلنم: اسم المرأة التي جاءت تطلب ابنها. وغلاب: اسم ابنها.

أيا اخوتي أهل المدينة أكرموا أسيركم إن الأسير كريم
فرب كريم قد قرأه وضافه ورب أمور كلهن عظيم
عصا جلها يوما عليه فراضه من القوم عياف أشم حليم (١)

فهي تذكر بأخلاق ابنها وبما تعودته من إكرام الكرام. والترحيب بالضيوف. وبما هو عليه من أمور عظيمة. مما جعله يستحق اهتمام أهل المدينة وكان أسر فيها وأقام في أحد سجونها.

ولكن هذا الابن الذي ربته الأم أفضل تربية، وعاشت عمرها نحرص عليه. وتدافع عنه. ونعلمه ونرشده؛ ليصبح كما تمنته في المستقبل رجلاً تفخر به. قد لا تحقق لها الأيام فيه ما تمنّت إذ قد يقتل طفلاً كان أم رجلاً. وعندها نبكيه بكاء حاراً. يعكس ما في قلبها من لوعة وحزن، وقد تعبر عن ذلك شعراً ترثيه به. كما كان حال أم حكيم زوجة عبيد الله بن عباس لما ذبح بسر بن أرطاة أحد قادة معاوية بن أبي سفيان ابنها فقالت:

يا من أحسن بابني اللذين هما كالدرتين تشظي عنهما الصدف
يا من أحسن بابني اللذين هما سمعي وقلبي. فعقلي اليوم مختطف
يا من أحسن بابني اللذين هما مخ العظام. فمخي اليوم مذهب
نبت بسرًا. وما صدقت ما زعموا من قولهم ومن الإفك الذي وصفوا
أنحى على ودجي ابني مرهفة مشحودة. وكذلك الإثم يقترف
حنى لغيت رجالاً من أروميته شم الأنوف لهم في قومهم شرف
فالآن ألعن بسرًا حق لعنته هذا لعمر أبي بسر هو السرف
من دلّ والهفة حري مؤلهة على حبيبين قد أرداهما التلاف (٢)

وقالت فيهما أيضاً:

أيا من سبى الأخوين أمهما هي النكلى تسائل من رأى ابنيها
وتستسقي فما تستقي فلما استبأست رجعت
بغيره والله حري نتابع بين والدة
وبين مدامع تنري (٣)

(١) الأغاني / ج ٢١ / ٢٦٥.

(٢) مروج الذهب / ج ٢ / ٣٤٦. وانظر كذلك جورج غريب شاعرات العرب في الإسلام / ط ١ / دار الثقافة / بيروت / ١٩٨٥ / ١٣٠.

(٣) الدر المنثور / ص ٢٢. وانظر شاعرات العرب في الإسلام / ١٢٩.

فقد أذهلتها الفاجعة بولديها، فما كان منها إلا أن هامت على وجهها، تندبهما بهذه الأبيات التي صورت فيها موقع ولديها من نفسها، خاصة أن الطريقة التي قُتلا فيها تزيد من لوعتها عليهما وحسرتها. وقد أحسنت حينما وصفتها بالدرتين تشظى عنهما الصدف، لكونهما طفلين لم ترَ من أعمالهما ومجدهما ما يمكن أن تذكرهما به كعادة شعر الرثاء.

أما تلك المرأة التي هي من عنس والتي قتل ولدها يوم داربا قتلته فيس، فقد أضافت على ولدها وحزنها على ابنها، ذكر صفاته فقالت:

عينٌ بالدمعِ فاستهلي لعمرِ	بدمسوعٍ غزيرةِ الهَمَلانِ
قتلته فيسٌ ففرت، بقتلي	فيس عَبلانٌ مني العِبلانِ
قتلوه مثلَ الهلالِ جَواداً	بالعطايا يَبْرُ بالِإخوانِ
قتلوه مثلَ القنافرِ طَريراً	مائداً الأصل طسِيبَ الأردنِ
وبعمرو فُجعتُ، لهضي عليه	أبدأ أو أُلَفَّ في الأكضان (١)

وأكبر هم هذه المرأة بعدما قتل ابنها أن يأخذ أهله بثأره، لذا ما لبثت تذكر قومه بواجبهم نجاهه، وضرورة الثأر من قاتليه، وهي تحثهم على ذلك ما وسعها الحث، وتذكرهم بالعار الذي سيلحقهم إن هم توانوا عن الأخذ بثأرهم. قالت:

لبتَ شعري فذاك أكبرُ هَمِّي	هل يفدني الزمان من عِبلانِ
عامراً عامراً، فلا بغلبتكم	عامراً الغسيّ با بني فحطان
إن يفتنكم بكن معابرَ فيكم	فاضحاتٍ للشيب والولُسدان
البسوا الحلي والمجاسدَ يا قو	مَ، إذاً واجلسوا مع النسوان (٢)

وقضية الأخذ بالثأر من قاتل الابن، كانت من الأمور المهمة التي تتوعد الأم بها قاتل ابنها، لعلها في ذلك تخفف من لوعتها، وتخفف مما يعمل في نفسها على قتله ابنها، فهذه أم مزاحم الخثعمية تهدد هي الأخرى بالثأر لابنها من قاتله:

بأهلي ومالي بل وبجلّ عشيرتي	قتيلُ بني تيمٍ بغيرِ سلاحِ
فهلّا ضربنم بالسلاحِ ابنَ أخيكِ	فنظهرُ فيه للشهودِ جراحِ

(١) تاريخ مدينة دمشق / تراجم النساء / ٥٨٨.

(٢) المصدر السابق / ٥٨٨.

فلا نظمعو في الصلح مادمت حبةً وما دام حياً مصعبٌ وجناحٌ
ألم تعلموا أن الدوائر بيننا ندورُ وأن الطالبين سُحاحٌ^(١)

ومن اللواتي رثين أبناءهن أم عمران بن الحارث الراسبي، وقد قتل ابنها يوم
دولاب؛

الله أبدَ عمراناً وطهره وكان عمرانٌ يدعو الله في السحر
يدعوهُ سراً وإعلاناً ليرزقه شهادةً بيدي ملحاده غدر
ولى صحابته عن حرٍّ ملحمةٍ وشدَّ عمرانٌ كالضرمامة الهصر
أعني ابنَ عمرةٍ إذ لاقى منبته يومَ ابنِ نابٍ يحامي عورة الدبر^(٢)

ولا شك أن طعم هذا الرثاء مختلف عما سبقه، إذ تبدو الأم هنا مفتتحة بفكر
ابنها الديني والسياسي. حيث إنه كان من الخوارج، لذا لا يفرعها قتله، لأنها تعلم أن
هذا الموت هو شهادة في سبيل الله، وكان يتمنى ذلك، ويدعو الله تعالى لتحقيقه له.
لذا هي تفتخر بشجاعته ودفاعه عما آمن به، وتبدو متقبلة أمر موته بإيمان واضح.

وحينما لا تستطيع الأم رثاء ابنها لأي سبب من الأسباب فإنها قد تطلب ذلك من
غيرها، فقد ذكر أن أم سعيد بن عثمان قالت: أشتي أن يرثيه شاعر كما في نفسي
حتى أعطيه ما يحنكم! فقال ابن سيجان:

إن كنت باكيةً فتىً فابكي هبلي على سعيد
فارقت أهسلك بغتةً وجلبتَ حننك من بعيد
اذري دموعك والدماء عَلى الشهيدِ ابنِ الشهيدِ^(٣)

وقد توقع الشعراء من أمهاتهم البكاء عليهم، لأنهم كانوا سيفعلون ذلك لو جاءهم
نعي أمهاتهم، يبدو ذلك من تساؤل مالك بن الربيع في قوله:

فيا ليت شعري هل بكت أم مالك كما كنت لو عالوا نعبك باكية^(٤)

(١) أعلام النساء / ج ١ / ١٣. يلاحظ أن الأبيات فيها اقواء، هكذا وردت في مصدرها.

(٢) د. احسان عباس / شعر الخوارج / دار الثقافة - بيروت / ١٩٦٣ / ص ٤٠، الهصر: الأسد الشديد الذي
يفترس ويكسر.

(٣) الأغاني / ج ٢ / ص ٢٥٣ / هو عبد الرحمن بن أرطاة من خلفاء بني أمية شاعر إسلامي أموي.

(٤) شعراء أمويون / ج ١ / ٤٧.

وقال:

- ٢٢١ -

وبالرمْل منا نسوةً لو شهدنني
وما كان عهدُ الرملِ عندي وأهله
فمنهن أُمِّي وابنتاي وخالتي
بَكْسَيْن وفديَّين الطَّبيبَ المداوياً
ذمباً ولا ودَّعتُ بالرمْل قالياً
وباكيةً أخرى نُهيجُ البواكِبَا (١)

مظاهر حب الأبناء لأمهاتهم

من مظاهر حب الأبناء لأمهاتهم الفخر بهن، فقد كان الأبناء يفخرون بأمهاتهم خاصة الأم الحرة، التي كانت تمتاز بحسب نبيل، ونسب عريق، لأن ذلك إنما هو امتداد للفخر بنفسه حيث إنه سبأه جزء كبير من هذا الحسب الماجد. وقد اهتم الشعراء كثيراً بأن لا ينسبوا إلى أمهات غير حرائر. ومن هؤلاء القتال الكلابي الذي يفخر بأنه ابن حرة في حين يصاب أبناء الإمام بالعار:

أنا ابن أسماء أعمامي لها وأبي
إذا ترامى بنو الإمامان بالعار
أما الإمام فما بدعوني ولداً
إذا تحدث عن نفضي وإمراري
لا أَرْضع الدهر إلا تُدِي واضحة
لواضح الخد يحمي حوزة الجار (٢)

وقد افتخر الحجاج بن يوسف بقوله، لم تلدني أمة ببني وبين آدم ما خلا هاجر. (٣)

وقد استشعر بعض الخلفاء والأمراء قيمة أمهاتهم حسياً ومجداً وأحبوا أن يمدحوا بهن، فقد قال عبد العزيز بن مروان، لا أعطي شاعراً شيئاً حتى يذكر أُمِّي في مدحي لشرفها، وقد كانت كلبية. فكان الشعراء يذكرونها باسمها في أشعارهم. (٤) وكانوا يدعونه بابن لبلى قال نصيب:

من ذا ابن لبلى جزاك الله مغفرةً
يُغني مكانك أو يعطي الذي تَهَبُ
قد كان عند ابن لبلى غير معوزٍ
للفضل وصلِّ وللمعز مُرتَب (٥)

(١) شعراء أمويون / ج ١ / ٤٨.

(٢) ديوانه / ٥٤. وانظر كذلك فخر أبي زهيل بأمه / ديوانه / ٤٤. وكذلك الطرماح / ٩.

(٣) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ / البيان والنبين / تحقيق عبد السلام هارون / ط ٤ / دار الفكر - بيروت. د.ت / ج ٢ / ٨٢.

(٤) الأغاني / ج ١ / ٣٤٠.

(٥) ديوانه / ٦٤. وانظر كذلك ص ٨٧-٨٨ / ٦٣. انظر كذلك ديوانه / ١٣-١٤.

وقد مدح النابغة الشيباني يزيد بن عبد الملك بأمه عاتكة فقال:

وَأَنْتَ ابْنُ الْخَلَائِفِ مِنْ قَرِيشٍ نَمَوْكَ وَفِي عداوتِهِمْ إِياءُ
وعاتكة التي ورثت كسريًا وَحَرَبًا، فَالْكَرَامُ لَهَا جِوَاءُ
عقبلةً مَنْ تَكْرَمُ مِنْ قَرِيشٍ لَهَا خَشَعَتْ مِنَ الْكِرَمِ النِّسَاءُ^(١)

وقد بدأنا نرى في هذا العصر من يفتخر من الشعراء بأمه الرومية أو الفارسية، وذلك إذا كانت في شرف من قومها، فقد كانت أم يزيد بن الوليد بنت فيروز بن بزدجرد، وأم فيروز هي بنت قبصر عظيم الروم، فقال:

أَنَا ابْنُ كَسْرَى وَأَبِي مَرَوَانُ وَفِصْرٌ جَدِّي، وَجَدِي خَافَانُ^(٢)

ولعل استشعار أولاد الجواري بأنهم أقل مكانة في مجتمعهم من أولاد المهورات هو الذي دفعهم لأن يدافعوا عن نسبهم هذا بنسب أمهاتهم في مجتمعهم، ومكانتهم في قومهم.

ولكن قد لا تكون الأم غير الحرة على هذا المستوى من الحسب في قومها، ومع ذلك قد يفتخر فيها ابنها، بل قد يكثر من هذا الفخر، مثل ابن ميادة الذي أكثر من افتخاره بأمه قال:

أَنَا ابْنُ أَبِي سَلَمَى وَجَدِّي ظَالِمٌ وَأُمِّي حَصَانٌ أَخْلَصَتْهَا الْأَعَاجِمُ
أَلَيْسَ غِلَامٌ بَيْنَ كَسْرَى وَظَالِمٍ بِأَكْرَمَ مَنْ نَبِطَتْ عَلَيْهِ النَّمَائِمُ
لَوْ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ كَانُوا بَتْلَعَةً وَجِئْتُ بِجَدِّي ظَالِمٍ وَأَبْنُ ظَالِمٍ
لَظَلْتُ رَقَابُ النَّاسِ خَاضِعَةً لَنَا سُجُودًا عَلَى أَقْدَامِنَا بِالْجَمَاعِمِ^(٣)

وقال:

أَنَا ابْنُ مِيَادَةَ تَهْوِي نَجْبِي
صَلْتُ الْجَبِينِ حَسَنٌ مَرْكَبِي
تَرْفَعَنِي أُمِّي وَبِنَيْمِي أَبِي
فَوْقَ السَّحَابِ وَدُوبِنَ الْكُوكَسِبِ^(٤)

(١) ديوانه / ١٢٨.

(٢) نبال تيسر خماش / شعر الخلفاء في العصرين الراشدي والأموي/عمان- الأردن / ١٩٨٤ / ١٨٤.

(٣) ديوانه / ٢٢٧-٢٢٨، يلاحظ أن الأبيات فيها إقواء. هكذا وردت في الديوان.

(٤) المصدر السابق / ٧٠-٧١.

- ٢٢٣ -

ويبدو أن هذا تعويض عما كان بلافيه من جرّاء نسبه وليس شعوراً بقيمة هذا النسب أو عظّمته. فهو يعترف في مكان آخر بصراحة مطلقة أن نسبها الوضع من جهة. وفقره من جهة أخرى قد جراً عليه الكثير مما كان ينقص عليه حياته. فقد كان محروماً كرائم قومه وشرف الاختلاط بهم والتزوج منهم قال:

لقد حرّمت أمي عليّ عدمتها كرائم قومي ثم قلّة مالينا (١)

ولعل مثل هذا الشعور هو الذي دفع بعبيد الله بن الحرّ إلى أن يقول:

فإن نكّ أمي من نساء أفاءها جباد القنا والمرهفات الصفائح
فنبأ لفضل الحرّ إن لم أنل به كرائم أولاد النساء الصـسـرائح (٢)

ومن مظاهر حبّ الأبناء لأمهاتهم أيضاً الدفاع عنهن، إذ يرى الابن من واجبه الدفاع عن أمه إذا ما تعرضت لأي أذى، فهي التي أنجبته ورعته وحمته من كل ما يمكن أن يصيبه بمكروه، وحينما يكبر يجد أن الدفاع عنها هو أقل ما يمكن أن يسدّد به ما قدمته له، فقد ذكر أن امرأة خاصمت أم أרטأة بن سهبة، وكانت من غير قومه أخيدة، أخذها أبوه، فاستطالت عليها المرأة وسبّتها فخرج أרטأة إليها فسبّتها وضربها، فجاء قومه، ولاموه، وقالوا له: مالك تدخل نفسك في خصومات النساء! فأجابهم بشعر أوضح من خلاله أن من واجبه حماية أمه وإلا فإنها ستكون مثل امرأة عقيم. قال:

بُعيرني قومي المّجّاهل والخنا عليهم وقالوا أنت غير حليم
هل الجهل فيكم أن أعاقب بعدما تجوز سبّي واستحلّ حرمي
إذا أنا لم أمنع عجوزي منكم فكانت كأخرى في النساء عقيم
وفد علّمت أفتاء مّرة أنا إذا ما اجتدانا الشرّ كلّ حميم
حماة لأحساب العشيّة كلّها إذا دّم يوم الروع كلّ ملّيم (٣)

ومن صور البر بالأم أن علياً بن الحسين كان لا يأكل مع أمه في صفحة واحدة خشية أن تسبق يده ما قد سبقت عينها إليه فيكون قد عمّها. (٤)

(١) ديوانه / ٢٣٩.

(٢) شعراء أمويون / ج ١ / ٩٩.

(٣) الأغاني / ج ١٣ / ٤٣. اجتدانا: طلب إلينا. وهو يريد هنا طلب معونتنا لدفع الشرّ فسمى المعونة شراً للمشاكلة. الملّيم: الذي يأتي ذنباً بلام عليه.

(٤) الكامل في اللغة والأدب / ج ١ / ٢٣٨.

- ٢٢٤ -

ومن طريف ما يروى من شعر الأبناء بأمهاتهم تلك القصة، وذلك الشعر مما ورد في أخبار الأخطل مع أمه. فقد ذكر أنه لاحظ شكوة لأمه فيها لبن، وجربا فيه تمر وزبيب، وكان جائعا وكان يضيق عليه؛ فقال لها يا أمه، آل فلان يزورونك ويقتضون حقك، وأنت لا تأتينهم، وعندهم عليل، فلو أنبتهم لكان أجمل بك. فقالت: جزيت خيرا يا بني لقد نبهت على مكرمة. وقامت فلبست ثيابها ومضت إليهم. فمضى الأخطل إلى المشكوة ففرغ ما فيها، وإلى الجراب، فأكل التمر والزبيب كله. وجاءت فلحظت موضعها فرأته فارغا، فعلمت أنه قد دهاها، وعمدت إلى خشبة لتضربه بها؛ فهرب وقال:

أَلَمَّ عَلَى عَنَابِ الْعُجُوزِ وَشَكُونِهَا مِنْ غِيَاثٍ لَمَمٌ
فَطَلْتُ تُنَادِي أَلَا وَبَلَّهَا وَتَلَعَنُ وَاللَّعْنُ مِنْهَا أَمَمٌ (١)

وقد تلوم الأم ابنها إن هو فصّر في عمله. فقد كان الفرزدق يرعى لأمه وهو غلام، فأغار الذئب عليه فأخذ كبشا، فلما راح إليها لامته أمه فقال:

وَلَا تَمْنِي يَوْمًا عَلَى مَا أَنْتَ بِهِ صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْخُطُوبُ الْفَوَارِعُ
فَقُلْتُ لَهَا: فَبَيْئِ إِلَيْكِ. وَأَقْصِرِي. فَأَوْمُ الْفَتَى سَبَفٌ بِوَصْلِهِ فَاطِعُ
تَلُومٌ عَلَى أَنْ صَبَّحَ الذَّئْبُ ضَائِعًا فَأَلَوَى بِحُبْسٍ وَهُوَ فِي الرَّعْيِ رَاتِعٌ (٢)

ويتابع قصيدته مدافعا عن الذئب فيما قام به، وموضحا لأمه أن الرعي ليس من طموحاته، ويفتخر بنفسه الحرّة؛ التي تدفعه إلى النوال حين يمتنع الآخرون، ويقل عطاؤهم.

ومثلما امتدح الشعراء الأم، فكانت عندهم موضع فخر ورفعة هجوها فكانت موضع تشاتم بينهم. والهجاء بالأم على نوعين: هجاء عام بها سواء عرفت الأم للشعراء عن قرب أم لم تعرف، وسواء عرفوا صفاتها أم لم يعرفوا، ويلحظ هذا بشكل عام عند شعراء النقائض الذين تعرضوا لأمهات بعضهم بعضا، فتهاجوا بالأمهات وتشاتموا بهن، وأقذعوا وأفحشوا في بعض شعرهم إقذاعا وإفحاشا كبيرين. (٣) والنوع الثاني يمكن أن أسميه هجاء خاصا، وذلك بالتعرض لصفة معينة موجودة في أم المهجو خاصة، والتركيز عليها

(١) الأغاني / ج ٨ / ٣٠٢ / وقد رويت القصة عن شخص آخر أنها حدثت له مع زوجة لأبيه. أمم: قريب.

يسير. غياث: اسم الأخطل.

(٢) ديوانه / ٣٥٧-٣٥٨، الأوام: الظما، الحبش: الكبش.

(٣) انظر مثلا ديوان جرير / ٢٣٢.

في الهجاء. فقد قال الوليد بن يزيد في يزيد بن هشام بن عبد الملك بعبيره بشرب أمه، أم حكيم، الشراب:

إن كأسَ العجوزِ كأسَ رواءٍ ليس كأسٌ كأسِ أمِّ حكيمٍ
إنها تشربُ الرساطونَ صِرْفاً في إناءٍ من الزجاجِ عظيمٍ
لو به يشربُ البعيرُ أو الغبلُ لظلالاً في سَكْرَةٍ وغمٍّ ومومٍ
وليدتهُ سكرى فلم تحسِّنِ الطلقَ فوافى لئلاَّ غيَّرَ حليمٍ (١)

وكانت أم حكيم منهومة بالشرب، مدمنة عليه، لا تفارقه أبداً وكأسها الذي كانت تشرب فيه مشهور عند الناس إلى اليوم في خزائن الخلفاء. (٢)

ومنه شعر يزيد بن مفرغ الحميري في آل زياد. قال:

فأقسمُ ما زيادٌ من فريشٍ ولا كانت سميةً من نميمٍ
ولكن نسلَ عبدٍ من بنيٍّ عريقِ الأصلِ في النسبِ اللثيمِ (٣)

وقال في هجاء عباد بن زيد:

جاءتْ به حبشبةٌ سكاءٌ تحسبها نعامه
من نسوةٍ سودِ الوجو ه، ترى عليهنَّ الدمامه (٤)

الأخت:

أحبت الأخت أخاها فتعاطفت معه، ومالت إليه في أمور حياتهما المختلفة، ووثقت به ثقة أهلته ليكون موضع سرها، وبادلها الأخ حباً بحب وأعرها وشاورها في أمور حياته المختلفة.

(١) ديوانه / ١١٢. الرساطون: الخمر عند أهل الشام، رومية.

(٢) الأغاني / ج ١٦ / ٢٧٧.

(٣) ديوانه / ٢٠٦.

(٤) المصدر السابق / ٢١٢. وانظر كذلك ديوان ذي الرمة / ج ١ / ٤٢١.

مظاهر حب الأخت لأخيها:

تبدت هذه المظاهر في أحوال وأمور منها: تعاطف الأخت مع أخيها والحزن لمصابه، والفرح لفرحه؛ فإذا ما نال ما تألمت لألمه، وحزنت لتوجعه، بل بكت وناحت من جراء ذلك. فقد ذكر أن الحجاج قام بسجن يزيد بن المهلب وأخوته، وقام بتعذيبهم، خاصة يزيد الذي كان يصبر صبراً حسناً، مما أغاظ الحجاج فقبل له؛ إنه رمي بنشابة فثبت نصلها في ساقه، فهو لا يمسه شيء إلا صاح، فإن حركت أدنى شيء سمعت صوته، فأمر أن يعذب ويدهق ساقه، فلما فعل ذلك به صاح، وأخته بنت المهلب عند الحجاج، فلما سمعت صياح يزيد، صاحت وناحت، فطلقها... (١)

ومثل هذا التعاطف مع الأخ كان سبباً في إثارة الضغائن بين الزوج والأخ فقد ذكر أن حوط بن الخشرم أخا هذبة راهن زيادة بن زيد على جميلين من إبلهما، وكان مطلقهما من الغاية على يوم وليلة، وذلك في القيظ، فتزودوا الماء في الروايا والقرب، كانت أخت حوط: سلمى بنت الخشرم تحت ابن زيد، فمالت مع أخيها على زوجها، فوهنت أوعية زيادة، ففني ماؤه قبل ماء صاحبه، فكان هذا أول ما أثبت الضغائن بينهما. (٢)

وقد لا تكتفي المرأة بأن تميل مع أخيها ضد زوجها، ولكنها قد ترفض الزواج إلا من رجل يغني أباها، فلما خطبت أم حكيم بنت قارظ قالت لا أتزوج والله أبداً إلا من يغني أخي المغيرة فأرسل لها يحيى بن الحكم: أيغنيه خمسون ألف دينار؟ قالت: نعم. قال: فهي له، ولك مثلها. (٣)

ومن مظاهر الود التي تربط بين الأخوين أن الأخت قد نبوح لأخيها بما يعتل في نفسها، فقد ذكر أن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان كانت زوجة لعمر بن عبد العزيز، فلما توفي عمر، قالت لأخيها مسلمة: قد اشتبهت أن أجد رائحة الولد. فقال: "ويحك بعد عمر" فقالت: لا بد من ذلك. قال: لا جرم لا تسوري بك الأزواج. قالت: قد تسورت منهم داود. وكان أعور قبيح المنظر فقال الأخوص في ذلك:

(١) الطبري/ أحداث سنة ٩٠ - ج ٢/ ٦٨٤. ويشبه هذا دفاع هند بنت أسماء عن أخيها عند زوجها الحجاج، انظر بلاغات النساء / ١٤٠. يدهق ساقه: تشد.

(٢) الأغاني / ج ٢١ / ٢٥٥-٢٥٦. ومطلقهما: أي موضع إطلاقهما.

(٣) المصدر السابق / ج ١٦ / ٢٧٥.

أبعد الأغسر بن عبد العزيز فربيع فريس إذا تذكُر
تبدلت داود مخنارة^(١) ألا ذلك الخلف الأعور

ومن مظاهر حب الأخت لأخيها كذلك، رثاؤه إن توفاه الله قبلها. ومن اللواتي رثين إخوانهن لهذا العصر الجوزاء بنت عروة البصري، فقد ذكر أن يزيد بن المهلب أخذ أخاها عبد الله بن عروة مع عدي بن أرطاة فحملهم إلى واسط، فلما قتل يزيد، غدا عليهم ابنه معاوية فقتلهم وهم أسرى في يده، فقالت الجوزاء ترثي أخاها وتهجو يزيد:-

أيزيد حاربت الملوك ولم يكن	تلقي المحارب للملوك رشيدا
هذا وجسدت عصابة أوردتهم	حوضاً سيورت وردة التفنيدا
فالبيت ذا الحرمات لست بنائل	والأكرمين أسوة وجدودا
رھط النبي بنى الآله عليهم	سقف الهدى ومن القرآن عمودا
فومهم منوا عليك وأنعموا	حتى لبست من الطراز برودا
فكفرت نعمتهم عليك وإنما	بلد العبيد المقرفون عبيدا
ما زال في حمقانه متهوكا	حتى رأى غلس الظلام جنودا
فكفوا رياضته وذلك صعبه	ومضى بهامنه الرسول بریدا
طلب الخلافة في هجار فلم يجد	بهجار من شجر الخلافة عودا ^(٢)

فشعرها امتداد لشعر الرثاء في عصرها إشادة بالمتوفى، وذكر خصائله ومدحه بنسبه. ولانتسى أن تذكّر يزيد بفضل أخيها وأصحابه عليه، إذ لولاه لما حقق ما حقق من المجد، ولكنه أنكر ذلك عليهم وعاملهم بنقيض ما كان منهم، لذا هي تهجوه بما كان منه من تقصير وتذكره بحماقانه وعجزه عن بلوغ ما أمل بلوغه من الخلافة والسيادة.

وقالت امرأة من الخوارج ترثي أخاها وقد قتل مع الضحاك بن قيس:

من لعين ريا من الدمع عبرى	ولنفس من المصائب حرى
أفسدت عيشنا صروف الليالي	ووقاع من الكنائس تنرى
كلما سكنت حرارة وجسد	من فقيده منا نجينا بأخرى ^(٣)

(١) تهذيب تاريخ دمشق / ج ٥ / ١٩٩. وانظر ديوان الأحوص / ٩٥.

(٢) أعلام النساء / ١٨٦. متهوكا: متحيرا

(٣) شعر الخوارج / ١١٣.

يَسَا عَيْنَ جُودِي بِالدَّمْعِ وَأَبْكِي بِجَهْدِ الْمُسْتَطِيعِ
يَسَا مَوْتَ وَيَحْكُ مَا نَزَالَ مَفْرَقًا بَيْنَ الْجَمِيعِ
أَبْكِي وَمَا يَغْنِي الثَّلْهَفَ وَالْبُكَاءُ عَنِ الْجَزْوَعِ (١)

فهي إزاء هذا الاقتتال الذي نراه أمام عينيها بين جماعات المسلمين، وإزاء هذا القفد المتواصل لأحبتها؛ لا تجد سكناً لدموعها ولا لحرارة وجدها، وهي إن كانت تحت عينيها على مزيد الدموع، فهي تعرف أن هذا لن يغني عن الجزع من الموت الذي تبدو -مجازاً- حافدة عليه لكثرة ما اغتال من أهل بيتها.

ومن اللواتي رثين إخوانهن لهذا العصر أيضاً زينب بنت الطثربة رثت أخاها الشاعر يزيد بن الطثربة فقالت فيه:

أَرَى الْأَثَلَ مِنْ وَادِي الْعَفِيقِ مَجَاوِرِي مَقْبِئاً وَقَدْ غَالَتْ يَزِيدُ غَوَائِلُهُ
فَتَى قَدْ قَدَّ السَّيْفُ لَا مَتَضَائِلَ وَلَا رَهْلَ لِبَانَتِهِ وَبَادِلُهُ
فَتَى لَا نَرَى قَدْ الْقَمِيصَ بِخَصْرِهِ وَلَكِنَّمَا تُوْهِى الْقَمِيصَ كَوَاهِلُهُ
فَتَى لَيْسَ لَا بَرَّ الْعَمِّ كَالذَّنْبِ إِنْ رَأَى بِصَاحِبِهِ يَوْمًا دَمَا فَهُوَ آكِلُهُ
بِسَرِّكَ مَظْلُومًا وَيَرْضِيكَ ظَالِمًا وَكُلُّ الَّذِي حَمَلَتْهُ فَهُوَ حَامِلُهُ
إِذَا نَزَلَ الضَّيْفَانُ كَانَ عَذُورًا عَلَى الْحَيِّ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهُ (٢)

وتتابع زينب تعداد مناقب أخيها المتوفى فتصفه بما أجمعت عليه العرب من صفات الرجولة والشجاعة والكرم إضافة إلى الحلم والصبر، ومساعدة الغير... ثم بعد ذلك تظهر لوعنتها على أخيها وحزنها الشديد عليه:

وَلَوْ كُنْتُ فِي غُلٍّ فَبَحْتُ بِلَوْعَتِي إِلَيْهِ لِلأَنْتَ لِي وَرَقَّتْ سِلَاسِلُهُ
وَلَمَّا عَصَانِي الْقَلْبَ أَظْهَرْتُ عَوْلَهُ وَقُلْتُ لَا قَلْبَ بِقَلْبِي أَبَادِلُهُ
سَيَكْبِيهِ مَوْلَاهُ إِذَا مَا تَرَفَعْتُ عَنِ السَّاقِ عِنْدَ الرُّوعِ يَوْمًا ذَلَالُهُ
وَكُنْتُ أَعْبَرُ الدَّمْعَ قَبْلَكَ مِنْ بَكِي وَأَنْتَ عَلَى مَنْ مَاتَ بَعْدَكَ شَاغِلُهُ (٣)

(١) ديوانه / ١١٣.

(٢) شاعرات العرب في الإسلام / ١٧٠. غدور: واسع. أي ماؤه وحوضه مباح

(٣) المصدر السابق / ١٧٢. عول: أي رفع الصوت بالبكاء.

مظاهر حب الأخ لأخته:

من مظاهر حب الأخ لأخته مشورتها في أمور حياته وأخذ رأيها ببعض القضايا الخاصة به وبأسرته أو بشعره... من ذلك أنه حينما أزمع الشاعر نصيب المسير يريد عبد العزيز بن مروان، استشار أخته أمامة. (١)

ومن مظاهر هذا الحب أيضاً الحفاظ على زواجها، ورفضه طلاقها بدون سبب، فقد كانت أخت عوف بن معاوية بن عفة عند عيينة بن أسماء بن خارجة فطلقها، فكان عوف مراغماً لعيينة، وقال الحرة لانطلق بغير ما بأس. (٢)

ومنها كذلك الغيرة عليها، فقد ذكر في أسباب اقتتال هبة بن الخشرم، وابن عمه زيادة أنهما اصطحبا وهما مقبلان من الشام في ركب من قومها، فكانا يتعاقبان السوق بالإبل، وكان مع هبة أخته فاطمة فارتجز زيادة أبياتا منها:

عوجي علينا واربعي بافاطما	مادون أن بُرى البعير فائما
الا تربيّ الدمع مني ساجمسا	حذار دار منك لن ثلاثمسا

فغضب هبة حين سمع زيادة يرتجز بأخته، فنزل فرجز بأخت زيادة، وكانت تدعى أم حازم:

لقد أراني والغلام الحازما	ترجي المطي ضمرا سواهما
منى تظن القلص الرواسما	والجيلة الناجية العياهما
يلفن أم حازما وحازما	إذا هبطن مستحبرا فانما

إلى آخر الأرجوزة، فشتمه زيادة، وشتمه هبة ونسابا طويلا، وأصلح الفوم بينهما حتى أمسكا وهبة أشد حنقا لأنه رأى أن زيادة قد ضامه إذ رجز بأخته وهي تسمع قوله، ورجز هو بأخت زيادة وهي غائبة لاتسمع قوله (٣)

ومثله ما كان حصل مع القتال الكلابي، إذ رفض أن يتحدث ابن عمه إلى أخته غيرة عليها، وقد أدى هذا إلى قتل ابن العم. ومما قاله القتال في ذلك:

(١) انظر الأغاني/ج١/٣٢٦.

(٢) المصدر السابق/ج١٩/٢٠٧.

(٣) نفسه/ج٢١م/٢٥٧-٢٥٨ وقد ورد في موضع سابق عن سبب الخلاف بينهما وهذا الخبر هو نتمة لما سبق من مسلسل الخلاف بينهما الذي انتهى بمقتل زيادة على يد هبة، الضمر السواهم: النفاق الصلبة. العياهم: الشداد. القلص: جمع قلوص، الغنية من الإبل، الرواسم: التي تمشي الرسيم وهو نوع خفيف من السير. الجيلة: جمع جليل وهي الناجية السريعة.

نَشَدْتُ زِيَادًا وَالْمِغَامَةَ بَيْنَنَا
وَلَمَّا دَعَانِي لَمْ أَجِبْهُ لِأَنَّنِي
فَلَمَّا أَعَادَ الصَّوْتَ لَمْ أَلِكْ عَاجِزًا
فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتَمِرٍ
وَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّنِي قَدْ قَتَلْتُهُ
وَذَكَّرْنَاهُ أَرْحَامَ سَعِيرٍ وَهَيْئَمٍ - ٢٣٠ -
خَشِيتُ عَلَيْهِ مِنْ وَقْعَةٍ مِنْ مُصَمِّمٍ
وَلَا وَكَرِلا فِي كُلِّ دَهْبَاءٍ صَبْلَمٍ
أَمَلْتُ لَهُ كَفِّي بِلَدْنِ مَقْسُومٍ
نَدِمْتُ عَلَيْهِ أَيَّ سَاعَةٍ مَنُودٍ (١)

مظاهر الجفاء بين الأخوين:

علاقة الأخوة مثلها مثل العلاقات الأخرى قلما تمر بدون فتور أو جفاء. ولكن طبيعة هذا الفتور أو الجفاء وأسبابه تختلف من أناس إلى غيرهم. ومن ذلك العتاب بين الأخوين، منه ما قالته حميدة بنت النعمان بن بشير تعاتب أخاها على تزويجها من روح ابن زنباع الذي تراه غير كفء لها. وهي في ذروة المجد في النسب، وجذام ليست من مناكحها التي تطمح إليها. وهو بتزويجه إياها رضي بالأكارع والذنابي من الناس.

أَضَلَّ اللَّهُ حِلْمَكَ مِنْ غِلَامٍ
أَنْرَضَسِي بِالْأَكَارِعِ وَالذَّنَابِي
مَنْى كَانَتْ مَنَاكِحَنَا جِذَامٌ
وَقَدْ كُنَّا يَفِرُّ لَنَا السَّنَامُ (٢)

وقد يقوم الأخ بأخذ مال الأخت وإتلافه. وحينما تمنعه من بغيته يضربها. فنذهب لأخيها الآخر وتشكو له، فيعنفه ويقف إلى جانب أخته المستجيبة به. ويبلغه إن هو تنكر لها فإن سيتنكر له أيضاً. قال المغيرة بن حنبل:

أَلَا مِنْ مَبْلَغٍ صَخَرَ بَن لَيْلَى
رِسَالَةً نَاصِحٍ لَكَ مُسْتَجِيبٍ
وَصَوْلٍ لَوْ يَرَاكَ وَأَنْتَ رَهْنٌ
بِرَى خَبْرًا إِذَا مَا نَلْتَ خَيْرًا
فَإِنَّكَ لَا تَرَى أَسْمَاءَ أَخْنَا
فَإِنِّي قَدْ أَتَانِي مِنْ نَثَاكَ
إِذَا لَمْ تَرَعْ حَرَمَتَهُ رَعَاكَ
تُبَاعٍ بِمَالِهِ يَوْمًا قَدَاكَ
وَيُشْجَى فِي الْأُمُورِ بِمَا شَجَاكَ
وَلَا تَرِينَنِّي أَبْدَا أَحَاكَ (٣)

(١) ديوان القتال الكلاسي/ ٨٩.

(٢) الأغاني/ ج ١٦/ ٥٣.

(٣) الأغاني/ ج ١٢/ ٩٧ / وانظر كذلك شعراء أمويون/ ج ٣/ ٩٧.

- ٢٣١ -

وبغلظ له في الكلام ويتوعده بأنه إن ضايقها، ولم يصلها فهي في غنى عنه؛
لأن لها أخاً آخر (يعني نفسه) يبرها، ويلبي دعوتها، إذا ما دعت. قال:

فإن تعنف بها أو لا تصلها فإن لأُمّها ولسداً سواها
بيسرٌ ويستجيب إذا دعت وإن عاصيته فيها عساها (١)

ويمدحها بشرفها وفضلها ويراهها فوق بعض الرجال.

وكنّت أرى بها شرفاً وفضلاً على بعض الرجال وفوق ذاك (٢)

ومن لطيف ما أجابه أخوه من قصيدة طويلة يرد عليه فيها قوله:

فإن تك أختنا عتبت علينا فلا نصّر لظنّتها أخاك
فإن لها إذا عتبت علينا رضاها صابرين لها بذاكا (٣)

الابنة

أظهر الشعر الذي بين يدي مدى قوة العلاقة وعمقها بين الأب وابنته، فقد ظهرت الابنة في مظهر المحبة لوالدها المتعلقة به، والأكثر تحسناً لهوموم ومشكلاته، وظهر الوالد كذلك محباً لها مشفقاً عليها من كل ما يمكن أن يسبب لها الأذى سواء في حال وجوده أو بعد موته.

مظاهر حب البنت لأبيها

أفادت الأشعار والأخبار مدى حب البنت لأبيها وتعلقها به، ويتبدى هذا الحب، وهذا التعلق عند سفره وارتحاله خاصة. فقد ذكرت الأخبار أنه لما خرج مالك بن الربيع مع سعيد بن عثمان، تعلقت ابنته بثوبه وبكت، وقالت له: أخشى أن يطول سفر، أو يحول الموت بيننا فلا نلتقي، فبكي، وأنشأ يقول:

ولقد قلت لابنتي وهي تبكي بدخيل الهمسوم قلباً كثيباً
وهي تذرني من الدموع على الخدين (م) من لوعة الفراق غروباً
عبراني يكبدن بخرجن ماجز ن به أو بدعن فيه ندوبا
حذر الحنف أن بصيب أباه ويلافي في غير أهل شعوبا

(٢٠١) الأغاني / ١٣ / ٩٨ / وانظر كذلك شعراء أمويون / ج ٣ / ٩٧.

(٣) المصدر السابق / ج ١٣ / ٩٨.

اسكنني قد حززت بالدمع قلبي
فغسى الله أن يدافع عني
ليس شيء يشاؤه ذو المعالي
ودعي أن تقطعي الآن قلبي
أنا في قبضة الإله إذا كنت (م)
كم رأينا امرأة أنى من بعيد
فدعيني من انتحابك إنني
حسبي الله ثم قربت للسبر
طسالمًا حَزَزَ دمعك القلوبا
رَبِّ مَا تحذرين حتى أووبا
بعزيز عليه فادعي المجيبا
أو تريني في رحلتني تعذيبا
بعيدا أو كنت منك قريباً
ومقيماً على الفراش أصيباً
لا أبالي - إذا اعتزمت - النحيباً
علاء أنجسب بها مركوباً (١)

فقد صور الشاعر ابنته باكبة من لوعة الفراق، خائفة من مجاهل السفر وآثاره التي من أهمها الشفاء والتعذيب أو فقد الوالد. وفي المقابل هو بصور وقع هذا الحزن الذي يعمل في نفسها، والدموع التي في عينيها وأثرها على نفسه، فقد كانت تقطع قلبه، وتترك فيه آثاراً وندوباً.

إن فكرة البنات هن الأكثر تأثيراً في نفس الوالد فكرة متوارثة في شعرنا. فقد قال فيها شعراء كثير، ذلك لأنهم يرون أن البنت عنصر ضعيف في الأسرة، وفي المجتمع. وبالتالي فإنها تنثر في نفس والدها الإشفاق على حالها، لذا يلجأ إلى إقناعها بأن القدر غالب على الناس بما أراد سواء سافروا وتركوا بلادهم أم حلوا في بيوتهم وأقاموا فيها. ثم بعد ذلك يأتي دور فخر الشاعر بنفسه القوية، الشجاعة وبرأيه الثابت الذي يتجاوز كل هذه الأمور المثبطة حتى لو كانت دموع ابنته، إذ يعتزم الرحيل ويصر عليه.

ويبدو أن هناك نموذجاً معيناً لمثل هذا النوع من الشعر: فالبنت تبكي عندما ترى والدها عازماً على الرحيل، وتطلب إليه العدول عن رأيه فتمسك بثوبه، وتبين له ما قد يجد في سفره من تعب ومشقة، وتظهر خوفها من فقده، وتشرح له ما ستلاقه هي وبقيّة أفراد أسرته من عذاب بعده. ثم يأتي دوره هو فيرد عليها بأن القدر محقق في صاحبه: ارتحل أم أقام. ويطلب إليها الصبر على ذلك، ثم غالباً ما يفتخر بعد هذا بشجاعته وثبات رأيه. وبالتالي ربما كان مثل هذا الشعر مدخلاً للفرح، لكنه يبقى بصور مدى تعلق البنت بأبيها وحبها له، ومدى إشفاقه عليها وخوفه مما ستلاقه بعده.

ومن الذين قالوا في ذلك فأجادوا حاجب الغبل البشكري، فقد صور هو الآخر

مدى جزع ابنته عليه عندما أزمع السفر قال:

لما رأت بنتي باني مُزْمِعٌ	بترحُّل من أرضها فمُودِعٌ
ورأت ركبائي قُربَّتْ لرحالها	فسالت وغرَّبُ العين منها بدمعٌ
أبنا أتركننا وتذهب نائها	في الأرض تخفضك البلاد وترفعٌ
فيضبع صبيتك الذين تركتهم	بمضيم في مصر لم يترعرعوا
فيهم صغيرٌ ليس ينفع نفسه	وصغيرةٌ تبكي وطفلٌ برضع ^(١)

وقد اختلف حاجب الغبل عن مالك بن الربيع حيث صور ابنته أكثر جلدًا، وأكثر حكمة وسعة أفق، إذ أنها تحاول أن تدخل مدخلا مغابرا في إقناع والدها بالعدول عن فكرة السفر، وذلك بأنها أولا: شرحت واقع حال إخوتها الصغار ذكورا وإناثا فهم جميعا بحاجة إلى رعايته، وثانياً: بأنها حاولت رده إلى مبدأ القناعة في الرزق، والرضى بما قسم الله لهم دون الحاجة إلى سفره لأنها رأت في وجوده بينهم فائدة أكبر من الرزق الذي قد يكثر لكنه سيكون على حساب غيابه، أو احتمال فقده. قال:

إننا سنرضى ما أقمت بعيشنا	ما كان من شيء نجوع ونسبع
والله برزقنا فنرضى رزقه	وكفى بحسن معيشة من ينع ^(٢)

وتنمّن في محاولة إقناعه؛ فتشرح له ما سيكون عليه موقف الآخرين من أسرته في حال غيابه عنهم، وكذلك في حالة موته، وهو أمر كان ولا وما زال هاجس الآباء الذي يحسبون له كل حساب:

إننا إذا ما غبت عنا لم نجد	مما تخلف عندنا ما ينفع
نحفو موالينا ويعرض جأونا	وفرينا الأدنى بعز ويقطع
ونخاف أن تلقاك وشك منيتي	فصينا الأمس الجليل المفزع
فنصير بعدك ليس يرفع بيتنا	ويذلنا أعداؤنا ونضيع
هذا الرحيل وأمرنا ما قد نرى	فمنى تؤوب إلى الصغار وترجع ^(٣)

وتأتي الخاتمة لتوضح مدى تأثر الأب بقول ابنته وعبراتها وعبراته صفاره، لكن

هذا كله لا يثنيه عن السفر لأن يؤمن بالقدر:

(١) أبو عمر يوسف القرطبي/ بهجة المجالس، وأنس المجالس وشخذ الذاهن والهاجس/ تحقيق محمد مرسي الخولي/ دار الكتب العلمية بيروت/ لبنان/ ١٩٨٢/ المجلد الأول من القسم الأول/ ٢٢٢.
(٢) بهجة المجالس/ ٢٢٢.
(٣) المصدر السابق/ ٢٢٢.

- ٢٣٤ -

فَخَنَفْتُ مِنْ قَوْلِ الصَّغَارِ بَعْبَرَةً كَسَادَ الْفُؤَادِ لِقَوْلِهِمْ يَنْصَدُّعٌ
وَأَجَبْتُهَا صَبْرًا بَنِيَّةً وَعَلِمَنِي أَنْ لَيْسَ يَعْدُو يَوْمَهُ مِنْ يَجْزَعُ^(١)

وإذا أرادت ابنة مالك وابنة حاجب الغيل منع أبيهما من السفر، فإن ابنة أبي الأسود الدؤلي أرادت منه تأجيله لحين انقضاء الشتاء فتصبح الطريق أكثر أماناً. فحينما أراد أبو الأسود الخروج إلى فارس، قالت له ابنته: يا أبت إنك قد كبرت، وهذا صميم الشتاء، فانتظر حتى ينصرم، ونسلك الطريق آمناً، فأنني أخشى عليك، فقال أبو الأسود شعراً يوضح فيه مدى إيمانه بإرادة القدر التي لا بد من تحققه وبالتالي فعلى الإنسان المضاء والتوكل لا التردد خوفاً مما سيكون، ولعله في ذلك يحاول إقناع نفسه وبالتالي إقناع ابنته بذلك ولربما هي محاولة منه للتخفيف عنها.^(٢)

وقد أكثر الشعراء من هذه الفكرة ورددوها في أشعارهم كثيراً منهم ذو الرمة الذي يفخر كذلك بثبات عزمه، وتجاوزه لكل المخاوف والصعاب التي يمكن أن تعترض طريقه في سفره لأنه إنسان يؤمن بأنه لا رادّ لقضاء الله.^(٣)

وإذا ما حُمَّ القضاء، ونوفي الأب، فإن ابنته تنكبه بكاء حاراً وتنوجع له، وتظهر فزعها، وخوفها من المجهول الذي بدأت تخشاه بوقاة الأب، وقد تعبر عن ذلك بشعر نصف فيه عمق المأساة التي حلت بها، ومن اللواتي رثين آباءهن لهذا العصر، ابنة بهدل ابن فرقة، وقد قتله عثمان بن حيان حين كان عثمان أميراً على المدينة زمن الأمويين، فقالت توضح عظم الخسارة به وتحت قومه على الثأر له:

دعماً دعوة يوم الشراي بالمالك ومن لا يُجِبُّ عند الحفيظة بكلم
فيا ضبعة الغتبان إذ يقتلونهُ ببطن الثرى مثل الفيق المسدم
أما في بني حصن من ابن كرهية من القوم طلاب التراث غششم
فبقتل جبراً بامرئ لم يكن له بواء ولكن لا تكابل بالسدم^(٤)

(١) ديوانه / ٢٢.

(٢) ديوانه / ١٢٠.

(٣) ديوانه / ج ١ / ٣٧٨.

(٤) أعلام النساء / ج ١ / ١٣٠.

وقالت امرأة من بني شيبان قتل أبوها ورجل من أسرتها مع الضحاك الحروري:

من لقلب شفته الحزن ولنفس ما لها سكن
ظعن الأبرار فانقلبوا خيرهم من معشر ظعنوا
معشراً فضوا نحوبهم كل ما قدموا حسسن
صبروا عند السيوف فلم ينكأوا عنها ولا جبنوا
فدية باعوا نفوسهم لا ورب البيسر ما غبنوا
فأصاب الفوم ما طلبوا منة ما بعدها من (١)

فهي تشير في أبيات الرثاء السابقة إلى صفاتهم وإلى تقديم نفوسهم رخيصة في سبيل مبدئهم، وهي تؤكد على صفة التقوى والصبر عند حد السيوف، وهذه أمور يتصف بها الخوارج.

ولما قتل مقاتل بن مسمع وكان على خمس بكر بن وائل مع ابن الأشعث، قامت ابنته نثرته مؤكدة شجاعته وثباته في المعركة في حين لم يفعل ذلك غيره:

وحامى زياداً على رايته وفر جدي بني العنبر (٢)

وقد تتمثل بشعر غيرها لثندب والدها، فقد ذكر أنه حينما أغمي على معاوية في مرضه الذي مات فيه، قالت ابنته متمثلة شعراً للأشهب بن رميلة:

إن مات، مات الجود وانقطع الندي ممن الناس إلا من خليل مُرد
وردت أكف السائلين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلف مُرد (٣)

ومن مظاهر حب البنت لأبيها الدفاع عنه، فقد اجتمع ناس من الشعراء، فأتوا باب الرقاب يطلبون الشاعر عدي بن الرقاع، فخرجت بنية له، فقالت ماذا تريدون؟ قالوا: نريد أباك لنخزيه ونغضبه، فنظرت إليهم هنيئة، ثم قالت بظرة الطفلة المحبة لوالدها، الشاعرة بضرورة الدفاع عنه ما أمكنها ذلك:

تجمعنم من كل أفق وبليدة على واحد، لا زلنم قرن واحد (٤)

(١) العقد الغرید / ج ٣ / ١٩١. وانظر كذلك أشعار النساء / ١٩٥.

(٢) الطبري / أحداث سنة ٨٢ / ج ٣ / ٦٢٨.

(٣) تاريخ دمشق / تراجم النساء / ٩٧ / والخلف المحرد: ضرع الناقة قليل اللبن.

(٤) المصدر السابق / تراجم النساء / ٥٦٢. قرنه: مثله أي أن يظل مجموعهم مثل واحد في الشجاعة.

- ٢٣٦ -

وقد لا يجد الأب من يقدم له المساعدة في محنته سوى بناته قال خالد بن صفوان: ما بت ليلة أحب إلي من ليلة طلقت فيها نسايتي. فما رجعت إلا والستور قد هتكت، ومناع البيت قد نُقل، فبعثت إلي ابنتي سُليلة فيها طعام. وبعثت الأخرى إلي بفراش أنام عليه (١).

مظاهر حب الأب لبناته

من مظاهر حب الأب لابنته نصيحتة إياها في أمور حياتها المختلفة. ولأنه الحريص على سعادتها في حياتها، فإن نصيحتة موضع ثقة عندها. من ذلك ما قاله أبو الأسود الدؤلي: إياك والغيرة. فإنها مفتاح الطلاق. وعليك بالزينة: وأزين الزينة الوضوء، وبالطيب، وأطيب الطيب إسباغ الوضوء. وكوني كما قلت لأمك في بعض الأحيان:

خُذِي العَفْوَ مِنِّي تَسْتَدْبِي مَوَدَّنِي وَلَا تَنْطَقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضِبُ
فَإِنِّي وَجَدْتُ الْحَبَّ فِي الصَّدْرِ وَالْأَذَى إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبَثِ الْحَبُّ يَذْهَبُ (٢)

ومن مظاهر حبه لها مساندته إياها في خلافاتها مع زوجها أو مع غيره. فقد كان الفنال الكلابي قد زوج ابنته أم قيس من ابن عمه. فولدت له أولاداً ثم أغارها، فشكته إلى أبيها، فاستعدي عليه وقذفه بخادمتها. (٣)

وكذلك ساند الفرزدق ابنته مكبة في خلافاتها مع بغية أفراد أسرته، وقال فيها حينما كتبوا إليه وهو عند سليمان بن عبد الملك يشكون شراسة خلقها:

كَذَبْتُمْ زَعَمْتُمْ أَنَّهَا ظَلَمَتْكُمْ كَذَبْتُمْ. وَبَيْتَ اللَّهِ، بَلْ تَظْلُمُونَهَا
فَلَا تَعُدُّوا أُمَّهَا مِنْ نَسَائِكُمْ فَإِنَّ ابْنَ لَيْلَى وَالدَّ لَنْ يَشِينَهَا
وَأَنَّ لَهَا أَعْمَامَ صِدْقٍ وَإِخْوَةً وَشَبَّخَا إِذَا شَتَّيْتُمْ تَمَرَّ دُونَهَا (٤)

وقال فيها بدافع عنها لكون أمها جارية سوداء:

وَمَا ضَرَّهَا أَنْ لَمْ يَلِدْهَا ابْنُ عَاصِمٍ وَأَنْ لَمْ يَلِدْهَا مِنْ زَارَةِ مَعْبَدٍ

(١) أخبار النساء / ٧٩.

(٢) عيون الأخبار / ج ٤ / ٧٧ وديوان أبي الأسود / ٩٥-٩٦ / وانظر كذلك وصية أسماء بن خارجة لابنته

هند / الأغاني / ج ٢٠ / ٣٦٣.

(٣) ديوانه / ٥٣.

(٤) ديوانه / ٦٣٨.

رَبِيبَةً دَابَات ثَلَاثٍ رَبِيبَهَا، يَلْقَمَنَّهَا مِنْ كُلِّ سَخْنٍ وَمَبْرَدٍ - ٢٣٧-
 إِذَا انْتَبَهَتْ أَطْعَمَهَا وَسَقَيْنَهَا، وَإِنْ أَخَذَتْهَا نَعَسَتْ لَمْ تَسْهَدْ
 وَشَبَّتْ فَلَا الْأَتْرَابُ تَرْجُو لِقَاءَهَا وَلَا بَيْتُهَا مِنْ سَائِرِ الْحَيِّ مَوْعِدُ (١)

فهو يشير هنا إلى ما كانت تلاقيه ابنته كونها ابنة أمة سوداء. إذ كانت النظرة لها أدنى من بنات الحرائر. ولكن الشاعر يذكر الآخرين من حولها بأنها ابنة آباء يفخر بهم وهذا يعوضها ما فقدته من نسب الأم. هذا أمر، والأمر الآخر أنها وجدت كل رعاية واهتمام في حجر والدها. وفي هذا فضل كثير لها فقد لا تجد ابنة الحرة مثل هذا الاهتمام وهذا الاعتناء بالتربية. لاشك أن الشاعر يحاول، ما أمكنه ذلك، أن يعوض ابنته ما فاتها من نسب أمها ليرفعها إلى مستوى بنات الحرائر.

ومن مظاهر حب الأب لابنته الخوف عليها وعلى مصيرها بعد موته إذ كان يخشى عليها الضياع، وجفاء الآخرين خاصة الأقارب. لما احتضر ابن سريج نظر إلى ابنته تبكي، فبكى، وقال إن من أكبر همي أنت. وأخشى أن تضيعي بعدي، فقالت: لا تخف، فما غنيت شيئاً إلا وأنا أغنيه. فقال: هاتي فاندفعت تغني أصواتاً وهو مصغٍ إليها. فقال قد أصبت ما في وهونت علي أمرك. ثم دعا سعيد بن مسعود الهذلي فزوجه إياها. (٢)

ومن مظاهر خوف الأب على بناته أن يفقد عن الخروج للحرب من أجلهن وخوفاً عليهن من بعده. قال عيسى بن عاتك الخطي وهو من فعد الخوارج:

لَقَدْ زَادَ الْحَيَاةَ إِلَيَّ حَبْسًا	بَنَانِي إِنْهَنَّا مِنَ الضَّعَافِ
مَخَافَةَ أَنْ يَرِيَنَّ الْبُؤْسَ بَعْدِي	وَأَنْ يَشْرَبَنَّ رَنْقًا بَعْدَ صَافِ
وَأَنْ يَعْرِبَنَّ إِنْ كَسَسِيَ الْجَوَارِي	فَتَنْبُو الْعَيْنُ عَنْ كَرَمِ عَجَافِ
وَأَنْ يَضْطَرَّهِنَّ الدَّهْرُ بَعْدِي	إِلَى جِلْفٍ مِنَ الْأَعْمَامِ جَافِ
فَلَسَوْلا ذَاكَ قَدْ سَوَّمْتُ مَهْرِي	وَفَسِي الرِّحْمَنِ لِلضَّعْفَاءِ كَافِ
تَقُولُ بِنَبْتِي أَوْصِ الْمَسْوَإِي	وَكَيْفَ وَصَاةٌ مَنْ هُوَ عَنْكَ جَافِ
أَبَانَا مِنْ لَنَا إِنْ غَبَّتْ عَنَّا	وَصَارَ الْحَيُّ بَعْدَكَ فِي اخْتِلَافِ (٣)

(١) ديوانه ١٤١، يلاحظ أن الأبيات فيها إقواء. هكذا وردت في الديوان.

(٢) الأغاني/ج ١/٣١٩.

(٣) شعر الخوارج/١٢-١٤/وانظر كذلك الكامل في الأدب/ج ٢/١٦٧.

- ٢٣٨ -

والحقيقة أننا عند قراءة هذا الشعر نتوقف لنلاحظ هذا الفلق الانساني القديم الحديث، فما زال الآباء منذ كانوا بخشون على بناتهم الضياع من بعدهم، وجفوة الآخرين خاصة الأقارب، ونلاحظ اللوعة في كلامه والأسى بشكل خاص في قوله "أن بعربن إن كسي الجواري" "أن يضطرهن الدهر بعدي إلى جلف من الأعمام جاف" "أبانا من لنا إن غبت عنا؟!" وهو مرة أخرى يخص البنات بمثل هذا النوع من الحديث. لأنهن كما يعنفد الشاعر الأكثر ضعفاً والأكثر تأثراً بمثل هذه الموافف.

ومن مظاهر حبه لها ذكرها في شعره ومحاورتها له في قضايا الحياة المختلفة.
فقال جريـر:

نظرنا نارَ جَعْدَةٍ هل نراها	أُبْعِدَ غَالٌ ضَوْءَكَ أم هُمُودُ
لحبِّ الوافدان إلى مُوسى	وجَعْدَةٌ لو أضاءَهما الوفودُ
تعرضت الهمومُ لنا فقالت	جَعَادَةٌ أي مرتحلٍ تُربِدُ
فقلت لها الخليفةَ غيرَ شكٍ	هو المهديُّ والحَكَمُ الرشيدُ. (١)

فلا شك أن حب الشاعر لولديه موسى وجعادة، هو الذي دفعه إلى تذكرهما في شعره، فهما ذوا ضياء ونور وبهجة وكلها أمور نريد من حب الشاعر لهما وتعلقه بهما، وعند الرحيل تعرض له الهموم لتركه لهما، ولكنه خص ابنته هنا بجعلها أكثر تحسناً لحالة والدها فتبادر لسؤاله عن سبب همومه، وارتحاله.

وقد تختلف النظرة إلى الابنة من أب آخر فإن كنا رأينا مظاهر لحب البنات والتعلق بهن، فقد وجد من يكرههن، ويكره انجابهن حتى عد انجاب البنات أمراً عظيماً، يتعوذ من الأم المنجبة بسبب ذلك. وقد تعرض إلى هذه القضية معن بن أوس بقوله:

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم	وفيهن لا تكذب نساءً صوالحُ
وفيهن والأبامُ تعثر بالعننى	عوائدُ لا يملأنه ونوائحُ (٢)

ومهما بلغ تقدير الأب لابنته فإن المعادلة الواضحة عند الرجل كان أباً أو أخاً... أن الرجال أفضل من النساء مطلقاً، وما عدا ذلك فهو من باب الاستثناء الذي لا يعم، بل لا يقاس عليه. وحتى في هذا الاستثناء فإن الرجل ينظر إلى المرأة من خلال مصلحته الشخصية وحاجته إذ يرى في ابنته مخرصة في رعايتها له وقت الحاجة دون ملل أو شكوى منه، ونائحة تبكي وفاة أبيها أو أخيها بحرقه وإخلاص.

(١) ديوانه/مج ١/ ٢٨٨.

(٢) ديوانه / ٨٥.

الفصل الرابع

المرأة في الإطار الثقافي

الفصل الرابع

المرأة في الإطار الثقافي

شهد العصر الأموي -نتيجة الفتوحات الواسعة- اختلاطاً بأجناس مختلفة، ووفادة لثقافات جديدة. وقد نشأ عن ذلك تحريك للعلاقات الاجتماعية، فمنحت المرأة قدراً من الحرية والحركة في المجالس الثقافية أو المنتديات الأدبية والاجتماعية. لذا وجدناها تشاطر الرجل بعضاً من الأفكار النقدية، ويكون لها صوتها الشعري المستقل، وغناؤها التجديدي الخاص.

لقد أدت الجواري مهمة بارزة في إشاعة جو من الانفتاح والصراحة في تلك العلاقات الاجتماعية، وبخاصة العلاقة بين الرجل والمرأة. ربما كان للثقافات التي حملتها الجواري معها فاعلية قوية في ازدياد التحرر والتسامح في بعض الانفتاح الاجتماعي الذي منح تلك العلاقة زخماً كبيراً.

لذا سأتحدث في هذا الفصل عن الجواري وأتبعه بحدث عن القيان المغنيات ثم عن المرأة نافذة وشاعرة.

الجواري

الجارية هي المرأة التي أخذت أسيرة في أعقاب الحرب مع الأعداء. أو التي نقلت قسراً من بلادهم، ويشترط فيها أن لا تكون عربية؛ لأن الإسلام منع استرقاق العرب بعضهم لبعض، ولا مسلمة؛ لأنه لا يجوز سبي المسلمات. أو هي التي قدمت إلى بلاد العرب عن طريق الشراء إذ إن تجارة الرقيق كانت شائعة آنذاك. وكذلك هي التي ولدت لأبوين مملوكين؛ وهن اللواتي يسمين بالمولدات. فهذه المصادر الثلاثة وفرت للمجتمع العربي في العصر الأموي وما بعده عدداً كبيراً من الجواري من جنسيات مختلفة؛ فمنهن الروميات والفارسيات والحبيشيات والهنديات... بالإضافة إلى المولدات، وباختلاف جنسيات الجواري اختلفت أيضاً أشكالهن ألوانهن وطبائعهن، وقد ألفت في هذا رسائل منها رسالة القيان للجاحظ، ورسالة ابن بطلان، وقد عرضت هاتان الرسالتان لمختلف القضايا التي تتعلق بالجواري، فمما قاله ابن بطلان في وصفهن: "... والبربريات ألوانهن على الأكثر سود، ويوجد فيهن الصفر، مطبوعات على الطاعة والموافاة في كل أمورهن، نشيطات للخدمة... والزنجيات مساوئهن كثيرة، وكلما ازداد سوادهن قبحت صورهن، وتحدثت أسنانهن، وقل الانتفاع بهن وخيفت المضرة منهن، والحبيشيات الغالب عليهن

- ٢٤١ -

نعمة الأجسام ولبنها وضعفها. يتعاهدن السل. ولا يصلحن للغناء ولا للرقص، والنوبيات من جملة أجناس السودان، ذوات ثرف ولطف وقصف والمكيات خنثات مؤنثات لينات الأرساغ ألوانهن البياض المشرب بسمرة، خدودهن حسنة وأجسامهن ملتفة، وثغورهن نقية باردة، وشعورهن جعدة، وعيونهن مراض فائرة، والتركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعمة ووجوهن مائلة إلى الجهامة، وعيونهن مع صغرهما ذات حلاوة والروميات ببض شقر، سباط الشعور، زرق العيون، عبيد طاعة وموافقة...^(١)

والرفيق في العصر الأموي لم يكن جديداً، فإنه كان موجوداً منذ العصر الجاهلي؛ كان بعضه يؤتى به من خارج الجزيرة العربية عن طريق الشراء، إذ كان الانجار بالرفيق ذائعاً مشهوراً. ومن أشهر أسواقه سوق عكاظ في مكة. ومن الذين اشتهروا بالانجار به عبد الله بن جدعان، وقد كان عنصر الانتاج بالنسبة للحياة الزراعية والصناعية آنذاك كما كانت النساء يقمن بالخدمة في البيوت وقد يتخذن متاعاً للرجل، وقد اشتهر بعضهن بالغناء وكن يقمن بالغناء والعزف في دور الخاصة أو دور القيان، وهؤلاء كن في مرتبة أعلى من غيرهن من الإماء. وسأخص القيان بحديث خاص بهن فيما بعد.

كما شاع نوع آخر من الرفيق مهم في العصر الجاهلي وهو السبي فإذا ما غزت قبيلة عربية قبيلة عربية أخرى فإن المنتصر يسوق نساء المغلوب وأولاده ورجاله. ويتصرف بهم كما يتصرف بالأسلاب الحربية الأخرى، وبالتالي كان لدى العرب في هذا العصر عدد كبير من السبايا العربيات، اللواتي يعملن في الخدمة داخل البيوت أو خارجها، وقد يتخذن سريات للرجل، وأمّهات أولاد سواء كن من بنات زعماء القبائل أو من بنات العامة. وقصة الشاعر الصعلوك عروة بن النورد وزوجته السبية سلمى من الذائع المعروف في هذا المجال.^(٢) وكان حوز السبايا والزواج منهن بدون مهر سوى حدّ السيف، وكذلك الدفاع عن نساء القبيلة والحفاظ عليهن من السبي من أهم الأمور التي افتخر بها الشعراء لسان حال قبائلهم العربية في ذلك العصر.

وعندما جاء الاسلام أبقي على نظام الرق، ولم يحرّمه، ذلك أن هذا النظام كان موجوداً عند غالبية الأمم إن لم يكن عندها كلها في ذلك الوقت، وكان النظام

(١) ابن بطلان البغدادي / رسالة جامعة لغنون نافعة في شرى الرفيق وتقليب العبيد / تحقيق عبد السلام

هارون / لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٩٥٤ / ٣٧٢.

(٢) ابن قتيبة / الشعر والشعراء / تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر / دار المعارف القاهرة / ١٩٨٢ / ج ٢ / ٦٧٦.

وانظر الأغاني / ج ٢ / ٧٥ وما بعدها.

-٢٤٢-

الاقتصادي يستلزم بقاءه إذ أنه يقوم عليه. كما أن استرقاق رعايا الأمم المغلوبة كان يقوم على مبدأ المعاملة بالمثل ومن هنا بقي هذا النظام موجوداً، إلا أن الإسلام حاول تنظيم وجود الرقيق في بلاد المسلمين بوضع كثير من القوانين والأنظمة الخاصة بهم. كما أنه حُبب إلى المسلمين عتق الرقيق وجعله كفارة لبعض ذنوبهم كما أشار إلى ضرورة معاملته معاملة حسنة، وجعل لأولاد الإماء ما لأولاد الحرّاء من حقوق، كما أنه حمى أمهات الأولاد من غير العربيات بأن حرم بيعها، أو استمرار رفقها بعد وفاة زوجها أو أخذها من قبل الورثة كأبي ممتلكات أخرى له. لكن كثيراً من هذه الأمور بقيت نظرية فقط ولم تطبق إلا في عهد الرسول الكريم وعهد خليفته أبي بكر وعمر وبدأت الأمور تتغير منذ عهد عثمان بن عفان، فقد بلغ الرقيق الذي كان يحوزه أكثر من ألف عند وفاته، وكان معاوية يؤتى بالجواري فيوزعهن على المقربين إليه. لقد بدأت الجواري تتزايد في البيوت العربية منذ زمن الراشدين، وذلك بسبب كثرة البلاد المفتوحة وأصبحن يجلبن بالآلاف بل بمئات الآلاف إلى بلاد العرب. كما مر من قبل في التمهيد.

وقد أصبح الاهتمام بالجواري لغايات كثيرة، منها الخدمة والتسري، والغناء... ساهم في ذلك كثرة عددهن، واهتمام الرجل العربي بما امتزن به من صفات. وبما كن عليه من جمال وثقافة وقدرة على استلاب أنياب الرجال وقد أسهم نجار الرقيق في هذا إسهاماً كبيراً، لقد كانوا يقومون على خدمة جواريهم، وتعليمهن، وتنقيهن، ليجلبن لهم أعلى سعر ممكن،^(١) وقد استطاع بعض هؤلاء الجواري إظهار أنفسهن بأفضل صورة ممكنة باستفادتهن من معارف قومهن، ومن غيرهن من الجواري التي كانت تلنقي معهن في أسواق النخاسين^(٢) فعرفن الطريق إلى قلوب أسيادهن بدءاً من العامة وانتهاء بالأمراء والخلعاء. فعملن ما وسعهن العمل لكسب ود الرجل لما كن يعلمنه من الفوائد التي ترتجى من وراء هذا الود. وبدأن يغلبن المرأة العربية في بيتها، وعلى قلب رجلها، حتّى لقد بدأت بواكير هذه الأمور تظهر في أواخر العصر الأموي، لكنها أصبحت جلية بينة في العصر العباسي، الذي غلبت فيه الجواري على كل شيء بدءاً من الحياة الزوجية والعاطفية للرجل، وانتهاء بالحياة السياسية والعسكرية وأمور الخلافة إلى غيرها من الأمور والقرارات المهمة في حياة الأمة العربية المسلمة.

(١) د. سهام عبد الوهاب فريخ/ الجواري والشعر في العصر العباسي الأول/ ط١/ شركة الربيعان للنشر

والنوزيح/ الكويت، ١٩٨١/ ٢٧.

(٢) انظر في ذلك/ جبور عبد النور/ الجواري/ دار المعارف للطباعة والنشر/ مصر/ ١٩٤٧/ ٢٨.

الجارية في الشعر الأموي.

تراوح ذكر الجواري غير المغنيات في الشعر الأموي بين الإشارة إلى طبيعة العمل الذي كن يقمن به آنذاك وبين طبيعة العلاقة التي تربط بينهن وبين مواليهن إيجاباً أو سلباً. فقد أشار بعض الشعراء إلى الأعمال التي كانت تناط بالجارية بصورة مباشرة، أو بصورة غير مباشرة عند حديثه عن أمر آخر، ويأتي دور الجارية عرضاً في هذا الحديث وخصوصاً فيما يتعلق بأحاديث الحب والغرام. كما أشار بعض الشعراء إلى الحديث عن علاقاتهم ببعض الجواري من حيث إبداء الحب لهن، أو العتاب عليهن، أو ذمهن، وإظهار الكره لهن، أو مدحهن إن كن زوجات أو الفخر بهن إن كن أمهات. وفيما يلي عرض لأهم مظاهر حضور الجارية في الشعر الأموي:

عمل الجواري

تنبه العرب إلى عمل الجواري وعرفوا ما تحسنه كل واحدة منهن حسب جنسها وطبيعتها، وتناقلوا ذلك فيما بينهم، فقد قال عبد الملك بن مروان من أراد جارية للمتعة فليأخذها بربره، ومن أرادها للولد فليأخذها فارسية، ومن أرادها للخدمة فليأخذها رومية. (١)

وقد أشار بعض الشعراء إلى بعض الأعمال التي كانت تقوم بها الجارية، قال أبو الأسود الدؤلي في جارية اشتراها للخدمة، فجعلت تعرض للنكاح وتطبخ وتشتغل بثوبها، فدعاها يوماً فقال إنما اشتريتك للعمل ولم اشترك لغير ذلك ثم أنشأ يقول:

أصلحَ إنِّي لا أريدُكَ للصِّبا	فدعي التَّشَمُّلَ حولنا وتبدلي
إنِّي أريدُكَ للعجينِ وللرحى	ولحملِ قُربَتنا وطبخِ المَرَجَلِ
وإذا نَروُحَ ضيفَ أَهْلِكَ أو غدا	فخذي لآخرِ نَحو أَهْلِكَ مُقبِلِ (٢)

فالعجن وإدارة الرحى، والطبخ، وخدمة أصحابها وضيوفهم أمور كانت تناط ببعض الجواري للقيام بها، قال ابن أبي عتيق لجارية له: هيئي الرحى وهيئي من الطعام طحين لبلة إلى الغداة. (٣)

(١) أخبار النساء / ١١.

(٢) ديوانه / ٨٨-٨٩.

(٣) الأغاني / ج ١٢ / ١٥٧.

ومن أعمالها الأخرى الخضاب، فقد ذكر صاحب العقد أنه كانت عند معاوية جارية أعز جواريه عنده، وكانت متولبة خضابه، ففناه بُديح:

اليسَ عندكَ شُكْرٌ للتي جعلتُ ما ابْيَضَ من قدامتِ الشعر كالحمم
وجددتُ منك ما قد كانَ أخلقه صَرَفَ الزمانِ وطولَ الدهرِ والفِدمِ^(١)

ومن طريف ما يذكر في عمل الجوّاري أن محمد بن عمرو بن حزم وهو والي المدينة، كان عفيفاً حديداً عظيم اللحية، له جارية موكلة بلحيته^(٢)، وإذا كانت الجارية تقوم بعملية الخضاب لسيدها فمن البديهي -أنها كانت تقوم بمثل هذا العمل لسيدتها وقريب منه أعمال التجميل الأخرى، والتزيين وتصفيف الشعر، إلى غير ذلك، فقد ذكر ابن عائشة المغني المعروف أن أمه كانت تعمل ماشطة، وكانت مولاة لكثير بن الصلت^(٣).

وقد كُنَّ يعملن كذلك في الرعي، وجلب الماء من أماكنه، إلى غير ذلك من مثل هذه الأمور، فقد ذكر أن جميلاً زار بثينة، فنزل قريباً من الماء يترصّد أمة لها أو راعية، فلم يكن نزوله بعيداً من ورود أمة حبشية معها فربة، كانت به عارفة، وبما بينها وبينه^(٤).

ومن أعمالهن أيضاً حماية ممتلكات أسيادهن فقد كان لغالب بن صعصة والد الفرزدق ماء يقال له الغبيات، فبعث فراطة، فملأوا الحياض، وأقعد أمة له تحفظها، فمر راكب من بني نهشل وفقيم فأوردوا إبلهم فمنعتهم الأمة فتناولوها بشيء من ضرب وسقوا، فأنت الفرزدق، فشكت إليه...^(٥)

ومن أعمالهن أيضاً العناية بالأطفال والقيام على تربيتهم ورعايتهم^(٦)، كما كن يغمن بصناعة الهودج وتزيينها وتعليق أنواع الجوهر عليها. قال ابن قيس الرقيات:

إنَّ في الهودجِ المحفَّضِ بالديب باجٍ ربماً مع الجوّاري ربيّاً
صنَّعته أَيْدي الجوّاري وعلَّقْ نَ عليه زَبْرَجَداً مَنقُوباً^(٧)

(١) العقد / ج ٧ / ١٧.

(٢) الأغاني / ج ١٩ / ١٤٦، حديد: فيه بأس وشدة

(٣) المصدر السابق / ج ٢ / ٢٠٣.

(٤) نفسه / ج ٨ / ١١٠.

(٥) انظر ديوانه / ١٨٢، الفراطة: الذين يتقدمون القوم إلى الماء

(٦) انظر ديوان الفرزدق / ١٤١.

(٧) ديوانه / ١٠٧-١٠٨.

- ٢٤٥ -

وقد عمل بعض الجوّاري وصيغات لبنات العائلات المتميزة والغنية. فكان يقمن بين أديبهن لخدمتهن وغالباً ما تنفّى لذلك الجارية المتميزة بالجمال وحسن المظهر. قال ابن فيس الرقيات أيضاً:

يخفّينَ في المشي القرب بَ إذا يسزّرنَ صديقهنَّه
وبناتُ كسرى في الحري ر عواميلَ بخدمتهنَّه^(١)

وكانت الجارية في هذا العصر تعد سلعة نفيسة للإهداء، يتهاذى بها على القوم، فقد قال الفرزدق في مدحه لأبان بن الوليد البجلي:

باعطائك البيض الكواعب كالدّمى مع الأعوجبات الكرام عرابها^(٢)
وقال ابن فيس الرقيات في مدحه لعبد الله بن جعفر:
بَهَبَ الخيلَ والولائدَ والبخ تَ بأجلالها مع الأخفاف^(٣)

دور الجوّاري في علاقات الغرام

ظهر للجوّاري دور كبير في علاقات الحب والغرام، فكان حنفة الوصل بين المحبين، ووسيلة الاتصال بينهم، فبوساطتهن كان الشعراء يرسلون رسائلهم إلى محبوباتهم. وكذلك كانت المرأة ترسل جارياتها إلى صاحبها لتحذيره، أو لدعوته للقائها إلى غير ذلك، وقد يقمن بدور الواسطة عند بعض الشعراء لإقناع صاحبانهم بالعطف عليهم، ومن الشعراء الذين أكثروا من ذلك في شعرهم عمر بن أبي ربيعة، فقد كان يرسل بعض جواربه إلى محبوبته لتقرئها السلام، وتعلمها ما هو عليه حاله من السهر والعذاب وأن تتوسط له عندها لتعطف عليه، وإلا سيموت وجداً أو كمداً إن لم تفكه من أسره الذي أسره به، قال:

فبعثت جاريتي فقلت لها: اذهبي فاشكري إليها ما علمت وسلمي
قولي: يقول: نحوّبي في عاشقٍ كلفني بكم حتى الممات مَنبم
فكسي رهينته: فإن لم تغلبي فابكي على قتل ابن عمك واسلمي
فتبسمت عجباً، وفالت: حقّه أن لا يعلمنا بما لم نعلم^(٤)

(١) ديوانه/٦٧.

(٢) ديوانه/٥٥. وأبان هذا كان من اشراف بجيلة بالعراق وانظر كذلك ديوان الأخطل/ج١/٢٦٤.

(٣) ديوانه/٤٠. وانظر كذلك ص١٠.

(٤) ديوانه/ ٢٢٧. الحوب: الإثم أي ما تغلبنه معه مستوجب للحوب.

- ٢٤٦ -

ومن ذلك قصته مع كلثم بنت سعد المخزومية، فقد كان عمر بهوى كلثم هذه، فأرسل إليها رسولا، فضربتها وحلفتها وأحلفتها ألا تعاود ثم أعادها ثانية، ففعلت بها مثل ذلك، فتحامها رسوله فابتاع أمة سوداء لطيفة رقيقة، وأتى بها منزله، فأحسن إليها وكساها وأنسها، وعرفها خبره وقال لها: إن أوصلت لي رفعة إلى كلثم فقرأتها فأنت حرة. فاحتالت بحيلة إلى أن أوصلتها. (١)

ومن ذلك قول العرجي في جاريته البربرية التي كان قد أرسلها إلى صاحبه بعدما غلقت الأبواب في وجهه فلم يستطع الاتصال بها. وقد تغافل بها لعلمه بأنها ستترفق في عرض حاجته وبأنها حاذقة ماهرة في أداء عملها هذا، قال:

فلما براني الهَمَّ والحُزنَ حِقْبَةً	وأشفقت من خوفٍ الذي كنت آملُ
وابصرتَ دهرًا لا يقومُ لأهله	على ما أحبُّوا فاسدٌ بنحوُلُ
نوكلتُ واستحدثتُ رابًا مباركًا	وأحزم هذا الناس من يتوكلُ
وضمنتُ حاجاني إليها رقيقةً	بها طبخةً ميمونةً حين ترسلُ
من البربريات اللواتي وجَّوهها	بكلِّ فعالٍ صالحٍ تنهالُ (٢)

ويصف الطريقة التي سلكتها الجارية لإنجاح مهمتها، فقال:

فقلت: فلا تعجل، كفيئك مرحبًا	وللسرِّ عندي فاعلمن ذاك مَحْمُلُ
تغشيت ثياب الليل، ثم تأطرت	كما اهتسَّرَ عِرْقٌ من فناء منذلُ
فجاءت بوارًا طالما قد تعللت	من الوحش، ما يسْطِيعُها المنحيلُ
بدنها بقول لَبَنٍ، وتمثلت	من الشَّعر ما يرفي به المُنمِّلُ
فما كان إلا قرطٌ خمسٍ حسبته	من الدهر، حتى جاء - لا يتعلَّلُ -
بشيرٍ، بأننا قد أتينا، فهل لنا	من الخوخة الصغرى سوى البابِ مدخلُ (٣)

والحقيقة أن الشاعر من خلال وصفه لعمل الجارية هذه، أبان عن مبلغ ثقافتها، وكذلك حسن سياستها في تعاملها مع الأمور، فالبدء باللبن من القول، والتمثل بالشعر، دليل قدرة ودليل ثقافة أيضاً، وكذلك اختيارها الليل ليكون مسرح الحدث لئلا يظن إلى وساطتها أحد يدل على ذكاؤها وقدرتها وخبرتها في مثل هذا العمل.

(١) الأغاني / ج ١ / ٢٠٤-٢٠٥.

(٢) ديوانه / ١٥٢.

(٣) ديوانه / ١٥٣.

وجميل بن معمر كان بكل مثل هذه المهمة إلى جواربه أيضاً. قال:

فبعثت جاريتي فقلت لها اذهبي قولي: محبك هانسا مخبولا (١)

وقد تقوم المرأة هي كذلك بإرسال جواربها في مثل هذه المهمات. فقد أرسلت لبلى صاحبة مجنون بني عامر ولبدة لها في رسالة إلى المجنون تقول فيها لما رأته من حاله: تقول لك لبلى أعزز علي لما أنت فيه، ولو وجدت سبيلا إلى شفاء دائك لوقفتك بنفسي منه، فمضت الوليدة إليه وأخبرته بقولها. فأفاق وجلس وقال أبلغها السلام وقولي لها... (٢) وفي مكان آخر ذكر صاحب الأغاني أن لبلى أرسلت بأمة لها إلى المجنون فدعته فأقام عندها ليلة وأخرجته في السحر... (٣)

وقد تطلب المرأة من مولاتها أن تشير إلى صاحبها بالسلام حينما ينظر إليها فتنبه بذلك إليها أو إلى ما تريد منه، إذ يبدو أن مثل هذا كان إشارة أو لغة خاصة بينهما. قال عمر بن أبي ربيعة:

تضابى القلب واكّرا	صباؤه ولم يكن ظهرا
لزينب إذ تجدد لنسا	صفاء لم يكن كدرا
ألبست بالنبي قالت	لمؤلا لها ظهرا
أشيري بالسلام له	إذا هو نحونا نظرا (٤)

وبينما عمر بطوف بالبيت إذ رأى عائشة بنت طلحة وهي تريد الركن تستلمه فبهت لما رآها. وراثة. وعلمت أنها قد وقعت في نفسه. فبعثت بجارية لها وقالت: قولي له: انق الله ولا تقل هجرا. فإن هذا مقام لا بد فيه مما رأيت. فقال للجارية: أقرئها السلام وقولي لها: ابن عمك لا يقول إلا خيرا. (٥)

اتخاذ الجواري أمهات أولاد

كانت العرب تتحاشى الجواري ولا ترغب فيهن أمهات أولاد. حتى لا يفسدن العرق العربي. قال الأصمعي: كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ

(١) ديوانه/ ١٤٨.

(٢) الأغاني/ ج٢/ ٦٤-٦٥.

(٣) المصدر السابق/ ج٢/ ٧٢.

(٤) الديوان/ ٤٩٢.

(٥) الأغاني/ ج١/ ١٩٩.

منهم علي بن الحسن، والقاسم بن محمد بن أبي بكر. وسالم بن عبد الله بن عمر ففاقوا أهل المدينة فقهاً وورعاً فرغب الناس في السراري^(١). ومع هذا فقد بقي أولاد السراري أقل من أولاد الحرائر شأناً عند آبائهم وفي مجتمعهم. فقد استبق بنو عبد الملك بن مروان في حلبة الجياد، فسبقوا مسلمة، وكان ابن أمة، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدى الفاضل:

نهيتكمو أن تحملوا فوق خيلكم هجيناً لكم يوم الرهان فيدرك
فتعثر كفاه وبسقط سوطه وتخذل ساقاه فما ينحرك
وهل يستوي المرءان: هذا ابن حرّة وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك^(٢)

وكان الوليد بن يزيد أول من بايع لابن سُرّية أمة، ولم يكونوا يفعلون ذلك.^(٣)

وقد انتقل هذا التعريض إلى الزوجات إن كن بنات جوار فقد عرض الفرزدق بزوجه النوار لأن أمها أم ولد.^(٤) وقد أكثروا من الهجاء بالأم إن كانت جارية وبخاصة السوداء منهن كما مرّ من قبل.

بل ذهبوا أكثر من ذلك كله، إذ قام بعضهم بقتل الإماء خشية أن يلدن فيهم، فقد كان لعن القتال الكلابي سُرّية. فقال له القتال: لا تطأها، فإننا قوم نبغض أن تلد فينا الإماء، فعصاه عنه، فضربها القتال بسبفه فقتلها.^(٥)

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل افتخر بعض الشعراء بأن حبيبته ليست جارية تعمل في مجال الخدمة. قال كثير عزة:

أخاضت إليّ الليل خَوْدَ غريبة جبان السرى لم تنطق عن تفضل^(٦)

أي امرأة شابة، حديثة السن لم تجرب الأمور ليست بخادم فتتفضل وتنتطق للخدمة.

(١) عيون الأخبار / مج ٤ / ٨.

(٢) المستطرف في كل مستظرف / ج ٢ / ٨٥، والعقد الفريد / ج ٧ / ١٢٢.

(٣) الأغاني / ج ٧ / ٧١.

وقطها.

(٤) ديوانه / ١٤٠.

(٥) انظر ديوانه / ٨٤ / والأغاني / ج ٢٤ / ١٩١.

(٦) ديوانه / ٢٩١.

وقال الراعي النميري:

صَلَّى عَلَى عَزَّةَ الرَّحْمَنِ وَابْنَتَهَا لَبَّى وَصَلَّى عَلَى جَارَانِهَا الْأَخِيرِ
هَنَّ الْحَرَائِرُ لَا رَبَّاتُ أَحْمِرَةٍ سَوَدَ الْمَحَاجِرُ لَا يَفْرَأَنَّ بِالسُّوَرِ (١)

لسن من الإماء السود، النجاهلات اللواتي لا يقرأن القرآن.

وقال الأخطل في ذلك أيضاً:

مَثَقَلَةُ الْأُرْدَافِ، لَيْسَتْ بِمَرْضَعٍ وَلَا مِنْ نِسَاءِ اللَّخْلَخَانِيَّةِ، الْحُمَرِ (٢)
أَيُّ الْأَعْجَمِيَّاتِ.

ولكن ما لبثت هذه النظرة أن عدلت وأصبحت تتردد أقوال هنا وهناك تشجع على اتخاذ الإماء أمهات أولاد، فمنهم من شجع ذلك على اعتبار أن دور الأم ثانوي في الإنجاب لأن الأحساب للآباء، قال رجل من أهل المدينة:

لَا تَشْتَمُنْ أَمْرًا فِي أَنْ تَكُونَ لَهُ أُمَّ مِنَ الرُّومِ أَوْ سَوْدَاءَ عَجْمَاءُ
فَإِنَّمَا أُمَهَاتُ النَّاسِ أَوْعِيَّةٌ مَسْتَوْدَعَاتٌ وَلِلْأَحْسَابِ آبَاءُ
وَرَبٌّ وَاضِحٌ لَيْسَتْ بِمَنْجِيَّةٍ وَرَبِّمَا أَنْجَبْتَ لِلْفَحْلِ سَسْوَدَاءُ (٣)

وقيل تشجيعاً على اتخاذهن أمهات أولاد: "بنات العم أصبر، والفراث أنجب، وما ضرب رؤوس الأبطال كابن الأعجمية" (٤) وبدأ الشعراء بدافعون عن أبنائهم من الجواري. فقد دافع الفرزدق عن ابنة له من أمة سوداء (٥) بل بدأت تنردد أصوات فيها فخر بالأمهات الأعجميات، كما سبق من حديث عن الفخر بالأم، وليس هذا فحسب وإنما بدأت الجواري تنزو قلوب الرجال، كما بدأ اهتمام واضح بهن ونزايدهن الحب الكبير الذي كان يكتنه الرجال لهن بدءاً من العامة وانتهاء بالخلعاء، فقد رأى جرير في أم حكيم وهي أم نوح ابنه وكانت جارية دبلمية أنها زادت أهل الري عنده ملاحه، وأنها حبيت إليه الموالي. قال:

(١) ديوانه / ١٠١ ونسب هذان البيتان للقتال الكلابي أيضاً، انظر ديوانه / ٥٣.

(٢) ديوانه ج / ٧١٩.

(٣) عيون الأخبار / مج ٤ / ٩. وبينهم من السياق أن القائل كان أمويًا.

(٤) المصدر السابق / ج ٤ / ٣.

(٥) انظر ديوانه / ١٤١.

إذا عرضوا ألفين منها تعرضت
لأُمِّ حَكِيمٍ حَاجَةً فِي فَوَادِيهَا
لقد زدتِ أهلَ الرِّيِّ عندي مَلاحَةً
وحببتِ أضعافاً إلى الموالِيا (١)

وقال أبو الأسود الدؤلي في جاريته الحولا:

بعبونها عندي ولا عيبَ عندها
سوى أن في العيين بعض التأخّر
فإن بك في العيين شيء فإنها
مهمهمة الأعلى رداح المؤخّر (٢)

وقد بدأ الرجال يدفعون فيهن أنماناً عالية وبحرصون عليهن. وإذا اضطر أحدهم لبيع جاريته فإنه كان يفعل ذلك عن كره شديد منه. فقد كانت للمغيرة بن حبناء النمبي جارية نفيسة، فجعل بمسك حتى قالت له: لو بعنتي فانتفعت بثمنني كان أمثل مما أراك تلقى. قال: أفعل على كره. فعرضها على عمر بن عبيد الله فاشترها منه بمئة ألف، وذلك أضعاف ما تساوي وقبض الثمن. وقال:

لولا فَعَوْدُ الدهرِ بي عنكِ لم بَكَنْ
بُفَرَقْنَا شيء سوى الموت فاعذري
أروحَ بهم فسي الفؤادِ مَبْرَحْ
أناجي به فلباً قليلَ النَّصْبِ
عليكِ سَلام لا زيارةَ بيننا
ولا وصالَ إلا أن يشاءَ ابنُ مَعْمَرٍ (٣)

وقد بدأ للجواري ذكر في شعر الشعراء وذلك بعد أن تعلق هؤلاء الشعراء بهن. وأظهروا الحبّ لهن، ووصفوا جمالهن إلى غير ذلك من الأمور التي تدلّ على مدى ما وصلن إليه من حضور عندهم، بل في مجتمعهن كله. فمما قاله عمر بن أبي ربيعة في حميدة جارية ابن ماجة، يذكر حبه لها وغرامه بها، ويتوسل إليها لنصله:

يا قَلْبَ هل لك عن حميدة زاجر؟
أم أنستَ مَذَكِرَ الحباءِ فصابر؟
فالقلبُ من ذكرى حَمِيدَةٍ مَوْجَعْ
والدمعُ من حيدرٍ، ودمعي فانسِرْ
قد كنتُ أحسبُ أنني - قبل الذي
فعلتُ - على ما عند حَمِيدَةٍ قَادِر
حتى بدا لي من حَمِيدَةٍ خَلَّتِي
بَيْنَ وكنست من الفراقِ أَحَادِرُ (٤)

ومنه كذلك ما قاله عمر في ديباجة الحرم. (٥)

(١) ديوانه/مج٢ / ٥٦٥، وانظر أمثلة أخرى أخبار النساء / ٥٣.

(٢) ديوانه / ٥٢.

(٣) شعراء أمويون / ج٣ / ٩٣.

(٤) ديوانه / ٤٩٥.

(٥) ديوانه / ٤٩٩.

وقد أغرم بجارية ابن ماجه هذه غير شاعر، ومنهم العرجي الذي قال واصفاً المودة التي يحملها في قلبه لها، طالباً وصالها، مؤكداً إخلاصه في الحب لها وحدها:

حَمَلَ الْقَلْبُ مِنْ حُمَيْدَةٍ ثِقْلاً إِنْ فِي ذَاكَ لِلْقَوَادِرِ لَشُغْلًا
عَنْ سَوَاهَا، فَلَا تَظَنَّ أَنْثَى أَنْ فِي الْقَلْبِ عَنْ حُمَيْدَةٍ فَضْلاً
قَدْ حَوَّنَهُ وَأَغْلَقْتُ دُونَ وَدِّي -فَهُوَ فِي سِجْنِهَا عَنِ النَّاسِ- قَفْلاً
إِذْ فَعَلْتُ الَّذِي فَعَلْتَ فَقَوْلِي حَمْدَ خَيْرٍ وَأُنْبِئِي الْقَوْلَ فِعْلاً
وَصَلِّبِي فَأُشْهِدَ اللَّهَ أَنْ لَا أَبْنِي مِنْ سِوَاكَ مَا عَشْتُ وَصَلًا (١)

وقد تابع قوله فيها واصفاً جمالها البارز وسط أنرابها:

قُلْتُ إِذْ أَقْبَلْتُ نَهَادِي وَزَهْرًا كَنَعَاكِ الْمَلَا نَعَسَفْنَ رَمْلًا
وَتَنْقَبِسْنَ بِالْبُرُودِ وَأَبْدِي نَ عَيُونَنَا حَوْرَ الْمَدَامِجِ نُجْلًا (٢)

كما قال واصفاً لطف مجلسها وحديثها وجمال قدها وكمال عقلها:

أَحْسَنَ النَّاسِ مَجْلِسًا وَحَدِيثًا وَقَوَامًا، وَأَكْمَلَ النَّاسِ عَقْلًا (٣)

بدأت أعداد الجواري في قصور الخلفاء والأمراء تتعاضد، وأصبح يجدن الخطوة عندهم، بل بدأت يغلبن على عقول بعضهم، ويبعدنهم عن أمور الدين والسياسة. اشتهر منهم في ذلك الوليد بن يزيد كما سبأني. ولم يقف الأمر عند الوليد، فحسب، ولكنه تجاوزه إلى غيره فقد كان هشام بن عبد الملك مشغولاً بجارية يقال لها "صدوف" مدنية، اشترى له بمال جزيل، فغضب عليها ذات يوم في شيء، وهجرها. وحلف ألا يبدأها بكلام، فدخل عليه الكميث وهو مغموم بذلك، فقال مالي أراك مغموماً يا أمير المؤمنين، لا غمك الله. فأخبره هشام بالقصة. فأطرق الكميث ساعة ثم أنشأ يقول:

أَعْتَبْتُ أَمْ عَتَبْتُ عَلَيْكَ صَدُوفُ وَعَنَابٌ مِثْلِكَ مِثْلُهَا نَشْرِبُ
لَا تَقْعِدَنَّ تَلُومَ نَفْسِكَ دَائِبًا فِيهَا وَأَنْتَ بِحَبْهَا مَشْغُوفُ
إِنْ الصَّرِيْمَةُ لَا يَقُومُ بِثِقَلِهَا إِلَّا الْقَوِيُّ بِهَا وَأَنْتَ ضَعِيفُ (٤)

قال هشام: صدقت والله! ونهض من مجلسه فدخل إليها. (٥)

(١) ديوانه / ١٢٤-١٢٣.

(٢) المصدر السابق / ١٢٣-١٢٤. وقد نسبت بعض هذه الابيات لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه / ٤٩٨ ولا أدري إن كان من الممكن أن يتنزل العرجي وعمر بهذه الجارية نفسها مع الغارق الزماني بين ولادة كل من الشعارين.

(٣) ديوانه / ١٢٥.

(٤) ديوانه / ٢٥٣.

(٥) كثير من خلفاء بني أمية اشتهروا بفرامهم بالجواري. انظر شعر يزيد بن عبد الملك في جاريته حبابة وسلامة في شعر الخلفاء / ١٤٣ وفي الدر المنثور / ١٦١ وكذلك شعر مروان بن محمد في جاريته. شعر الخلفاء / ١٨٦.

-٢٥٢-

ومن لطيف ما ورد في عتب الجارية على صاحبها، ما ذكر عن جرير بأنه اشترى جارية من زيد بن النجار، ففركت جريراً، وجعلت دمعنها لا ترقأ بكاءً على زيد، وحباً له، فقال جرير:

إذا ذكّرتُ زيدا ترفرفُ دمعُها بمطروقةِ العينين شوساءَ طامحِ
تَبْكِي على زَيدٍ ولم نَرِ مثله صحيحاً من الحمى شديدِ الجوانحِ
أعزبكِ عمّا نعلمينَ وقد أرى بعينيكِ من زَيدٍ قذئٍ غيرِ بارحِ
فإن نقصدي فالغصّدُ مني خليقةٌ وإن نَجْمِحي تَلْقَي لِيَامَ الجوامحِ^(١)

وقال فيها أيضاً:

تُكَلِّفَنِي معيشةَ آلِ زَيدٍ ومَن لي بالصلائقِ والصنابِ
وقالست لا تضُمُّ كضُمَّ زَيدٍ وما ضُمُّتي وليسَ معي شَبَابِي^(٢)

وقد بدأنا نرى للجواري دوراً في الخلافات الأسرية بين الرجل وزوجته أو بين الرجل وأولاده، فمن الأول ما كان من محمد بن بشير الخارجي الذي اتخذ جارية، وهجر زوجته، وحينما أرسلت تعانیه بعث لها بشعر، يخبرها فيه بأن عينه قد طمحت عنها ولم تعد له بها حاجة. (٣)

ومنه أن الجعد المحاربي قد عمر حتى خرف، وكانت له جارية يقال لها سمحاء، فقالت له يوماً يا أبا الصموت، زعم بنوك إن مت فتلوني، قال: ولم؟ قالت: مالي إليهم ذنب غير حبي لك، فأعتقها على أن تكون معه، فمكنت يسيراً، ثم قالت له: هذا عرابة من أهل المعدن يخطبني، قال: أين هذا مما قلت لي؟ قالت إنه ذو مال، وإنما أردت ماله لك، قال فأنتني به، فأنته فزوجه إياها، فولدت له أولاداً، وفوته بما كانت نصيبه من الجعد، وكانت ثأني الجعد في أيام، فنخضب رأسه، ثم قطعته، فأنشأ يقول:

أُمسَى عَرَابَةً ذا مالٍ وذا ولدٍ من مالِ جَعْدٍ وجعدٍ غير محمود
نَظِل تَنشِيقَهُ الكافورَ منكناً على السربيرِ وتَعطيني على العودِ^(٤)

(١) ديوانه/مج٢/٨٣٣

(٢) المصدر السابق/مج٢/٨١٢/الصلائق: الرقاق/ والصناب: الخردل المضروب بالزبيب.

(٣) شعراء لمويون/ ج٣/ ١٨٧.

(٤) الأغاني/ ج٢٢/ ٣٩-٤٠.

ولم يكن حظ الجوّاري دائماً الحب والمدح، بل الكره والهجاء في بعض الأحيان. فقد كان لإسماعيل بن عمار جارية فولدت منه، وكانت سيئة الخلق فبيحة المنظر. وكان يبغضها وتبغضه، فقال فيها:

بَلَيْسَتْ بِزَمْرَدَةٍ كَالْعَصَا أَلَصَّ وَأُخْبِسَتْ مِنْ كُنْدُشٍ
تَحَبُّ النِّسَاءَ وَتَأْبَى الرِّجَالَ وَتَمْشِي مَعَ الْأَسْفَهَةِ الْأَطْيَشِ (١)

وكما اتفق الشاعر الأموي وصف المرأة الايجابي، اتفق كذلك وصفها وصفاً سلبياً، قال:

لَهَا وَجْهٌ قَرْدَرٌ إِذَا أَزْيَنْتَ وَلَوْنٌ كَبَيْضِ الْقَطَا الْأَبْرَشِ
وَمِنْ فَوْقِهِ لِمَسَّةٌ جَلَّةٌ كَمَثَلِ الْخَوَافِي مِنَ الْمَرْعَشِ
وَبَطْنٌ خَوَاصِرُهُ كَالْوِطْطَا بَزَادَ عَلْسَى كَرِشِ الْأَكْرَشِ
وَإِنْ نَكِهَتْ كَدَتْ مِنْ نَعْنِهَا أَخِيرٌ عَلْسَى جَانِبِ الْمَقْرَشِ (٢)

إلى غير ذلك من الصفات التي يخرج الإنسان من ذكرها، وبسبب هذا كله فرّ من البيت على حدّ قوله.

القيان

ذكر ابن منظور في تعريف القَيْن: أنه يقال لكلّ صانع قَيْن، والتَقَيْنُ: التزِينُ بِالْوَانِ الزينة، والقَيْنَةُ: الأُمَةُ الْمُغْنِيَةُ، تكون من التزِينِ لأنها كانت تَزِينُ وَقِيلَ لِلْمُغْنِيَةِ قَيْنَةٌ إِذَا كَانَ الْغِنَاءُ صِنَاعَةً لَهَا، وذلك من عمل الإماء دون الحرائز. (٣) فالقيان طبقة من طبقات الإماء.

عُرف الغناء في الحجاز منذ القديم في العصر الجاهلي، ومنه الغناء البسيط الذي كان يغنيه العرب نساء ورجالا في احتفالاتهم الخاصة والدينية، ومنه غناء الاحتراف الذي كان من تخصص الإماء، وهو فن راقٍ بليق بأهل المدر. فأما الأول، فقد شاع وانتشر انتشاراً كبيراً إذ كانوا يرقصون أطفالهم بالغناء، ويبكون موتاهم بالنواح، ومنه حداؤهم للإبل في أثناء ترحالهم من مكان إلى آخر، وكذلك في شعائرهم الدينية، وفي حروبهم بدءاً مما كانت تنشده النساء لتشجيعهم على خوض المعركة، وانتهاء بما كُنَّ يستقبلنهم به عند عودتهم منتصرين.

(١-٢) الأغاني / ج ١١ / (٣٧١-٣٧٢). الكندش: لقب لص منكر كان معروفاً عندهم.

(٣) اللسان / "قَيْن".

أما الثاني، فقد شاع وانتشر على يد القبان، وكن أجنبيات بشتين ويجلين إلى الحجاز، ومنهن الفارسيات والروميات، وكن يغنين بلغتهن الأجنبية، وبعضهن كان يغني باللغة العربية، وقد كانت له في العصر الجاهلي دور خاصة به. واشتهر عدد من المغنيات منه جرادت عاد، كانتا لعبد الله بن جدعان وغيرهما، وعلى أديبهن اكتملت للغناء العربي القديم نظريته منذ العصر الجاهلي. إذ يرى الدكتور الأسد أنه كانت في الجاهلية للغناء نظرية غنائية تقوم على الإيقاع الموزون ولها طرائق ومصطلحات. (١)

ولم ينقطع الغناء في عصر الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين إلا أنه كان محدد النطاق، ضيق الانتشار، والرسول عليه السلام لم يحرم الغناء على الأقل النوع البسيط منه، وهناك أحاديث وقصص تؤكد ذلك، فقد ذكر أنه عليه السلام قال لعائشة: أهديتكم الفتاة إلى بعلها؟ قالت نعم. قال وبعثتم معها من يغني؟ قالت لا. قال: أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل؟ ألا بعثتم معها من يقول:

اتبيناكم أتيناكم فحيوننا نحبيكم
ولولا الحبة السمرا ء لم نحلل بواديكم (٢)

ومن المشهور أن أهل المدينة قد خرجوا لاستقبال الرسول عليه السلام حينما هاجر إليها وهم يغنون.

وأما في عصر أبي بكر وعمر، فقد انشغلت الأمة بالفتوح انشغالا كبيرا، ولم يتفرغ العرب للغناء، كما أن أولي الأمر لم يشجعوا الغناء بل كرهوه. (٣) لذلك لم ينسح الغناء في عصرهما، وإنما بدأ ينسح في عهد عثمان بن عفان، إذ هدأت الفتوحات نسباً، وبدأ المسلمون ينعمون بخيرات الأمم المفتوحة التي انهالت عليهم انهبالا كبيرا، وعلى رأس هذه الخيرات الأموال والسبي، فقد كان قسم من هذا السبي يتقن الغناء نساء كن أو رجالا، وبدأ العرب يتحضرون، ويستفيدون من ضروب الحضارة التي رأوها في البلاد المفتوحة، وبدأوا يشتركون المغنيات ويقتنوهن.

ومنذ ذلك الحين أصبحت الحجاز أهم مركز للغناء في العصر الأموي وكانت المدينة أسبق من مكة إليه، وتبعها مكة التي أصبحت تنافس المدينة فظهر فيها ابن مسجح وتلاميذه.

(١) ناصر الدين الأسد / الغيان في العصر الجاهلي / ط ٣ / دار الجيل - بيروت، لبنان / ١٩٨٨ / ١٢٨.
(٢) العقد / ج ٧ / ٦. رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده / دار صادر / بيروت / ١٩٦٩. ج ٩ / ٣٦١. وكذلك ابن ماجه في كتابه سنن ابن ماجه في كتاب النكاح / باب (الغناء والدف) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي / دار إحياء التراث العربي - بيروت / ١٩٧٥ / ج ١ / ١٦٢.
(٣) انظر في ذلك الشعر والغناء في مكة والمدينة / ٢٥١ وما بعدها.

وبانتشار الغناء في هذا العصر انتشاراً عظيماً أصبح فناً مستقلاً له نظريته وقواعده وأصوله بعد أن تطور وتكامل حتى بلغ ذروة الإبداع وقد أخذ الخلفاء والأمراء والكتاب والفضلاء يفتنون المغنيات ويعقدون مجالس الغناء وتشاركهم في ذلك النساء. وقد اشتهر عدد كبير من المغنيات منهن في المدينة عزة الميلاء، وجميلة، وسلامة النفس، ومن المغنين: طوبيس، وسائب خاثر ومعبد وابن عائشة... وفي مكة اشتهر ابن مسجح وابن محرز وابن سريج والفريض والأبجر.

اختلاف الناس في الغناء

اختلف الناس في الغناء، فأجازته عامة أهل الحجاز، وكرهه عامة أهل العراق، فمن حجة من أجازته أن أصله الشعر الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم به. وحض عليه وندب أصحابه إليه. (١) وقد قيل إن أبا يوسف القاضي قال لإبراهيم بن سعد الزهري، ما أعجب أمركم يا أهل المدينة في هذه الأغاني! ما فيكم من شريف ولا دنيء يتحاشى عنها. قال ففضبت، وقلت: فانتكم الله يا أهل العراق، ما أوضح جهلكم، وأبعد من السداد رأيكم! متى رأييت أحداً سمع الغناء يظهر منه ما يظهر من سفهائكم هؤلاء الذين يشربون المسكر، فيترك أحدكم صلاته، ويطلق امرأته، ويقذف المحصنة من جاراته، ويكفر بربه، فأين هذا من هذا؟ من اختار شعراً جيداً ثم اختار له جرماً حسناً فردّه عليه، فأطربه وأبهجه، فأعفى عن الجرائم وأعطى الرغائب، فقال أبو يوسف، قطعنتي. ولم بحر جواباً. (٢)

ولا يعني هذا أن الغناء لم يعرف بالعراق، ولكنه كان محدوداً، وبقي كذلك إلى نهاية العصر الأموي، فقد كان في الكوفة صاحب قيان يعرف بابن رامين قدم بهن من الحجاز، فكان من يسمع الغناء ويشرب النبيذ، يأتي ويقوم عنده، منهم محمد بن الأشعث الزهري المغني، وإسماعيل بن عمار، فكان إسماعيل يفساه ويشرب عنده، وغيرهما كثير من الشعراء والمغنين. (٣) وكذلك دار ابن زريق بن منيع وكان ينافس ابن رامين. يجتمع إليه أشرف الكوفة من كل حي. (٤)

(١) العقد / ج ٧ / ٦.

(٢) المصدر السابق / ج ٧ / ٩.

(٣) الأغاني / ج ١١ / ٣٦٤.

(٤) المصدر السابق / ج ١٥ / ٥٨.

- ٢٥٦ -

وفد كان عامة أهل الحجاز يستمعون للغناء ويترددون على مجالسه ومنهم
الغفهاء، كعبد الله بن جعفر الذي دعتة جميلة إلى منزلها فلبى دعوتها. (١) ومنهم عبد
الرحمن بن أبي عمار الجشمي، المعروف بالقس، وهو من قراء أهل المدينة. كان يستمع
لسلامة حتى شغف بها، وشهر، فغلب عليها لقبه وسميت سلامة القس. (٢) ومنهم بعض
الصحابة؛ قال صاحب الأغاني: إن النعمان بن بشير دخل المدينة في أيام يزيد بن
معاوية وابن الزبير، فقال: والله لقد أخفت أذناي من الغناء، فأسمعوني، فأخذ مع
خواص أصحابه إلى منزل عزة الميلاء، فغنته:

أَجَدَّ بَعْمَرَةَ غَنَّبَانُهَا فَتَهَجَّرَ أُم شَانْنَا شَانُّهَا
وَعَمْرَةَ مِنْ سَرَوَاتِ النِّسَا تَتَفَكَّحُ بِالمِسْكِ أَرَادُنُّهَا

فأشير إليها أنها أمُّه. فأمسكت، فقال: غني فوالله ما ذكرت إلا كرماً وطيباً. ولا
تغني سائر اليوم غيره، فلم نزل تغني هذا اللحن فقط حتى انصرف. (٣)

وكانت شريقات قريش يعقدن مجالس الغناء، ومنهن عائشة بنت طلحة التي
دعت نسوة من قريش وعزة الميلاء. فلما جئنها أجلستهن في مجلس قد نضد فيه
الربحان والفواكه والطيب، والمجمر، وخلعت على كل امرأة منهن خلعة نامة من الوشي
والخزّ ونحوهما، وفعلت مثل ذلك مع عزة وأضعفت، ثم قالت لعزة: هاتي يا عزة
فغنينا. (٤)

ومنهن كذلك الثريا بنت عبد الله فقد كان لها قصر نشأ فيه الغريض وكان مولى
لها. وقد علمته النوح بالمراثي. (٥)

وكان أهل الحجاز مقتنعين بإجازتهم هذه الغناء فهو يتناسب مع ما عرف عنهم
من ظرف ورقة، فكانوا يرون فيه إبهاجاً للنفوس، ووسيلة إلى العفو والعطاء.

وقد انتقلت حمى حب الغناء هذه من الحجاز إلى الشام، فشاع هناك وانتشر،
واهتم الخلفاء بافتناء المغنيات والاستماع لهن. والقيام بطلبهن من الحجاز، وعقد المجالس
لهن... "وقد كانت عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان قد تعلمت الغناء وحضوبه ولها فيه

(١) الأغاني / ج ٨ / ٢٢٧.

(٢) المصدر السابق / ج ٨ / ٣٣٤.

(٣) نفسه / ج ١٦ / ٢٢-٢٣. غنيانها: استغناها. سروات النساء: الشريعات منهن.

(٤) نفسه / ج ١١ / ١٨٣.

(٥) نفسه / ج ١ / ٢١١.

بعض الحان، وكان يختلف إليها بعض مغنيات مكة والمدينة فتحسن صلتهم، وتجيّزهن وتطلب منهن أن لا يقطعن عنها^(١). ومن أوائل الخلفاء الذين اهتموا كثيراً بالغناء يزيد بن معاوية. فقد ذكر عنه أنه كان محباً للعزف والغناء. وقد اشترى عبد الله بن جعفر "عمارة" وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناءً، وكتبها من زوجته، وكان يجد بها جداً شديداً ثم أهداها إلى يزيد بن معاوية^(٢). وما كان ليفعل ذلك لولا معرفته بوقع هذه الهدية على يزيد، وحبّه للغناء والمغنيات. وهناك المغنية يوبة أيضاً التي أدها صاحبها لبهديها إلى هشام بن عبد الملك^(٣).

وقد اشترى يزيد سلامة فغلبت عليه. وكذلك كان أمر حبابة معه، فقد ذكر المسعودي أن حبابة هذه حينما ماتت أقام يزيد أياماً لا يدفنها جزعاً عليها حتى جيفت. فقيل له: إن الناس يتحدثون بجزعك وإن الخلافة تجل عن ذلك، فدفنها. وأقام على قبرها فقال فيها:

فإن تَسَلَّ عَنْكَ النَّفْسُ أَوْ تَدَعَ الْهَوَى
فَبِالْبَاسِ تَسْلُو النَّفْسَ لَا بِالنَّجْدِ^(٤)

ثقافة المغنية في العصر الأموي

كان كثير من المغنيات مثقفات، عالِمات بالشعر وفنونه والغناء وأساليبه، والموسيقى وأنواعها، وكان بعضهن يفرض الشعر كذلك، ويرويه، وينقده ويحكم فيه، كما أنهن كن يضربن على الآلات الموسيقية ويحسن فن الرقص. وكان بعضهن يروي الأخبار ويحفظ الأنساب إلى غير ذلك من الأمور التي تدل على مبلغ ثقافتهن وتقدم علمهن. فقد كان أصحابهن يحرصون على تعليمهن وتنقيتهن، حتى يأخذوا فيهن أعلى ثمن ممكن، أو حتى يتحفن من يهدين إليه من الخلفاء والأمراء وغيرهم من الفضلاء. والقصة التالية توضح ما بلغت المغنية من ثقافة. فقد طلب وجوه أهل المدينة من عثمان بن حيان المري واليههم أن يقوم بإصلاح المدينة بتطهيرها من الغناء والزنا، فاحتال عليه ابن أبي عتيق حتى أدخل عليه سلامة القيس المغنية المعروفة في هذا العصر ليرى من خشوعها وعلمها

(١) الدر المنثور / ٣٢٢.

(٢) تاريخ مدينة دمشق / تراجم النساء / ٢٥٨.

(٣) أعلام النساء / ج ١ / ١٣٣-١٣٤.

(٤) مروج الذهب / ج ٣ / ١٩٨.

-٢٥٨-

وأدائها، فلما دخلت على ابن حبان حدثته، فإذا هي من أعلم الناس بالناس وأعجب بها، وحدثته عن آبائه وأمورهم فنكه لذلك. فقال لها ابن أبي عتيق، اقرني للأمير فقرأت؛ فقال لها: احدي له ففعلت، فكثر تعجبه. فقال: كيف لو سمعتها في صناعتها! فلم يزل ينزله شيئاً شيئاً حتى أمرها بالغناء. فقال لها ابن أبي عتيق غني، فغنت؛ فقام عثمان من مجلسه ففقد بين يديها ثم قال: لا والله ما مثل هذه تخرج. (١)

ومن دلائل ثقافة القبان قدرتهن على الحكم في فنهن فقد كن يعرفن أصول الغناء وينقدنه ويحكمن فيه. فقد عقد مجلس لشيوخ المغنين مكيين ومدنيين في مجلس المغنية جميلة وهي من أشهر مغنيات المدينة فغنى كل على طريقته فحكمت بينهم بعد أن طلبوا هم منها ذلك، ورضوا بحكمها، كل ذلك في إطار من العلم والفهم وحسن التمييز والنفقة بنفسها وقدرتها وحسن غنائها، فقد قالت لابن محرز: لو قدمت أحداً على نفسي لقدمتك. (٢)

ومن دلائل ثقافة جميلة، وبعض المغنيات الأخريات أيضاً القدرة على فهم الشعر ونقده. وكان لهن إلمام بأخبار شعرائهم وعشاقهم. فقد كانت جميلة أحد الرواة النقات في أخبار "جميل وبثينة" وقد أخذ عنها كثير من أخبار العذريين. (٣)

وقد كن يعرفن العزف على الآلات الموسيقية، وكانت عزة المبللاء من أحسن الناس ضرباً بعود، وقيل فيها ما أحسن ضربها بالمزاهر والمعازف وسائر الملهي. (٤)

وحيثما تبلغ المغنية غايتها في الغناء وتشتهر فيه، فإنها تجلس لتعليم غيرها من الجواري كما كان حال جميلة التي أصبح منزلها مدرسة يأوي إليه من يرغب بتعلم الغناء من الرجال والنساء، ومن تلميذاتها اللاتي اشتهرن سلامة القس وحبابة، وبعض جواري عمر بن أبي ربيعة وعقيلة وربيعه من جواري ابن رامين، بالإضافة إلى عدد من الجواري الخاصات بها تعلمهن ويغنين في بيتها. وقيل كذلك في شهدة، جارية الوليد بن يزيد أنها اشتهرت بضرب العود وحسن الغناء، ومطارحة الجواري الألحان، ابنبت للوليد بن يزيد لما ولي الخلافة وهي في وسط عمرها لتعلم جواريه. (٥)

(١) الأغاني / ٨ ج / ٣٤٢.

(٢) المصدر السابق / ٨ ج / ٢١١ وما بعدها.

(٣) فاهد العمروسي / الجواري المغنيات / دار المعارف - مصر / ١٩٦١ / ٥٥.

(٤) الأغاني / ١٧ ج / ١٦٢.

(٥) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) / ١٩٩.

- ٢٥٩ -

ومن مواهب الغيان كذلك الرقص، فقد ذكر صاحب الأغاني أن جميلة غنت في مجلس لها ورقصت، قال: ثم قامت جميلة ورقصت وضربت بالعود، وعلى رأسها البرنس الطويل، وعلى عاتقها بردة يمانية، وعلى القوم أمثالها، وقام ابن سريج ومعيد والغريض وابن عائشة ومالك وفي يد كل واحد منهم عود يضرب به على ضرب جميلة، ورقصها، فغنت وغنى القوم على غنائها، ثم دعت بثياب مصبغة، ووفرة شعر فوضعتها على رأسها، ودعت للغوم بمثل ذلك فلبسوا، ثم ضربت بالعود، وتمشت، وتمشى الغوم خلفها، وغنت وغنوا بغنائها. (١)

ويبدو أنه كان لجميلة ذوق خاص في تحضير مجلس الغناء وإعداده، وكذلك في إعداد الجواري المغنيات بدءاً من زينتهن وانتهاءً بطريقة جلوسهن وغنائهن. فقد كانت تجعل على رؤوس جواربها شعوراً مسدلة كالعناقيد إلى أعجازهن، وتلبسهن الثياب المصبغة، وتضع فوق الشعور النيجان وترينهن بأنواع الحلبي. (٢) وما كانت جميلة أو غيرها من المغنيات لتفعل ذلك لولا إيمانها بصنعتها وفهمها لأصولها وتقاليدها، وكذلك لولا اهتمام الحجازيين بالغناء واقتناعهم به فناً يغذي الروح، ويطرب الأذن، ويبهج مجلسه العين.

وكن يتفنن النياحة والندب، وقد بدأ بعضهن ناثحات، وقد سبق أن ذكرت أن النياحة، وندب الموتى نوع من أنواع الغناء البسيط الذي عرف عند العرب منذ أيام الجاهلية. وقد قامت سلامة الغس بندب سيدها يزيد بن عبد الملك حينما توفي. (٣)

وقد كانت سلامة هذه نقول الشعر أبضاً، وقد تضاربت كتب الأخبار في نسبة الشعر إليها، فنرى من ينسب إليها بعض الأبيات، ثم يأتي آخر ليقول إن الأبيات لشاعر آخر، ندبت بها، أو غنتها. ومما نسب إليها قولها حين خرجت من الحجاز إلى الشام:

فارقوني وقد علمت بقينا	ما لمن ذاق ميثاً من إياب
إن أهل الحصاب قد تركوني	مُولَعاً مَوْزَعاً بأهل الحصاب
أهل بيت تتابعوا للمنايا	ما على الدهر بعدهم من عتاب (٤)

(٢) الأغاني / ج ٨ / ٢٢٦-٢٢٧.

(٣) المصدر السابق / ج ٨ / ٢٢٧.

(٤) نفسه / ج ٨ / ٣٤٦.

(٥) انظر بقية الشعر في الأغاني / ج ٨ / ٣٤٣. تتابعوا: تهافتوا.

المغنية في الشعر الأموي

انصل الشعراء بالقيان اتصالاً كبيراً خاصة في الحجاز. ثم فيما بعد في دمشق في قصور الخلفاء بدءاً من يزيد بن معاوية. وكان معين المغنيات من الغناء يرجع للشعراء. فقد كن يغنين في كثير من الأحيان ما ينظمه هؤلاء الشعراء لهن. وقد كان التواصل أو اللقاء بين الشعراء والقيان يتم في قصور الخلفاء والأمراء والخاصة في مجالس الغناء سواء كانت هذه المجالس خاصة بهن يقيمها في بيوتهن، كما هو الحال بالنسبة لمجلس جميلة وعزة المبلّاء، أو لغيرهن كالثني كان يقيمها أصحاب هؤلاء المغنيات من السادة والأشراف رجالاً ونساء فكان الشعراء يقدون على هذه المجالس فينشدون الشعر ويستمعون إلى القيان يغنين بشعرهم وبشعر غيرهم. ومن وسائل الاتصال الأخرى الحانات والدور العامة. مثال ذلك دار ابن رامبن التي اشتهرت بالكوفة وكان يجتمع فيها عدد من الشعراء والخاصة.

وقد كان للقيان أثر كبير، وحضور متميز في الشعر الأموي تمثل في مطارحة الفينة الحب والغرام وما يتبع ذلك من ضرورة وصف جمالها ودلالها وحسنها وزينة طيفها، ومشاعر التحسر على البعد والغراق، إن هي بيعت وترك بلدتها، ثم وصف أثرها في نفس الشاعر وغلبتها على عقله وقلبه، ثم ذكر مجلس الغناء بما فيه من جوار وزينة وأدوات غناء، ووصف طريقة الغناء وما تقوم المغنية به من حركات وسكنات.

ومن الذين شغفوا بمطارحة المغنية الهوى والغرام وقالوا في ذلك، وأكثرها الأحوص؛ الذي يبدو أن له قصة مع غير مغنية، وقد كان يكثر من التردد على دورهن وخاصة دار جميلة فبطارحها الهوى والغرام وكذلك بفعل مع من نحلو بعينه من مغنيات دارها.

ومن المغنيات اللواتي أكثر الأحوص فيهن القول، وشكا إليهن الحب، سلامة، وبيدو أن سلامة كانت تعلم ما يكن لها الأحوص من مشاعر إلا أنها كانت تشك في ذلك ونسأله إن كان ما يقول فيها من باب المزاح أو الجد، ولعل مثل هذا الشك كان يخامر المغنية لكثرة ما تسمع من عبارات الإطراء والتعبير عن الإعجاب لذلك فلما تأخذ هذه الأمور مأخذ الجد. فقال:

أسلامُ إنك قد ملكت فأسجحي	قد بملك الحرّ الكريم فيسجحي
منّي على عان أطئت عناه	ففي الفل عندك والفناء تسرح
إنني لأنصحكم وأعلم أنه	سيان عندك من يغش وينصح

وَإِذَا شَكُوتَ إِلَى سَلَامَةَ حَبَّهَا قَالَتْ أَحْسَنُ مِنْكَ ذَا أ. مَزَحَ (١)

ومثل هذا الحب شكاه إلى الذلفاء، فقد وصفها بأنها حبه وهمه الذي لا يريم ووصف جانباً من جمالها، فهي من أحسن الناس جمالا في مشيتها وفي جلوسها وهي ذات منطلق رخييم، مثمعة نضده، وتصرم حبال وده، قال:

إِنَّمَا الذَّلَفَاءُ هَمِّي	فَلْيَدْعُرْنِي مَن بَلِّغْ
أَحْسَنَ النَّاسِ جَمِيعاً	حَيْثُ تَمْشِي وَتَقُومُ
حَبِّبَ الذَّلَفَاءُ عِنْدِي	مَنْطِقَ مَنْهَا رَخِيْمُ
أَصْلَ الْحَبْلِ لِنَرْضَى	وَهَمِّي لِلْحَبْلِ صَرُومُ
حَبَّهَا فِي الْقَلْبِ دَاءٌ	مَسْتُكُنَّ لَا يَرِيْمُ (٢)

وحينما اشترى يزيد بن عبد الملك سلامة وحملها إلى الشام، جزع الأحوص عليها، ووصف ديارها التي أصبحت دمنة، ثم وصف حبه الشديد لها وتنتع نفسه لها. (٣)
ومن الذين اشتهروا بحب سلامة عبد الرحمن بن أبي عمار المعروف بالفس، فقد وقعت في قلبه حينما رآها تغني، وقال فيها شعراً كثيراً يصف حبه لها ولوعته عليها، وقد كان من الفقهاء المعروفين في المدينة، فلامه الناس فيها كثيراً، مقال:

سَلَامٌ هَلْ لِي مِنْكُمْ نَاصِرٌ	أَمْ هَلْ لِقَلْبِي عَنْكُمْ زَاجِرٌ
قَدْ سَمِعَ النَّاسُ بَوَجْدِي بِكُمْ	فَمِنْهُمْ اللَّائِمُ وَالْعَاذِرُ (٤)

وقال بصفها وهي تغني كيف نمدَّ صوتها ونرجعه، قال:

أَلَمْ نَرَهَا لَا يَبْعُدُ اللَّهُ دَارَهَا	إِذَا رَجَعَتْ فِي صَوْتِهَا كَيْفَ نَصْنَعُ
نَمْدُ نِظَامَ الْفَوَلِ ثُمَّ نَرُدُّهُ	إِلَى مَلْصَلٍ فِي صَوْتِهَا بِنَرْجَعُ (٥)

وقد قال الشعراء في قصة سلامة والقس شعراً، بعدما شاع خبرهما، ومنهم ابن قيس الرقيات الذي قال في ذلك واصفاً جمالها وجمال أختها ربا:

(١) ديوانه / ٤٨.

(٢) المصدر السابق / ١٨٩.

(٣) نفسه / ٩٢.

(٤) الأغاني / ج ٨ / ٣٣٦.

(٥) المصدر السابق / ج ٨ / ٣٣٦.

لقد فتنت ربّا وسلامة القسا فلم تتركنا للفسّ عفا ولا نفسا
وما استعبد الرهبان بالدير منهما ولم يستحلا لأحراماً ولا نجسا
فتانان أما منها فشبيهة الـ هلال والأخرى منهما تشبه الشمسا
فتانان في سعد السعود ولدتهما ولم تلقيا يوما هواناً ولا نحسا
تكنان أبشارا رفاقاً وأوجها حساناً وأطرافاً مخضبةً ملسا (١)

ومن الذين قالوا في المغنيات واصفاً دلالهن، وحسن غنائهن، عبد الرحمن بن
أرطاة. قال في جملة:

إن الدلال وحسن الغنا وسطّ بيوت بني الخرج
وتلكم جميلة زين النساء إذا هي نردان للمخرج
إذا جئنّها بذلت ودها بوجه منير لها أبلج (٢)

وكان لعمر بن أبي ربيعة جاريتان له تغنيان، يقال لأحدهما البغوم، وللأخرى
أسماء. وفيهما يقول بصف مقاطعتهما له، وصدهما، ويتذكر أبيامه معهما:

صرمت حبلك البغوم وصدت عنك في غير ربي أسماء
والغواني إذا رأينك كهلاً كان فيهنّ عن هوائك النواء
حبّذا أنت يا بغوم وأسماء وعيص بكنّا وخلاء (٣)

ومن الجواري اللواتي اشتهرن في هذا العصر حباة، وهي فينة من قيان المدينة،
وصغت بالجمال والدلّ، وقد اشتراها يزيد بن عبد الملك، ونقلت إلى الشام، فغنّته وشغلته
عن أمور الدين والخلافة. ومما فاله فيها وضاح اليمن قبل أن يشتريها يزيد يصف دلها
وتأثيرها في نفسه:

بسا من لقلب لا يطيق مع الزاجرين ولا يبق
تسلو قلوب ذوي الهوى وهو المكلف والمشوق
تبلى حباة قلبه بالسدل والشكل الأنبيق (٤)

(١) ديوانه / ٣٣-٣٥.

(٢) الأغاني / ج ٨ / ١٨٦.

(٣) ديوانه / ٤٨٤.

(٤) ديوانه / ١١٩ / والأغاني / ج ٦ / ٢٣٠-٢٣١.

وبصف جمالها فيقول إنها حوراء العينين، مكحولة، هيفاء في مقبلها، كالشمس، ردفها ثقيل كالنفا المتلبد، ورائحتها طيبة:

وبعين أحسور برنقي	سقط الكنيس من العنقي
مكحولة بالسحر تنق	شي نساوة الخمر العنقي
هيفاء إن هي أقبلت	لاحت كطالعة الشروق
والردف مثل نقا تلب	سد فهو زحلق زلق
في درة الأصداق مع	تنقا بها ردع الخلق (١)

وبصف شدة، تعلقه بها ولوعة فؤاده عليها، وبطلب إليها أن تترفق به وتداويه مما سببه له:

داوي هـواي واطنسي	ما في الفواد من الحريق
ونرفقي ألمي فقد	كلفتني ما لا أطيق
في القلب منك جوى المحب	بـ وراحة الصب الشفيق (٢)

وبفت حباية هذه نعيش في كنف الخليفة يزيد مدة من الزمن، فضتها في العبت والتهتك، كما تذكر الأخبار، وقد بلغ من سلطتها على الخليفة أنها كانت تأمر وتنهى كما تريد بل تولي وت عزل من تريد من الولاة. (٣) وقد لامه فيها أخوه مسلمة بن عبد الملك، فصدفه، وتجنب حباية فلم يدخل عليها أباماً، فأوحت إلى الأحوص أن يقول أبياناً يهون فيها على يزيد ما قاله مسلمة، فقال: وغنت به حباية

الا لا تلمه اليوم أن يتلدا	فقد منع المحزون أن يتجلدا
إذا أنت لم تعشق ولم ندر ما الهوى	فكن حجراً من يابس الصخر جلدا
هل العيش إلا ما تلذ وتشتهي	وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

فلما سمعها ضرب بجربانه الأرض وقال صدقت صدقت؛ على مسلمة لعنة الله؛ ثم عاد إلى سيرته الأولى (٤)

وإذا توجهنا إلى العراق بل الكوفة، وإلى دار ابن رامين تحديداً نجد للشعراء هناك شعراً كثيراً في جوارى هذه الدار التي كانت تضم عدداً منهن كسلامة الزرقاء،

(١-٢) ديوانه / ١١٩، والأغاني / ج ٦ / ٢٣٠-٢٣١، الزلوقة: اللساء التي لا يثبت عليها شيء.

(٣) انظر / الجوارى المغنيات / ١٠٤.

(٤) العقد / ج ٧ / ٥٦-٥٧.

وسعدة، وربيحة، وكنَّ من أحسن الناس غناء وفي سلامة الزرقاء بقول محمد بن الأشعث يصف حبه لها:

أَمْسَى لِسَلَامَةَ الزَّرْقَاءِ فِي كَبْدِي صَدَعٌ مَقْبِمٌ طَوَالَ الدَّهْرِ وَالْأَبَدِ
لَا يَسْتَطِيعُ صَنَاعُ الْقَوْمِ يَشْعَبُهُ وَكَيْفَ يَشْعَبُ صَدَعُ الْحَبِّ فِي كَبْدِ (١)

وفي جوارِي ابن رامين قال إسماعيل بن عمار من قصيدة طويلة له:

بَا رَبِّ إِنْ ابْنَ رَامِينَ لَهُ بَقَرٌ عَيْنٌ وَلَبَسَ لَنَا غَيْرَ الْبَرَادِيسِ
لَوْ شِئْتَ أَعْطَيْتَهُ مَا لَّا عَلَى قَدَرٍ يَرْضَى بِهِ مِنْكَ غَيْرَ الرَّبِّ الْعَيْنِ (٢)

ويتابع قصيدته بصف غناء سعدة والزرقاء ويصف مجلس الغناء ويوماً كان له في هذا الدار بما فيه من طعام وشواء وخمر...

لَا أَنْسَ سَعْدَةَ وَالزَّرْقَاءَ يَوْمَ هَمَّا بِاللَّحِّ شَرْقَبَهُ فَوْقَ الدِّكَائِينَ
يَغْنِيَانِ ابْنَ رَامِينَ عَلَى طَرَبٍ بِالمَسْجَحِيِّ وَنَشْبِيبِ المَحْبِينَ
أَذَاكَ أَنْعَمَ أَمْ يَوْمَ ظَلَلْتَ بِهِ فَرَاشِيَّ الْوَرْدِ فِي بَسْتَانِ سُورِينَ
يَشْوِي لَنَا الشَّبِخَ سُورِينَ دَوَاجِنَهُ بِالْجَرْدَنَاجِ وَسُحَّاحِ الشَّقَابِينَ
نُسْقَى طِلَاءَ لَعْمَرَانَ يَعْتَفُّهُ بِمَشْيِ الْأَصْحَاءِ مِنْهُ كَالْمَجَانِينِ (٣)

ويصف جمال ربيعة موضحاً لثغته عندها بقوله:

وَهَاجَ قَلْبِي مِنْهَا مَضْحَكٌ حَسَنٌ وَلَثْغَةٌ بَعْدَ فِي زَايٍ وَفِي سِينِ (٤)

ولإسماعيل بن عمار شعر في بوبة أيضاً مغنية عبد الرحمن بن عنبسة وقد أهداها إلى هشام بن عبد الملك. (٥)

وقد يتخذ الشاعر القينة أداة يتوسل بها إلى توضيح غيرها، ومشبهاً به يعتمد عليه المشبه من ذلك قول العرجي مشبهاً شجو الحمامة بقينة تغني على عود. قال:

(١) الأغاني / ج ١١ / ٣٦٤.

(٢) المصدر السابق / ج ١١ / ٣٦٥-٣٦٦.

(٣) نفسه / ج ١١ / ٣٦٦ / المسجحي: نسبة إلى ابن مسجح. الجردناج: الشواء المكبوب على الجمر. أصله

فارسي. الشقابين: جمع شقيان وهو طير نبطي. السحاج: السمين.

(٤) نفسه / ج ١١ / ٣٦٥.

(٥) نفسه / ج ١١ / ٣٧.

في أَيْكَةٍ بَيْنَ أَغْصَانٍ يَنْقَرِبُ
كَأَنَّهُا قَيْبَةٌ غَنَّتْ عَلَى عُودٍ (١)

بِحَاجَةٍ، مَا دَعَتْ شَجُورًا مُطَوَّقَةً
إِذَا دَعَتْ هَاجَ ذَا الْأَشْجَانِ مِنْطِقَهَا

ولم يكن رأي جميع الشعراء ك رأي إسماعيل بن عمار، بل ذم بعضهم القيان، وحذر منهن معللاً ذلك بتحايلهن على الرجال وإغرائهن لهم، حتى يأخذن مالهم، وذلك بأساليب مختلفة؛ بالنظر والغنج والغمز، وكذلك بحسن غنائهن وعزفهن حتى بأئبن على ماله، ثم بعد ذلك يغدرن به ويتركنه، قال:

إِنْ هَامَ قَلْبِي بِذَاتِ إِسْوَارٍ
حَتَّى تَرَانِي رَهِيْنُ أَحْجَارٍ
أُورِثَكَ السُّلَّ بَعْدَ إِكْنَارٍ
رَطْبٍ وَغُنْجٍ وَغَمَزٍ أَبْصَارٍ
وَحَسَنِ لَحْنٍ وَفَرْعٍ أَوْنَارٍ
وَصَارَ ذَا فِكْرَةٍ وَتَشْهَارٍ
بِبُضَّةٍ بِالنَّهْرِ نَهْرٍ بَشَّارٍ
وَدَعُ وَصَالَ الْفِيَانِ فِي النَّارِ
هُوَيْنَ أَوْ شُنْنَ ذَاكَ مِنْ عَارٍ (٢)

عَذَّبَنِي ذُو الْجَلَالِ بِالنَّارِ
وَلَا تَعَشَّفْتُ فَيْنَةً أَبْدَا
كَمْ مِنْ غَنِيٍّ تَرَكُنْ ذَا عَدَمٍ
سَلَبْنَ مِنْهُ الْفَوَادَ بِالنَّظَرِ
وَبِالتَّشَاجِي أَنْفُسُنْ مَهْجَنَةً
حَتَّى إِذَا مَا مَضَتْ دَرَاهِمُهُ
نَاوَلْنَاهُ الْمِسْحَ ثُمَّ فُلْنَ لَهُ
فَلَا تَغْرُنْكَ فَيْنَةً أَبْدَا
فَلَيْسَ فِي الْفَدْرِ عِنْدَهُنَّ إِذَا

وقد أشار الجاحظ إلى شيء من أخلاق القيان وطبائعهن، وتعاملهن مع الرجال في رسالته المعروفة برسالة "القيان" فقال: إن القينة لا تكاد نخالص في عشفها، ولا تناصح في ودها؛ لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحباله والشرك للمتربطين، ليقنحموا في أنشوطتها، فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ، وداعبته بالتبسم، وغازلته في أشعار الغناء. (٣)

ونقف في استحضارنا الصورتين معاً - صورة التعلق بهن، وصورة النفور من سلوكهن على الأثر الكبير الذي كانت أحدثته القينة في السلوك الاجتماعي لذلك العصر، بل التغيير في ذلك السلوك، إن في قصة الخليفة يزيد بن عبد الملك وحياته شاهداً على شدة التعلق بهن ومجاراتهن فيما يحببن ويكرهن.

(١) ديوانه / ١٦٠.

(٢) عمرو بن أحمـر الباهلي / شعره / جمع وتحقيق د. حسين عطوان / مجمع اللغة العربية - دمشق / ١٩٦٠ / ١٠٩ - ١١٠. النظر الرطب: الناعم. المسح: الكساء من الشعر. والمسح: الفرارة الكبيرة يجعل فيها التين. نهر بشار: بالبصرة وهو منسوب إلى بشار بن مسلم الباهلي أخى قتيبة بن مسلم.

(٣) أبو عثمان عمرو بن الجاحظ / رسائل الجاحظ / تحقيق عبد السلام هارون / مكتبة الخانجي - القاهرة / ١٩٦٤ / ٢ج / ١٧١ - ١٧٢.

المرأة الناقدة

لم يقتصر دور المرأة الأموية على الواجبات التقليدية التي تناط بالمرأة عادة، بل تجاوزت بعض النساء هذه الواجبات إلى أمور أخرى جعلت لهن أدواراً جديدة في الحياة، فكما رأينا المرأة السياسية والمرأة المحاربة نرى أيضاً المرأة المثقفة والخطيبة والناقدة والشاعرة... والتي استطاعت أن تتغذ إلى عوالم جديدة من خلال المهمات والمواهب التي ارتضتها لنفسها مما جعل لهن دوراً متميزاً في ساحة الأدب والفكر.

لقد عرفت المرأة العربية بفصاحتها وحسن بيانها، كما عرف بذلك الرجل العربي، خاصة من عاش منهن في البادية حيث اللغة العربية السليمة، وحيث فطرة البيان، وفطرة الفصاحة كالدرة الثمينة في صدفها، ولم يمنع انشغال المرأة العربية بالوظائف التقليدية التي أوكلت إليها أن تكون خطيبة تتمتع بمواصفات الخطيبة المضممة بما ملكت من سحر بيان، وقوة حجة، وقدرة في التأثير إلى غير ذلك من الصفات التي يجب أن تتوافر في الخطباء الفصحاء، وقد أثبتت كتب التاريخ والأدب أسماء عدد من الخطيبات العربيات منهن مجموعة النساء اللواتي دخلن على معاوية وكن من قبل بتشجيع لعلي بن أبي طالب^(١) ومنهن نساء أخريات دخلن عليه مندوبات عن أقوامهن، فعرض لحاجاتهن وحاجات أقوامهن، أو شكون من السعاة منهن عكرشة بنت الأطش وسودة بنت عمارة، ومن خطيبات هذا العصر أيضاً أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب...^(٢)

وقد اتجهت طائفة منهن إلى رواية الحديث، فكان منهن من روين الحديث عن الرسول عليه السلام ومنهن عائشة أم المؤمنين وفاطمة بنت الحسين وغيرهما كثيرات.^(٣) وقد تجاوزت ثقافتهن لعلوم الحديث وروايته إلى علوم القرآن الكريم إذ كان بعضهن حافظات لآياته، فاهمات لمضمونه، يناقشن فيه ويدافعن عن أنفسهن من خلال آياته الكريمة.^(٤)

(١) انظر بلاغات النساء / ٣٢-٤٥.

(٢) المصدر السابق / ٢٧.

(٣) انظر طبقات ابن سعد الجزء الخاص بالنساء فقد ترجم لنيف وسبعمة امرأة روين عن الرسول عليه السلام أو عن الثقات من أصحابه.

(٤) انظر الأغاني / ج ٩ / ٣٧-٣٨.

كما كانت بعض النساء عالمات بالأنساب، خاصة أنساب قومهن ومنهن عائشة أم المؤمنين وعائشة بنت طلحة (١) وجروة بنت مرة (٢).

كما عملت كذلك راوية للشعر وتعتبر عائشة أم المؤمنين من أكثر نساء عصرها حفظاً للشعر ورواية له (٣). كما كانت هناك نساء أخريات يحفظن الشعر ويرويهن، ومن خلال حديثي عن المرأة الناقدة سيظهر لنا مدى اهتمام المرأة بالشعر وحفظه كعائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين...

وقد جاء في ديوان جرير أن أناساً كانوا ينشدون شعر الفرزدق، فقال بعضهم، أما هاهنا أحد بروي لجرير شيئاً؟ فقالت امرأة من بني أسد، يقال لها عبلة: بلى، إن له لراوية لا يشينه. فأنشدت شعر جرير فبلغ ذلك الفرزدق فهجاها، وبلغ ذلك جريراً فمدحها، قال:

وقولي لهم يا عبلة قد خاب قبلكم	وعبّر وجه الغين ذرو السنابك
فما ضار ماقلتم مهاةً تصرف	بعطف النفا ترعى هجول الدكادك
لعبلة فرع الحي قد تعلمونه	وأطيب عرف في النرى المندارك
لها خزوان في خزيمه لم تزل	تنقل منه في سنام وحوارك
تنافس فيها عبد شمس وهاشم	إذا قيل من صهر الكريم المشارك (٤)

وعملت المرأة كذلك في مجال نقد الشعر، فقد كانت المرأة العربية تحفظ الشعر وتقرضه وتنشده في المجالس، كما كانت عارفة بأصول قواعده فتميز غثه من سمينه، ومواضع الجودة والرداءة فيه، وقد عرف عن بعض النساء الأمويات مجالسهن للشعراء، وفتح أبوابهن لهن وخاصة الحجازيات منهن، وعلى رأسهن نساء الطبقة العليا مثل سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة، والثريا بنت عبد الله وعمرة الجمحية وغيرهن كثيرات. وتعتبر سكينة سيدة الناقذات العربيات في هذا العصر بلا منازع، وكتاب الأغاني يزرخ بذكر تلك اللقاءات الأدبية بينها وبين عدد من الشعراء ومناشدتها إياهم وحكمها فيهم، وتقديمها لبعضهم دون بعض، وقد فتحت بيتها لهم فأصبح بمثابة المنتدى الأدبي يجتمع فيه الشعراء ويتناشدون عندها الشعر. وهي تحكم بينهم. ذكر صاحب

(١) الأغاني / ج ١١ / ١٨٩ - ١٩٠.

(٢) انظر بلاغات النساء / ج ٧٧ - ٧٨.

(٣) أعلام النساء / ج ٣ / ١٠٥.

(٤) ديوانه / ج ٢ / ٥٨٥، ذروها: حثيها التراب في وجهه، الهجل: ما اتسع، الدكادك: استوى من الأرض وانبسط.

-٢٦٨-

الأغاني: أنه اجتمع في ضيافة سكبنة بنت الحسين، جرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب، فمكثوا أياماً، ثم أذنت لهم، فدخلوا عليها، فقعدت حيث نراهم ولا يرونها. وتسمع كلامهم، ثم أخرجت وصيفة وضيئة وقد روت الأشعار والأحاديث، فقالت: أيكم الفرزدق؟ فقال لها هأنذا. فقالت: أنت القائل:

هما دلتاني من ثمانينَ قامسةً	كما انحط بازٌ أفنمَ الریش كاسِرهُ
فلما استوثقَ رجلاي بالأرض قالتا	أحييَّ بُرجي أم قتيلٌ نحاذرهُ
فقلت أرفعوا الأمراس لا بشعروا بنا	وأقبلت في أعجاز لبلٍ أبادرة
أبادر بوابينَ فدوَّكلاً بنا	وأحمر من ساج تبصَّ مسامرة

قال: نعم. قالت: فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك؟ هلا سترتها وسترَت نفسك؟ خذ هذه الألف، والحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، فقالت أيكم جرير؟ فقال لها: هأنذا. فقالت: أنت القائل:

طرفنك صائدةً القلوب وليس ذا	حينَ الزيادةِ فارجعي بسلام
تجري السواك على أغرَّ كأنه	برّد تحدر من متون غمام

إلى آخر الأبيات.

قال: نعم. قالت: ألا أخذت بيدها، ورحبت بها، وقلت لها ما يقال لمثلها؟ أنت عفيف وفبك ضعف، خذ هذه الألف، والحق بأهلك. ثم دخلت على مولاتها وخرجت، فقالت أيكم كثير؟ فقال: هأنذا. فقالت: أنت القائل:

وأعجيني يا عزَّ منك خلانق	كرام إذا عُدَّ الخلائق أربع
دنوك حتى يطمع الطالب الصبا	ودفعك أسباب الهوى حين يطمع

إلى آخر الأبيات.

قال: نعم. قالت: ملحت وشكلت. خذ هذه الثلاثة الآلاف، والحق بأهلك. ثم دخلت إلى مولاتها وخرجت فقالت: أيكم نصيب؟ قال هأنذا. قالت: أنت القائل:

ولو لا أن يقال صبا نصيب	لقلتُ بنفسِي النشأ الصغار
بنفسي كلَّ مهضومٍ حشاها	إذا ظلمت فليس لها انتصار

قال: نعم. قالت: ربيننا صغارا، ومدحتنا كبارا. خذ هذه الأربعة الآلاف، والحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، فقالت: يا جميل: مولاتي تفرثك السلام ونقول لك: والله ما زلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعري هل أبين ليلةً بوادي القري أني اذا لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشةً وكل فتيل عندهن شهيد

جعلت حديثنا بشاشة. وفتلنا شهداء. خذ هذه الأربعة الآلاف الدينار، والحق بأهلك (١)

فلم تكن علاقة سكية بالشعراء علاقة التقاء بهم فقط، وإنما هي تحفظ الشعر ونفهمه. وتظن لمواضع الحسن أو الرداءة فيه. كما أنها تكافئ قائلة على قدر إجادته. ومنهن أيضاً عائشة بنت طلحة فقد عرف عنها حبها للشعر ومناشدتها للشعراء ومكافأتهم فقد مر بها النميري الشاعر يوماً. فسألت عنه. فنسب لها. فقالت اثتوني به. فقالت له لما أتوها به: انشدني مما قلت في زبيب. فامتنع وقال: ابنة عمي وقد صارت عظاماً بالية. قالت: أفسمت لما فعلت. فأنشدها قوله:

نزلن بغيح ثم رحن عشبته ملبين للرحمن معتمرات
بخبن أطراف الأكف من التقى ويخرجن شطر الليل معجرات
ولما رأت ركب النميري أعرضت وكمن من أن يلقينسه حذرات
نضوع مسكا بطن نعان أن مشت به زبيب في نسوة خفرات

فقالت: والله ما قلت إلا جميلاً، ولا وصفت إلا كرمًا وطيباً ونقى ودينًا. أعطوه ألف درهم... (٢)

ومنهن أيضاً كلثم المخزومية (٣) وخرقاء العامرية (٤). وعمره الجمحية التي كان بيتها ملتقى للشعراء يجتمعون فيه. ويتناشدون الشعر. (٥)

(١) الأغاني/ج ١٦/١٦١. وانظر كذلك ١٦٢ و١٦٣ و١٦٩-١٧٠ وانظر كذلك نقدها لشعر عروة بن أذينة/ج ١٨/٣٢٨. وكذلك للغزدق/ج ٨/٣٨.

(٢) الأغاني/ج ١١/١٩٠. وانظر كذلك قصة المرأة الأموية مع كثير والأحوص ونصيب/ج ١/٣٥٦.

(٣) المصدر السابق/ج ١/٢٠٥.

(٤) قالت في ذي الرمة: كان رقيق البشرة، عذب المنطق، حسن الوصف، مغارب الرصف، غفيف الطرف. وكانت تحفظ الشعر وتنشده. انظر أخبارها في الأغاني/ج ١٨/٤٠.

(٥) الأغاني/ج ٧/١١٦.

- ٢٧٠ -

وكانت تكافئ الشعراء وتجزبهم عن حسن قولهم بالمال والعطايا. وما كانت لتفعل ذلك لولا تذوقها لهذا الفن، وتحسسها للأثر الكبير الذي سيكون له. فقد دخل الكميت على فاطمة بنت الحسين فقالت: هذا شاعرنا أهل البيت، وجاءت بقدر فيه سويق، فحركته بيدها وسفت الكميت، فشربه. ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب، فهملت عيناه، وقال: لا والله لا أقبلها؛ إني لم أحبكم للدينبا. (١)

والثفت كذلك ربا بنت الكميت بن زيد، وفاطمة بنت أبان بن الوليد بمكة. وهما حاجتان، فتساءلنا حتى تعارفنا، فدفعت بنت أبان إلى بنت الكميت خلخالها ذهب كانا عليها، فقالت لها بنت الكميت: جزاكم الله خيراً يا آل أبان، فما تتركون بركم بنا قديماً ولا حديثاً فقالت لها بنت أبان: بل أنتم، فجزاكم الله خيراً، فإننا أعطيناكم ما يببب وبفنى، وأعطيتونا من المجد والشرف ما يبقى أبداً ولا يببب، يتناشده الناس في المحافل، فيحيي ميت الذكر، ويرفع بقبة العقب. (٢)

ولعل مقولة فاطمة بنت أبان من أبلغ ما قيل في وصف شعر المدح. إضافة إلى أن مثل هذه الأخبار توضح لنا أن المرأة لم تكن غائبة عما يحدث حولها من أمور وأحداث ولم تكن جاهلة بأخبار الشعراء وأشعارهم. بل كانت متفاعلة مع هذه الأحداث جميعها، وتعرف الشعراء وأخبارهم وتحفظ من شعرهم الكثير، بحيث أصبحت قادرة على التعامل مع هذه الأمور معاملة العارف بأحوالها والخبير بأحداثها.

المرأة الشاعرة

فقد عرف هذا العصر عدداً من الشاعرات العربيات، إلا أنه لم يذكر لكثير منهن سوى مقطعات قليلة قالتها الواحدة منهن في رثاء أحد أفراد أسرته، أو الفخر بقومها أو ما شابه ذلك من الأغراض. ومنهن أم حكيم بنت يحيى المخزومية وقد أوردت لها شعراً في رثاء ابنها اللذين قتلها بسر بن أرطاة، ومنهن هند الأنصارية التي رثت حجر ابن عدي، وأم البراء بنت صفوان بن هلال وهي ممن دخلن على معاوية بن أبي سفيان. والرباب زوجة الحسين بن علي وقد أوردت لها شعراً في رثاء زوجها الحسين ومبسة بنت جابر وقد أوردت لها شعراً تظهر حزنها على زوجها السابق وندمها على الزواج من آخر. وزينب بنت عرقطة التي تهاجت مع زوجها أبي وجرة، والجوزاء بنت

(١) الأغاني / ج ١٧ / ٢٥.

(٢) المصدر السابق / ج ١٧ / ٣٩.

- ٢٧١ -

عروة البصري، وقد أوردت لها شعراً في رثاء أخيها، وهجاء يزيد بن المهلب، وكذلك برز عدد من الشعراء الخارجيات، وقد أوردت بعض المقطعات لهن. ومن الشعراء اللواتي اشتهرن لهذا العصر أيضاً حميدة بنت النعمان بن بشير وقد اشتهرت بكثرة هجائها لأزواجها وملبكة الشيبانية^(١). وغيرهن كثيرات.

ومن الشعراء البدويات اللواتي اشتهرن، شاعرة من كلب تزوجها خالد بن يزيد ابن معاوية وحملها إلى دمشق وأهديت إليه في بردتين اثنتي عشرة بواحدة وتدرعت بالأخرى. فكانت نسامره، وتنشده أشعار قومها وتفتخر. فلما أغاظته، قال: أنسيت البردتين؟! فأعرضت عنه طويلاً، ثم أنشأت تقول:

أخالد مهلاً لا يُعبر بالفقر	فكم من فتى بذل الخليفة ذي وفر
وأخر محمود الخليفة معوز	من المال لا يزري به لازم الفقر
ومن ذات بعل في حلي مظاهر	وترفل في بز العراق وفي العطر
مذمة الأخلاق والغدر همة	وإن مزجت منهما البشاشة بالبشر
حصان لها خلق ودل مبتل	هضم الحشا حوراء آفة الخدر

ولما قدم الشام تلقاه عبد الملك بن مروان فسأله عن شعره. فأخبره وحديثه بحديث الأعرابية وبردتها. فانصرف عبد الملك إلى نسائه فحدثهن بذلك. فقلن: يا أمير المؤمنين، أن لو بعثت البنا بردتها حتى ننظر إليهما، فسرح رسولاً. فلما أتى خالد الرسول، قالت: ما كنت لأفعل حتى أوجه إليه بأبيات فإن استحسن أن ينظر إليها فهو أعلم. فسرحت إليه:

با بن الذوائب من أمية والذي	أفضت إليه خلافة الجبار
فيم استفزك خالد بحديثه	حنى هممت بأن ترى أطماري
مهلاً أمير المؤمنين، فما الذي	أحببت من ذاكم علي بعار
قلن رأيت سحيق شملتي بالبأ	إنني لمن قوم ذوي أخطار
صبر على رب الزمان أعزة	لا يخفرون بذمة وجوار
غلب إذا حمي الوطيس وجدتهم	صبرا لدى الهيجا بني أحرار
فأنرك مقالة خالد وحديثه	واحفظ مقالة معشر أخيار ^(٢)

(١) سأتى على ذكرها وشيء من شعرها في الفصل التالي.

(٢) تاريخ مدينة دمشق/ تراجم النساء/ ٥٨٦ وما بعدها، الطبر: الثوب البالي وجمعها أطمار، سحيق شملتي: الثوب الخلق.

والفخر من الموضوعات المطروقة في شعر النساء ولعله يأتي في الدرجة الثانية بعد شعر الرثاء. وقد لجأت إليه هذه الشاعرة البدوية لتظهر مدى عزة قومها وشجاعتهم في ساحات الوغى.

ومن الشاعرات الشاميات اللواتي اشتهرن لهذا العصر ميسون بنت بحدل زوجة الخليفة معاوية وأم ابنه يزيد: فلما زفت من بادية كلب إلى معاوية لم تنطق حياة الحضر، ونشوقت للبادية، فقالت:

لَبِثْتُ تَخْفُقُ الْأَرْوَاحُ فِيهِ	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مُنِيفٍ
وَبِكُفْرٍ يَتَّبِعُ الْأَطْعَانَ سَقْبًا	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَغْلٍ زَفُوفٍ
وَكَلْبٍ يَنْبِجُ الطَّرَافَ عَنِّي	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَطْءِ الْوُفِ
وَلِبَسٍ عِبَاءٍ وَتَقَرٍّ عَيْنِي	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لِبَسِ الشُّفُوفِ
وَأَكْلٍ كَسْبَرَةٍ فِي كِسْرِ بَنِي	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَكْلِ الرِّغِيفِ
وَأَصَوَاتِ الرِّيحِ بِكَلِّ ضَجٍّ	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْرِ الدَّفُوفِ
وَحِرْقٍ مِنْ بَنِي عَمِّي نَحِيفًا	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عَلَجٍ عَلِيفٍ
خَشُونَهُ عَيْشَتِي فِي الْبَدْوِ أَشْهَى	إِلَى نَفْسِي مِنَ الْعَيْشِ الطَّرِيفِ
فَمَا أَبْغِي سِوَى وَطْنِي بَدِيلًا	فَحَسْبِي ذَاكَ مِنْ وَطْنٍ شَرِيفٍ (١)

فالحنين إلى موطنها الأول في البادية هو الدافع لقول هذه الأبيات، إذ أنها لم تنطق حياة المدينة رغم كل ما نوافر لها من دعة العيش وسهولته، ورغم كل ما نوافر لها من عز السلطان والسيادة باعتبارها زوجة الخليفة وأم ولي عهده. ولا يخفى أنها تهجوه هنا هجاء مرا.

وفي تغلب ظهرت الدلماء التغلبية وكانت تهجو الأخطل، فأنتى الأخطل أباهما: فقال: اكفف ابنتك عني. فقال: إنها لشاعرة، وما كنت لأكفها عنك، ولا عن غيرك. فقال فيها الأخطل شعرا فاحشا. فمضى أبوها. في رجال من قومه إلى الأخطل، فكلّموه. فقال: أما ما مضى فقد مضى، ولا أزيد. (٢)

(١) البغدادي/ عبد القادر عمر البغدادي/ خزائن الأدب وللب لباب لسان العرب/ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون/ مكتبة الخانجي- مصر/ ١٩٨١/ ج٨/ ٥٠٣-٥٠٤. السقب: الذكر من ولد الناقة. الخرق: الكريم.

(٢) انظر الخبر وشعر الأخطل فيها في الديوان/ ج٢/ ٥٩٣/ والأغاني/ ج٨/ ٣٠٤.

ولعل ما حدث للدلماء حدث لشاعرات غيرها، وفيه تفسير لقلّة شعر النساء بشكل عام، لأن المرأة الشاعرة لم تستطع القول في كثير من أغراض الشعر التي يستطيعها الشاعر الرجل كالغزل والهجاء... لأن ظروف الحياة الاجتماعية لم تكن تسمح بذلك، ولأن بعض الشعراء، بل كثيراً منهم كانوا يلجؤون إلى إسكات المرأة الشاعرة بمثل ما كان من الأخطل للدلماء، مما دفع بالمرأة لأن تنكص بشعرها بعيداً، وتترك الحلبة للشعراء الرجال سوى قلة منهن كليلي الأخيلية التي استطاعت أن تجيب النابغة وغيره من الشعراء بجرأة لا مثيل لها كما سنرى.

وفي نجد وبواديها ظهر عدد من الشاعرات منهن هنيذة الخفاجية ولها شعر في ابنها المضاء (١) والخنساء بنت أبي الطراح وهي القائلة:

فإن كنتَ من أهلِ الحجازِ فلا تَلِجْ وإن كنتَ نجدياً فَلِجْ بِسَلامٍ (٢)
وماوية العقيلية، وكانت تحبّ ابن عمها كثيراً، وقالت فيه:

ألمَ كثيرٌ لمةٌ ثم شمرتُ به خلةٌ بطلبين برقاً بمانياً
ألا ليتنا والنفسَ نصيرُ بالمنى بمانونَ إذ أضحى كثيرُ بمانياً (٣)

كذلك ربّا العقيلية ولها شعر في زوجها ثروان بن سميع، ومن شعرها أيضاً قولها:

فما وجدَ مغلولٍ بتيماءَ موثقٍ بساقبّةٍ من ضَرْبِ القيونِ كبولٍ
قليلِ الموالي مسلّمٍ بجريرةٍ له بعدَ نوماتِ العيُونِ عويلٍ
يقولُ ليّ البوابُ أنتَ معذبٌ غداةَ غدٍ أو مسلّمٌ فقتيلُ
بأكثَرَ مني لوعةً يومَ بانَ لي فراقُ حبيبٍ ما إليه سبيلُ
عشبةٌ أمشي القصدَ ثم يردّني عن القصدِ روعاتِ الهوى فأميلُ (٤)

(١) المرزباني أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني / أشعار النساء / تحقيق وتقديم د. سامي مكي

العاني وهلال ناجي / دار الرسالة للطباعة والنشر - بغداد / ٩١٧٦ / ٩١.

(٢) المرزباني / أبو عبيد الله محمد بن عمران / معجم الشعراء تصحيح وتعليق الدكتور ف. كرنكو / ط٢ /

دار المكتبة العلمية / بيروت-لبنان / ١٩٨٢ / ١١١.

(٣) أشعار النساء / ص ٩١.

(٤) صدر الدين البصري / الحماسة البصرية / غابة: مختار الدين أحمد / عالم الكتب - لبنان - بيروت /

أما ليلى الأخبيلية فهي شاعرة هذا العصر بلا منازع، وهي متميزة، بل فريدة من نوعها من النساء على جميع المستويات العاطفية والسياسية والقلبية، حتى لقد تشكك بعض الدارسين في وجودها أصلاً. (١) وحق له أن يفعل - وإن لم أكن أوافقه الرأي في الشك بوجودها - فكل ما وصلنا من أخبار وشعر يثبت وجود ليلى الأخبيلية، لكن هذا لا يمنع من أن يقف الإنسان وقفة استغراب وإعجاب في آن واحد؛ وذلك لقدرتها على تجاوز ظروف عصرها حيث التشديد على خروج المرأة للحياة العامة، وارتحالها وتنقلها بين البلدان، واستغراب من سماح المجتمع لها بإظهار عواطفها وشعرها في صاحبها توبة، وكذلك السماح لها بالتعرض لهجاء الشعراء الآخرين مما عرضها لهجائهم الفاحش. وأما الإعجاب فهو أيضاً لقدرتها على تجاوز ظروف عصرها وشجاعتها في التعبير عن عواطفها، غير آبهة بما يمكن أن يقال عنها، وشعورها بضرورة تحمل مسؤولية نفسها ومسؤولية قومها، والخروج للقاء الخلفاء والأمراء في سبيل تحقيق حياة فضلى لها ولهم.

وإذا نظرنا في أخبار ليلى وشعرها، نراها قد تمكنت من اختراق ظروف العصر وحواجزه التي كانت حكرًا على الرجال فعلى المستوى العاطفي رأينا من قبل وفي حديثي عن المرأة الصفة، والمرأة الإنسانية أن الشاعر هو الذي يحدثنا عن المرأة وعن صفاتها المادية والمعنوية، ويصف مشاعره نحوها، ورأيه فيها... أما هي فغالباً ما تكون طرفاً سالباً لا نعرف عنه شيئاً إلا بالقدر الذي يريد الشاعر لنا أن نعرفه، وما وصل إلينا من شعر المرأة لا يكاد يذكر مقارنة بشعر الرجل. فهو لا يتعدى أبياناً أو مقطوعات قصيرة في الرثاء أو الفخر وما شابه ذلك من الأغراض. وفلما وقعت أبصارنا على أبيات في الغزل، أو التعبير عن عاطفة تجاه الرجل الذي نحب، أما ليلى فقد استطاعت أن تعبر عن عواطفها نثراً وشعراً بصورة مدهشة، فحينما سألتها معاوية بن أبي سفيان عن صاحبها، قالت: إنه كان سبط البنان، حديد اللسان، شجاً للأفران، كريم المخبر، عفيف المنزر، جميل المنظر. وهو يا أمير المؤمنين كما قلت له. قال: وما قلت له؟ قالت ولم أتعد الحق وعلمي فيه:

بَعِيدَ الثَّرَى لَا يَبْلُغُ الْقَوْمَ قَعْرَهُ	أَلَدُّ مَلِدٍّ يَغْلِبُ الْحَقَّ بَاطِلُهُ
إِذَا حَلَّ رَكْبٌ فِي ذَارِهِ وَظِلُّهُ	لِيَمْنَعَهُمْ مِمَّا نَخَافُ نَوَازِلُهُ
حِمَاهُمْ بِنَصْلِ السَّيْفِ مِنْ كُلِّ قَادِحٍ	يَخَافُونَهُ حَتَّى تَمُوتَ خِصَائِلُهُ

(١) انظر طاهر لبب/ سوسولوجية الغزل العربي/ الشعر العذري نموذجاً/ ترجمة حافظ الجمالي/

فقال لها معاوية: ويحك! يزعم الناس أنه كان عاهراً خارباً. فقالت من ساعتها:

معسداً إلهي كان والله سيّداً	جواداً على العِلّاتِ جَمّاً نوافِلُهُ
أغرّ خفاجيّاً يرى البخل سبّةً	تَحَلَّيَّ كَفَّاهُ النّدى وأناملُهُ
عفيفاً بعيدَ الهمّ صلباً فناته	جميلاً مَحَبَّاهُ قَلْبِلاً غوائلُهُ
وقد علمَ الجوعَ الذي باتَ سارياً	على الضيفِ والجبرانِ أنك فاتلُهُ
وأنتَ رَحَبَ الباعِ يا ثوبَ بالفرى	إذا ما لثيمُ القومِ ضافتِ منازلُهُ
بببتَ قريبَ العينِ من باتِ جاره	ويضحى بخير ضيفه ومنازلُهُ

فقال لها معاوية: ويحك يا ليلي! لقد جرت بنوبة قدره. فقالت: والله يا أمير المؤمنين، لو رأيته وخبرته لعرفت أنني مفصرة في نعمته وأني لا أبلغ كنه ما هو أهله. فقال لها معاوية: من أي الرجال كان:

قالت:

أنتَه المنايا حينَ تمَّ تمامه	وأقصر عنه كلُّ فِرْنٍ بطاوله
وكان كلبث الغابِ بحمي عربنه	وترضى به أشباله وحلائله
غُضوبٌ حلیمٌ حينَ يَطْلُبُ حلمه	وسمّ زعافٌ لا تصابُ مقاتله (١)

قليلي بهذا الوصف، وبغيره مما قالته من شعر في توبة قد أعطته صورة تقارب ما رأيناه عند كثير من الشعراء في وصفهم للمرأة. لقد رسمت له صورة "الرجل النموذج" الذي تطمح المرأة أن يكون عليه صاحبها بكل ما في هذه الصورة من صفات أجمع عليها الناس. إنها صفات الرجولة المثلى التي تؤلفها قوة وفروسية وشجاعة وكرم عظيم، وحلم يبتغي، وشدة تنشد، حدة في اللسان، وعفة في المئزر، وبسطة في البنان وجمال في الشكل...

ولأنها وجدت فيه "الرجل النموذج" رأت أنه يستحق الحب الكبير الذي استمرت عليه بعد وفاته، على الرغم من أنها متزوجة من رجل آخر، ولعل قلة وجود هذا النموذج وندرته فيما عرفت من الرجال، أو فيما سمحت لها الظروف أن تعرف، جعلتها تتمسك به هذا التمسك الشديد.

وهذا يذكرنا بموقف العذريين من الرجال الذين قصروا عنهم على امرأة واحدة وقضوا حياتهم في التغني بها، وإذا كان ذو الرمة قد أنفق عمره وشعره يتغنى بمبة بعدد

- ٢٧٦ -

أن رأى فيها عنصر الحياة المهم المحافظ من خلال الإنجاب على استمرارية الوجود البشري، فإن ليلى الأخبيلية عبرت عن ذلك بصورة أكثر مباشرة من خلال مقولتها الخصبة لأسماء بن خارجة وقد قال لها في مجلس الحجاج: أيتها المرأة إنك لتصفين هذا الرجل بشيء لم تعرفه به العرب. فقالت له: أيها الرجل هل رأيت توبة؟ قال: لا. قالت: أصلح الله الأمير، فوالله لو رأى توبة لود أن كل عاتق في بيته حامل من توبة^(١). وقد يفسر هذا القول بأن ليلى قد تمتت الزواج من توبة والإنجاب منه، ولا ضير في ذلك، فالمرأة ترغب في أن تتزوج من الرجل الذي تحب إن وانتهى الظروف، لكني لا أعتقد أن هذا هو الذي قصده ليلى، وإنما قد تكون هدفت إلى أبعد منه. فهي قد أحبت توبة بعد أن رأت فيه مثال الرجل الذي يستحق هذا الحب الكبير، بل عشفته حباً ومبتاً بصورة عميقة جداً جعلتها ترى فيه النموذج الذي يجب أن يبقى ويدوم، فكانها أرادت بهذه الأمنية أن تخلد توبة من خلال استمرار وجوده بنسله من (كل عاتق) فالأمر لم يكن خاصاً بها فقط، بل أرادت لشخصه ونموذجه أن يتكررا، وتمنت لو أن النساء جميعاً أنجبن على شاكلته، وليس أدل على ذلك من أن ليلى قالت مقولتها السابقة بعد وفاة توبة، وهذا يعني أن الأمر لم يكن خاصاً بأمنية زواج امرأة من رجل معين كهذا الذي يمكن أن يكون بين أي رجل ولبي امرأة.

ومثل رؤية ليلى لا تتشكل عند أي امرأة عادية، في ظل تجربة حبّ عادية فمثل هذا لا يكون إلا من امرأة تعرف كيف تميز الرجال وتختبرهم بمقاييس وأساليب قلما تعرفها الكثيرات، إنها امرأة تحب بعمق كبير جداً، حين استطاعت أن تتجاوز بحبها هذا كل الأعراف والتقاليد في مجتمعها، بل استطاعت أن تنقله إلى بلاط الخلفاء والأمراء مزهوة ومفاخرة به، بل فعلت أكثر من ذلك حيث قدمت صاحبها على الخليفة عبد الملك بن مروان وتعرضت له ولزوجته بسببه، ذكر صاحب الأغاني أن عبد الملك دخل على زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فرأى عندها امرأة بدوية أنكرها، فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا الوالدة الحرة ليلى الأخبيلية. فقال: أنت التي تقولين:

أَرَبَيْتُ جِفَانَ ابْنِ الْخَلِيعِ فَأَصْبَحْتُ حِيَاضَ النَّدَى زَالَتْ بِهِنَ الْمَرَانِسِبُ
فَعَمَانَّتْهُ لَهْفَاسِي بِطُوفُونَ حَوْلَهُ كَمَا انْقَضَ عَرْشُ الْبَثْرِ وَالْوَرْدُ عَاصِبُ

قالت: أنا التي أقول ذلك. قال فما أبييت لنا؟ قالت: الذي أبفاه الله لك. قال: وما ذاك؟ قالت: نسباً فرشياً، وعيشاً رخيماً، وإمرة مطاعة. قال: أفردته بالكرم؟ قالت:

(١) أشعار النساء / ٥٠-٥١. العاتق: الحرة.

أفردته بما أفردته الله به. فقالت عاتكة: إنها قد جاءت تستعين بنا عليك في عين تسقيها وتحببها لها. ولست ليزيد إن شفعتها في شيء من حاجاتها. لتقديمها أعرابيا جلثا على أمير المؤمنين. قال: فوثبت لبلى فقامت على رجلها واندفعت تقول:

سَنَحْمَلَنَّيْ وَرَحْلِي ذَاتُ وَخْدٍ	عَلَيْهَا بَنِيَتْ أَبَاءُ كَرَامٍ
إِذَا جَعَلْتُ سَوَادَ الشَّامِ جَنْبًا	وَعَلَّيْتُ دُونَهَا بَابَ اللُّثَامِ
فَلَيْسَ بَعَائِدُ أَبَدًا إِلَيْهِمْ	ذُوو الْحَاجَاتِ فِي غَلَسِ الظُّلَامِ
أَعَانِكَ لَوْ رَأَيْتَ غَدَاةَ بِنَا	عَزَاءَ النَّفْسِ عَنْكَمُ وَعِزَامِي
إِذَا لَعَلَّتْ وَاسْتَيْقَنْتِ أَنْتِي	مَشِيْعَةً وَلَمْ تَرَعَيْ دِمَامِي
أَجْعَلُ مِثْلَ تَوْبَةٍ فِي نَدَاءِ	أَبَا الذَّبَانِ قَوْهَ الدَّهْرِ دَامِي
مَعَاذَ اللَّهِ مَا عَسَفَتْ بِرَحْلِي	تَغِيْذَ السَّبِيْرِ لِلْبَلَدِ النَّهَامِي
أَقُلْتُ خَلِيْفَةً قَسِيْوَاهُ أَحْجِي	بِأَمْرِنِيْهِ وَأَوْلَايَ بِاللُّثَامِ
لثَامِ الْمَلِكِ حِينَ تُعَدُّ كَعْبٌ	ذُوو الْأَخْطَارِ وَالْخُطَطِ الْجِسَامِ

فقل لها أي الكعبيين عنت؟ قالت: ما أخال كعباً ككعبي. (١) وهي تعني كعب بن ربيعة بن عامر، وهو أحد الخلعاء من آبائها وآباء توبة.

فلبلى قد شعرت بأن عبد الملك بن مروان لن يحقق لها مطالبها فما كان منها إلا أن خرجت من عنده غاضبة، وهجته بهذا الشعر الجريء إذ لا أعتقد أن من الشعراء من استطاع أن يهجوهم بمثل هذه الفسوة (باب اللثام، أبا الذبان، قوه الدهر دامي...) في حين افتخرت بنفسها وصاحبها توبة بقولها: (بنت آباء كرام، أأجعل مثل توبة في نداء... حين تعد كعب ذوو الأخطار، والخطط الجسم...) وجراة لبلى في حضرة الخليفة عبد الملك مما تناقلته كتب الأخبار فقد سألتها ذات يوم: ما رأى فيك توبة حين هوبك؟ قالت ما رآه الناس فيك حين ولوك، فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها. (٢) ولعل للصراعات السياسية حول الحكم دوراً في هذا الشعر كما سيأتي.

وما يؤكد ما ذهبت إليه من تفسير مقولتها السابقة لأسماء بن خارجة، أنها أيضاً في رثائها لتوبة كانت تطلب من النساء كافة أن يبكين توبة:

(١) الأغاني / ج ١١ / ٢٤٥، الوحد: مشرب من السير، عسفت: سارت وخبطت.

(٢) الشعر والشعراء / ج ١ / ٤٤٩.

شِثَاءٌ وَصِيفُ دَائِبَاتٍ وَمَرْبَعَا
فَمَا انْفَكَ حَتَّى أُحَرِّزَ الْمَجْدَ أَجْمَعَا (١)

لَتَبْكِي الْعِذَارَى مِنْ خَفَاجَةٍ كُلَّهَا
عَلَى نَاشِيءٍ نَالَ الْمَكَارِمَ كُلَّهَا

وقالت نثرته:

أَيَا عَيْتَنَ بَكِّي تَوْبَةَ بَنٍ حَمِيرٍ
لَتَبْكِي عَلَيْهِ مِنْ خَفَاجَةٍ نِسْوَةٍ
سَمِعَنَ بِهِجَا أَرْهَقَتْ فَذَكَرَنَهُ
بَسَحَ كَفْبِضِ الْجِدُولِ الْمُتَجَرِّ
بِمَاءِ شَوْوُونَ الْعَبَسْرِفِ الْمُنَحْدِرِ
وَلَا يَبْعَثُ الْأَحْزَانَ مِثْلَ التَّذْكَرِ (٢)

وعلاقة لبلى بتوبة علاقة عذرية كما وصفتها هي من خلال حديث دار بينها وبين الحجاج. ومن خلال شعر توبة فيها أيضاً. قال الحجاج لبلى الأخبيلية: إن شبابك قد ذهب واضمحل أمرك وأمر توبة: فأقسم عليك إلا صدقتني. هل كانت بينكما ريبة قط أو خاطبك في ذلك قط؟ فقالت: لا والله أيها الأمير إلا أنه قال لي ليلة وقد خلونا كلمة ظننت أنه قد خضع فيها لبعض الأمر، فقلت له:

وَذِي حَاجَةٍ فَلَنَا لَهُ لَا تَبَّحْ بِهَا
لَنَا صَاحِبٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَخُونَهُ
فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَبِيتَ سَبِيلُ
وَأَنْتَ لِأَخْسَرَى فَارِغٌ وَحَلِيلُ

فلا والله ما سمعت منه ريبة بعدها حتى فرق بيننا الموت. قال لها الحجاج: فما كان منه بعد ذلك؟ قالت: وجه صاحباً له إلى حاضرنا فقال: إذا اثبت الحاضر من بني عبادة بن عقيل فاعمل شرفاً ثم اهتف بهذا البيت:

عَمَّا اللِّسَ عَنْهَا هَلْ أَبِيتَنَ لَيْلَةً
مَنْ الدَّهْرَ لَا تَسْرِي إِلَيَّ خِيَالَهَا

فلما فعل الرجل ذلك عرفت المعنى فقلت له:

وَعَنْهُ عَمَّا رَبِّي وَأَحْسَنَ حَالَهُ
عَزِيزٌ عَلَيْنَا حَاجَةٌ لَا بِنَالِهَا (٣)

وسواء كان هذا الخبر صحيحاً أم أنه من وضع سُتْرَاحِ الشعر، أو نساجي القصص. فإن هذا الشعر وغيره من شعر الشاعرين يؤكد عذرية العلاقة بينهما، ولبلى في إصرارها على أن تظلّ علاقتها عذيفة تذكّر توبة بالتزامها الشرعي نجاه زوجها، كما ترد منه أن يكون موقفه كذلك حين تذكره بزوجه أيضاً. وخصوصاً أن رواية الديوان تزيد ببتاً ثالثاً وهو:

(١) ديوانها / ٨٦.

(٢) ديوانها / ٧١، والأغاني / ج ١١ / ٢٣١.

(٣) الأغاني / ج ١١ / ٢٠٧، وأشعار النساء ٧٧-٨٧. وانظر كذلك ديوانها / ٩٦.

تَخَالِكَ نَهْوَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا لَهَا مِنْ تَخَنُّبِهَا عَلَيْكَ دَلِيلٌ^(١)

وكما يبدو من الأدبيات لم ترد ليلى تأكيد رغبتها في الإبقاء على عذرية العلاقة فحسب؛ على اعتبار أن المرأة أكثر حرصاً وأكثر خوفاً من الرجل في مثل هذه الأمور، ولكنها أيضاً تريد دفع توبة للتفكير في واقع حياته مع زوجته وما سيؤدي أي تجاوز منه إلى سوء الظن به، وكأني بها تحاول أن تنزع أي تفكير في هذا التجاوز، وتخشى من أي ضعف يمكن أن يكون من جانبها، لذا أرادت اللجوء إلى أساليب أخرى تضمن فيها إبعاد تفكير توبة عن أية صبغة مادية لعلاقتها بها، واعتقد أن مثل هذا التفكير هو قمة العذرية عند المرأة المحبة، فهي لا تكتفي بتفكيرها العذري وحبها العفيف وإنما تريد لصاحبها أن يكون كذلك حتى تضمن هذه الصفة وتطمئن عليها سوية عند الطرفين، وهذه القدرة عظيمة عند ليلى؛ أن نحس بهذا العمق الكبير ونتجه لهذه العذرية العظيمة. لكنني أعتقد أنهما في الآخر يلتقيان، لأن مثل هذه العذرية هي التي عمّقت الحب بينهما. ويبدو أن توبة كان مثال الالتزام بما شاءت لحياتها لذا تمنّت أن تنجب كل النساء رجالاً على شاكلته، غير آبهة بما يمكن أن يظن بها، وغير آبهة أيضاً بما قد يترتب على مثل هذه الأمنية في علاقتها مع الأخريات، أو حتى مع زوجته لأن حبها له ارتفع عن كل العلاقات العادية، وشغلها وجوب خلود شخصه عن أي أمر آخر.

ولما لم تسعفها الأحوال أن تتحقق لها تلك الأمنية فقد لجأت إلى أسلوب آخر هو الشعر، لذلك كررت مثل هذه الفكرة في شعرها الرثائي. فطلبت إلى كل النساء أن يبكين توبة لأنه يستحق ذلك منهن كلهن لا منها هي فقط كما رأينا.

أمّا الجانب السياسي، فقد بدأ فكرها فيه يتشكل وهي مازالت في سن صغيرة حيث إنها رثت الخليفة عثمان بن عفان موضحة استنكارها لقتله بعد أن خدم أمته وقدم لها الدعم المالي الكبير. وهي ترى بمقتله سابقة خطيرة في هذه الأمة تعلن عن مرحلة جديدة من الافتقار إلى الأمن، قالت:

أبعدَ عثمانَ ترجو الخيرَ أمتهُ وكانَ آمنَ منَ بمشي على ساقِ
خليفةَ الله أعطاهم وخولهم ما كانَ من ذهبِ جوم وأوراقِ
فلا تكذبُ بوعدِ الله وانفِهِ ولا توكّلْ على شيءٍ بإسفاقِ
ولا نقولنَ لشيءٍ سوفَ أفعلهُ قد كتبَ الله ما كلُّ امرئٍ لاقِ^(٢)

(١) ديوانها / ٩٦.

(٢) الشعر والشعراء / ج ١ / ٤٤٩. وديوانها / ٩٢. الجوم: جمع جام وهو الطست أو الإناء. الأوراق: جمع ورق وهي الغضة.

وقد كانت (بنو عامر) عثمانية الهوى، وكانت من القبائل المطالبة بدمه، مثلها مثل غيرها من قبائل قيس، وقد وقف بنو عامر إلى جانب حزب عائشة وطلحة والزبير في وقعة الجمل، (١)

وقد استمر القيسيون على موقفهم هذا من الأمويين إلى أن رأوا تقديم الأمويين لقبيلة كلب اليمانية، والنزاع بين القيسية واليمانية متوارث منذ العصر الجاهلي، ولم يتوقف بمجيء الإسلام، بل على العكس من ذلك زاد أولاه بتأثير من سياسة الأمويين التي كانت تقوم على ضرب القبائل بعضها ببعض. وبعد وفاة يزيد بن معاوية عاد الخلاف حول من يلي أمور المسلمين ليطفو على السطح، وخلاصة الموقف أن اليمانية وفقت إلى جانب مروان بن الحكم، بينما وفقت قيس ومنها بنو عامر إلى جانب ابن الزبير. وكانت معركة مرج راهط التي انتهت بهزيمة قيس وانصار اليمانية بتولي المروانيين الحكم.

وقد وفدت ليلي على عدد من الخلفاء والولاة، ومدحتهم، ونالت عطاياهم، ومنهم معاوية بن أبي سفيان كما مر سابقاً، كذلك عبد الملك بن مروان الذي هجته بعدما أحسّت بأنه لن يعطيها سؤلها، وخرجت من عنده غاضبة، وقد أوضحت سابقاً أنه كان بسبب تقديمها توبة صاحبها عليه في المدح ولعل، السبب يكون أبعد من ذلك ألا وهو موقف قومها السياسي من المروانيين في مرج راهط.

أما علاقتها مع الحجاج فهي من الذائع المشهور، فقد وفدت عليه غير مرة، ومدحته مدحاً كثيراً أثار إعجابه وقال فيها: "قاتلها الله؛ والله ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت العراق غيرها، (٢) وهي كانت في زيارتها له تطلب لنفسها ولقومها، بل كانت لسان حالهم في أي شكوى يريدون إبعالها إلى الوالي، فقد ذكر أبو علي القالي في خبر قدومها على الحجاج أنها دخلت عليه مجلسه: فسألها عن نسبها فانتسبت له، فقال لها: يا ليلي، ما أتى بك؟ فقالت: إخلاف النجوم، وقلة الغيوم، وكَلَبُ البرد، وشدة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرغد، فقال لها: صفي لنا الضجاج؛ فقالت: الضجاج مغبرة، والأرض مفسخرة، والمبرك معتل، وذو العيال مختل، والهالك للقل، والناس مستنون، رحمة

(١) انظر تاريخ الطبري / أحداث سنة ٢٦.

(٢) أبو علي القالي الأمالي في لغة العرب، مراجعة لجنة أحياء التراث العربي في دار الأفاق الجديدة /

الله يرجون، وأصابتنا سنون مجحفة مبلطة، لم ندع لنا هبعا ولا ربعا، ولا عافطة ولا نافطة؛ أذهبت الأموال، وفرقت الرجال، وأهلك العيال^(١) . ومن شعرها فيه قولها:

حَجَّاجُ أَنْتَ الَّذِي مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ إِلَّا الْخَلِيفَةُ وَالْمُسْتَغْفَرُ الصَّمَدُ
حَجَّاجُ أَنْتَ سَنَانُ الْحَرْبِ إِنْ نَهَجْتُ وَأَنْتَ لِلنَّاسِ فِي الدَّاجِي لَنَا تَقْدُ^(٢)

وقالت فيه قصيدة أخرى، جمعت فيها صفاته، مظهرة قدرته السياسية والعسكرية حيث كان قادراً على تثبيت الأمن والقضاء على كلِّ مارقٍ سولت له نفسه الخروج على السلطان، قالت:

أَحْجَّاجُ إِنْ اللَّهَ أَعْطَاكَ غَايَةً يَفْصِّرُ عَنْهَا مَنْ أَرَادَ مَذَاهَا
أَحْجَّاجُ لَا يُفْلَلُ سِلَاحُكَ إِنَّمَا الـ مَنَايَا بِكَفِّ اللَّهِ حَيْثُ تَرَاهَا
إِذَا هَبِطَ الْحَجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً تَتَّبِعُ أَقْصَى دَانِهَا فَشْغَاهَا
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي بِهَا غُلَامٌ إِذَا هَزَّ الْفَنَاءَ سَفَاهَا
سَفَاهَا دِمَاءُ الْمَارِقِينَ وَعَلَّهَا إِذَا جَمَحَتْ يَوْمًا وَخِيفَ أَذَاهَا
إِذَا سَمِعَ الْحَجَّاجُ رِزًّا كَتِيبَةً أَعَدَّ لَهَا قَبْسِلَ النَّزُولِ فِرَاهَا
أَعَدَّ لَهَا مَصْفُولَةً فَارْسِيَةً بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْلُبُونَ صَرَاهَا
فَمَا وَلَدَ الْأَبْكَارُ وَالْعَوْنُ مِثْلَهُ بِنَجْدٍ وَلَا أَرْضٍ يَجِفُّ ثَرَاهَا^(٣)

وليس هذا فحسب بل أدلت ليلي بدلوها في الثورات والفن التي حدثت في زمنها. فقد هجت عبد الرحمن بن الأشعث الذي خرج على الحجاج مؤكدة وقوف قومها إلى جانب الحجاج^(٤).

ولعل موقفَ ليلي من الحجاج كان لصلته القُربى ببنه وبينها. فليلي من بني عامر، والحجاج من ثقيف، وكلاهما من قبس عيلان. وكانت ليلي تولي الناحية القبلية والفكر القبلي في شعرها وعلاقتها مع الآخرين عناية كبيرة. بل كانت الأساس الذي بنت عليه

(١) الأمالي / ج ١ / ٨٦. خلاف النجوم: لم تأتِ بمطر. كَلَبَ البرد: شدته. اقشعرار الأرض: تقيعها من المحل. الفجاج: واحدها فج وهو كل سعة بين نشازين. مختل: محتاج من الخلّة وهي الحاجة. الهالك للنقل: هلك من أجل القلة. مسنونون: مقحطون. السنون: الفحوط. مجحفة: قاشرة. مبلطة: مزققة بالبلاط وهو الأرض الملساء. الهيج: ما نتج في الصيف. الربيع: ما نتج في الربيع. عافطة: ضائنة. نافطة: ماعرة.

(٢) ديوانها / ٦٣.

(٣) ديوانها / ١٢٠-١٢١.

(٤) ديوانها / ١١٦.

- ٢٨٢ -

علاقاتها مع مشاهير عصرها من الخلفاء والأمراء والشعراء سواء كان ذلك في باب المدح أو الهجاء... وقد قابلها الحجاج بالمثل من حيث الاهتمام بها والعطف عليها، وعلى قومها وإغداق العطايا عليها، وتلبية جميع ما طلبت منه فقد قال يا غلام مر لها بخمسمئة درهم، واكسها خمسة أثواب أحدها كساء خز، وأدخلها على ابنة عمها هند بنت أسماء، فقل لها: حلبيها فقالت: أصلح الله الأمير، أضر بنا العريف في الصدقة، وقد خربت بلادنا، وانكسرت قلوبنا، فأخذ خبار المال. قال: اكتبوا لها إلى الحكم بن أيوب فليبتع لها خمسة أجمال، وليجعل أحدها نجياً، واكتبوا إلى صاحب اليمامة بعزل العريف الذي شكته. فقال ابن موهب: أصلح الله الأمير، أأصلها؟ قال: نعم، فوصلها بأربعمئة درهم، ووصلتها هند بثلاثمئة درهم، ووصلها محمد بن الحجاج بوصيفتين. (١)

ومما يؤكد نهجها السياسي القبلي مدحها آل مطرف وآل أبي بكر العامريين. وهؤلاء كانوا من المؤيدين للحكم الأموي. فأما آل مطرف فقد كانوا من أكثر بطون بني عامر تأييداً للبيت الأموي؛ فسيدهم ابن مطرف العقيلي كان قد استعمل من قبل مروان بن الحكم على صدقات بني عامر؛ وذلك زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان، (٢) كما استلم ابنه عمرو ولاية اليمامة كذلك. (٣)

وأما آل أبي بكر، فقد كان سيدهم عبيد الله بن أبي بكر بن كلاب، أحد عمال بني أمية فقد ولي سجستان سنة ٧٨هـ من قبل الحجاج. (٤) فلعل ليلي أرادت من خلال هؤلاء أن تقرب بين قبيلتها وبين الأمويين خاصة وأنهم من بطون بني عامر القريبة إلى قومها، ومما يؤكد مثل هذا الموقف أنها هجت عبد الله بن الزبير في مدحها آل مطرف وكأنها بذلك تتراجع عن موقف قبيلتها المؤازر للزبيريين فعبرت بذلك عن رأي قبيلتها في رغبة التقرب من بني أمية. قال محقق الديوان: قالت ليلي تعرض بعبد الله بن الزبير ونمدح آل مطرف العامريين:

لما نخالست الحُمُولَ حَسْبَتَهَا	دومًا بأيلةً ناعماً مكموماً .
يا أباها السَّدِمَ المَلَوِي رَأْسَهُ	ليفودَ من أهل الحجازِ بريما
أتريدُ عمرو بن الخلبع ودونسه	كعب، إذا لوجدنكُ مروؤوما

(١) ابن الأثير الجزري/ الكامل في التاريخ/ عني بمراجعته وتحقيقه نخبة من العلماء/ ط٦/ دار الكتاب

العربي- بيروت/ ١٩٨٦/ ج٤/ ٣٦.

(٢) الأغاني/ ج١١/ ٢١٠-٢١١.

(٣) ديوان توبة بن الحمير/ ٦٠.

(٤) تاريخ الطبري/ أحداث سنة ٨٧.

- ٢٨٣ -

إن الخليع ورهطه في عامر كالقلب البس جوجوا وحزيم
لا تسرعن إلى ربيعة إنهم جمعوا سودا للعدو عظيم
شعبا تفرق من جماع واحد عدلت مَعَدَا تابعا وصميما (١)

إلى نهاية القصيدة التي نتحدث فيها عن شجاعة آل مطرف وفدريتهم القتالية
وسؤددهم...

وفي مجال الفخر أكثر الشاعر من الفخر بقبيلتها وقومها. فقالت:

نحن الأخيـل ما يزال غلامنا حتى يدب على العصا مذكورا
تبكي الرماح إذا فقدن أكفنا جزعاً، وتعلمنا الرفاق بحورا
والسيف يعلم أننا إخوانه حران، إذ بلغى العظام بتورا
ولنحن أوثق في صدور نسايتكم منكم إذا بكر الصراخ بكورا (٢)

وفد مزجت لبلى شعر الفخر مع أغراض الشعر الأخرى مثل المديح والثناء والهجاء. والصفات التي تفخر بها لا تختلف عما عند شعراء آخرين في هذا العصر. كالشجاعة والقوة والسؤدد، والكرم... وتمجيد القبيلة هو الذي غلب على شعر الفخر عندها كما هو الحال عند غيرها من شعراء العصر الأموي، فهم مازالوا في هذا أكثر قرباً من العصر الجاهلي في هذا النوع من الفخر. ومع مجيء الإسلام لم يقل التنافر القبلي في البيئات البدوية، بل زاد وقد كان لتشجيع النظام الأموي الذي كان يقوم على ضرب القبائل بعضها ببعض دور في إذكاء هذا التنافر. ولا تختلف لبلى باعتبارها امرأة عن الشاعر الرجل في قولها "لنحن أوثق في صدور نسايتكم" لأن الفكر القبلي المحكوم بمواريث اجتماعية معينة هو المسيطر على فكرها ولم يشفع للنساء عندها كونها امرأة مثلهن.

وهجت لبلى الأخيلية في شعرها عدداً من مشاهير عصرها كعبد الملك بن مروان من الخلفاء، والنايفة الجعدي من الشعراء وابن عم توبة قابع وأخيه عبد الله اللذين اعتقدت أنهما السبب وراء مقتل توبة. وسأتوقف عند هجائها للنايفة الجعدي الذي قالت فيه.

(١) ديوانها / ١٠٨-١٠٩، الدوم: نوع من الشجر، المكوم: المنطى والمستور، السدم: الهم مع ندم أو غيظ أو حزن، البريم: الجيش، عمرو بن الخليع: أحد آبائها، مرؤوماً: معطوفاً عليه، الجوجو: الصدر، الحزيم: موضع الحزام من الصدر، سود: السواد من الناس عامتهم، عدلت: سادت.

(٢) ديوانها / ٦٩، وانظر كذلك ١١٤ و ١١٦.

أناشي من الأنبياء أن عشيرةً
 يروح ويغدو وفدهم بصحيفةٍ
 على غير جرمٍ غير أن قلت: عمهم
 وأعمى أنشاه بالحجاز نثاهم
 فجاء به أصحابه يحملونه
 إذا صدرت ورادهم عن حياضهم
 بشوران بزجون المطي المنعلا
 ليستجلدوا لي ساء ذلك معنلا
 بعيش أبوهم في ذراه مغللا
 وكان بأطراف الجبال فأسهلا
 إلى خير حسبي آخري وأولا
 تغادر نهيباً للزكاة مغنلا (١)

وقد ذكر في سبب الهجاء بين لبلى والنايفة أن سوار بن أوفى الفشيري هجا
 أخوال النايفة في أمر كان بين فشير وبني جعدة، وهم متجاورون بأصبهان، فأجابه
 الجعدي بقصيدته "الفاضخة" التي فخر فيها بقومه وذكر فيها مساويء فشير وعقيل
 ومطلعها:

أما ترى ظلل الأيام قد حسرت
 وأنها فصيدته معرضاً:
 عني وشمرت ذبلاً كان ذبلاً

وأنهى قصيدته معرضاً:
 تلك المكارم لا فعبان من لبني
 عندي بماء فعدا بعبد أبوالا
 وعندها دخلت لبلى بينهما قائلة:

وما كنت لو قاذفت جلّ عشيرتي
 لأذكر قعبي حازرٍ قد تنمّلا (٢)

ولا يستغرب هذا عن لبلى مع ما عرف عنها من فخرها بقبيلتها والنصدي لكل
 من يذكرها بسوء. وقد يكون السبب في هذا النهاجي هو تحاكم عدد من الشعراء إليها
 ومنهم النايفة الجعدي وتفضيلها العجبر السلولي عليهم. فقد ذكر المرزباني، أنه تحاكم
 إلى لبلى شعراء هوازن: النايفة الجعدي، وحמיד بن ثور الهلالي، ونعيم بن أبي بن مقل
 العجلاني والعجبر السلولي، فأنشأت تقول:

ألا كلّ ما قال الرواة وزبوا
 به غير ما قال السلولي بهرج

تعني: العجبر، فنمى الخبر عنها. فقال النايفة الجعدي:

(١) ديوانها / ١٠٠-١٠١، عمهم: هو عقيل. وأبوهم: هو جعدة. الأعمى: النايفة. جعلته أعمى القلب.

(٢) مقدمة الديوان ٢٥ وما بعدها. حازر: حامض. تنمّل: صار كتلاً من الرغبة

كَأَنَّكَ لَيْلَى بَغْلَةً تَدْمَرِيسَةً رَأَتْ حِصْنًا فَعَارِضَتْهُنَّ تَشْحَجٌ^(١)

فقد تكون هذه القصة وراء تهاجي ليلَى والجعدي. إذ هجاها هجاء مرأ تعفّ النفس عن ذكره.^(٢) ولكنها ردت عليه رداً عنيفاً أفحمه فصغرت من شأنه. ووصفته باللؤم ودافعت عن نفسها في قصيدة طويلة منها الأبيات التالية:

أَنَابِعَ لَمْ تَنْبَغْ وَلَمْ تَكْ أَوَّلًا وَكُنْتَ صُنِيًّا بَيْنَ صَدَيِّنَ مَجْهَلًا
أَنَابِعَ إِنْ تَنْبَغْ بِلَوْمِكَ لَا تَجِدْ لِلْوَمَكِ إِلَّا وَسْطَ جَعْدَةٍ مَجْعَلًا
أَعِيرْتَنِي دَاءً بِأَمِّكَ مِثْلَ لَهْ وَأَيَّ جَوَادٍ لَا يُقَالُ لَهَا: هَلَا^(٣)

فغلبته وعد من الشعراء المغليين.

(١) أشعار النساء / ٢٥-٢٦. تشحج: الشحيج: صوت البغل.

(٢) أشعار النساء / ٢٧ وما بعدها.

(٣) انظر ديوانها / ١٠٣ / وأشعار النساء. ٣٠-٣٤. وانظر كذلك الشعر والشعراء / ج ١ / ٤٤٨-٤٤٩.

الصدان: جانباً سفح الجبل. الصني: الثريد يبيض شيئاً يسيراً يشرب به الطير ولا يشرب به الإنسان لقلته

وصني تصغير، الصنو: الشعب الصغير.

الفصل الخامس

المرأة في الإطار السياسي

الفصل الخامس

المرأة في الإطار السياسي

لم تغفل المرأة الأموية عما كان يدور حولها من أحداث سياسية بل شكلت بعض النساء لأنفسهن موقفاً خاصاً بهن مما كان في هذا العصر من أحداث. كما أن الشاعر لم يعزل المرأة عن فكره السياسي، وأحداث زمانه. بل أشركها في ذلك إيجاباً وسلباً كما سنرى فيما يلي:

الغزل السياسي:

هو الغزل الذي يقصد به هجاء الخصوم السياسيين وإغاثتهم وذلك بالتشبيب بنسائهم. وقد عرف هذا النوع من الغزل منذ أواخر العصر الجاهلي. فقد تغزل قيس بن الخطيم في يوم بعثت بعمره بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة، ثم افتخر بانتصار الأوس على الخزرج أعدائهم التقليديين في ذلك الوقت.^(١) ومع أن غزله كان عفيفاً لا إفحاش فيه إلا أن عبد الله بن رواحة لم يطق صبراً فرد عليه بقصيدة بالوزن والقافية نفسيهما متغزلاً بأخته لبلى.

وفي يوم الربيع اقتتل الأوس والخزرج اقتتالا شديداً وانهزمت الأوس. وفيه قال حسان بن ثابت يتغزل لبلى بنت الخطيم أيضاً:

لقد هاجَ نفسك أشجاناً	وعاودها اليوم أدياناً
تذكرت لبلى وأنى لها	إذا قطعت منك أقرانها
وحجّل في الدار غربانها	وخفّ من الدار سكّانها
وغبّرها معصّرات الرياح	وسحّ الجنوب وتهانها
مهاةً من العين تمشي بها	وتتبعها ثم غزلانها ^(٢)

فرد عليه قيس بن الخطيم بقصيدة بالوزن والقافية نفسيهما أيضاً، وتغزل بعمره زوجة حسان.^(٣)

(١) انظر طبقات فحول الشعراء / ج ١ / ٨٩.

(٢) حسان بن ثابت ديوانه / شرح وتقديم الأستاذ عبد أمهنا / ط ١ / دار الكتب العلمية / بيروت / ١٩٨٦ / ٢٥١.

(٣) قيس بن الخطيم / ديوانه / تحقيق د. ناصر الدين الأسد / ط ٢ / دار صادر - بيروت / ٦٦. وقيل أيضاً

أن قصيدة قيس هذه إنما قالها في عمرة بنت رواحة أم النعمان بن بشير وأخت عبد الله بن رواحة.

واستمر هذا النوع من الغزل في العصر الإسلامي حيث شبيب كعب الأشراف بنساء المسلمين في قصيدته التي رثى بها قتلى بدر وقد أدى هذا به إلى القتل إذ أمر الرسول عليه السلام أصحابه بقتله.

وفي العصر الأموي أخذ هذا النوع من الغزل يكثر ويشيع فقد شبيب عبد الرحمن ابن حسان برملة بنت معاوية فقال:

رَمَلْ هَلْ تَذْكِرِينَ يَوْمَ غَزَالٍ	إِذْ قَطَعْنَا مَسِيرَنَا بِالْتَمَنِّي
إِذْ تَقُولِينَ عَمَرَكَ اللَّهُ هَلْ شَيْ	ءٌ وَإِنْ جَلَّ سَوْفَ يَسْلِيكَ عَنِّي
أَمْ هَلْ أَطْمَعْتَ مِنْكُمْ يَا بَنَ حَسَا	نَ كَمَا قَدْ أَرَاكَ أَطْمَعْتَ مِنِّي (١)

كما شبيب بأخت معاوية بقول:

طَالَ لَيْلِي وَبِتَّ كَالْمَحْزُونِ	وَمَلَلْتُ الثَّوَاءَ فِيَّ كَجِيرُونِ
فَلَذَاكَ اغْتَرِبْتُ بِالشَّامِ حَتَّى	ظَنَّ أَهْلِي مَرَجَمَاتِ الظَّنُونِ
هِيَ زَهْرَاءُ مِثْلَ لَوْلُؤَةِ الْغَوِ	وَاصٍ مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ

إلى آخر القصيدة التي بناها بحب نوحى أبياتها بوجود علاقة غرامية بينه وبينها. (٢)

فالعداء الذي كان بين الأنصار والأمويين يخرج تشبيب عبد الرحمن بن حسان عن أن يكون فناً خالصاً، ويجعل من شعره هذا ما يخرج عن دائرة الغزل المعروف إلى هجاء ساخر بقصد به الحط من شأن الأمويين وإغاضتهم. فأسخط هذا يزيد وثار على كل من يشبيب بنساء البلاط الأموي وعلى رأسهم عبد الرحمن بن حسان.

ومن الذين اشتهروا بمثل هذا النوع من الغزل في هذا العصر حتى عدّ مبتدعه. (٣) ابن قيس الرقيات، إذ أبدع فيه وأكثر ووسع من صورته وطورها، فبعد أن كان هذا الغزل ينحو إلى هجاء الخصوم وإغاضتهم أصبح عند ابن قيس الرقيات تعبيراً عن الفكر السياسي إلى جانب إغاضة الخصوم. وكذلك لمدح ممدوحه ممن يؤمن بمذهبهم السياسي.

ومن قصائده التي أعدها لتكون هجاء مراً للأمويين وإغاضة لهم وإحراجاً. تلك القصيدة التي بدأها بالحديث عن المرأة القرشبة التي هزئت من شبيهه في حين كانت

(١) الأغاني / ج ١٥ / ١٠٦.

(٢) المصدر السابق / ج ١٥ / ١٠٩.

(٣) طه حسين / حديث الأربعاء / ط ١٢ / دار المعارف - مصر / ١٩٧٦ / ج ١ / ٢٥٢.

معجبة به. فتحدث لها عن مغامرتين له. الأولى: كانت مع ذات بعل غيور قاعد لها بالباب بحجبها كما يقول. وحينما يراه يمشي حول البيت يتوعدها ويضربها، وقد كانت له معها مغامرة عاطفية. وقد يكون أشار هنا إلى زوجة الخليفة حيث أراد من ذلك التهكم به وتصويره بصورة مبتذلة وساخرة في آن واحد. (١) قال:

ألا هزئت بنا فرشيبةً بهتزر موكبها	رأت بي شيبه في الرأ
س منى ما أغيبها	فقلت: ابن فيس ذا؟
وغبر الشيب بعجبها	رأيتني قد مضى مني
وغصسات صواحبها	ومثلك قد لهوت بها
نسام الحسن أعيبها	لها بعقل غيور فسا
عبد الباب يحجبها	يرانني هكذا أمشي
فيوعدها ويضربها	ظالمت على نمارقها
أفدبها وأخلبها	أحدثها فتو من لي
فأصدفها وأكذبها	فدع هذا ولكن حا
جّة قد كنت أطلبها (٢)	

يمكن أن يكون الشاعر قد رمز بالمرأة وزوجها الغيور في الأبيات السابقة التي تشكل القسم الأول من القصيدة إلى الخليفة وزوجته. لكن هذا بطل من باب الاحتمال القابل للشك كما تعلم. وأمّا القسم الثاني من القصيدة، فهو من الباب الواضح الجلي الذي لا يدخله شك أو احتمال آخر. فقد تحدث فيه عن مغامرة عاطفية أخرى له مع أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك، وابنة عبد العزيز بن مروان. مفصلاً في أحداث هذه المغامرة، ولكن دون أن يجرح الفتاة، أو يغضبها أو يعرضها للشبهة. فقد احتاط لذلك كله فذكر أن قصته معها كانت من قبيل الرؤيا. قال:

إلى أم البنين منى	يقربها مقربها
أتنتني في المنام فقل	ت هذا حين أعقبها
فلما أن فرحت بها	ومال علي أعذبها
شربت بريقسها حتى	نهلت وبنت أشربها

(١) انظر د. إبراهيم عبد الرحمن/ عبید الله بن فیس الرقیات/ حیاتہ وشمرة/ د.م/ ١٩٧٠ / ١٧٢.

(٢) ديوانه / ١٢١-١٢٢.

وَبِتَّ ضَجِيعَهَا جَذَلًا نَ تَعَجِبِي وَأَعْجِبُهَا
وَأَضْحَكُهَا وَأَبْكِيهَا وَالْبِسُّهَا وَأَسْلُبُهَا
أَعَالَجَهَا فَتَصْرَعُنِي فَأَرْضِيهَا وَأَغْضِبُهَا
فَكَانَتْ لَيْلَسَةً فَنَسِيَ النِّسْو م نَسَمَرَهَا وَلَعَبَهَا (١)

ولا شك أن الهدف من مثل هذا الغزل هو تجريح الخليفة والنبل منه، وقد حقق ابن قيس الرقيات مراده من ذلك، فأغاظ عبد الملك، وأغضبه غضباً شديداً دفعه إلى هدر دمه، وهو وإن فعل ذلك بالخليفة فقد كان حريصاً على ألا يغضب أم البنين التي تنزل فيها، بل على العكس من ذلك ربما نال إعجابها، خاصة أننا في عصر رغبت المرأة فيه أن تظهر في شعر الشعراء، وكانت تتحرش بهم ليقولوا فيها الشعر، بل تغضب إن لم يفعلوا ذلك، زد على ذلك أننا نرى مثل هذا الغزل في أغراض المديح أيضاً، صحيح أنه هناك نزل، محتشم، عفيف، لكن فيه إغزازاً للمرأة، وشعوراً بحضورها وأهميتها في حياة الرجل، ولعل الذي يؤكد ما ذهبت إليه من عدم غضب أم البنين أنها هي التي شغفت فيها بعد عند الخليفة ليعفو عنه كيف لا وقد خصها هي من دون نساء بني أمية فذكرها في قصيدته هذه.

وقد تنزل بأم البنين هذه في قصيدة أخرى له مطلعها:

فَد تَوَلَّى الْحَيَّ فَاَنْطَلَقَا وَاسْتَطَارَتْ نَفْسُهُ شَقَقَا (٢)

وهو فيها يتحدث عن حبه لها الذي ورثه الأرق والهم، وذكر صفاتها المادية، وتمنى زيارتها، وتحدث عن شوقه إليها، واختتمها بقوله:

لَمْ تَدْعُ أُمَ الْبَنِينَ لَهُ مَعَهُ مِنْ عَقْلِهِ رَمَقَا

كما نزل بها وبأختها أم الحكم في قصيدة ثالثة له بقوله في مطلعها:

حَيَّ الْأَخْتَيْنِ قَدْ أَجَمَّ الضَّرَاقُ وَدَنَتْ رِحْلَةُ لَنَا وَانْطَلَقَ (٣)

(١) ديوانه / ١٢٢-١٢٣، أعنيها: من العقبي، أي حين صارت إلي، أعذبتها: فيها، أشربها أسقيها.

(٢) ديوانه / ٥٢، شققا: فرقاً.

(٣) ديوانه / ٤١، ذكر محقق الديوان أن المقصود بالأختين أم الحكم وأم البنين، ابنتي عبد العزيز بن مروان أو عائشة وفاطمة ابنتي عبد الملك، والذي دعاه إلى هذا الظن قول الشاعر في البيت السادس من هذه القصيدة:

دَرَسَا غَائِصَ مِنَ الْهِنْدِ مَالِ الشَّامِ يَجِبُ السَّيَّ إِلَيْهِمَا وَالْعِرَاقِ

وجميع ذلك غزل قصد به إثارة خصومه الأمويين والانتقام منهم. والهدف الثاني من وراء مثل هذا الغزل التعبير عن فكره السياسي، ورأيه في الأحداث السياسية التي حدثت في ذلك العصر. من ذلك قوله في قصيدة ابتدأها بتغزل بعاتكة بنت يزيد. زوجة الخليفة عبد الملك بن مروان وهي، في مديح مصعب بن الزبير.

أعانتكِ بنت العيشمة عاتكا	أذيني امرأ أمسى بحبك هالكاً
بدت لي في أنرابها فقتلنني	كذلك بقتلن السرجال كذاكاً
نظرن إلينا بالوجوم كأنما	جلون لنا فوق البغال السباكاً
إذا غفلت عنا العيون التي ترى	سلكن بنا حيث اشتهين المسالكاً
وقالت لو أنا نستطيع لزاركم	طبيبان منا عالمان بدائكاً
ولكن قومي أحدثوا بعد عهدنا	وعهدك أضغاناً كلفن بشانكاً
نذكرني قتل بحرم واقم	أصيب وأرحاماً قطعن شوابكاً (١)

فهو يتحدث في مطلع القصيدة عن جمال عاتكة البالغ الذي أثر في الشاعر ففتنه، وعن رغبتها هي في التواصل مع الشاعر. ولكن هناك ما منع من ذلك، وهو ما كان بين قوم الشاعر وقومها من خلاف ونزاع وفرقة. ويتابع الشاعر قصيدته، فيذكر كيف كانت فريش مجتمعة الكلمة لا خلاف بينها. وكيف أمست منفردة بعد موقعة الحرة. تلك الواقعة التي قتل فيها الأمويون عدداً من آل بيت الشاعر، مما جعله حاقداً عليهم، كارهاً لهم، وبما أن الخليفة يزيد والد عاتكة هو الذي أحدث هذه الواقعة، فقد يكون هذا هو السبب وراء تغزله بعاتكة بشكل خاص دون غيرها من نساء الأمويين مذكراً بما كان من والدها، فقد أدى عمله وعمل غيره من الأمويين إلى قطع الأرحام، ونزيق الصلات. قال:

وقد كان قومي قبل ذاك وقومها	قد أوزوا بها عوداً من المجد نامكا
هم يرتفون الفتق بعد انخرافيه	بحلم ويهدون الحجيسج المناسكا
فقطع أرحام وقضت جماعة	وعادت روايا الحلم بعد ركانكا
فمن مبلغ عنّي خليلي آية	عبيته أعني بالعراق ومالكا
فهل من طبيب بالعراق لعله	بداوي كريم هالكاً منتهالكا (٢)

(١) ديوانه / ١٢٨-١٢٩، السباك: قطع الذهب والفضة واحدها سبيكة، طبيبان: رسولان عالمان بما تريد.

عوداً من المجد: مجد عتيق، تاملت: مرتفع، مشرف، روت: جمعت، ركانكا: ضاعفا.

(٢) ديوانه / ١٢٩-١٣٠.

والحقيقة أن عبید الله بن قیس الرقیبات قد تغیر حاله كثيراً بعد وقعة الحرّة، فبدأ مهتماً بالسياسة متصلاً بزعمائها. وبدأ يوظف غزله لأجل ذلك.

ومن المعلوم أيضاً أن الشاعر كان مناصراً لمصعب بن الزبير، يرى موقفه وقد مدحه بقصائد كثيرة، مهّد لبعض هذه المدائح أيضاً بغزل هو نوع من هذا الغزل السياسي إلا أنه نوع جديد على الأدب العربي يقصد به المديح لا الهجاء الذي رأيناه من قبل، فقد تغزل بزوجتي مصعب، عائشة بنت طلحة. وسكينة بنت الحسين. فكأنما أراد من ذلك مدح مصعب من خلال مدح آل بيته، وبيان حقهم في الخلافة فقد قال في سكينة حينما تزوجها مصعب وخرج بها إلى العراق:

ظَعَنَ الأَمِيرَ بِأَحْسَنِ الخَلْفِ	وَعَسَدًا بِلَبِّكَ مَطْلَعِ الشَّرَفِ
مَرَّتْ عَلَى قَرْنٍ يُقَادُّ بِهَا	جَمَلٌ أَمَامَ بَرَاذِقِ زُرْفِ
وَبَدَتْ لَنَا مِنْ تَحْتِ كَلْنِهَا	كَالشَّمْسِ أَوْ كَغَمَامَةِ البَرَقِ
مَا صَبَّحَتْ بَعْلًا بِرُؤْيَيْهَا	أَلَا غَدًا بِكَوَاكِبِ الطَّلَقِ
فِي الْبَيْتِ ذِي الْحَسَبِ الرَّفِيعِ وَمِنْ	أَهْلِ التَّقَى وَالْبِرِّ وَالصَّدَقِ
فَرَشِيَّةٌ عَبِيقَ الْعَبِيرِ بِهَا	عَبِقَ الْعَبِيرِ بِعَاجَةِ الْحُقِّ
شَبَّ الْبَيْضَاضُ أَمَامَ صُفْرِتِهَا	فِي رِقَّةِ الدِّيْبَاجِ وَالْعَنْشِقِ
فَظَلَلْتُ كَالْمَقْمُورِ خَلْعَتَهُ	هَذَا الْجَنُونُ وَلَيْسَ بِالْعَشِقِ
وَتَنَوَّءُ ثَنَقْلُهَا عَجِيزَتُهَا	نَهَضَ الضَّعِيفُ بِنَوءٍ بِالْوَسْقِ ^(١)

وقال في زوجته الثانية عائشة بنت طلحة:

إِنَّ الْخَلِيطَ قَدْ أَزْمَعُوا تَرْكِي	فَوَقَفْتُ فِي عَرَصَاتِهِمْ أَبْكِي
جَنَبَةً خَرَجْتُ لِنَفْتَلَانَا	مَطْلِبَةً الْأَفْسَارِ بِالْمِسْكِ
قَامَتُ تَحْيِينِي فَقُلْتُ لَهَا	وَبَلِي عَلَيْكِ وَوَيْلَتْسِي مِنْكِ
لَمْ أَرْ مِثْلَكَ لَا يَكُونُ لَهُ	خَرَجَ الْعِرَاقِ وَمَنْبَرُ الْمَلِكِ ^(٢)

(١) ديوانه / ٣١-٣٢. نسبت هذه الأبيات لغير شاعر منهم الخالد بن حازم المخزومي انظر ديوانه /

٧٧-٧٨. البرازق: الجماعة من الناس. قرن: اسم موضع. عاجة الحق: أراد حق العاج. الخلعة: خيار المال.

المقمور: الذي خسرفي القمار. الوسق: ستون صاعاً أو حمل بعير.

(٢) ديوانه / ١٤١.

ولعل البيت الرابع في هذه المقطوعة شاهد أكيد، ودليل واضح على رؤية ابن فيس الرقيات السياسية، كما أنه يوضح الغرض من وراء هذا النوع من الغزل ألا وهو الدفاع عن حق مصعب في الحكم.

وقد فتح ابن فيس الرقيات لمن جاء بعده هذا الباب على مصراعيه فقد شبب العرجي بأم محمد بن هشام جيداء، وبزوجه جبرة ليفضحه بها لا لمحبة كانت بينهما. وقد غني بهذا الشعر في الأوساط الحجازية. ومن قوله في جيداء:

عُوجِي عَلَيْنَا رَبَّةَ الْهُودَجِ	إِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلِي تَخْرُجِي
أَيْسَرَ مَا نَالَ مُحِبًّا لَدِي	بَيْنَ حَبِيبٍ قَوْلَهُ: عَرَّجْ
تَقْضَ إِلَيْهِ حَاجَةً أَوْ يَقْلُ:	هَلْ لِي مِمَّا بِي مِنْ مَخْرَجٍ؟
مَنْ حَبَّكَم يَنْتَمُ وَلَمْ يَنْصَرِمُ	وَجَدْتُ فُسُودَ الْهَائِمِ الْمُنْصَحِ (١)

إلى آخر القصيدة التي يشير فيها إلى اهتمام جيداء به، ثم يعرج على ذكر صفاتها المادية وزينتها. وقال في جبرة زوجة محمد بن هشام:

عُوجِي عَلَيَّ وَسَلَّمِي جَبْرُ	فِيمَ الصَّدُودُ؟ وَأَنْتُمْ سَفَرُ
فَكَفَى بِهِ هَجْرًا لَنَا وَلَكُمْ	أَنْتَى، وَذَلِكَ فَاعَلَمِي الْهَجْرُ؟
لَا نَلْتَقِي إِلَّا ثَلَاثَ مَنَى	حَتَّى يَشَسَّتْ بَيْنَنَا النَّفَرُ
بِالشَّهْرِ بَعْدَ الْحَوْلِ نَتَّبِعُهُ	مَا الدَّهْرُ إِلَّا الْحَوْلُ وَالشَّهْرُ (٢)

ويتابع ذكر مشاعره نحوها، وبذكر صفاتها المادية، والمعنوية، كما تغزل بوجناء ودعجاء اللذين يعتقد بأنهما من قريبات محمد بن هشام على اعتبار أن هذا الوزن من الأسماء شائع في أسرته. وقد تحرّى الشاعر في فصائده هذه أن يصور المرأة المتغزل بها ذات موقف سلبي منه، متمنعة إذ لا يوجد في شعره إساءة أو تشهير أو إحراج ولا تصريح بالوصال، ولا تلميح بالإثم، أو الفسوق. وقد يكون السبب وراء هذا الغزل هو المنافسة السياسية بين بني مخزوم وآل عثمان على الحكم في الحجاز. وقد كان هذا الغزل أحد الأسباب التي أدت بمحمد بن هشام إلى الإبقاء بالعرجي وسجنه مدة طويلة حتى مات في السجن.

(١) ديوانه / ١٧.

(٢) ديوانه / ٤٣-٤٤، ثلاث منى: اليوم الثالث حين ينفر الحجيج.

- ٢٩٤ -

والفطامي من الشعراء الأمويين الآخرين الذين يمكن عدّهم من هؤلاء الذين طرّفوا هذا النوع من الغزل، ولكن بصورة غير مباشرة وعلى نطاق أقل من سابقه الذين تحدث عنهم فقد قال في إحدى قصائده التي تناول فيها موضوع وقف القتال بين ابني نزار قيس وتغلب فاستغل ذكر ضباعة أخت زفر في وصوله إلى هدفه:

فَفَنِي قَبْلَ التَّفَرُّقِ بِأَضْبَاعَا	وَلَا يَكُ مَوْقِفٌ مِنْكَ الْوَدَاعَا
فَفَنِي فَادِي أَسِيرُكَ إِنْ قَوْمِي	وَقَوْمُكَ لَا أَرَى لَهُمُ اجْتِمَاعَا
وَكَيْفَ تَجَامَعُ مَعَ مَا اسْتَحْلَا	مِنَ الْحُرْمِ الْعِظَامِ وَمَا أَضَاعَا
أَلَمْ يَحْزَنْكَ أَنْ حَبَالَ قَيْسٍ	وَتَغْلِبَ قَدْ تَبَايَنْتِ انْقِطَاعَا
بَطْبَعُونَ الْفُؤَادَ وَكَانَ سَرًّا	لِمُؤْتَمِرِ الْغِيَاوَةِ أَنْ بَطَّاعَا (١)

والقصيدة طويلة يتابع الشاعر فيها حديثه عن قومه كيف كانوا وكيف أصبحوا، ولعله في ذكره لابنة زفر هذه أراد القول له: بحق إعزازك لأختك هذه أن تعمل على وقف القتال بين هؤلاء الإخوة من قيس وتغلب.

إن كثيراً من شعر ابن قيس الرقيات وبعض شعر العرجي يندرج تحت الغزل السياسي الذي يقصد به إغاضة الخصوم السياسيين والنبل منهم وذلك بالتشبيب بنسائهم وقهرهم، فالمرأة في هذا الشعر ما تزال تمثل سبه بالنسبة لمجتمعها، فهي ليست بذات إرادة ولا ذات شخصية، وإنما هي واجهة يحاول الشاعر أن يتخذ منها وسيلة لإثارة خصومة فهي ليست المحبوبة، وليست المرأة التي تبادر إليه، ولكنها مادة أو وسيلة يتخذها الشاعر للوصول إلى مآربه، للسباب أو الهجاء، أو الشتم أو الإغاضة فحضورها هنا حضور شاحب.

والنوع الثاني من هذا الغزل وهو المديح السياسي، فالشاعر فيه -وهو ابن قيس الرقيات- يبرز محاسن عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين زوجتي مصعب بن الزبير الذي يسانده ويرى رأيه ويمدحه، ولكنه كأنما هو يقوم بدور صحفي لا بدور المحب، فهو يحاول أن يشير إلى صاحبة مصعب ويرى أن زوجها يقدر جمالها لذلك يرسم لها صورة جميلة، فهي وسيلة لإرضاء ممدوحه مصعب، وليست هي المرأة ذاتها بدمها ولحمها التي يحبها ولكن هذا الأمر لا يخلو من إطراء، فهي ذات حضور اجتماعي متميز فيه شيء من الجرأة، وشيء من الإرادة، تفرض نفسها في حدود ممدودة ما دامت

- ٢٩٥ -

هي من الوسط الاجتماعي العالي، ولكن تبقى إرادتها محدودة، ذات توجه بسيط، وما جمع مصعب بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين في آن واحد إلا دليل أكيد على ذلك.

نلاحظ في هذا الجانب من الغزل السياسي أن المرأة كانت وسيلة لتحقيق أهداف بعيدة عن العلاقة الطبيعية التي تشكل هي محورها الأساسي. لقد اعتمد الشعراء هنا على العادات والقيم التي جعلت المرأة مجرد مستقبلية لأخطاء الآخرين تكال لها النهم، وتصبح معرضاً للقول الآبق دون أن يكون لها بد في ذلك كله. بل دون أن يكون لها علم بما يقال عنها سواء أكان القول لصالحها أم لظالمها. نستثني من ذلك ما قبل في موضوع المدح السياسي الذي أعطى المرأة شيئاً من الحضور والشخصية.

المرأة ذات الموقف السياسي

كثرت في العصر الأموي الخلافات السياسية، وكانت تدور في معظمها حول من الأحق بالخلافة؟ ونشبت الحروب الكثيرة في سبيل ذلك، وتوزع الناس طوائف وفرقاً، ثم ما لبثوا أن شكلوا مذاهب سياسية، هي السنة والشيعة والخوارج والزبيرية، وما لبث كثير من الناس أن انضموا تحت مذهب من هذه المذاهب؛ إما لأنهم رأوها تمثل وجهة نظرهم السياسية، وإما لأن ظروفهم المعينة ألزمتهم بذلك، ولم تكن المرأة بمعزل عن ذلك كله؛ فقد كانت بعض النساء مهتمات بما يجري حولهن، واستطعن أن يشكلن لأنفسهن فكراً خاصاً بهن، فانضوين تحت مذهب من هذه المذاهب، ولكنهن اختلفن في درجة مشاركتهن الفعلية في ذلك، ففي حين نجد المرأة الخارجية فعالة في كثير من نشاطات حزبها بدءاً من اعتناقها له وانتهاء بالمقاتلة دونه، وتقديم الروح رخيصة في سبيله - نجد دوراً يكاد يكون مشابهاً عند بعض النسوة الشيعيات اللواتي وقفن إلى جانب علي بن أبي طالب وحاربن معه منذ وقعة صفين وبقين على موقفهن هذا بعد وفاته بوقت طويل، فكان مؤمنات بما يفعلن، حازمات في موقفهن، لا يصانعن في ذلك ولا يخفن سطوة السلطان، رغم قوته وجبروته، أما المذاهب السياسية الأخرى فقلما نجد ذكراً للمرأة في غمار أحداثها إلا ما ندر، وسأعرض فيما يلي لمواقف سياسية مختلفة كانت للمرأة الشيعية ولغيرها من النساء.

برزت ليلي الأخيلية علماً بارزاً في مجال المشاركة في الحياة السياسية وقد عرضت لمظاهر هذه المشاركة في الفصل السابق بما يغني عن إعادته هنا.

تناقلت كتب الأخبار أخبار عدد من النساء اللواتي حاربن إلى جانب علي بن أبي طالب جنباً إلى جنب مع الرجال، وكن يقمن بإثارة حماس الجيش، وحثه على القتال، بالخطب والأشعار. وكان لهن فيما بعد لقاءات مع معاوية بن أبي سفيان، سألن فيها عن تلك المواقف. فكانت الواحدة منهن ترد عليه بشجاعة وثقة، فلما توجد، غير آبهة بسلطان ولا بعقاب، وقد أوردت الكذب تلك الردود المنطقية والشجاعة. ومنهن بكارة الهلالية وأم سنان المذحجية وأم الخير بنت الحريش البارقية وغيرهن^(١). وحسبي موقف واحدة منهن ليكون شاهداً على مواقف الأخريات. فقد أرسل معاوية في طلب الزرقاء بنت عدي وعندما وصلت سألها هل تعلمين لم بعثت إليك؟ قالت: سبحان الله، وأنى لي بعلم ما لم أعلم. وهل يعلم ما في القلوب إلا الذي خلقها؟ قال: بعثت إليك لأسألك هل أنت الراكبة الجمل الأحمر يوم صفين وأنت بين الصفيين توفدين الحرب. وتحضين على القتال؟ فما حملك على ذلك؟! قالت: يا أمير المؤمنين؛ إنه قد مات الرأس، وبثر الذنب والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر. فقال لها: صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين؟ قالت والله ما أحفظه. قال: لكني أحفظه، لله أبوك لقد سمعتك تقولين: أيها الناس؛ قد أصبحتم في فتنة. غشتكم جلابيب الظلم. وجادت بكم عن قصد المحجة، فبا لها من فتنة عمياء صماء لا يسمع لقائلها، ولا ينقاد لسائقها. أيها الناس إن المصباح لا بضئ في الشمس، ولا الكوكب يبصر في القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس...

ثم قال معاوية: يا زرقاء لقد شركت علياً في كل ما فعل! قالت له الزرقاء: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامتك، فمثلك بشر بخير وسر جليسه. فقال لها: وقد شرك ذلك؟ قالت: نعم، والله لقد سرنى قولك، فأنى لي بتصديق الفعل؟ فقال لها معاوية: لوفواكم له بعد موته أعجب إلي من حبكم له في حياته^(٢). أنى لنا نساء مثل الزرقاء يقفن هذا الموقف الشجاع الحازم أمام السلطان بعد تغير الأحوال، وتقلب الدول، ثابتة على مذهبيها، لا تراهن، ولا تصانع ولا تخشى، على نفسها قتلاً ولا تعذيباً.

وكانت المرأة تشايح وتناصر من الرجال من له موقف سياسي متميز كحجر بن عدي، فحينما قتل حجر قامت هند بنت يزيد الأنصارية وكانت ممن بشابعه وبناصره ويعينه، وهي امرأة قلما تدانيها امرأة في بعد الرأي وقوة البيان - وقالت فيه:

(١) أنظر أخبارهن في كتاب أعلام النساء / ج ٢ / ٢٣٢، ٢٦٣، ٢١٦. وكذلك في بلاغات النساء / ٢٣٩ وما بعدها.

(٢) تاريخ مدينة دمشق / تراجم النساء / ١١٠ / وكذلك بلاغات النساء ٣٧-٣٩.

لعلَّكَ أن تَرى حَجْرًا بِسِيرٍ
 لِبَقْلَسَكَةٍ كَمَا زَعَمَ الْأَمِيرُ
 وَلَمْ يَنْحَرْ كَمَا نُحِرَ الْبَعِيرُ
 وَطَابَ لَهَا الْخَوَزْنَقُ وَالسَّدِيرُ
 كَأَن لَّمْ يَحْبِهَا مَزَنٌ مُطِيرُ
 تَلَقَّنَكَ السَّلَامَةَ وَالسَّرُورُ
 وَشِخَا فِي دِمَشْقَ لَهُ زَنْبِيرُ
 لَهُ مِنْ شَرِّ أُمَّتِهِ وَزِبْسَرُ
 إِلَى هَلْكَ مِنْ الدُّنْيَا بَصِيرُ (١)

نَرْفَعُ أَبْسَهَا الْفَمَّرَ الْمَنْبِرُ
 بِسِيرٍ إِلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ
 أَلَا يَا لَيْتَ حَجْرًا مَاتَ مَوْنَا
 نَرْفَعْتَ الْجَبَابِرَ بَعْدَ حُجْرٍ
 وَأَصْبَحْتَ الْبِلَادَ لَهُ مَحْوَلًا
 أَلَا يَا حَجْرَ حَجْرَ بَنِي عَدِيٍّ
 أَخَافُ عَلَيْكَ سَطْوَةَ آلِ حَرْبٍ
 يَرَى قَتْلَ الْخَبَارِ عَلَيْهِ حَقًّا
 فَإِنْ تَهَلَّكَ فَكُلَّ زَعِيمٍ قَوْمٍ

وذكر الطبري أن هنداً كانت تشيع. وما كان لها أن ترثي حجراً بهذا الشعر وغيره لو لم يكن لها موقف سياسي خاص بها تنافح عنه وعن أصحابه. (٢)

ومن اللواتي رثين بعض الزعماء السياسيين لهذا العصر ملكة الشيبانية ويبدو أنها كانت من عائلة خارجية حيث مات عدد من أفراد عائلتها في حروب الخوارج. فقالت ترثي الضحاك بن فيس الخارجي وأصحابه: (٣)

فَوَلِي مَلِكٍ: عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ
 قَوْلِي - فَإِنَّكَ غَيْرَ كَاذِبَةٍ
 أَوْرَثْتَنِي كَمَدًا يَوْرِقُنِي
 وَمَرَارَةً فِي الْعَيْشِ دَائِمَةً
 ذَهَبَ الَّذِي كَانَ بِأَمْرِنَا
 تَسْتَوِجِبِينَ فُضَائِلَ الْأَجْرِ
 يَا عَدْنِي لِنَوَائِبِ الدَّهْرِ
 وَتَلَهَّيَا وَحَرَارَةَ الصَّبْرِ
 وَحَرَارَةً كَحَرَارَةِ الْجَمْرِ
 بِالْخَبْرِ وَالْمَعْرُوفِ وَالذِّكْرِ (٤)

ومما قالته في رثائه أيضاً:

مَا بَالُ دَمْعِكَ دَائِمَ السَّجْمِ
 جَلَّتْ مُصِيبَتُنَا وَقَدْ عَظُمَتْ
 مِثْلُ الْجَمَانِ وَهِيَ مِنَ النَّظْمِ
 لَمَّا قُجِعَتْ بِسَيِّدٍ ضَخْمِ

(١) الأغاني / ج ١٧ / ١٥٤-١٥٥ / انظر كذلك الطبري ج ٣ / ٢٣٢ / أحداث سنة "٥١". وحجر بن عدي: صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. الخوزنق: قصر كان بظهر الحيرة والسدير: قصر كان قريباً منه.

(٢) انظر تاريخ الطبري / أحداث سنة "٥١" / ج ٣ / ٢٣٢.

(٣) انظر أخبارها في أشعار النساء / ١٦٤.

(٤) المصدر السابق / ١٩٦.

حلّو الشمائل حين تخبره حسن السريسة ماجد شهيم
بصل القراصة والجوار إذا قطع القراصة صاحب الظلم
فلا بكينك كلما وخرت عيس بأرجلها على رسم
ولا بكينك عند مجتمع الأملاء عند تناول الخصم (١)

فما كان لهذه المرأة أيضاً أن ترثي زعيماً من زعماء الخوارج كالضحاك، لو لم تكن مؤمنة بمذهبه السياسي، ولولا أنها معتقة لهذا المذهب ومما يزيد من هذا الاحتمال أن جل أفراد أسرتها كانوا من الخوارج.

وكانت المرأة تفتح بيتها ليجتمع عندها رجال مذهبها، فيتحدثون غير آبهة بما تجلبه لنفسها من حقد السلطان وظلمه؛ فقد ذكر الطبري أن هنداً بنت المتكلمة الناعطية كان يجتمع إليها كل غال من الشيعة فيتحدث في بيتها، وفي بيت ليلى بنت فمامة المزنية. وكانت المرأة تنفق مالها في سبيل ذلك، فقد ذكر الطبري أن ليلى هذه كانت أيضاً تنفق مالها في سبيل مذهبها، وكان أخوها رفاعه بن فمامة من شيعة علي، وكان مقتصداً فكانت لا تحبه. (٢)

ولا ننسى هنا كثيرة صاحبة ابن قيس الرقيات التي أقام في بيتها أكثر من حول تقدم له كل ما يحتاج إليه حين جد السلطان في طلبه بعد مقتل مصعب بن الزبير. ثم مساعدتها له بعد ذلك في الشخوص إلى الحجاز، فما كانت هذه المرأة أن تعرض نفسها وأسررتها للخطر لو لم يكن لها موقف سياسي من الشاعر والسلطان في آن واحد فقد كان السلطان جاداً في طلبه مدة مكوته عندها، وتسمع مناديه بنادي عليه ويهدد من يخبئه عنده. وقد قال فيها شعراً كثيراً بعضه كان مقدمة لقصائده يوضح فيه عظم مشاعره لها، ويبرئها من كل ما يمكن أن يوحى بصيوتها إليه. وكأنه في هذا الشعر أراد شكرها على ما قدمت له. ومنه قوله:

عاد له من كثيرة الطرب فعينه بالدموع تنسكب
كوفية نازح محلنها لا أمم دارها ولا سق
والله ما إن صبت إلي ولا يعلم بيني وبينها سبب
إلا الذي أورثت كثيرة في الد قلب وللحب سورة عجب (٣)

(١) أشعار النساء / ٢٠٠

(٢) الطبري / أحداث سنة "٦٧" / ج ٣ / ٤٨٦.

(٣) ديوانه / ١-٢. سورة: حدة وسطوة.

- ٢٩٩ -

وقد تبلغ بها شجاعته وإيمانها بمذهبها أن تخرج بنفسها إلى زعماء مذهبها السياسي، لتسلم عليهم وتحدث إليهم، فقد ذكر أن زيد بن علي قد تزوج ابنة عبد الله ابن أبي العنيس الأزدي؛ وكان سبب تزوجه إياها أن أمها أم عمرو بنت الصلت كانت ترى رأي الشيعة، فبلغها مكان زيد فأنته لتسلم عليه، وبعدها تزوج ابنتها^(١).

ومن اللواتي كن ينشيعن حبي زوجة الكميت، وقد ساعدته في الهرب من السجن إذ ألبسته ثيابها وخمرته وأخرجت معه جارية لها^(٢).

ومما يؤكد اشتراك المرأة في السياسة، واعتناقها لمذهب خاص بها بل حتى لبعض الفرق المتطرفة، أن السيد الحميري تزوج من امرأة تميمية، إباضية، وقد نوعها أهلها بالقتل لأنها تزوجت بكافر كونه رافضياً^(٣).

ولم تكن المرأة الحجازية التي غرفت في الترف واللهو والزينة مكتوفة الأيدي إزاء بعض الأحداث السياسية التي كانت في عصرها، فقد ذكر أن سكبنة بنت الحسين كانت تجيء في ستارة يوم الجمعة، فتقوم بإزاء ابن مطيرة، وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، إذا صعد المنبر، فإذا شتم عليها، شتمته هي وجواربها، فكان يأمر الحرس فيضربون جواربها^(٤).

أما أم السيد الحميري فقد كانت معارضة لعلي بن أبي طالب هي وزوجها وكانت تضايق ابنها المعروف بنشيعه لعلي كثيراً، وتلج عليه بترك ما هو عليه من موالة علي، فقال في ذلك متهما والده بالتأثير عليها:

أغويت أمي وهي جد ضعيفة	فجرت بقاع البغي جري جماح
بالشتم للعلم الإمام ومن له	إرث النبي بأوكد الإيضاح
إني أخاف عليكما سخط الذي	أرسي الجبال بسبب صحاح
أبوي فانتقيا الإله وأذعنا	للحق (نعنصما بحيل نجاح) ^(٥)

(١) تاريخ الطبري / أحداث سنة ١٢١ / ج ٤ / ١٩٩٠.

(٢) الأغاني / ج ١٧ / ٤-٥.

(٣) المصدر السابق / ج ٧ / ٢٦٥-٢٦٦.

(٤) نفسه / ج ١٦ / ١٤٣.

(٥) السيد الحميري / ديوانه / جمع وتحقيق شاكر هادي شكر / دار مكتبة الحياة - بيروت / ١٩٧٠.

- ٣٠٠ -

ولم تكن المرأة تكنفي بالمواقف النظرية للدفاع عن موقفها السياسي، بل كانت تدافع عنه بحدّ السيف، وتخرج للقتال جنباً إلى جنب مع الرجل. فقد ذكر أن عبد الله ابن عمير حينما رأى الناس يسرحون إلى الحسين بن علي، قال: والله لقد كنت على جهاد الترك حريصاً، وإنّي لأرجو ألا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم أيسر ثواباً عند الله من ثوابه إياي في جهاد المشركين، فدخل إلى امرأته فأخبرها بما سمع وأعلمها بما يريد، فقالت أصبت، أصاب الله بك أرشد أمورك، افعل، وأخرجني معك، فخرج بها ليلاً... وفي أثناء القتال أخذت عموداً ثم أقبلت نحوه تقول له فداك أبي وأمي قاتل دون الطيبين: ذرية محمد، فأقبل إليها يردّها نحو النساء، فأخذت نجاذبه ثوبه. ثم قالت: إنني لن أدعك دون أن أموت معك، وعندما قتل، أخذت تمسح عنه التراب، وتقول هنبأ لك الجنة، فضرب أحد أعدائها رأسها بعمود فشده فمات مكانها. (١)

وكان حبيب بن مسلمة الفهري رجلاً غزاه للترك، فخرج ذات مرة إلى بعض غزواته، فقالت له امرأته: أين موعذك؟ قال: سراق الطاغية أو الجنة إن شاء الله تعالى. قالت: إنني لأرجو أن أسبقك إلى أي الموضعين كنت. فجاء فوجدها في سراق الطاغية تقاتل الترك. (٢)

ولم تكن النساء جميعاً يتخذن من الحرب الموقف نفسه، فربما تخوفت المرأة على زوجها أو حميمها من القتل، فتحاول منعه من الخروج إلى المعركة. لما أراد عبد الملك الخروج إلى مصعب لاذت به عاتكة بنت يزيد، فقالت: يا أمير المؤمنين، لا تخرج السنة لحرب مصعب، فإن آل الزبير ذكروا خروجك وابتعت إليهم الجيوش، وبكت وبكى حشمها، فقال: قاتل الله ابن أبي جمعة يعني كثير عزة حين قال:

إذا ما أراد الغزو لم تننِ عزمه حصان عليها نظم درّ يزينها
نهتة فلما لم تر النهي عاقه بكت فبكى مما شجاها قطبها (٣)

وكذلك قال عمران بن حطان الخارجي يرفض رأي زوجته منعه من الحرب بقوله:

(١) تاريخ الطبري / أحداث سنة "٦١" / ج ٣ / ٣٢١.

(٢) البيان والتبيين / ج ٢ / ١٦٧-١٦٨.

(٣) ديوانه / ٢٤٢ / وانظر طبقات فحول الشعراء / ج ٢ / ٥٤٢-٥٤٣.

- ٣٠١ -

إن كنتِ كارهةً للموتِ فارتحلي ثم اطلبي أهلَ أرضٍ لا يموتونا
فلمستِ واجدةً أرضاً بها بشرٌ ألا يروحونَ أفواجاً ويفدوننا
إلى القبورِ، فما تنعكُ أربعةً تُدني سرباً إلى لحدٍ يمشوننا (١)

ولكن ورغم صراحة هذه الأبيات بتصويرها امرأته كارهة للقتال، فإنني لا أعتقد أنه عنى هذا حقاً، لأن من المعروف أن زوجة عمران هي جمره ابنة عمه الخارجية التي أفنعت بالخروج، ولا أعتقد أن امرأة خارجية مثل جمره يمكن أن تكون كذلك، خاصة وأن عمران ممن آمن بالقعود وظلّ بعيداً عن القتال وكان يحب الحياة حباً جما وهو الفاتل؛

إذا ما تذكرتُ الحياةَ وطبيبها إليّ جرى دمعٌ من العينِ غاسقٌ (٢)

ولعل الكاره للموت هنا هو عمران لا جمره، فقد قال هذه القصيدة بعد وفاة صديقه، ومثله الأعلى مرداس الخارجي، فزهد بعده بالحياة، وخرج للقتال قال:

يا جمرَ قد ماتَ مرداسٌ واخوتهُ وقبل موتِهِم مَاتَ النبيونا
يا جمرَ لو سَلَمْتُ نفسَ مَطْهَرَةٍ من حادثٍ لم يزلْ يا جمرَ يَعبينا
إذن لدامتَ بمرداسٍ سلامتهُ وما نعاها بذاتِ الغُصنِ ناعونا (٣)

ووجد مقابل ذلك من النساء من تعيّر زوجها بالحرب، قال أحد الخوارج:

تعيّرني بالحربِ عِرْسِي وما درتُ بأنّي لها في كلِّ ما أمرتُ صِدٌّ
لحا إلهَ قوماً يَفْعِدُونَ وعندهم سيوفٌ ولم يعصب بأيديهم قَدٌّ (٤)

فإن لم يكن هذا القول مدخلا دخله الشاعر للفخر بنفسه وشجاعته ودخوله ساحات الوغى، فلربما كانت هذه الزوجة لا ترى رأي الخوارج ومغالاتهم في القتال. وقد نرى للرجل رأياً رافضاً لخروج المرأة لأنه يراها غير أهل للخروج إلى المعركة، قال أحد الخوارج لامرأته وأرادت أن تنفر معه:

إن الحروريةَ الحسرى إذا ركبوا لا يستطيعَ لهم أمثالُك الطلبيا
إن يركبوا فرساً لا تركبي فرساً ولا تطبقي مع الرجالِ الخبيسا (٥)

(١) شعر الخوارج / ١٦-١٧.

(٢) المصدر السابق / ٢١.

(٣) نفسه / ١٦.

(٤) نفسه / ١١٧.

(٥) نفسه / ١١٧.

- ٣٠٢ -

إن المرأة بطبيعتها رافضة للحرب، لذلك كانت -في بعض المواقف تخشى على الرجل خاصتها من القتل فيها، لكن المرأة إزاء السياسة مساندة لزوجها غالباً، وقد وقفنا فيما سبق على نماذج نسائية تملك من القدرة والشجاعة في الغول والعمل ما يجعلها صنواً للرجل وسنداً له، لكن ما ظهر هو أن موقف المرأة هذا لم تعبر عنه هي بالشعر وإنما عبر عنه الشعراء حيناً وروته الأخبار حيناً آخر.

ولم يكن بالضرورة أن تنضوي المرأة تحت مذهب سياسي ليكون لها رأي سياسي تعتد به وتدافع عنه، بل كان لها مواقف من الأحداث التي تدور حولها، فكانت تدلي برأيها وقد تتخذ بسببه موقفاً صارماً، فقد ذكر الطبري أن مرجانة أم عبيد الله بن زياد كانت امرأة صدق، فقد قالت لولدها حين قتل الحسين بن علي: ويلك! ماذا صنعت؟! وماذا ركبت؟! (١) ولما رجع كعب بن جابر قالت له أخته النوار بنت جابر أعنت على ابن فاطمة، وقتلت سيد الفراء، لقد أتيت أمراً عظيماً، والله لا أكلمك من رأسي كلمة أبداً. وعندما جاء الكندي وهو أحد المشاركين بقتل الحسين وقد أخذ برنس الحسين وقدم به على امرأته بغسله من الدم قالت له أسلب ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تدخل بيتي: أخرجه عني. (٢)

فمن خلال الأخبار السابقة يتضح لنا أن المرأة لم تكن ذات موقف سلبي لما يدور حولها من أحداث سياسية، ولم تكن غائبة عن مسرح الأحداث بجوار فيها الرجال وحدهم، بل كانت مشاركة لهم في بعضها، واعية لبعضها الآخر، تتخذ منها مواقف معينة بحسب ما يمليه عليها الموقف نفسه وبحسب تفاعل الرجال الذين يخصوصونها في هذا الحدث.

ومن أعمالها الأخرى التي نحتسب لها مساعدة المسجونين من رجالها، فقد ذكر الطبري في أخبار المختار الثقفي: "فكانت معاشهم أفضلها من نسائهم، فكانت المرأة تخرج من منزلها، معها الطعام واللفظ والماء، قد التحفت عليه، فتخرج كأنما تريد المسجد الأعظم للصلاة، وكأنها تأتي أهلها وتزور ذات قرابة لها، فإذا دنت من الفصر فتح لها فدخلت على زوجها وحميمها بطعامه وشرابه ولطفه. (٣)

(١) الطبري/أحداث سنة ٦٣/٢ج/٣٥٣.

(٢) المصدر السابق/ سنة ٦١/ ٣ج/ ٣٣٢.

(٣) نفسه/ أحداث سنة ٦٧/ ٣ج/ ٤٩٠. اللطف: الهدايا.

- ٣٠٣ -

وقد كانت المرأة تحتل السجن أو القتل بسبب موقف زوجها السياسي. وكانت في كثير من الأحيان تصمد وترفض أن تكفر زوجها؛ كالذي حدث مع عمرة بنت النعمان ابن بشير التي قتلت بسبب رفضها تكفير زوجها المختار الثقفي، أو حتى أن نقول فيه كلمة سوء. وقد قال فيها سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

رأى راكب الآذي بالنبأ العجب	بقتل ابنه النعمان ذي الدين والحسب
بقتل فتاة ذات دل وسيرة	مهذبة في الخيم والعز والنسب
مطهرة من نسل قوم أكارم	من المؤثرين الخير في سالف الحقب
خليل النبي المصطفى ونصيره	وصاحبه في الحرب والضرب والكر
فلا هنأت آل الزبير معبشة	وذاقوا لباس الذل والخوف والحرب
كانهم إذا أبرزوها وقطعت	بأسيا فيهم فزازوا بمملكة العرب
ألم تعجب الأفوام من قتل حرة	من المحصنات الدين محمود الأدب
من الغافلات المؤمنات بربة	من الذم والبهتان والشك والريب (١)

ومنهن أيضاً أمّنة بنت الشريد زوجة عمر بن الحمق وهو من أصحاب علي بن أبي طالب، فقد حبست في سجن دمشق سنتين بسبب موقف زوجها المعارض لمعاوية (٢). ولا ننسى شعر عبید الله بن الحر في زوجته في فصل سابق حينما سجنّت من قبل المختار الثقفي وجماعته. وقد قال في عملية استخراجها من السجن شعراً منه.

هم هدموا داري وقادوا حلبني	إلى سجنهم والمسلمون شهودي
وهم أعجلوها أن تشدّ خمارها	فيا عجباً هل الزمان مقبدي
فما أنا بابن الحر إن لم أرهم	بخيل تعادي بالكماة أسود
وما جئت خيلي ولكن حملتها	على جحفل ذي عدة وعديد (٣)

وهكذا كانت المرأة تسجن وتقتل بجريرة الرجل سواء أكان زوجها أم أخاها أم غيرها. ولعل نظرة المجتمع التي كانت تراها تابعة للرجل هي التي أملت عليها موقفها السياسي أولاً، وجرت عليها العقاب بذنب غيرها - إن كان ما فعله غيرها ذنباً حقيقياً - ثانياً.

(١) الدر المنثور/ ٣٥٤.

(٢) بلاغات النساء / ٦٤.

(٣) شعراء أمويون / ج ١ / ١٠٢، وانظر كذلك ص: ٩٩ وما بعدها.

- ٣٠٤ -

وكما شاركت المرأة في بعض الأحداث العسكرية أو المذهبية فقد شاركت كذلك في قضايا سياسية أخرى كأمور البيعة، أو تعيين الحكام والولاة أو حتى التوسط للإفراج عن بعض الزعماء السياسيين.

فقد أرسل بسر بن أرطاة إلى بني سلمة فقال: والله مالكم عندي أمان ولا مبايعة حتى تأتونني بجابر بن عبد الله، فانطلق جابر إلى أم سلمة زوج النبي عليه السلام، فقال لها: ماذا تريد؟ إني خشيت أن أقتل وهذه بيعة خلافة، قالت: أرى أن يبايع، فإني أمرت ابني عمر بن أبي سلمة أن يبايع، وأمرت ختني عبد الله بن زمعة، فأناها جابر فبايعه. (١)

ونظراً لما عرف تأثير بعض النساء على أزواجهن في مجالات الحياة المختلفة، وحب الزوج لزوجته، وتقديره لشخصها، فقد رأى بعض الزعماء السياسيين أن يوظف هذا الأمر لصالحه، فيقترب إلى المرأة كي تمنع زوجها بالوقوف إلى جانبه؛ فقد مضى ابن الزبير إلى صغبة زوجة عبد الله بن عمر، فذكر لها أن خروجه كان غضباً لله تعالى ورسوله عليه السلام والمهاجرين والأنصار من أثره معاوية وابنه بالقيء، وسألها مسألته أن يبايعه. فلما قدمت لزوجها عشاءه ذكرت له أمر ابن الزبير واجتهاده، وأثنت عليه، وقالت ما بدعو إلا إلى طاعة الله جل وعز، وأكثرت القول في ذلك. (٢)

وقد تؤثر الزوجة على زوجها أيضاً في أن يتوسط لها عند الخلفاء بالإفراج عن بعض الزعماء السياسيين من أقبائهم، فحينما علمت صغبة السابقة الذكر بحبس أخيها المختار، بكّت وجزعت، فلما رأى ذلك زوجها عبد الله بن عمر كتب إلى يزيد بتخلية سبيله. (٣)

كان للمرأة رأي مباشر في بعض الحكام أو الولاة نفوذه لزوجها ناصحة إياه باتخاذ الموقف المناسب منه، فقد ذكر المسعودي أن أم البنين بنت عبد العزيز بعثت تقول للوليد زوجها: ما مجالستك لهذا الإعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة؟ فأرسل إليها إنه الحجاج، فراعها ذلك، وقالت: والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق... (٤)

(١) الطبري أحداث سنة ١٥٣/٣/٤٠.

(٢) الأغاني/ج١/٢٣.

(٣) الطبري/أحداث سنة ٤٠١/٣/٦٤.

(٤) مروج الذهب/ج٣/١٥٨.

وبشبهه قول النوار زوجة الفرزدق لزوجها. وقد قال الفرزدق فيه شعراً:

أَلَمْ نَرَ مَا قَالَتْ نَوَارٌ، ودونَهَا
من الهمَّ لي مستضمراً أنا كَاتِمُهُ
تَقُولَ وعينَاهَا تَفِيضَانِ؛ هل نَرَى
مَكَانَكَ مِمَّنْ لَا أَرَاكَ نَخَاصِمُهُ
تَنَحَّ عَنِ الْحَجَّاجِ إِنْ زَحَامَهُ
شَدِيدٌ إِذَا أَغْضَى عَلَى مَنْ يَزَاحِمُهُ
وَمَنْ بِأَمْنٍ الْحَجَّاجَ، وَالْحَيْنَ تَنْفِي
عَفْوَتَهُ، إِلَّا ضَعِيفٌ عِزَائِمُهُ (١)

وما كان هذا الكلام من أم البنين والنوار ليقال من باب الصدفة لو لم تكن الواحدة منهما قد سمعت عن الحجاج وأفعاله. وربما عرفته عن كثب. فالحجّاج وسياسته في ظل الدولة الأموية من الأمور التي كانت معروفة وكان للمرأة دراية بخطورة هذا الرجل مما دفعها إلى نصيح من يهملها أمره بالابتعاد عنه.

وكان للمرأة كذلك دور في تعيين الحكام. فحينما ولي الحجّاج العراق استعمل الحكم بن أبوب زوج أخته زينب على البصرة. فكلّمته زينب في محمد بن رباط (قريبها) فولاه شرطة البصرة، فكتب إليه الحجّاج إنك قد وليت أعرابياً جافياً شرطتك. وقد أجزنا ذلك لكلام من سألك فيه. (٢)

كما كانت المرأة نساند زوجها في مواقفه السياسية لا يهمها في ذلك مال أو جوهر. كالذي كان من فاطمة بنت عبد الملك زوجة الخليفة عمر بن عبد العزيز حينما طلب إليها أن ترد ما معها من مال وحلي وجواهر إلى بيت المال. فردته جميعاً. ولم يبقَ لها منه شيء وبقيت معه في عيشة التقشف والضيق مع اتساع الخلافة والملك إلى أن مات. فلما انتقلت الخلافة إلى أخيها يزيد. قال لها: إن عمر قد ظلمك في مالك. وإنني رددته إليك فخذيه. قالت: كلا والله لا آخذه. فما كنت لأطيعه حياً وأعصيه ميتاً. (٣)

وكانت المرأة تقدر دور الشاعر في الذب عن حياض قومها ومدحهم وبيان حقهم في الخلافة. فحينما أراد عبد الله بن معاوية أن يثيب الكميّ شاعر بني هاشم على ما قاله فيهم من شعر، وتعريض دمه للخطر بسبب ذلك، أرسل إلى بني هاشم ليعينوه بالمال. وأعلم النساء بذلك. فكانت المرأة تبعث ما أمكنها حتى إنها لتخلع الحلّي عن جسدها. (٤)

(١) ديوان الفرزدق / ٥٣٢-٥٣٣.

(٢) الأغاني / ج ٦ / ٢٠٠.

(٣) الدر المنثور / ٣٦٦.

(٤) مروج الذهب / ج ٣ / ٢٣٠.

- ٣٠٦ -

وإن هو هجا قومها فإنها تمنعه كل خير تقدر على منعه إياه فقد ذكر في مناسبة إحدى قصائد الفرزدق التي بهجو فيها بني كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، أنه سأل المهلب بن أبي صفرة أن يضع له اسم رجل فيما يخلف، فأجابه إلى ذلك، فمنعته خيرة القشيرية وكانت عند المهلب لهجاء الفرزدق فيسا. (١) فقال:

كَقَشِيرِ عَصَا الْمَنْفَحِ مِنْ مَعَالِرِ	أَلَمْ تَرَنِي فَشَرَّتْ بَنِي قَشِيرِ
وَلَا صَانٌ تَرِيحَ إِلَى خَبَالِ	وَمَا شَيْءٌ بِأَضْيَعٍ مِنْ قَشِيرِ
وَأَرْمَلَةٍ تَمُوتُ مِنَ الْهَزَالِ	تَرَاهُمْ حَوْلَ خَبْرَةٍ مِنْ بَنِي
وَتُعْطَى الرِّزْقَ مِنْ وَلَدٍ وَمَالٍ (٢)	وَقَدْ تَحْظَى اللَّثِيمَةَ بَعْدَ فَقْرِ

المرأة الخارجية

عند مطالعة شعر الخوارج وأخبارهم نلاحظ أن المرأة الخارجية لها سمات خاصة تتميز بها عن سمات النساء في عصرها فهي تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه النساء في عصرها فهي امرأة محاربة، شجاعة، تستقل برأيها، مثقفة بشؤون مذهبها السياسي، قد تنبذ الزينة، ولا تأبه بها، تنجس السلطان والحكام وتترفع عليهم، وتسفك الدماء في سبيل مذهبها، وإيماناً بموقفها ومبادئها وطلباً للشهادة التي هي بغيتها والتي خرجت من أجلها، وهي بالنسبة للرجل رفيقة له فيما اختار من موقف سياسي، وسلوك عسكري، تخرج معه تشجعه وتسانده، وتشاركه في قيادة الجيوش، وقد تخالقه وتستغل برأيها عنه إذا افتتحت بذلك غير آبهة بما سيكون عليه الأمر جراء ذلك.

هذا الوضع الجديد للمرأة الخارجية برز في الشعر، فأصبحنا نرى لها وضعاً جديداً مغايراً لوضع المرأة التقليدي الذي عرفناه في الفصول السابقة، فلم تعد امرأة يتغزل بها الشاعر ويصف جمالها وزينتها وحبها لها وولعه بها فحسب، بل أصبحت امرأة من نوع خاص بالنسبة للرجل، مؤثرة في حياته تأثيراً فاعلاً، ينظر لها كرفيقة سلاح أو زميلة عمل يسيران على درب يكاد يكون واحداً في أحايين كثيرة.

وقد اشتهر منهن عدد غير قليل على رأسهن غزالة الحرورية التي كانت تقود الجيوش، وتقاتل مقاتلة الرجال وتبلى بلاء لا يقل عن بلاءهم إن لم يكن يفوق بلاء كثيرين

(١) انظر ديوانه / ٤١٨.

(٢) ديوانه / ٤١٩.

منهم، وكانت نسبي النساء وتحوز الأموال. قال أيمن بن خريم فيها:

وقد اشتهر منهن عدد غير قليل على رأسهن غزالة الحرورية التي كانت تقود الجيوش، وتقاتل مقاتلة الرجال وتبلى بلاء لا يقل عن بلائهم إن لم يكن يفوق بلاء كثيرين منهم، وكانت نسبي النساء وتحوز الأموال. قال أيمن بن خريم فيها:

أتينا بهم مائتي فارس	من السافكيين الحرام العبيط
وخمسون من مارقات النساء	يسحبن للمنديات المروطا
وهن مائتا ألف ذي فونس	بسط العراقان منهم أطبطا
رأيت غزالة إن طرحست	بمكة هودجها والغبيط
سمت للعراقيين في جمعها	فلاقي العرافان منها بطبطا
الا يستحي الله أهل العرا	ق إن قلّدوا الغانيات السموطا
وخيل غزالة نسبي النساء	وتحوي النهاب وتحوي النبيط
ولو أن لوطاً أمير لكم	لأسلمتم في الملمات لوطاً (١)

فموقف الشاعر من الخوارج موقف رافض. ولكنه من خلال هذه الأبيات يوضح لنا كبر عدد النساء الخارجيات اللواتي كن يشاركن في الحرب جنباً إلى جنب مع الرجال، وبصور كذلك مقدار ما بلغته المرأة الخارجية من شجاعة وقوة وعلى رأسهن غزالة؛ فهي نسبي النساء والرجال، وتحوي الأموال، ولم يستطع أن يتصدى لها أهل العراق، وعلى رأسهم الحجاج مع ما عرف عنه من قوة في القتال ومراس فيه.

بل لقد روعت الحجاج، وهو من هو في جبروته وقدرته وصرامته، وهزمت خمسة من جيوشه، وأثبتت في قلبه الرعب، حتى إنه أصبح غرضاً للشعراء، يرمى بشعرهم، ويعبر بذلك. قال عمران بن حطان، وقد كان الحجاج لج في طلبه:

أسد عليّ وفي الحروب نعاماً	ربداء نجفل من صغير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى	بل كان قلبك في جناحي طائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس	تركمت مدايره كأمس الدابر (٢)

(١) الأغاني ج٢٠/٢١٤ / العبيط: الدم الخالص الطري، المنديات: المخزيات يندى لها الجبين، المروط: جمع مرط وهو كساء من صوف ونحوه يؤتر به، القوس: بيضة الحديد، يسط: بصوت، البيطط: شق

الجرح، النهاب: جمع نهب، وهو الفئيمة، النبيط: وهم جيل ينزلون بالبطائح بين العراقيين.

(٢) المصدر السابق ج١٨/١١٦.

-٣٠٨-

ولم تكن شجاعة غزالة وقدرتها القتالية محض صدفة، أو نتائج موقف عابر، بل كانت تثق بنفسها، وبقدرتها، وبشجاعتها، حتى أنها نذرت أن تدخل الكوفة؛ وهي معقل الحجاج يومئذ وتصلّي ركعتين تقرأ فيهما سورة البقرة وسورة آل عمران^(١) وما كانت لتفعل ذلك لولا ثقتها بشجاعتها، وقدرتها القتالية، ورباطة جأشها، ولولا استهانتها بالحياة الدنيا، التي هي من أهم المفومات التي يقوم عليها حزب الخوارج.

وقد أصبحت غزالة موطن فخر واعتزاز عند الخوارج، فقال مصقلة بن عتبان الشيباني وهو من غلبة الخوارج:

وأبلغ أمير المؤمنين رسالةً	وذو النصح إن لم يرع منك قريباً
فإنك إن لا نرض بكر بن وائلٍ	يكن لك يوم بالعراق عصبياً
فإن بك منكم كان مروان وابنه	وعمرو ومنكم هاشمٌ وحبيبٌ
فمننا سويسدٌ والبطين وقعبٌ	ومنا أمير المؤمنين شبيبٌ
غزالة ذات النذرٍ منا حميدةٌ	لها في سهام المسلمين نصيبٌ
ولا صلح ما دامت منابر أرضنا	يقوم عليها من ثقيف خطيبٌ ^(٢)

فغزالة عند الخوارج هي من العظام يفتخر بها، ويقرنونها إلى أمرائهم وزعمائهم الكبار، ولو لم تكن غزالة أهلاً لذلك كله لما حققت هذه المكانة، بل قل لما فرضت لنفسها هذه المكانة الخاصة، إننا نتحدث عن مجتمع يقدم الرجال إطلاقاً على النساء إطلاقاً.

كما اشتهرت من نساء الخوارج أيضاً أم شبيب التي كانت تحارب جنباً إلى جنب مع ابنها وزوجه غزالة، وقد أبلت بلاء حسناً.

ولم تكن المرأة الخارجية مجرد محاربة، تقتل وتقتل بالناس فقط بل كانت عالمة بمذهبها السياسي مؤمنة به، فاهمة له ولمصطلحاته. فقد ذكر أن الحجاج أتى بامرأة من الخوارج وبحضرته يزيد بن أبي مسلم موله، وكان يستسر برأي الخوارج، فكلم الحجاج المرأة، فأعرضت عنه، فقال لها يزيد: الأمير وملك يكلمك، فقالت: بل الويل والله لك يا فاسق الردى، وفاسق الردى عند الخوارج، هو الذي يعلم الحق من قولهم ويكتمه^(٣).

(١) الطبري / أحداث سنة ٧٧

(٢) مروج الذهب / ج ٢ / ١٩٣.

(٣) الكامل في الأدب / ج ٣ / ٢٣١.

- ٣٠٩ -

وقد بلغت المرأة الخارجية شجاعة لم يبلغها كثير من الرجال من أبناء مذهبها. إذ رفضت الاستغادة مما أباحه له مذهبها من أن تقى نفسها القتل. فقد أسرت أم علقمة الخارجية، وأتي بها إلى الحجاج، فقبل لها، وافقبه في المذهب، فقد بظهر الشرك بالمكر، فقالت: لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، فقال لها الحجاج: لقد خبطت الناس بسببك يا عدوة الله خبط العشواء. فقالت: لقد خفت الله خوفاً صريك في عيني أصغر من الذباب، وكانت منكسة، فقال: ارفعي رأسك وانظري إلي فقالت: أكره أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه، فقتلها. (١)

وعند قراءة أخبار بعض النساء الخارجيات يشعر الإنسان وكأن المرأة الخارجية لا تعرف الخوف، ولا نخشى على نفسها شيئاً فقد أورد الجاحظ حديث البلجاء الخارجية التي نهضت تثير الخوارج في العراق وتؤلبهم على عبيد الله بن زياد، فنذر بها عبيد الله. فقبل لها إن الله وسّع على المؤمنين في النقية فاستتري، فإن هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد، قد ذكرك، فقالت: إن بأخذني فهو أشقى بي، فأما أنا فما أحب أن يعنت إنسان بسببي. فوجه إليها عبيد الله فأتي بها فقطع يديها ورجليها، ورمى بها في السوق. (٢)

وبلغ من فطرة المرأة الخارجية، ومبلغ تأثيرها أن الرجل كان يتزوج الواحدة منهن وهو بضمير في نفسه أنه سيثنيها عن مذهبها، فلا نراها إلا وقد ثنته هي عن مذهبها، وتبعها، فقد كانت جمة ابنة عم عمران بن حطان ترى رأي الخوارج وهو من أهل السنة. فقال عمران: أتزوجها وأردها عن مذهبها، فما كان منها إلا أن أفنعت بالخروج فخرج. (٣)

وليس هذا فحسب فهي تبدو مفتنعة بالتمسك بالمذهب، والبحث على القتل، وهذا بنافي طبيعة المرأة في كثير من الأحيان، فقد ذكر أن نافع بن الأزرق، لما تفرقت آراء الخوارج، ومذاهبهم في أصول مقالته، أقام بسوق الأهواز، وأعمالها لا يعترض الناس، وقد كان متشككاً في ذلك، فقالت له امرأته: إن كنت قد كفرت بعد إيمانك، وشككت فيه، فدع نحلكت ودعوتك، وإن كنت قد خرجت من الكفر إلى الإيمان فاقتل الكفار حيث لقيتهم وأثخن في النساء والصبيان، كما قال نوح "لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً" فقبل قولها واستعرض الناس وبسط سيفه، فقتل الرجال والنساء والولدان... (٤)

(١) عن كتاب المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها/ ج٢/ ٢١٤، ولم يذكر مصدره.

(٢) عن المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها/ ج٢/ ٩٣، ولم يذكر مصدره.

(٣) الأغاني/ ج١١/ ١١٠.

(٤) المصدر السابق/ ج٦/ ١٤٢.

- ٣١٠ -

وإن هي لم تستطع إقناع زوجها في أمر فإنها تتجاوزهُ، وتستقل برأيها عنه. فقد كانت عميرة زوجة مجاشع من بكر بن وائل وهو من قعد الخوارج نرى رأيهُ، ثم أفسدها رجل حتى رأت رأي الخوارج فدعت زوجها إلى ذلك فأبى وأبت إلا أن تخرج، فخرجت، فكتب إليها زوجها:

وجداً بصاحبني لعلَّ صباةً منها تردّ خليله لخليل
فأئن قتلست ليقتلن قتلكم فتقنني أني قتل قتل

فقالت نجيبه:

أبلغ مجاشع إن رجعت فإنني بين الأسنة والسيوف مقبلي
أرجو السعادة لا أحدث ساعة نفسي إذا أنا جبتها بفقولي
وهبت خدري والفراس لكاعب في الحيّ ذات دمالج وحجول^(١)

ولعل في جوابها هذا لزوجها أكبر دليل على زهدا بالحياة الدنيا وعمق إيمانها بمذهبها الذي خرجت تقاتل من أجل نصرته.

كنت قد قلت من قبل إن المرأة الخارجية لم تكن كغيرها من النساء تهتم بزینتها وإن هي فعلت فسرعان ما تمل ذلك، وتعود تنطلق إلى الموت. فقد كانت أم حكيم زوجة قطري بن الفجاءة من أشجع الناس وأجملهم وجهاً، وأحسنهم بدينهم تمسكاً، خطبها جماعة منهم فردتهم. ولم تجب إلى ذلك، وقد كانت تحمل على الناس وترنجز:

أحمل رأساً قد سنمت حمله وقد مللت دهنه وغسله
الا فتى يحمل عني ثقله^(٢)

وقد تتخلى المرأة عن حليها من أجل سيف تحارب به. قالت امرأة المختار بن عوف بن حمزة:

أنا ابنة الشيخ الكريم الأعلم
من سال عن اسمي فاسمي مريم
بعث سوارى بسيف مخدّم^(٣)

(١) بلاغات النساء/ ١٠٥-١٠٦. قعد الخوارج: أي الذي يرى رأي القعد الذين يرون الحكيم حقاً غير أنهم

فعدوا عن الخروج على الناس.

(٢) ديوان الخوارج/ ٤١.

(٣) ديوان الخوارج/ ١١٥. مخدّم: سريع القطع.

- ٣١١ -

وما كانت لتفعل ذلك كله لولا عمق إيمانها بمذهبها، وزهدا بالحياة الدنيا،
وبالتالي فإنها تفخر بما تقوم به خدمة لهذا المذهب مهما بلغ فيه القتل؛ قالت أم
البرذون الصفرية:

نحن عبرنا الخندق المقعرا	يوم لقيناكم وجزنا العسكرا
حنى قتلنا عاصما وجعفرنا	والفاسق الضبي لما أدبرنا
واليمينيـن ومن تـزرنا	لا نحسبوا ضرب الشراة سـكرا ^(١)

كانت المرأة الخارجية، إذن متميزة بإخلاصها لمبدئها، ومساندتها لزوجها، تقاتل
كالرجال لا يهمها أن تقتل أو تعذب. وهي في الشعر متميزة أيضاً لأنها كانت تعبر بجرأة
وبشاعربة عما تشعر به حيال موقفها من المبدأ والحياة والموت.

(١) ديوان الخوارج/٧٦/ والشراة: جماعة من الخوارج، كان الرجل منهم يسمي نفسه شارباً أي بائناً نفسه
من الله وهو ينظر في ذلك إلى قوله تعالى في سورة التوبة آية/١١١ "أن الله اشترى من المؤمنين
أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة... وذلك هو الفوز العظيم".

الخاتمة

✓ عرضت في هذه الدراسة لصورة المرأة عند أعلام الشعر الأموي في تمهيد وخمسة فصول. وقد عرضت في الفصل الأول لصفات المرأة الجسدية والمعنوية ثم لوسائل الزينة عندها موضحة صورة المرأة النموذج التي كانوا يطمحون أن تكون عليها المرأة خاصتهم. وهم في ذلك لم يختلفوا عن سابقهم من الشعراء ولكن زادوا في ذكر التفاصيل والتوسع في ذكر هذه الصفات. كما بدأت مظاهر الحضارة والنعيم تبرز في أشعارهم وخاصة عند شعراء الحجاز، مما هذب بعض صورهم، ثم تناولت المرأة الإنسانية في بيئات الدولة المختلفة، موضحة بعض الفروق بين هذه البيئات من حيث نوعية الشعر، وعدد الشعراء، ومن حيث تناولهم المرأة ونظرتهم لها، ففي حين نجد المرأة قد حققت لنفسها حضوراً جيداً في مجال إثبات الشخصية والاستقلال والظهور في المجتمع في بيئة الحجاز نجدها لا تزال ترزح تحت الجهل والضعف والظلم في البيئات البدوية غير المتحضرة لنواحي العراق والجزيرة الفراتية، وقد تجلى ذلك واضحاً في شعر النقائض حيث كانت المرأة مازالت سبة وسلعة للهجاء يتداولونها في أسواقهم الشعرية، كما كشفت الدراسة عن مبالغة بعض الكتاب في تصوير تحرر المرأة وتملكها الكبير لإرادتها في بيئة الحجاز، صحيح أن المرأة الحجازية كانت تمتاز بوضع جيد خاصة نساء الطبقة العليا، لكن ذلك لم يكن إلى الحد الذي صورته بعض كتب الأدب ويبقى على أمة حال وضعاً متقدماً مقارنة مع ما حققه غيرها بين النساء في البيئات الأخرى.

وفي بوادي الحجاز القريبة وجد نوع جديد من الشعر عرف (بالشعر العذري) ومع أن هذا النوع من الشعر كان قبل العصر الأموي لكنه ظهر ظهوراً فنياً بارزاً في العصر الأموي خاصة وقد كان للمرأة في هذه البيئات حضور واسع عند الشاعر الذي قضى جل حياته بتغزل بالمرأة وبيئتها حبه ومشاعره، وهي كانت ذات شخصية قوية، ثابتة، تمنع وتعطي حين تشاء وما نشاء. وأوضحت الدراسة أن هذا النوع كان موجوداً في بيئات أخرى كبيئة نجد مثلاً حين ظهر ثوبة بن الحمير ومزاحم العقيلي وغيرهما.

✓ وأما في بيئة نجد والبوادي البعيدة فإن بعض النساء قد حققن كذلك لأنفسهن تقدماً كبيراً في مجال بروز الشخصية النسائية ولكن هذا كان خاضعاً لعدد محدود، كبعض الشاعرات وعلى رأسهن لبلى الأخبيلة التي تفوقت حتى على مثيلاتها من النساء الحجازيات.

✓ وفي مجال الأسره برزت الزوجة بروزاً واضحاً في شعر شعراء هذا العصر في علاقاتها الايجابية أو السلبية مع زوجها. أما الشعر الخاص بالمرأة الأم أو الأخت. أو الابنة فقد كان أقل ظهوراً.

✓ وفي المجال الثقافي فقد عرضت للجواري اللواتي بدان بتكاثرن في البيوت العربية نتيجة للفتوحات ونشاط تجارة الرقيق. وأظهرت دور الجارية في إشاعة جو الانفتاح والمصراحة في العلاقات الاجتماعية. ولدور الجارية المغنبة في تطوير فن الغناء. كما عرضت للمرأة نافذة وشاعره وأبرزت جهودها في هذين المجالين.

✓ وفي مجال السياسة كان لبعض النساء رأي سياسي بين. بل كان لبعضهن مذهب سياسي اعتمدنه ودافعن عنه نظرياً وعملياً في ساحات الوغى وظهر هذا أكثر وضوحاً عند المرأة الخارجية التي حاربت جنباً إلى جنب مع الرجل.

✓ لقد اثبتت الدراسة أنه كان للمرأة الأموية عموماً - أهمية كبرى في الشعر فقد رسم لها الشعراء صورة جمالية مثالية. كما أبرزوها انثى نرعى جمالها وتحافظ عليه مستفيدة من كل الوسائل الحضارية المتعددة المستخدمة في الزينة والتجميل. ولم تكن سلبية دائماً بل كانت تشاطر الرجل في مجالات الحياة المختلفة ابتداء من البيت والأسرة وانتهاء بالنشاطات الاجتماعية والسياسية والحربية أيضاً.

✓ لكن الدراسة أبرزت أيضاً جانباً سلبياً للمرأة في بعض البيئات وعند جماعة من الناس إذ ظلت سلعة شباع وتشتري وليس لها من مجال سوى إمتاع الرجل ونعويض ما تخسره القبيلة من الرجال. وهو جانب فرضته طبيعة الحياة الحربية. والفتوحات الكثيرة واختلاط الأجناس، ودخول بيئات جديدة مختلفة في النظرة للمرأة والتعامل معها.

✓ لقد سجلت الدراسة أيضاً أفعالا فردية لبعض النساء تدعو للعجب والاعجاب كما كان من لبلى الأخيلة وجرائنها لإثبات ذاتها أنثى تحب وتدافع عن حبها رغم كل الأحوال التي كانت تحول بينها وبين ذلك.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم بن هرمة، ديوانه، تحقيق محمد جبار المعبيد، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٦٩م.
- إبراهيم عبد الرحمن، عبيد الله بن قيس الرقيات، حياته وشعره، سلسلة دراسات في التراث العربي، ١٩٧٠م.
- إبراهيم موسى سنجلاوي، الحب والموت في شعر الشعراء العنبريين في العصر الأموي، مكتبة عمان، عمان، ١٩٥٨م.
- الإبيهي، شهاب الدين أبو الفتح محمد بن أحمد بن منصور الإبيهي، المستطرف في كل مستظرف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٢م.
- ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، عني بمراجعته وتحقيقه نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦م.
- إحسان عباس، شعر الخوارج، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣م.
- إحسان النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م.
- أحمد بن أبي طاهر، الإمام أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، بلاغات النساء، شرح أحمد الألفي، ط٢، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٨٥م.
- أحمد أمين، فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٥٠م.
- أحمد الحوفي، الغزل في العصر الجاهلي، دار القلم، بيروت، ١٩٦١م.
- أحمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٣م.
- أحمد الربيعة، كثير عزة، دار المعارف، مصر، ١٩٦٧م.
- أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي، والحضارة الإسلامية، ط٤، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م.
- أحمد عبد الستار الجوّاري، الحب العنبري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٩م.
- أحمد كمال زكي، الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م.
- الأخطل، أبو مالك غياث بن غوث التغلبي، ديوانه، صنعة السكري، تحقيق فخر الدين قبلاوة، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧١م.

- الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد الأزدي، تاريخ الموصل، تحقيق د. علي حبيبة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٧م.
- أسعد السامرائي، المرأة في التاريخ والشرعية، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٩م.
- إسماعيل بن يسار، ديوانه، تحقيق د. يوسف بكار، ط١، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٤م.
- إسماعيل اليوسف، الأخطل: أخباره ونماذج من شعره، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- أبو الأسود الدؤلي، ديوانه، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط٢، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٤م.
- الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب، ١٩٦٣م.
- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، المسالك والممالك، مطبعة بريل، لندن، ١٩٢٧م.
- الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك، الأصمعيات، تحقيق وشرح، أحمد شاکر وعبد السلام هارون، ط٥، بيروت، د.ت.
- الأقيشر الأسدي، ديوانه، جمع وتحقيق وشرح د. خليل الدويهي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م.
- الأتوسي، محمود محمد شكري، بلوغ الأرب في أحوال العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، ط٣، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٢٤م.
- الأنطاكي، داود عمر الأنطاكي، تزيين الأسواق في أخبار العشاق، ط١، دار حميدو ومحيو، بيروت، ١٩٧٢م.
- أولبري، دي لاسي، جزيرة العرب قبل البعثة، ترجمة وتعليق علي الغول، ط١، عمان، ١٩٩٠م.
- الباهلي، عمر بن أحمر الباهلي، ديوانه، جمع وتحقيق د. حسين عطوان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٠م.
- البحتري، أبو عبادة البحتري، حماسة البحتري، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧م.
- البربري، سابق بن عبد الله البربري، ديوانه، دراسة وجمع وتحقيق: بدر أحمد ضيف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧م.
- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤م.
- البصري، صدر الدين علي بن أبي الفرج بن حسن البصري، بعناية مختار الدين أحمد، الحماسة البصرية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٦٤م.
- ابن بطلان، ابن بطلان البغدادي، رسالة في شري الرقيق وتغليب العبيد، تحقيق عبد السلام

- هارون، ط١، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٤م.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨١م.
- البلاذري، أبو الحسن، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.
- التادلي، أبو العباس أحمد بن عبد السلام التادلي، الحماسة المغربية، تحقيق محمد رضوان الداية، ط١، دار الفكر المعاصر، لبنان، ١٩٩١م.
- التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي، شرح ديوان الحماسة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٢م.
- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، نقائض جرير والأخطل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٢٢م.
- توبة بن الحمير الخفاجي، ديوانه، تحقيق وتعليق، خليل إبراهيم العطية، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٨م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٤، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- الجاحظ، عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، شرح وتحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ، شرح وتحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤م.
- جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ط٢، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٧م.
- ✓ جرير بن عطية الخطفي، ديوانه، شرح محمد بن حبيب، تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.
- جلسون اثيين، مدرسة الآلهات، تعريب عادل العوا، الشركة العربية للطباعة والصحافة والنشر، دمشق، ١٩٦٥م.
- جمال جودة، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي في صدر الإسلام، دار البشير للنشر، عمان، ١٩٨٩م.
- الجمحي، أبو دهب الجمحي، ديوانه، رواية أبي عمرو الشيباني، تحقيق عبد العظيم عبد المحسن، ط١، مطبعة القضاء، النجف الأشرف، ١٩٧٢م.
- جميل بثينة، ديوانه، جمع وتحقيق أميل بديع يعقوب، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٢م.

- جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٩م.
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٧٨م.
- جورج غريب، شاعرات العرب في الإسلام، ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٥م.
- الجوزية، ابن قيم الجوزية، أخبار النساء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- ١- ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد سعيد، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣م.
- ١- حسان بن ثابت، ديوانه، تحقيق وليد عرفات، طباعة أضاء سلسلة جب التذكارية، ١٩٧١م.
- ١- حسان حلاق، تعريب النقود الإسلامية والدواوين في العصر الأموي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٨م.
- ١- حسن الشيخ، الفاتح الشيخ قريب الله، جريد مدينة الشعر، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.
- حسين عطوان، الشعر العربي بخراسان في العصر الأموي، ط١، مكتبة المحتسب، عمان، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م.
- حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧م.
- حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٤م.
- حسين عطوان، الوليد بن يزيد (عرض ونقد)، دار الجيل، بيروت، ١٩٨١م.
- الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق زكي المبارك ومحمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢م.
- الحميري، إسماعيل بن محمد الحميري، ديوانه، جمع وتحقيق شاكر هادي شكر، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.
- ابن حنبل، أحمد ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م.
- ابن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط٢، دار القلم، دمشق، ومؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٧م.
- ابن الدميني، ديوانه، صنعة أبي العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، تحقيق أحمد راتب النفاخ، دار العروبة، القاهرة، ١٩٥٩م.

- داود سلوم، شخصيات من كتاب الأغاني، صنعة داود سلوم ونوري حمودي القيسي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٢م.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.
- ذو الرمة، غيلان بن عقبة العدوي، ديوانه، شرح الإمام أبي نصر الباهلي، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.
- راضي عبد الله عبد الحليم، دراسات في تاريخ خراسان، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٨٧م.
- الراعي النميري، ديوانه، دراسة وتحقيق نوري حمودي وهلال ناجي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٠م.
- ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢م.
- زكي عبد الرحمن، الأحجار الكريمة في الفن والتاريخ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، ١٩٦٤م.
- زكي عابدين غريب، القطامي حياته وشعره، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م.
- زكي مبارك، العشاق الثلاثة، ط٢، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان.
- زينب بنت يوسف فواز العاملي، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.
- سامي اسكندر داود، الجزيرة الفراتية بين الماضي والحاضر، دمشق، ١٩٥٩م.
- سامي الدهان، الغزل (فنون الادب العرب)، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م.
- السراج، الشيخ جعفر بن أحمد بن لجين السراج، مصارع العشاق، دار صادر، بيروت، د.ت.
- سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ١٩٨٣م.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد الزهري، طبقات ابن سعد، دار صادر، بيروت، ١٩٨٥م.
- ابن سلام، أبو عبيد القاسم بن سلام، الأموال، ط١، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨١م.
- ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، شرح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤م.
- سليمان جبور، عمر بن أبي ربيعة، مطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٥م.

- سهام عبد الوهاب الفريخ، الجواري والشعراء في العصر العباسي الأول، ط١، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨١م.
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي، المخصص، لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٨م.
- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت.
- سيد مصطفى غازي، الأخطل شاعر بني أمية، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٩٥٠م.
- شاكر الفحام، الفرزدق، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٧م.
- شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٩م.
- شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط٦، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.
- شوقي ضيف، الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، ط٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧م.
- شوقي ضيف، العصر الإسلامي (تاريخ الأدب العربي)، ط٤، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.
- صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥٣م.
- صلاح حسن العبيدي، الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي من المصادر التاريخية والأثرية، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠م.
- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أدب الكاتب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٤١هـ.
- الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى الضبي، المفضليات، تحقيق وشرح أحمد شاكر وعبد السلام هارون، ط٦، بيروت، ١٩٦٣م.
- طاهر لبيب، سوسيولوجية الغزل العربي: الشعر العذري نموذجاً، ترجمة حافظ الجمالي، دمشق، ١٩٨١م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
- ابن الطنثرية، يزيد بن معاوية، ديوانه، تحقيق ناصر الدين الرشيد، دار الوثبة، دمشق، د.ت.

- الطرماح، ديوانه، تحقيق عزة حسن، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٩٦٨م.
- طه حسين، حديث الأربعاء، ط ١٢، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م.
- طه حسين، من حديث الشعر والنثر، ط ١٠، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.
- عبد الجبار المطلبي، الأديب المغامر عبد الله بن معاوية، أسرته ومسيرته وأدبه، دار الرسالة للطباعة، بغداد، ١٩٧٥م.
- ابن عبد الحكم، أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، نسخ وتصحيح أحمد عبيد، ط ٢، مكتبة وهبة، مصر، ١٩٥٤م.
- عبد الخالق النواوي، النظام المالي في الإسلام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٣م.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت، ١٩٤٠م.
- عبد الرحمن الجوزي، أحكام النساء، ط ١، المكتبة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- عبد الرحمن عطية، تطور الشعر في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث الهجريين، دار الأوزاعي، بيروت، ١٩٨٧م.
- عبد العزيز الدوري، العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام، بحث في كتاب المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، عمان ١٩٧٤م.
- عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ط ٢، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨م.
- عبد القادر بدران، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ط ٢، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩م.
- عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في النقد الشعري، دراسة في النظرية والتطبيق، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٨٤م.
- عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م.
- عبد الله بن الزبير الأسدي، ديوانه، جمع وتحقيق يحيى الجبوري، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٤م.
- عبد الله عفيفي، المرأة في جاهليتها وإسلامها، ط ٢، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٢م.
- عبد الله بن معاوية، شعره، جمع عبد الحميد الراضي، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٦م.
- عبد الملك بن حبيب، كتاب أدب النساء، الموسوم بكتاب الغاية والنهاية، تحقيق عبد المجيد تركي، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م.

- عبده غالب عيسى، لطائف النساء، ط١، دار الجيل بيروت، ١٩٨٧م.
- عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوانه، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر بيروت، ١٩٧٠م.
- العرجي، ديوانه، شرح وتحقيق خضر الطائي ورشيد العبيدي، الشركة الإسلامية للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٥٦م.
- عروة بن أذينة، ديوانه، تحقيق يحيى الجبوري، ط٢، دار القلم، الكويت، ١٩٨١م.
- عزمي الصالح، الشاعر الخارجي الطرماح بن حكيم الطائي، مطبعة الاقتصاد، بغداد، ١٩٧١م.
- ابن عساكر، الحافظ أبو القاسم، علي بن الحسن هبة الله الشافعي، تاريخ مدينة دمشق، (تراجم النساء)، تحقيق سكينه الشهابي، دار الفكر، سوريا، ١٩٨٢م.
- عمر بن أبي ربيعة، شرح ديوانه، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الأندلس، بيروت، د.ت.
- عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ط٢، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٨م.
- عمر بن لجأ التيمي، ديوانه، تحقيق يحيى الجبوري، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٦م.
- عوف محمود الكفراوي، سياسة الإنفاق العام في الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢م.
- عون الشريف قاسم، شعر البصرة في العصر الأموي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢م.
- فايد العمروسي، الجواري والمغنيات، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م.
- الفرزدق، ديوانه، تحقيق علي فاعور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
- فلهوزن، يوليوس، تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريذة، ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨م.
- ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٢هـ.
- القالي، أبو إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الأمال، مراجعة لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديد، ط٢، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٧م.
- القتال الكلابي، ديوانه، تحقيق، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦١م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، عيون الأخبار، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة العامة للتأليف والطباعة والنشر، ١٩٧٣م.

- القرطبي، أبو عمر يوسف القرطبي، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذاهن والهاجس، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتاب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.
- القطامي، ديوانه، تحقيق إبراهيم السامرائي، أحمد مطلوب، ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٠م.
- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.
- قيس بن الخطيم، ديوانه، تحقيق ناصر الدين الأسد، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.
- كثير عزة، ديوانه، جمع وشرح إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١م.
- كرم البستاني، النساء العربيات، ط٢، دار نظير عبود، لبنان، ١٩٨٨م.
- الكميت بن زيد الأسدي، ديوانه، جمع وتحقيق داود وسلوم، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٩م.
- الكميت بن زيد الأسدي، هاشميات الكميت، شرح محمد محمود الرافعي، ط٢، مطبعة شركة التمرن الصناعية القاهرة، د.ت.
- ليلي الأخيلية، ديوانها، جمع وتحقيق خليل إبراهيم العطية، وجليل العطية، دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٧م.
- ابن ماجة، الحافظ أبو عبد الله المعروف بابن ماجة، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٥م.
- ماسينيون، لويس، خطط الكوفة وشرح خريطتها، ترجمة محمد المصعبي، تحقيق كامل سلمان الجبوري، ط١، النجف الأشرف، ١٩٧٩م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، أخبار الخوارج من كتاب الكامل، دار الفکر، دمشق، د.ت.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبسو الفضل إبراهيم والسيد شحاته، دار نهضة مصر، د.ت.
- المتوكل اللبني، ديوانه، تحقيق يحيى الجبوري، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٧٢م.
- مجنون ليلي، ديوانه، شرح يوسف فرحات، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٢م.
- محمد جاسم حمادي، الجزيرة الفراتية والموصل، دار الرسالة للطباعة، بغداد، ١٩٧٢م.
- محمد الطيب النجار، الموالي في العصر الأموي، ط١، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٤٩م.
- محمود شاكر، شبه الجزيرة العرب (نجد)، المكتبة الإسلامية، دمشق، ١٩٧٦م.

- المخزومي، الحارث بن خالد المخزومي، ديوانه، تحقيق: يحيى الجبوري، ط١، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، العراق، ١٩٧٢م.
- المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، أشعار النساء، حققه وقدم له سامي مكي العاني، دار الرسالة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٧٦م.
- المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، معجم الشعراء، المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء، تصحيح وتعليق ف. كرنكو، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.
- المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.
- مزاحم العقيلي، شعره، تحقيق نوري حمودي القيسي وحاتم الضامن، نشر مجلة معهد المخطوطات، القاهرة المجلد الثاني والعشرون، أيار، ١٩٧٦م.
- المسعودي، علي بن الحسين، التنبيه والإشراف، صححه وراجعاه عبد الله إسماعيل الصاوي، المكتبة العصرية، بغداد، ١٩٣٨م.
- المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط١، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٥م.
- مسكين الدارمي، ديوانه، جمع تحقيق، عبد الله الجبوري و خليل إبراهيم العطية، ط١، مطبعة دار البصري، بغداد، ١٩٧٠م.
- مصطفى عبد الواحد، دراسة الحب في الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢م.
- ابن مفرغ، يزيد بن مفرغ الحميري، ديوانه، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥م.
- المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تعليق غازي طليمات، دمشق، ١٩٨٠م.
- ابن منظور، أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٣٠٠هـ.
- مهدية شحادة الزميل، لباس المرأة وزينتها في الفقه الإسلامي، ط٣، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٧م.
- المؤمل المحاربي، حياته، وما تبقى من شعره، جمع وتحقيق حنا جميل حداد، نشر، بمجلة المورد، المجلد السابع عشر العدد الأول، ربيع، ١٩٨٨م.
- موسى خليل سليمان، الحب العذري، ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٤م.

- ابن ميادة، ديوانه، جمع وتحقيق حنا جميل حداد، مطبوعات مجمع اللغة العربية، بدمشق، ١٩٨٢م.
- النابغة الجعدي، ديوانه، إعداد عبد العزيز رباح، ط١، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٦٤م.
- النابغة الشيباني، ديوانه، تحقيق عبد الكريم إبراهيم يعقوب، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٨٧م.
- ناصر الدين الأسد، القيان والغناء في العصر الجاهلي، ط٣، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.
- نبال تيسير خماش، شعر الخلفاء في العصر الراشدي والأموي، عمان، ١٩٨٤م.
- نجدة خماش، الشام في صدر الإسلام، ط١، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧م.
- نصيب بن رباح، ديوانه، جمع وتقديم داود سلوم، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٦٨م.
- نعمات أحمد فؤاد، المرأة في شعر البحتري، سلسلة إقرأ، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢م.
- النعمان بن بشير الأنصاري، ديوانه، تحقيق، وتقديم يحيى الجبوري، ط١، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م.
- النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامي في صدر الإسلام، د.ت.
- نوري حمودي القيسي، شعراء أمويون، ط٣، العراق، ١٩٨٢م.
- هذبة بن خشرم العذري، ديوانه، جمع وتحقيق يحيى الجبوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٦م.
- أبو الهندي، ديوانه وأخباره، تصنيف عبد الله الجبوري، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، بغداد، ١٩٦٩م.
- واجدة الأطرقجي، المرأة في أدب العصر العباسي، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨١م.
- الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، مغازي، رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق مارسدن جونز، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، د.ت.
- وضاح اليمن، حياته وما تبقى من شعره، صنعة حنا جميل حداد، نشر في مجلة المسورد، العراق، المجلد الثالث عشر، عدد ٢، ١٩٨٤م.
- الوليد بن يزيد، شعره، تحقيق حسين عطوان، ط١، مكتبة الاقصى، المطبعة الاقتصادية، عمان، ١٩٧٩م.
- وليم نقولا شقير، العرجي وشعر الغزل في العصر الأموي، ط١، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٦م.

- ياقوت، ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم الأدباء، ط٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠م.
- ياقوت، ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.
- يحيى بن آدم القرشي، كتاب الخراج، صححه وشرحه الشيخ أحمد محمد شاكر، ط٢، المطبعة السلفية، ١٣٨٤هـ.
- اليشكري، سويد بن أبي كاهل اليشكري، ديوانه، تحقيق شاكراً العاشور، مراجعة أحمد جبار المعبيد، ط١، دار الطباعة الحديثة، ١٩٧٢م.
- يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، شعره، جمع وتحقيق، صلاح الدين المنجد، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٢م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، تحقيق صادق آل بحر العلوم، ط٤، منشورات الحيدرية، النجف، ١٩٧٤م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، كتاب البلدان، غير محقق نشر مزيلاً بكتاب الأعلام النفيسة لابن رسته، لندن، ١٨٩١م.
- أبو يوسف، القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، الخراج، ط٤، المطبعة السلفية القاهرة، ١٣٩٢هـ.
- يوسف بكار، اتجاهات الغزل في القرن الثاني للهجرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.
- يوسف خليف، الحب المثالي عند العرب، سلسلة إقرأ، دار المعارف القاهرة ١٩٦١م.
- يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة في القرن الثاني للهجرة، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٨م.
- يوسف خليف، ذو الرمة شاعر الحب والصحراء، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م.
- يوسف عبيد، ديوان العذريين، جميل بن معمر، قيس بن الملوح، قيس بن ذريح، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.

الدوريات

- شيفر، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وآخرين، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٩م، ٤١-٤٧.
- عبد القادر الرباعي، التشبيه الدائري في الشعر الجاهلي، دراسة في الصورة، المجلة العربية

للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، الكويت، المجلد الخامس، العدد السابع عشر، ١٩٨٥م،

٤٥٧٩٠٠

١٥٣-١٢٤.

- محمد عبد القادر خريسات، عشور التجارة في الجاهلية وصدر الإسلام حتى نهاية القرن الأول الهجري، مجلة دراسات الجامعة الأردنية، الجامعة الأردنية، عمان المجلد الخامس عشر، العدد السابع، ١٩٨٨م، ٣٩-١٨.
- محمد عبد القادر خريسات، القطائع في صدر الإسلام، دراسات تاريخية، دمشق، ٢٧-٢٨، أيلول-كانون الأول، ١٩٨٧م، ٩٨-٦٧.
- القطائع في العصر الأموي، دراسات الجامعة الأردنية، الجامعة الأردنية-عمان، المجلد السادس عشر، العدد الثالث، ١٩٨٩م، ٦٢-٣٠.
- نجد خماش، عناصر السكان، توزيعهم وتكوينهم الاجتماعي في الشام في صدر الإسلام، مجلة دراسات الجامعة الأردنية، عمان المجلد الرابع عشر، العدد العاشر، ١٩٨٧م، ٩٣-٧٠.

الرسائل غير المنشورة

- أمل طاهر نصير، الأسرة في شعر العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد ١٩٨٧م.
- عمر عبد السلطان المومني، المظاهر الحضارية، عند شعراء الغزل في العصر الأموي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، ١٩٨٨م.
- مها المبيضين، ليلي الأخيالية، حياتها وشعرها، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٩٩٣م.
- نجوى نجيب عنبأوي، صورة المرأة عند شعراء المعلقات، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٩٨٨م.

ABSTRACT

Portrait of woman as Depicted in the Diwans of celebrated poets
of Umayyad period.

Amal Taher Nusair
supervised by
Prof. D.r. Hashim Yaghi

This study investigates the portrait of woman as depicted in the diwans of the celebrated poets of the Umayyad period, and in the works of some anthologists and historians. It consists of preface, five chapters and conclusion.

In the preface, the study touches on the environments of poetry regarding their sources of income, population, social life, and production of poetry.

Chapter I tries to clarify the bodily and moral characteristics preferred in woman, and the cosmetics she used for her beautification.

Chapter II deals with the differences between the geographical environments regarding the status of woman and her role their.

Chapter III is on the woman in her narrow environment, i.e. Within her family as wife, mother, daughter, or sister. It sheds some light on her relations and interrelations either cooperative and mutual or strained.

The study examines in chapter IV the role of woman regarding the cultural aspect; especially the role of slave girls and songstress in the social relations and the development of singing. Likewise, the chapter brings out efforts made by some poetess and critics.

Chapter V is devoted to studying the woman in the political frame of that time. It concentrates on the political-love poetry wherein woman is assumed as means to satirizing political opponents. The chapter then demonstrates the various political thoughts of some women; especially those of the kharijites who participated in some revolts against the Umayyad dynasty.

Finally, the main points reached have been summarized in the conclusion.